العقل والعاطفة

تأليف
جين أوستن



ترجمة : أمين الشريف

راجعه : مصطفى حبيب

الألف كتاب (٥١٠)

العقل والعاطفة

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

الألف كتاب

العقل والعاطفة

تأليف

جين أوستن

ترجمة

أمين الشريف

مراجعة

مصطفى حبيب

هذه ترجمة كتاب :

Sense and Sensibility

تأليف :

Jane Austen

الفصل الأول

لقد ظل آلُ داشوود يقيمون زمناً طويلاً فى مقاطعة سسكس ، ولهم فيها ضيعة كبيرة . وكانوا يقيمون فى قصر نورلاند بارك الذى يتوسَّطُ أملاكهم حيث ظلوا يحيَوْن — أجيالاً طوالاً — حياةً جـديرةً بالاحترام أ كسبتهم تقديرَ جيرانهم . وكان صاحب هذه الضيعة الراحل رجلاً أعزبَ قد طعن فى السن ، وكانت أخته هى التى تُؤْنس وحدتَه ، وتدبّر منزله خلال عدة سنوات من حياته ، ولـكنَّ الموتَ أعجلها دونه بعشر سنوات، فأحدثت وفاتها تغييراً كبيراً فى حياته المنزلية ، إذْ أراد أن يعوض ما خسره بفقدها ، فدعا إلى قصره ابنَ أخيه ، مستر هنرى داشوود ، الوريثَ الشرعيَّ لضيعة نورلاند ، والرجلَ الذى اعتزم هو أن يوصى له بالضيعة . وقضى الشيخ الـكبير أيامه الباقية ينعم بالراحة والهدوء فى كَنَف ابن أخيه وزوجته وأطفالها ، وزادت محبته لهم جميعاً إذ كان مستر هنرى داشوود وزوجته يهتمان دائماً بتلبية رغباته ، لما فُطِرا عليه من طيبة القلب ، لا لاهتمامهما بأمره فحسب ، فوفرا بذلك للشيخ الـكبير جميع وسائل الراحة اللائقة بسنه ، وزاده حباً فى الحياة ما كان يراه من بشاشة الأطفال وابتهاجهم .

وكان لمستر هنرى داشوود ولدٌ واحدٌ رزق به من زوجته السابقة ،وثلاثُ بنات من زوجته الحالية . وكان الولد شابا رزيناً مُبَجّلا ، تركت له أمه ، وكانت ذات ثروة كبيرة ، مبلغاً كبيراً من المال . وآل إليه نصفُ هذا المبلغ عند ما بلغ سن الرُّشد ، ثم مالبث أن تزوج ، فزاد هذا الزواج من ثروته أيضاً

ولذلك فإن إرثه لضيعة نورلاند لم يكن يهمه فى الواقع بقـدر ما كان يهم أخواته البنات ؛ لأن ثروتهن كانت ضئيلة بصرف النظر عما يؤول إليهن من إرث أبيهن لهذه الضيعة . وكانت أمهن لا تملك شيئاً ؛ أما أبوهن فلا يملك إلا سبعة آلاف جنيه ؛ لأن النصف الباقى من مال زوجته الأولى كان وقفاً على ابنها ؛ وليس لزوجها إلا حقُّ الانتفاع به حالَ حياته .

ثم توفى الشيخ الـكبير ، وتُليت وصيته ، فأحدثت من خيبة الأمل مثلَ ما أحدثت من الرضا ، شأنها فى ذلك شأن أى وصية أخرى . ولم يكن الرجل ظالماً ولا جاحداً المعروف بحيث يحرم ابن أخيه من الضيعة ، ولـكنه قيدها بشروط ذهبت بنصف قيمتها . وكان مستر داشوود يطمع فى الضيعة حرصاً على مصلحة زوجته وبناته ، أكثر منه على مصلحته هو أو مصلحة ابنه -- ولـكن الشيخ الـكبير أوصى بها لابنه و ابن ابنه البالغ من العمر أربع سنوات ، على نحو جعله عاجزاً عن توفير أسباب الحياة الـكريمة لأحب الناس إليه ، وأحوجهن إلى المال سواء بأن يكون لهن أى حق على العقار ، أو الانتفاع ببيع أشجاره الثمينة ، فوُهِبَتْ الضيعةُ بحذافيرها لهذا الطفل الذى استمال قلب عمه أثناء الزيارات التى قام بها أبواه إلى نورلاند بين الفينة والفينة بفضل الشمائل الحلوة التى يزدان بها الأطفال ممن تتراوح أعمارهم بين سنتين وثلاث كالعجز عن سلامة النطق ، والإصرار على تنفيذ رغباتهم ، وحيلهم الما كرة الـكثيرة ، وضجيجهم الـكبير ، حتى لقد نسى الشيخ الـكبير ضروب الرعاية التى لقيها عدة سنوات من زوجة ابن أخيه وبناتها الثلاث ، على أنه لم

يخشى أن يَثْنى عنهن عِطْف رحمته فأوصى لكل بنت منهن بألف جنيه ، دليلاً على محبته لهن .

وكانت خيبة أمل مستر داشوود شديدة فى بداية الأمر ؛ ولكنه كان رجلاً مرحا متفائلاً بطبعه ؛ يأمل أن يعيش عدة سنوات ؛ ويقتصد فى المعيشة وبذلك يدخر مبلغاً من المال لا يستهان به من ريع ضيعة كبيرة قابلة للاستصلاح العاجل ، ولكن الثروة التى جاءت متأخرة لم يزد عمرها على سنة هى التى عاشها بعد عمه . وكان كل ما تركه لأرملته وبناته هو عشرة آلاف جنيه بما فى ذلك الميراث الذى آل إليه أخيراً .

ولما حضر مستر داشوود الموتُ ، استدعى ابنه فأوصاه بكل ما سمح به المرض من قوة وإلحاح ، بزوجة أبيه وأخواته .

ولم يكن مستر جون داشوود يتصف بما يتصف به بقية أفراد الأسرة من قوة العاطفة ، ولكنه تأثر بهذه الوصية التى صدرت إليه فى مثل هذا الوقت فوعد أباه أن يبذل كل ما فى وسعه لتوفير الحياة الرغيدة لهن ؛ فاطمأن بالُ أبيه لهذا الوعد . وكان أمام مستر جون داشوود فسحةٌ من الوقت يتدبر فيها ما يستطيع أن يُسْديه لهن .

لم يكن جون داشوود شابا سيء الطوية اللهم إلا إذا كان فتور العاطفة والميل إلى الأنانية دليلاً على سوء الطوية . ولكنه كان شابا مبجلا بوجه عام ، إذ كان يحافظ على الآداب المرعية فى أداء واجباته العادية . ولو أنه تزوج امرأةً أحبَّ إلى الناس من امرأته لكان من الجائز أن يظفر بقدر أكبر من احترامهم بل من حبهم ؛ وذلك لأنه تزوج فى حداثته وكان

شديد الكلف بزوجته ، ولكن مسز جون داشوود كانت أشبه الناس به ، إلا أنها تفوقه فى ضيق الأفق والأنانية .

ولما وعد أباه بمساعدة أخواته نوى فى دخيلة نفسه أن يزيد ثروتهن بأن يهب كلا منهن ألف جنيه . وكان يعتقد حينئذ أن فى وسعه أن يعطيهن هذا القدر من المال. ومما ملأ قلبه بالحنان والعطف وأشعره بالقدرة على السخاء والبذل أنه كان يأمل فى الحصول على أربعة آلاف جنيه فى العام بالإضافة إلى دخله الحالى ، وذلك علاوة على الشطر الباقى من مال أمه . وكان يحدث نفسه طوال هذا اليوم ، ولعدة أيام متواليات دون أن يشعر بشىء من الندم — « نعم ، سأعطيهن ثلاثة آلاف جنيه : إنه مبلغ سخى وكبير ! يكفى لتوفير أسباب الرغد والرفاهية لهن . ثلاثة آلاف جنيه ! إنه يستطيع أن يوفر ذلك المبلغ دون كبير عناء » .

وما إن شُيِّعت جنازةُ أبيه ، حتى قدمت زوجته بأولادها وخدمها إلى القصر دون أن ترسل إلى حماتها أى إخطار بعزمها على الحضور . ولم يكن فى وسع أحد أن ينازعها الحقَّ فى الحضور ، فالبيت أصبح بيت زوجها منذ اللحظة التى توفى فيها أبوه ، ولكن هذا التصرف كان مجافياً للذوق والأدب ، وأدعى إلى إثارة امرأة فى مثل موقف مسز داشوود التى تتصف بجفوة الطباع ولكنها شديدة الإحساس بالكرامة والنخوة إلى حد أن أى اعتداء عليهما — بصرف النظر عن المعتدِى والمعتدَى عليه — يثير فى نفسها أشد الامتعاض والاشمئزاز .

ولم تظفر مسز جون داشوود قط بمحبة أى فرد من أسرة زوجها ، ولم يسبق أن تهيأت لها الفرصة ، كما تهيأت لها الآن لتثبت لهن عدم مبالاتها براحة غيرها من الناس حينما تتطلب الظروف ذلك .

وقد بلغ من استياء مسز داشوود لهذا المسلك غير الكريم واحتقارها الشديد لزوجة ربيبها ، أنها همّت بمغادرة المنزل إلى غير رجعة عند قدومها ، لولا أن بنتها الكبرى حملتها على التريث فى الأمر ، لما فى ذلك من مجافاة للذوق ، ثم تغلبت عليها عاطفةُ الحنان والحب لبناتها الثلاث ، فقررت البقاء وتجنب أسباب القطيعة بينهن وبين أخيهن ، حرصاً على مصلحتهن .

وكانت إلينور — هذه البنت الكبرى التى كان لنصحيتها أثر فعال — تزدان بقوة الفهم ، ورصانة الرأى ، مما أهّلها — وإن لم يزد عمرها على تسعة عشر ربيعا — لأن تكون الناصحة الأمينة لأمها ، ومكّنها فى أغلب الحالات من أن تُلطِّف — لمصلحتهن جميعا — من حِدة أمها . ولولا ذلك لأدت هذه الحدة والحمية إلى التهور والحماقة. وكانت إلينور طيبة القلب ، مطبوعة على الحنان قويةَ العاطفة ولكنها كانت تعرف كيف تتحكم فى هذه العاطفة ، وهى خَصلة كانت أمها فى حاجة إلى تعلمها ، وإحدى أختيها تأبى أن تتعلمها .

كانت خصال مَريان تماثل خصال إلينور فى كثير من الوجوه ، فكانت تزدان بالعقل والذكاء ولكنها تذهب إلى حد الإفراط فى كل شىء لا تعرف الاعتدال فى أفراحها وأتراحها . كانت كريمة ومحبوبة وأنيسة . اجتمعت فيها كل الخصال الحميدة إلا الحكمة ، لقد كان وجه الشبه بينها وبين أمها قويا إلى حد يلفت النظر .

نظرت إلينور بعين القلق إلى ما اتصفت به أختها من فرط العاطفة ، ولكن أمها قدرت فيها هذه الخصلة ، وأخذت كل منهما تشجع الأخرى على التهويل من مصابهما ، وتجددان طوعاً غمرة الأحزان التى استولت عليهما فى بادىء الأمر ، وتتلمسان أسبابها وتؤججان أوارها حينا بعد حين ، وأسلمت كل منهما قيادها للأحزان

واسترسلت فى الأفـكار التى تثير الأشجان ، وقطعت الأمل فى التماس أى عزاء فى المستقبل و كانت إلينور هى الأخرى تتجرع غصص الآلام ، ولـكنها استطاعت أن تجاهد نفسها وتتجلد ، ، وتوطن نفسها على الصبر فشاورت أخاها واستقبلت زوجة أخيها عند قدومها ، وعاملتها بما يليق بها من لطف ورعاية ، واستطاعت أن تحمل أمها على إبداء مثل هذا التجلد ، وشجعتها على إظهار ماأظهرته هى من الحلم والصبر .

أما مرجريت ـ الأخت الصغرى ـ فـكانت فتاة منشرحة الصدر ، طيبة القلب ، ولـكنها تشبعت بـكثير مما تتصف به مريان من قوة العاطفة دون أن تتحلى بما تتحلى به من وفرة العقل ، ولذلك لم تكن تُبشِّر وهى فى الثالثة عشرة بأن تضارع أختيها حينما تتقدم بها السن .

الفصل الثاني

أصبحت الآن مسز جون داشوود هى ربة البيت ، وحماتها وأخوات زوجها بمنزلة الضيوف . ومع ذلك عاملتهن – بهذا الاعتبار – بأدب ولطف ، وأظهر لهن زوجها من العطف مايظهره لأى شخص آخر خلاف نفسه وزوجته وولده . والواقع أنه طلب إليهن – فى شىء من الإلحاح – أن يعتبرن نورلاند منزلهن ، فقبلن هذه الدعوة لأنه لم يكن أمام مسز داشوود إلا البقاء حتى يتسنى لها العثور على منزل مجاور .

وكان البقاءُ فى المنزل الذى يذكرها فيه كل شىء بنعيمها السابق ، هو الأمر الذى يوافق هواها تماماً . ولم يكن أحد فى وقت البهجة والحبور أشدَّ من مسز داشوود بهجةً وحبوراً ولا أكثر منها تعلقا بالأمل فى السعادة الذى هو السعادة نفسها . لكنها فى أوقات الحزن كانت تنساق وراء الخيال كذلك ، وتتمادى فيه إلى حد يعز معه العزاء والسلوان ، كما كانت تنسى جميع الأحزان فى أوقات السرور .

لم توافق مسز جون داشوود إطلاقا على كل ما اعتزم زوجها أن يقدمه لأخواته لأنها رأت أن إعطاءهن ثلاثة آلاف جنيه من مال طفلها الصغير جدير أن يُلقى به فى مَهْواة الفقر ، فطلبت إلى زوجها أن يعيد النظر فى الأمر وتساءلت : كيف تُسَوِّل له نفسه أن يسلب ولده – ولده الوحيد أيضاً – هذا المبلغ الكبير ! و بأى حق تطالبه بنات داشوود أن يتبرع لهن بمثل هذا المبلغ الكبير ولا صلة تربطه بهن إلا أنهن أخواته غير الشقيقات ، وهى صلة لاتعد قرابة على الإطلاق

والمعروف جيداً أن الحب مفقود بين الإخوة غير الأشقاء . وأى داع لأن يجلب الخراب على نفسه وعلى طفلهما الصغير هارى ، فيتبرع بماله كله لأخواته غير الشقيقات ؟

فأجاب زوجها « لقد كان آخر طلب تقدم به أبى إلىّ أن أساعد أرملته وبناته » .

« أؤكد لك أن أباك لم يكن يعى ما يقول،وأراهن أنه كان يهذى فى ذلك الحين . ولو كان فى وَعْيِه لما خطر بباله أن يلتمس منك التبرع بنصف مالك على حساب ولدك » .

« إنه لم يشترط مبلغاً معيناً يا عزيزتى فانى . وكل ما قاله أنه طلب بعبارات عامة أن أساعدهن ، وأن أجعلهن أحسن حالاً مما كن عليه فى حال حياته . وربما كان يحسن أن يترك لى الأمرَ كلَّه ، لأنه لم يَدُر بخَلَده أنى أهمل شأنهن . ولكنه طلب إلى أن أعده بمساعدتهن ، فلم يسعنى أن أرفض طلبه ، أو على الأقل هذا ما بدا لى فى ذلك الحين . فأعطيته الوعدَ على ذلك ، ولا بد لى من الوفاء بوعدى ، وتقديم بعض العون لهن عندما يغادرن نورلاند ، ويقمن فى منزل جديد .

« لا بأس حينئذ بأن تقدم لهن بعض العون ، ولكن هذا البعض لا يلزم أن يكون ثلاثة آلاف جنيه » واستطردت قائلة « تذكر أن المال متى خرج من يديك ، فلا يمكن أن يعود إليك . إن أخواتك سيتزوجن وسيذهب المال الذى تعطيهن إلى غير رجعة . وَدِدْتُ لو عاد هذا المال يوما ما لولدنا الصغير المسكين » .

فقال زوجها بلهجة الجد « حقاً إن لهذا أهميته الكبرى ، فقد يأتى الوقت الذى يأسف فيه هارى على ضياع هذا المبلغ الكبير . وإذا كثر أفراد أسرته مثلاً ، كان هذا المبلغ عوناً له على سد حاجته » .

« لا ريب فى ذلك » .

« إذنْ ربما كان من المستحسن لصالح الجميع أن يخفض المبلغ إلى النصف وأعتقد أن خمسمائة جنيه تزيد ثروتهن زيادة هائلة » .

« كلا ! بل أكثر من هائلة ! أىُّ أخٍ على وجه الأرض يعطى أخواته نصف هذا القدر ، حتى ولو كن أخواته حقاً ! فما بالك إذا كن نصف أخوات كما هى الحال فى قضيتك ! ولكن يالك من رجلٍ سخى اليدين ! »

فأجاب « إننى لا أريد أن آتى عملا دنيئا ، لأنه خير للمرء فى مثل هذه الأحوال ، أن يكون فى جانب الإفراط من أن يكون فى جانب التفريط ، فأنا لا أريد أن يقول أحد — على الأقل — إننى لم أعطهن مافيه الكفاية . بل لا أريدهن أنفسهن أن يتوقعن أكثر مما أعطيهن » .

فقالت السيدة « لا سبيل لمعرفة ما قد يتوقعنه . ولكنه ليس علينا أن نفكر فيما يتوقعنه إذ المهم هو ما تستطيع أنت أن تعطيهن » .

« يقيناً — وأنا أعتقد أنه فى وسعى أن أعطى كل واحدة منهن خمسمائة جنيه والواقع أن كلا منهن سيكون لديها أكثر من ثلاثة آلاف جنيه بعد وفاة أمهن وذلك بدون أن أعطيهن شيئا — وهذا مبلغ كاف جدا لأى فتاة صغيرة » .

« لا ريب أنه كاف جدا . والواقع أنه يبدو لى أنهن لسن بحاجة إلى المزيد لأنه سيكون لديهن عشرة آلاف جنيه موزعة بينهن ، فإذا تزوجن كان فى هذا المبلغ غناء لهن ، وإذا لم يتزوجن أمكن أن يعشن معا فى سعة على فوائد عشرة الآلاف جنيه » .

« حق ما تقولين . ولذلك لا أدرى هل يكون من الأفضل على وجه العموم أن أرتب لأمهن لا لهن مبلغا من المال فى حال حياتها — أريد مبلغاً أشبه بمعاش سنوى — ولا شك أن هذا المعاش سيعود على إخوتى بالنفع كما يعود على أمهن . وأعتقد أن مائة جنيه فى العام توفر لهن جميعا أسباب الحياة الرغيدة » .

على أن زوجته ترددت قليلا قبل أن تبدى موافقتها على هذا الرأى .

ثم قالت : « حقا إن ذلك أفضل من دفع خمسمائة جنيه فى الحال . ولكن — من جهة أخرى — إذا امتد الأجل بمسز داشوود خمس عشرة سنة عاد ذلك علينا بالغرم » .

« خمس عشرة سنة ! عزيزتى فانى ؛ لا يمكن أن تعيش نصف هذه المدة » .

« نعم ! ولكنك إذا أنعمت النظر رأيت الناس يعيشون إلى الأبد متى رتبت لهم معاشا سنويا . ثم هى قوية البنية ، جيدة الصحة ، لم تبلغ الأربعين . إن المعاش السنوى شأنه عظيم لأنه يتكرر كل عام ، ولا سبيل للخلاص منه . وأنت لا تدرى ما أنت فاعله ، فأنا أعرف الشىء الكثير من متاعب المعاشات السنوية لأن أمى كانت ملزمة بموجب وصية أبى بدفع معاش سنوى لثلاثة من الخدم المتقاعدين . وقد تدهش إذا علمت أنها لقيت الأمرّين من هذا الأمر ،

إذ كانت هذه المعاشات تُدفع مرتين فى العام ثم تأتى مشكلة توصيل هذه المعاشات إليهم ثم قيل إن أحدهم توفى ، وتبين أن شيئا من هذا لم يحدث ، حتى لقد ضاقت أمى ذَرْعاً بالأمر ، وكانت تقول: إن دخلها ليس ملكا لها إزاء هذه المطالب التى لا تنتهى ؛ ومما يزيد فى قسوة العمل الذى أوصى به أبى أنه لولا ذلك لاستطاعت أمى أن تكون حرة التصرف فى مالها . والواقع أن هذا الحادث جعلنى أمقت المعاشات السنوية إلى حد لا أطيق معه أن أرتبط بدفع أى معاش سنوى لأى سبب من الأسباب » .

فأجاب مستر داشوود « لا ريب أن هذه الالتزامات التى تستنزف دخل المرء فى كل عام أمر ممقوت. فمال الإنسان ـ كما قالت أمك بحق ـ ليس ملكا له ، وارتباطه بدفع مثل هذه المبالغ بصفة منتظمة فى موعد دفع الإيجار ، أمر غير مرغوب فيه على الإطلاق . إنه يسلب المرء ثروته » .

« بلا ريب ! ثم لا حمد ولا شكر فى نهاية الأمر ! فإنهن آمنات ، وأنت لا تفعل أكثر مما ينتظرنه منك ، فلا وجه للشكر . ولو كنت فى مكانك لتصرفت فى الأمر بحسب تقديرى الشخصى تماما ، ولما التزمت بدفع أى مبلغ سنوى ، فقد يتعذر عليك فى بعض السنين أن توفر مائة جنيه بل خمسين جنيها من نفقاتنا » .

« أعتقد أنك على حق فيما تقولين يا حبيبتى . من الأفضل ألا نرتبط بأى معاش . سيجدن فى كل ما يمكن أن أعطيه لهن من حين إلى آخر عونا أكبر بكثير من المعاش السنوى لأنهن إذا تأكدن من زيادة دخلهن توسعن فى معيشتهن

ولن تزيد ثروتهن شروى نقير فى نهاية العام ، وستكون هذه الطريقة المثلى بلا ريب . وإهداؤهن خمسين جنيها من وقت إلى آخر سيحول دون شعورهن بأى ضائقة مالية ، وسيكون فيه كما أعتقد وفاء كبير بوعدى لأبى » .

« لا ريب فى ذلك . والحق أنى أعتقد فى قرارة نفسى أن أباك لم يفكر قط فى أن يعطيهن شيئا من المال على الإطلاق . ولعل المساعدة التى فكر فيها هى أن تعاونهن بما تقدر عليه فى حدود المعقول ، كأن تبحث لهم عن بيت صغير مريح وتساعدهن على نقل أمتعتهن إليه ، وترسل لهن بعض الهدايا من السمك والصيد فى الوقت المناسب إلى غير ذلك . وأراهن أن أباك لم يقصد أكثر من ذلك . والواقع أنه لو قصد غير ذلك لكان أمراً غريباً ومنافيا للعقل . تأمل يا عزيزى مستر داشوود كم تستطيع زوجة أبيك وبناتها أن يعشن فى رغد على فائدة سبعة آلاف جنيه فضلا عن الألف الجنيه التى تملكها كل بنت من بناتها والتى تدر فائدة قدرها خمسون جنيها على كل منهن ، وبالطبع سيدفعن لأمهن منها نفقة طعامهن . وجملة الفوائد التى ستعود عليهن هى خمسمائة جنيه فى العام موزعة بينهن . بربك حدثنى ماذا يطلب أربع نساء أكثر من ذلك ؟ إن المعيشة لن تكلفهن شيئا ! سيعشن حياة رخيصة ! تدبير المنزل لن يكلفهن شيئا . لن يحتجن إلى عربة ولا إلى جياد بل ولا أى خادم . ولن يجدن كثيرا من الصديقات ولن يتجشمن نفقات من أى نوع ! تأمل كم سيعشن فى بلهنية من العيش ! خمسمائة جنيه فى العام ! أنا لا أدرى فيم ينفقن نصف هذا المبلغ . ومن السخف أن تفكر فى أن تعطيهن أكثر من ذلك . إنهن سيكن أقدر على أن يعطينك أنت شيئا »

قال مستر داشوود « أقسم لك بشرفي أنني أعتقد أنك على حق فيما تقولين . إن أبي لا يمكن أن يعني بما طلبه أكثر مما تقولين . وأنا أفهم ذلك الآن بوضوح وجلاء . وسأفي بوعدي لأبي بأن أسدي لهن من العون والمعروف مثل ماذكرت . وحينما تنتقل زوجة أبي إلى منزل آخر سأبذل جهدي في نقل متاعها بقدر ما أستطيع . وربما أهديتها بعض قطع صغيرة من الأثاث فتقع لديها موقع القبول » .

فأجابت مسز داشوود « يقينا ولكنّ هناك أمراً واحدا جديراً بالنظر وهو أنه عندما انتقل أبوك وزوجته إلى نورلاند احتفظا — مع بيعهما أثاث ستانلد هل — بجميع الأواني الصينية والأطباق ، والبياضات ، وآل كل ذلك لزوجة أبيك الآن . ولذلك سيكون بيتها كامل الأثاث والأدوات عندما تأخذ هذه الأشياء معها » .

« لا شك أن هذا أمر له أهميته ، وميراث له قيمته ! وأعتقد أننا بحاجة إلى بعض هذه الأطباق لتزيد من جمال ماعندنا منها » .

« أجل وطقم الأواني الصينية الخاصة بوجبة الإفطار يبلغ جماله ضعف جمال بقية الأطباق في ذلك البيت . بل هي أجمل في نظري من أن يصلح لها أي بيت يقمن فيه . ولكن هكذا كان . إن أباك لم يفكر إلا فيهن . وأرى لزاماً عليّ أن أقول لك هذا : لست مَدينا له بالشكر ، ولا ملزما بتلبية رغباته ، لأننا نعلم حق العلم أنه لو استطاع لوهب لهن سائر الأشياء في العالم » .

وكانت هذه الحجة حجةً مفحمة ، قطعت الشك باليقين ، فقر رأيه نهائيا على أنه لا داعي إطلاقا إن لم يكن من المعيب ، أن يسدي يداً لأرملة أبيه و بناته ، اللهم إلا ما أشارت به زوجته من رعاية حق الجوار .

الفصل الثالث

بقيت مسز داشوود فى نورلاند عدة شهور ، لا لأنها كانت تكره الانتقال عند ما يزول من نفسها أثر الانفعالات الشديدة التى تثيرها فى نفسها مؤقتاً مشاهدة المعالم التى تعرفها جيدا ، فقد كانت — حين يشيع فى نفسها السرور ، و ينصرف ذهنها عن التفكير فى الذكريات الحزينة التى تضاعف من آلامها — تتوق إلى الانتقال من البيت ، وتجدُّ فى البحث عن مسكن لائق فى جوار نورلاند ، لأنها لم تكن تطيق الإقامة بعيداً عن هذا المنزل المحبوب . ولكنها لم تعثر على منزل يتوافر فيه ما تصبو إليه من الراحة والسعة ، و يتفق فى الوقت نفسه مع حكمة بنتها الكبرى التى رفضت برأيها الحصيف عدة منازل كان يمكن أن تلقى قبولا لدى أمها ، بحجة أن هذه المنازل أوسع من أن يحتملها دخلهن .

وكانت مسز داشوود قد علمت من زوجها بالوعد القاطع الذى أعطاه ابنه لصالحهن ، وطمأن بال أبيه فى أيامه الأخيرة . ولم تشك فى صدق هذا الوعد أكثر مما شك فيه زوجها . ونظرت بعين الارتياح إلى هذا الوعد لما فيه من فائدة بناتها ، و إن كانت هى نفسها تستطيع أن تعيش فى سعة بمبلغ يقل عن سبعة آلاف جنيه بكثير ، وفرحت حين عرفت أن أخاهن يضمر لهن أطيب النوايا ، وألحت على نفسها باللائمة لأنها لم تقدره حق قدره حين اعتقدت أنه لا يميل إلى الكرم والسخاء ، وشاهدت من اهتمامه بها وبأخواته ما أقنعها بحرصه على توفير أسباب الرفاهية لهن ، وظلت زمناً طويلا وهى تُعَوِّل على كرم نواياه .

وقد ازداد كثيراً ذلك الاحتقار الذى شعرت به نحو زوجة ربيبها فى الأيام الأولى التى عرفتها فيها ، بعد أن ازدادت معرفةً بأخلاقها خلال الشهور الستة التى عاشرتها فيها . وربما كان من المستحيل على هاتين السيدتين أن تعيشا معاً هذه الفترة الطويلة ، على الرغم من أن واجب المجاملة وعاطفة الأمومة كانا يقضيان على مسز داشوود بالبقاء مع زوجة ربيبها ، لولا أن جدَّ حادث خاص فرغّب مسز داشوود فى بقاء بناتها فى نورلاند .

وهذا الحادث هو ازدياد المحبة بين بنتها الكبرى وأخى مسز جون داشوود وكان شابا دمث الأخلاق حلو الشمائل ، تعرف إليهن عقب إقامة أخته فى نورلاند ، وظل منذ ذلك الحين يقضى سائر وقته هناك .

وربما كانت بعض الأمهات يشجعن هذه المحبة بدافع المصلحة لأن إدوارد فيرارز كان أكبر أبناء رجل توفى عن ثروة طائلة . وربما كان بعضهن لا يشجعها بدافع الحكمة لأنه لم يكن يتصرف فى أمواله ما عدا مبلغاً تافهاً إلا بأمر أمه . ولكن مسز داشوود لم تتأثر بأى من هذين الاعتبارين لأنه كان يكفيها أن يكون شخصاً محبوباً ، وأن يحب ابنتها ، وأن تبادله إلينور هذا الحب . وكان مما يخالف مبادئها القول بأن التفاوت فى الثروة يوجب التفرقة بين الزوجين اللذين يؤلف بينهما تشابه الطباع ، وكانت لا تتصور أن ثمة إنسانا يعرف إلينور ثم لا يعترف بمزاياها .

لم يظفر إدوارد فيرارز بحسن تقديرهن لجمال شخصه أو لعذوبة حديثه ، لأنه لم يكن وسيم الوجه ، ولا تبدو أخلاقه على حقيقتها إلا لمن عرفه معرفة وثيقة . وكان شديد الخجل إلى حد يجعل الناس يغمطون قدره . ولكنه إذا

زايله الخجل أرسل نفسه على سجيتها و بدت رقة عواطفه . وكان ذكى الفؤاد ، قدشحذ التعليم من قريحته . بيد أنه لم يكن بمواهبه ولابطباعه صالحا لتحقيق ما تصبو إليه أمه وأخته ، وهو أن يكون رجلا مشهوراً — مثلَ — لايعرفان مثلَ مَنْ . كانتا تريدان أن يكون رجلا بارزاً فى المجتمع على نحوٍ ما . أمه تريد أن يشتغل بالسياسة حتى يدخل البرلمان ، أو يصاهر بعض العظماء فى عصره وأخته تتمنى له مثل ذلك . ولكن إلى أن تتحقق إحدى هذه المزايا الرفيعة كانتا تطمحان أن يكون له عربة يجرها جواد . ولكن ادوارد لم يكن يميل إلى العظمة أو العربة ، بل كان كل يتمناه أن ينعم بالهناءة فى حياته العائلية ، ويتمتع بالهدوء فى حياته الخاصة . ولحسن الحظ كان له أخ أصغر منه يبشر بمستقبل زاهر .

أقام إدوارد عدة أسابيع فى المنزل قبل أن يلفت نظر مسز داشوود لأن حزنها إذ ذاك صرفها عن الاهتمام بما حولها . ولم تلحظ إلا أنه رجل هادئ غير فضولى ، فأحبته لذلك ، إذ لم يكن يثير أشجانها بحديث لايناسب المقام . وكان أول ما لفت نظرها إليه ، وعطف قلبها عليه ، ملاحظة بدرت من إلينور ذات يوم عن الفرق بينه وبين أخته ، فكان هذا التباين بين الأخ وأخته مما حببه إلى نفسها .

قالت: « يكفى أنه لايشبه فانى ، لأن ذلك معناه أنه يتحلى بكل الخصال المحبوبة . إننى أحبه حقا » .

وقالت إلينور : « أعتقد أنك ستميلين إليه متى ازددت معرفة به » .

فابتسمت أمها وقالت: «أميل إليه ! إن شعورى نحوه لايقل عن الحب » .

« لعلك تُقَدِّرينه » .

« إننى لم أعرف حتى الآن ماهو الفرق بين التقدير والحب » .

ومن ذلك الحين طفقت مسز داشوود تهتم بمعرفة أخلاقه ، فصارت تتودد إليه ، وسرعان ماانضاعنه ثوب التحفظ والاحتشام فما لبثت أن أدركت كل مزاياه ولعل اقتناعها بحبه لإلينور مما ساعدها على التغلغل فى أعماق نفسه . ولكنها فى الواقع أُعجبت بمواهبه الذاتية ، حتى إن الهدوء الذى يتعارض مع الشمائل التى ينبغى أن يتحلى بها الفتى صار الآن عندها أمراً محببا عندما ماعرفت ما ينبض به قلبه من العطف ، وما تنطوى عليه جوانحه من الحب .

وما إن لمحت إحدى أمارات الحب فى تصرفاته مع إلينور حتى تحققت أن عرى المحبة قد توثقت بينهما ، وأن زواجهما سيتم قريبا .

قالت : « عزيزتى مَرْيان ! أكبر الظن أنه لن تمضى أشهر معدودات حتى تكون إلينور قد استقرت فى منزل الزوجية . إننا سنشعر بوحشة شديدة لفراقها ، ولكنها ستكون سعيدة » .

« أمّاه ! أنىَّ يكون لنا أن نستغنى عنها ؟ »

« حبيبتى ! لن يكون هذا فراقاً . ، فإننا سنقيم على بضعة أميال منها ، وسنلتقى معها كل يوم ، وسنكسب أخا ، أخا صادقا وحبيبا . إننى أكنُّ لإدوارد أكبر التقدير . ولكن مالى أراك ساهمة الوجه يامريان ! ألا توافقين على اختيار أختك ؟ »

فقالت مريان « ربما كان هناك مايدعونى لأن أنظر إليه ببعض الدهشة :

إن إدوارد لطيف جدا وأنا أحبه كثيراً ، لكنه ليس من ذلك الطراز من الشبان — ثمة شيء ينقصه — وجهه غير وسيم ، ليس فيه من المحاسن ما أعتقد أنه يستهوى فؤاد أختى فعيناه ليس فيهما البريق الذى ينبىء عن الفضيلة والذكاء معاً. ثم إنى أخشى يا أماه ألا يكون له ذوق فنى حقيقى ، إذ يبدو لى أنه لا يحب الموسيقى . وإذا كان قد أبدى إعجابه الكبير بصور إلينور فليس ذلك بإعجاب من يقدر قيمة هذه الصور وإذا أطال التأمل فى صورها وهى مُكبة على الرسم كان من الواضح أنه لا يفهم فيها شيئا ، فإعجابه إعجاب المحب لا الخبير، وأنا لا يرضينى إلا من يجمع بين الخصلتين . أنا لا يمكن أن أشعر بالسعادة مع رجل لا يتفق ذوقه مع ذوقى فى كل شيء . يجب أن يدخل فى جميع مشاعرى : يحُب مثلَ ما أحب من الكتب ، ويهوى مثل ما أهوى من الموسيقى . ألم تلاحظى يا أماه فى الليلة الماضية أن طريقة إدوارد فى القراءة كانت طريقة غثّة لا روح فيها ؟

لقد تألمت لأختى أشد الألم ، ولكنها تجلدت وكأنها لم تلاحظ شيئا . أما أنا فلم أطق الجلوس فى مقعدى . لشدّ ما دُهشت حينما سمعت منه هذه الأبيات الشعرية التى طالما جعلتنى أهيم من الوجد ، وهو ينشدها بصوت هادئ لا ينفذ إلى الحس ، وفتور قاتل لا يؤثر فى النفس ! »

« أعتقد أنه كان فى وسعه أن يجيد قراءة النثر السهل الفصيح . هذا ما خطر لى فى ذلك الوقت . ولكنك أصررت على إعطائه شعر كوبر » .

« نعم يا أماه ، إذا لم يكن ليتأثر بشعر كوبر ! ولكن يجب ألا ننسى أن الناس يتباينون فى الأذواق ، فإلينور يختلف إحساسها عن إحساسى ، ولذلك قد تتغاضى عن هذا الأمر ، وتشعر معه بالسعادة . ولكنى إذا سمعته يقرأ بمثل هذه

العاطفة الفاترة تحطم قلبي لو كنت أحبه . وأنا يا أماه كلما ازددت معرفة بالناس ازددت إيمانا بأني لن ألقى الرجل الذى أحبه حبا صادقا. إننى أطلب الشيء الكثير : أن يحوز جميع فضائل إدوارد ، وأن تزدان هذه الفضائل بكافة المحاسن الخَلقية والخُلقية » .

« تذكرى ياحبيبتى أنك لم تبلغى السابعة عشرة، ولا يجدر بك أن تيأسى فى هذه السن المبكرة من بلوغ هذه السعادة . لماذا تكونين أقل حظا من أمك؟ كل ما أرجوه يامريان أن يختلف حظك عن حظها فى أمر واحد ! »

الفصل الرابع

قالت مريان « وا أسفاه ؟ إن إدوارد لا يتذوق فن الرسم » .

فأجابت إلينور «لا يتذوق فن الرسم ؟ لماذا تظنين ذلك ؟ حقا إنه لا يمارس هذا الفن بنفسه ، ولكنه يجد لذة كبيرة فى مشاهدة أعمال غيره ، وأؤكد لك أنه لا يعوزه الذوق الطبيعى بأى حال ، وإن لم تتح له الفرصة لترقية هذا الذوق . ولو أنه تلقى أصول الفن لأجاد الرسم فيما أعتقد . وهو لا يثق كثيراً بحكمه على مثل هذه الأمور ، ولذلك فهو يُحْجِم عن إبداء رأيه فى أية صورة ، ولكنه أوتى ذوقا فطريا سليما يمكنه على وجه العموم من صحة الحكم » .

وخشيت مريان أن تغضب أختها ، فأمسكت عن الكلام فى هذا الصدد ، ولكنها كانت ترى أن الإعجاب الذى يثيره فى نفسه - كما زعمت أختها - ما يرسمه غيره من الصور ، هو أبعد ما يكون عن تلك النشوة التى يمكن أن تسمى فى رأيها ذوقاً . ولكنها ابتسمت فى نفسها لما وقعت فيه أختها من خطأ ، ولم تلمها على حبها الأعمى لإدوارد .

واستطردت إلينور قائلة : « أرجو ألا تظنى أن إدوارد ينقصه الذوق العام . وفى وسعى أن أقول : إنك لا تظنين ذلك لأن مسلكك مع إدوارد يتسم بصادق الود . ولو كان هذا هو رأيك لما كان فى وسعك أن تعامليه قط بشىء من الأدب » .

ولم تدرِ مريان ما تقول ، لأنها لم تشأ أن تجرح شعور أختها لأى سبب

من الأسباب ، ولا أن تقول مالا تعتقد ، لأن هـــذا ضرب من المستحيل .
وأخيراً قالت :

« لا تغضبي يا إلينور إذا كان ثنائي عليه لا يرتفع إلى مستوى إدراكك لفضائله فإني لم يتح لي ما أتيح لك من الفرص حتى يتسنى لي تقدير ميوله النفسية ورغباته وأذواقه . ولـكني أقدر فضله وعقله أعظم التقدير ، وأعتقد أنه يتحلى بجميع الخصال الفاضلة المحبوبة . »

فأجابت إلينور وهي تبتسم « لا شك أن أعز أصدقائه لا يسوؤهم مثل هذا الثناء ، ولست أدري كيف تعبرين عن رأيك بأحسن من هذا القول الذي يَنمُّ على الإخلاص والحب » .

وفرحت مريان حين رأت أختها قد سُرّت بقولها بمثل هذه السهولة .

واستطردت إلينور قائلة « أما فضله وعقله فلا يستطيع أن ينكرهما فيما أعتقد أحد ممن اختلط به كثيرا بحيث يسترسل معه في الحديث غير متحفظ . وإن ذكاءه وسمو مبادئه لا يحجبهما إلا الخجل الذي يحمله على الصمت في أغلب الأحيان ، وأنت تعرفين عنه ما يكفي لأن تقدريه حق قدره . أما عن ميوله النفسية كما تسمينها فأنت تجهلينها أكثر مني لظروف خاصة ، ذلك بأني اجتمعت معه كثيراً في بعض الأحيان وأنت منهمكة في الحديث مع أمي بشأن أحب الأزواج إليك : لقد عرفت عنه الكثير ، ودرست عواطفه ، واستمعت إلى آرائه في موضوع الأدب والذوق ، وفي وسعي أن أقول بوجه عام : إنه رجل واسع الاطلاع ، محب للقراءة ، قوي الخيال ، دقيق الملاحظة ، لطيف الذوق وكلما ازداد الإنسان معرفة به تجلت

له مواهبه كما تجلت أخلاقه وشخصيته . وحديثه لايلذ للمرء لأول وهلة ، ووجهه لا يبدو وسيما إلى أن يتفرس المرء فى نظرات عينيه التى تنم على طيبة نفسه ، فيتبين الناظر حلاوة ملامحه . إننى أعرفه الآن جيدا ، وأعتقد أنه وسيم الطلعة حقا ، أو على الأقل يكاد يكون كذلك . فما قولك يامريان ؟ »

« أعتقد أنه سيبدو وسيم الطلعة عما قريب ، إن لم يبدُ لى الآن كذلك . وعندما تطلبين أن أحبه بوصفه أخا ، فإنى لن أرى عيبا فى وجهه ، كما لا أرى الآن عيبا فى قلبه » .

ففزعت إلينورلهذا القول ، وأسفت على الحمية التى حملتها من حيث لاتشعر على البوح بسرها فى حديثها عنه . وكانت تشعر أنها تقدر إدوارد تقديراً عظيما وتعتقد أنه يبادلها حبا بحب ، ولكن الأمر كان يتطلب مزيد تأكيد لهذا الحب حتى تجعل اعتقاد مريان بشأن حبها لإدوارد مطابقا لاعتقادها ، وكانت تعرف أن الظن فى عرف مريان وأمها سرعان ما ينقلب إلى يقين ، وأن التمنى عندهما معناه الأمل ، والأمل معناه الرجاء . ولذلك حاولت أن تشرح لأختها حقيقة أمرها .

قالت : « إننى لاأحاول أن أنكر أننى أحسن الظن به كثيراً — إننى أقدره كثيراً ، إننى أميل إليه » .

« تقدرينه ! تميلين إليه ! ماأقسى قلبك ياإلينور ! بل إنه أقسى من القسوة ! ياللخزى والعار إذا كان الأمر بخلاف ذلك ! لئن أعدت على هذه الكلمات فسأغادر الحجرة فى الحال . »

فما تمالكت إلينور أن ضحكت ، وقالت « معذرة ، وثقى أننى لم أرد الإساءة إليك حين عبرت عن عواطفى بهذا الأسلوب الهادىء ، اعتقدى أن عواطفى أقوى مما صرحت الآن به . اعتقدى — بالاختصار — أنها بالقدر الذى يتكافأ مع مزاياه ومع ظنى فيه — أى أملى فى حبه لى ، وذلك بدون طيش ولا حمق . ولكن لا تعتقدى أكثر من ذلك فإننى غير متأكدة بأى حال من الأحوال من حبه لى ، إذ تأتى على لحظات يساورنى فيها الشك فى مدى هذا الحب ، وإلى أن أعرف حقيقة شعوره ، لا تدهشى إذا أنا رغبت فى تجنب كل ما يشجع حبى له ، كالمبالغة فيه ، أو تسميته بأكثر من حقيقته . وأنا لا أشعر — بل لا أكاد أشعر — فى سويداء قلبى بأى شك فى حبه لى ، ولكن هناك أموراً جديرة بالنظر خلاف حبه لى . من ذلك أنه لا يملك حرية التصرف فى أمواله ، وأننا لا نعرف حقيقة أخلاق أمه . ولكن يؤخذ مما تذكره فانى أحيانا عن سلوكها وآرائها أنها أبعد من أن تكون امرأة محبوبة ، ولا أعدو الصواب إذا قلت إن إدوارد نفسه يشعر أنه سيلاقى كثيراً من العقبات إذا حاول أن يتزوج امرأة ليست ذا مال أو حسب . »

ودهشت مريان حين وجدت أن خيالها هى وأمها قد جاوز الحقيقة .

فقالت: «وهل صحيح أنك غير مخطوبة له ! لكن من المؤكد أن هذه الخطبة ستتم عما قريب . ولهذا التأخير فائدتان : أننى لن أحرم منك عاجلا ، وأن الفرصة ستتاح لإدوارد كى يرقى ذوقه الطبيعى ، فيقدر هوايتك المحبوبة التى ستكون بلا ريب عنصراً لازما لسعادتك المقبلة . آه لو أن عبقريتك حفزته إلى تعلم الرسم لكان ذلك أمراً رائعاً »

أبدت إلينور لأختها رأيها الحقيقى فأفهمتها أن حبها لإدوارد ليس سعيداً كما تعتقد مريان ، وقالت:إنه تخيم عليه أحيانا سحابة من الكآبة إن لم تدل على عدم الاكتراث فهى لا تبشر بالخير الكثير . وإذا كان يساوره شك فى حبها له، فلا داعى لأن يبعث هذا الشك فى نفسه سوى الشعور بالقلق لا تلك الكآبة التى تخيم عليه فى أغلب الأحيان . ولعل أقرب الأسباب إلى العقل أنها ترجع إلى وضعه الخاص الذى حرمه حرية التصرف فى أمواله، فمنعه من الاسترسال فى الحب وكانت إلينور تعلم أن أمه تضيق عليه فى المعيشة ، فلا توفر له وسائل الراحة فى بيته الحالى ، ولا تعده بتأسيس بيت له ما لم يوافقها على آرائها التى ترمى إلى إعلاء قدره . وكان من المتعذر على إلينور بعد وقوفها على تلك المعلومات أن تشعر بالطمأنينة فى هذا الأمر . ولم تعلق كثيراً من الأمل على نتيجة حبه لها ، وهى النتيجة التى كانت أمها وأختها تعدانها أمراً محققاً ، بل لقد كانت تزداد ارتيابا فى حبه لها كلما طال اجتماعها به ، وتعتقد أحيانا لبضعة لحظات ألبتة أن هذا الحب لا يعدو أن يكون ضربا من الصداقة .

ولكن مهما تكن حدود هذا الحب فى واقع الأمر ، فقد كانت أخته — إذا آنست منه ذلك — يساورها القلق وتخرج عن حد الأدب (وكان هذا هو الغالب عليها) فى الوقت نفسه . وقد انتهزت أول فرصة لإهانة حماتها فى هذا الأمر ، فتحدثت إليها بصراحة عن آمال أخيها الكبيرة ، واعتزام مسز فيرارز أن تزوج ولديها من بيوتات المجد ، كما تحدثت إليها عن الخطر الذى يحيق بأى فتاة تحاول أن « تستدرجه » إلى الزواج بها ، فلم تستطع مسز داشوود أن تتغابى عن الأمر أو تحاول السكوت عليه ، فردت عليها رداً ملؤه الاحتقار ، ثم غادرت الغرفة فى الحال ، مصممة ألا تعرض بنتها لمثل هذه المغامز أسبوعاً

آخر ، مهما تجشمت من المتاعب والنفقات التي تترتب على هذا الرحيل المفاجيء .

و بينما كانت تعانى هذه الحالة النفسية تلقت خطابا بالبريد يتضمن اقتراحا جاء فى الوقت المناسب ، و يعرض عليها بيتا صغيرا بشروط غاية فى السهولة ، يملكه أحد أقاربها من الأعيان وأصحاب الأملاك فى ديفو نشاير . وكان الخطاب مرسلا من هذا الرجل نفسه ومكتوبا بروح الود الخالص . قال فيه : إنه علم أنها فى حاجة إلى منزل وإذا كان البيت الذى يعرضه عليها ليس سوى منزل ريفى ، فهو على استعداد لإجراء كافة الإصلاحات التى تدعو إليها الضروره متى راق لها موقعه ، وألح عليها بعد أن أتى على وصف المنزل والحديقة أن تزوره هى و بناتها فى منزل بارتون بارك الذى يقيم فيه ، حتى يتسنى لها أن تقرر بنفسها التعديلات التى تراها كفيلة بتوفير أسباب الراحة فى منزل بارتون كوتيج ، وكان المنزلان يقعان فى أبرشية واحدة . ووضح من كلامه أنه شديد الاهتمام بتوفير المسكن اللائق بهن . وكان الخطاب كله مكتوبا بأسلوب ودى أدخل السرور على ابنة عمه ، وبخاصة فى وقت ضاقت فيه ذرعا بمسلك أقاربها الأدنين الذى اتسم بالغلظة والفظاظة . ولم يكن ثمة داع لإضاعة الوقت فى التفكير أو البحث ، فكونت رأيها وهى تقرأ الخطاب وأعجبها موقع بارتون فى مقاطعة ديفو نشاير التى تبعد كثيراً عن سسكس ، وكان مثل هذا الموقع يثير عندها — منذ ساعات قلائل — اعتراضات تتلاشى بجانبها سائر مزاياه ، فلم تعد مغادرة نورلاند نقمة فى نظرها بل أصبحت غاية مرادها ، ونعمة بجانب الشقاء الذى تلقاه من بقائها ضيفة على زوجة ربيبها : وأصبح الرحيل عن ذلك البيت المحبوب أقل إيلاما من الإقامة فيه أو زيارته طالما ظلت هذه المرأة هى ربته . لذلك كتبت من فورها إلى سير جون ميدلتون تعرب عن شكرها لبره وعطفه

وقبولها لاقتراحه ، ثم سارعت إلى إظهار بناتها على الخطاب ، حتى تستوثق من موافقتهن قبل أن ترسل الجواب.

وكان من رأى إلينور دائماً أنه يحسن بهن أن يقمن بعيداً عن نورلاند بدلا من الإقامة وسط معارفهن الحاليين . ولهذا لم تعارض فيما اعتزمته أمها من الانتقال إلى ديفونشاير ، يضاف إلى ذلك أن المنزل كما وصفه سير جون يمتاز بالبساطة واعتدال الإيجار بحيث لا مجال للاعتراض على أى الأمرين ، فلم تثبط همة أمها عن إرسال الجواب بالموافقة ، على الرغم من أن هذا الأمر لم يكن يصادف هوى فى نفسها ؛ وأن البعد عن جوار نورلاند لا يتفق مع رغباتها

الفصل الخامس

وما إن أرسلت مسز داشوود جوابها، حتى راحت — والسرور يغمر قلبها — تعلن لربيبها وزوجته أنها وفقت إلى منزل، وأنها لن تزعجهما بالإقامة معهما إلا ريثما يتم الاستعداد للسكنى فى المنزل الجديد، فدهشا لسماع هـذا النبأ، ولم تنبس مسز داشوود ببنت شفة، ولـكن زوجها أعرب بعبارة مهذبة عن أمله ألا تقيم بعيداً عن نورلاند، فأجابت بارتياح كبير أنها ستنتقل إلى ديفونشاير — والتفت إدوارد إليها من فوره عند ما سمع بهذا الخبر، وقال مردداً بصوت ينم على الدهشة والقلق « ديفونشاير! أحقا ستنتقلين إلى هناك؟ ما أبعد هذا المـكان! وإلى أى موقع فيه؟ » فشرحت له الموقع وقالت: إنه فى حدود أربعة أميال شمالى إكستر.

واستطردت تقول: « إنه ليس سوى منزل ريفى، ولـكنى أرجو أن أرى كثيراً من أصدقائى فيه. ومن الممكن إضافة حجرة أو حجرتين إليه. وإذا لم يجد أصدقائى نصبا فى السفر إلى هذا المـكان البعيد لزيارتى، فأنا واثقة أننى لن ألقى أية مشقة فى إيوائهم. »

ثم ختمت كلامها بتوجيه دعوة رقيقة إلى مستر ومسز جون داشوود لزيارتها فى بارتون ولـكنها وجهت إلى إدوارد دعوة أرق. وإذا كان حديثها الأخير مع زوجة ربيبها جعلها تعتزم ألا تبقى فى نورلاند أكثر مما تقضى به الضرورة، فإنه لم يؤثر فيها أدنى تأثير من ناحية الأمر الذى تهواه كثيراً، إذ كان التفريق بين إدوارد وإلينور أبعـد ما يكون عن قصدها. وقد قصدت بتوجيه هذه الدعوة الصريحة إلى إدوارد أن تبين لمسز جون داشوود أنها لا تبالى إطلاقا باعتراضها على هذا الزواج.

وردد مستر داشوود على مسامع زوجة أبيه شدة أسفه لسكناها فى منزل بعيد عن نورلاند بحيث لا يستطيع أن يساعدها فى نقل الأثاث. والواقع أنه شعر بوخز الضمير لعجزه عن تقديم هـذه المساعدة، إذ تم نقل الأثاث كله بطريق البحر، وبذلك تعذر عليـه القيام بالعمل الذى أراد به أن يتحال من تبعة وعده لأبيه وكان الأثاث يتكون من البياضات والصحاف والخزف الصينى والكتب وبيان مريان الجميل، وتنهدت مسز جون داشوود حسرة وتأسفاً حينما رأت رُزَم الأثاث وهى تخرج من البيت: إذ عز عليها أن تأخذ مسز داشوود قطع الأثاث الثمينة لا سيما أن دخلها سيكون ضئيلا بالنسبة إلى دخلها هى وزوجها.

استأجرت مسز داشوود المنزل لمدة سنة، وكـان مؤثثاً معداً للسكنى، وفى وسعها أن تحتله على الفور. ولم تنشأ أية عقبة فى سبيل الاتفاق بين طرفى العقد. وكل مافى الأمر أنها انتظرت حتى تتصرف فى أموالها المنقولة فى نورلاند، وتحدد عدد الخدم الذين تستعين بهم فى المستقبل قبل أن ترحل إلى الغرب. وسرعان ما بتت فى الأمر جريا على عادتها فى انجاز كل ما يهمها على وجه السرعة وكانت قد باعت الجياد التى تركها لها زوجها عقب موته بقليل؛ ثم سنحت لها الآن فرصة لبيع «العربة»؛ فوافقت على بيعها إطاعة لنصيحة بنتها الكبرى. ولو أنها حكمت رغبتها الشخصية لاحتفظت بهذه «العربة» حرصا على راحة أولادها؛ ولـكن حكمة إلينور تغلبت فى النهاية. وكـذلك كان لحكمتها الفضل فى تخفيض عدد الخدم إلى ثلاثة: وصيفتين ورجل، اختيروا من بين الخدم الذين كانوا يعملون معهن فى نورلاند.

وتوجه فى الحال الخادم وإحدى الوصيفتين لإعداد المنزل لاستقبال ربة الأسرة،

إذ لم يسبق لمسز داشوود التعرف إلى ليدى ميدلتون ، فآثرت أن تتوجه مباشرة إلى منزلها الريفى على أن تنزل ضيفة عليها فى بارتون بارك ، وكانت تثق فى وصف سيرجون للبيت، فلم ترغب فى تفقده قبل النزول فيه . وكان مما قوى عزمها على الرحيل ماأبدته زوجة ربيبها من ارتياح ظاهر لقرب رحيلها، حاولت إخفاءه تحت ثوب الرياء بأن دعتها بلهجة فاترة لتأجيل السفر . والآن حان الوقت المناسب الذى يستطيع ربيبها أن يفى فيه بالوعد الذى قطعه لأبيه . وإذا كان قد أهمل الوفاء بهذا الوعد عند قدومه إلى الضيعة ، فإن رحيلهن يمكن أن يعد أنسب وقت للوفاء به . ولكن مسز داشوود سرعان ماقطعت كل أمل من هذا القبيل ، واقتنعت من فحوى حديثه أن مساعدته لهن لاتزيد على الإنفاق عليهن ستة أشهر فى نورلاند . ثم إنه ظل يكثر التحدث عن زيادة نفقاته المنزلية والمطالب المستمرة التى تستنزف ماله دون أن تقع فى الحسبان ، والتى يتعرض لها كل رجل من الأعيان حتى لقد خيل إليها أنه أصبح أحوج إلى المال من أن يتبرع به لغيره .

ولم تمض بضعة أسابيع على اليوم الذى ورد فيه خطاب سيرجون ميدلتون حتى أصبح كل شىء معدا فى المنزل الجديد ، بحيث تستطيع مسز داشوود وبناتها أن تبد أن رحلتهن .

وما أغزر العبرات التى سكبنها ساعة الوداع للمنزل المحبوب . قالت مريان تودع البيت ، وهى تتجول وحدها أمامه فى مساء آخر يوم قضته فيه « عزيزى ، عزيزى نورلاند ! متى تنقطع حسرتى عليك ! متى أطيق الإقامة فى غيرك! أواه أيها البيت السعيد ! آه لوعرفت ما أكابده من الأشجان ، وأنا أنظر إليك من هذا المكان ، وربما لاأراك منه بعد اليوم ؟ وأنت أنت أيتها الأشجار المعهودة !

لـكنك ستظلين يانعة مورقة ، لن تبلى ورقة من أوراقك حزنا على فراقنا ، ولن يسكن غصن من أغصانك لأننا لن نستطيع بعد اليوم أن نمتع نواظرنا برؤيتك كلا ! ستظلين يانعة مورقة غير شاعرة بما تبعثينه فى نفوسنا من متعة أو لوعة ، ولاشاعرة بما يعترى من تفيأ ظلالك من تغير الأحوال! ولـكن من ذا الذى سيبقى حتى يمتع ناظريه بمشاهدتك !

الفصل السادس

أتممن الجزء الأول من رحلتهن ، وهن فى حال من الحزن والكآبة من شأنها أن تبعث فى النفس الضجر والكدر . ولكنهن عند ما اقتربن من نهاية الرحلة ذهبت عنهن الكآبة لارتياحهن إلى منظر الإقليم الذى سيقمن فيه ، وتألقت وجوههن بشراً عندما دخلن فى وادى بارتون وألقين نظرة عليه . وكان هذا الوادى خصيبا جميل المنظر ، كثير الأشجار ، غزير المراعى . وبعد أن سرن فى طريق متعرج أكثر من ميل وصلن إلى منزلهن فوجدن أمامه فناء صغيراً يكسوه العشب الأخضر ، هو كل الأرض الملحقة به ، وله باب صغير أنيق دخلن منه .

وكان بارتون كوتيج على صغره مريحا ومحكما بوصفه منزلا . أما بوصفه منزلا ريفيا فلا يخلو من العيوب فبناؤه منتظم ، وسقفه مغطى بالقرميد ، ومصاريع نوافذه غير مطلية باللون الأخضر ، وجدرانه غير مغطاة بالياسمين البرى . وكان فى البيت طرقة ضيقة تمتد خلال المنزل وتؤدى مباشرة إلى الحديقة فى الخلف . وعلى كل من جانبى المدخل حجرة للجلوس تبلغ مساحتها حوالى ست عشرة قدما مربعة يليهما المرافق والسلم ثم أربع حجرات للنوم ، وعُليّتان . ولم يمض على بناء المنزل كثير من السنين ، ولم يكن يحتاج إلى إصلاح أو ترميم . ولكن إذا قيس بنورلاند كان متواضعا وصغيرا حقا ! ولكن العبرات التى أهاجتها الذكرى سرعان ما جفت ، وسُرِّىَ عنهن ، عندما رأين فرحة الخدم بقدومهن ، وأنشأت كل واحدة تظهر السرور حرصا على شعور الأخرى . وكان وصولهن فى شهر سبتمبر إذ كان الطقس لطيفاً . وكانت مشاهدتهن للمنزل أول مرة فى هذا الطقس الجميل ذات أثر حسن فى نفوسهن ، فأبدين موافقتهن النهائية على الإقامة فيه .

وكان موقع المنزل جميلا ، تكتنفه تلال عالية تقع خلفه مباشرة ، وعلى مسافة ليست كبيرة من الجوانب الأخرى، و بعض هذه التلال ما حل أجرد ، و بعضها تكسوه الزروع والأشجار . وكانت قرية بارتون خاصة تقع على أحد هذه التلال ، ويبدو منظرها رائعاً من نوافذ المنزل الريفي . أما المناظر التي تتجلى أمام البيت فكانت مترامية الأطراف تطل على الوادي كله وتمتد إلى الإقليم التالي. وكانت التلال التي تحيط بالمنزل الريفي تحد نهاية الوادي في هذه الجهة ، ثم يمتد الوادي مرة أخرى بين تلين شديدي الانحدار ، ولكن باسم آخر وفي طريق آخر .

وأبدت مسز داشوود ارتياحها بوجه عام لحجم المنزل وأثاثه ، وقد استلزم أسلوب حياتها الماضية إضافة الكثير إلى الأثاث : ولكنها كانت تجدمتعة في الزيادة والتجديد ، وتملك من المال ما يكفي لإضافة كل ما يضفي الأناقة على جميع الحجرات . وقالت : لاريب أن البيت أصغر من أن يتسع لأسرتنا ولكننا سنرضى به في الوقت الراهن لأن وقت الإصلاح قد فات في هذا العام . ولكن ربما قمنا بالبناء في الربيع إذا تيسر لنا المال وأرجو أن يتيسر . فهاتان الردهتان أصغر من أن تتسعا لأصدقائنا الذين أرجو أن أراهم مجتمعين هنا . وأنا أفكر في فتح الطرقة على إحدى الردهتين ، وربما على جزء من الردهة الأخرى على أن أجعل جزأها الآخر مدخلا : وهذا علاوة على حجرة استقبال جديدة يمكن إضافتها بسهولة،وحجرة نوم،وعلية،وذلك من شأنه أن يجعل منه منزلا ريفياً صغيراً وأنيقا . وكنت أتمنى لو كان الدرج أرحب من ذلك ولكن « ما كل ما يتمنى المرء يدركه » و إن كنت أعتقد أن توسيعه ليس بالأمر العسير . وسأرى كم يتيسر لنا المال في الربيع ، وأضع تصميم الإصلاحات التي أريدها على هذا الأساس .

على أنهن كن من الحكمة بحيث رضين بالإقامة في المنزل على ما هو عليه ،

إلى أن ينسى إجراء كل هذه التغييرات مما تدخره امرأة لم تتعود الادخار قط من دخل يبلغ خمسمائة جنيه فى العام ، وانهمكت كل منهن فى ترتيب شئونها الخاصة ، و بذلت جهدها فى إعداد البيت . فرتبن الـكتب وغير ذلك من أمتعتهن وأخرجت مريان البيان ووضعته فى المـكان المناسب ، وعلقت إلينور رسومها وصورها على جدران حجرة الجلوس .

و إنهن لمنهمكات فى هذه الشئون إذ قدم صاحب البيت فى اليوم التالى عقب الفطور بقليل ليرحب بمقدمهن إلى بارتون ، وليقدم لهن كل ما يطلبنه من بيته وحديقته مما لا يجدنه فى منزلهن . وكان سيرجون ميدلتون رجلاً وسيم الطلعة يناهز الأربعين ، سبق له أن قدم ستاندهل زائراً ، ولـكن طول العهد على هذه الزيارة جعل من المتعذر على بنات عمه أن يتذكرنه . وكان وجهه يفيض بالبشر ، ومسلـكه يتسم بالود كأسلوب خطابه . و بدا عليه الارتياح الشديد لقدومهن ، وشدة الاهتمام براحتهن . وأعرب لهن عن رغبته فى رفع الـكلفة بينهن و بين أسرته ، وألح عليهن،بلهجة تشف عن الود،أن يتناولن طعام الغداء فى بارتون بارك كل يوم حتى يستقر بهن الحال فى المنزل الجديد ، وبلغ هذا الإلحاح حداً يجاوز حدود المجاملة ، ولـكنهن لم يستأن منه . ولم يكن عطفه و بره مجرد كلام ، إذ لم تمض ساعة على انصرافه حتى أرسل سلة كبيرة حافلة بثمرات الحديقة والفاكهة أتبعها قبل أن تنقضى سحابة النهار بهدية من لحوم الصيد ، وأصر على القيام بنقل جميع خطاباتهن من البريد وإليه كما أصر على ألا يحرمنه شرف إرسال جريدته اليومية إليهن كل يوم .

و بعثت ليدى ميدلتون معه رسالة غاية فى الرقة ، تعرب فيها عن اعتزامها زيارة مسز داشوود متى تأكدت أن هذه الزيارة لن تزعجهن ، فأرسلت إليها دعوة رقيقة كذلك ، فقدمت السيدة فى الغد وتعرفت إليهن .

وكن بالطبع يحرصن على رؤية سيدة يتوقف عليها الكثير من راحتهن فى بارتون ، وكانت أناقتها مدعاة لارتياحهن . ولم تزد سن ليدى ميدلتون على ستة أو سبعة وعشرين عاما . وكان وجهها صبوحا ، وقوامها فارعا وحديثها ظريفا . وكانت تزدان بكل ما ينقص زوجها من الظرف والكياسة ، ولكنها كانت تفتقر إلى شيء من صراحة زوجها وحرارة عاطفته . وقد طالت زيارتها إلى حد قلل من الإعجاب الذى شعرن به نحوها فى بداية الأمر ، إذ ظهر لهن أنها مع كرم محتدها تتصف بالتحفظ و برود الطبع ولا يزيد حديثها على الأسئلة أو الملاحظات التافهة .

على أن الاجتماع لم يخل من الحديث ، إذ كان سير جون محدثا أنيس المحضر ورأت ليدى ميدلتون من الحكمة أن تحتاط للأمر ، فاصطحبت معها أصغر أطفالها ، وهو غلام ظريف يبلغ من العمر حوالى ست سنوات ، فأتاحت بذلك للسيدات موضوعا واحدا يلجأن إليه دائما حينما تعوزهن مادة الحديث ، كأن يسألن عن اسم الغلام وسنه ، ويبدين إعجابهن بجماله و يوجهن إليه بعض الأسئلة التى تتولى أمه الإجابة عليها نيابة عنه ، بينما هو يتعلق بها منكساً رأسه فتزداد دهشة أمه لما يبديه من الخجل أمام الناس ، بقدر ما يحدثه من الضجة فى المنزل . والواقع أنه ينبغى أن يصطحب الإنسان معه طفلاً فى كل زيارة رسمية ليكون مادة للحديث ، وفى قضيتنا هذه قضى جميع الحاضرين عشر دقائق ليقرروا : هل الغلام أشبه بأمه أو بأبيه ، وما وجه الشبه بينه و بينهما ، إذ كان كلٌ يرى ما لا يراه الآخر و يدهش من رأى غيره .

وتقررت إتاحة فرصة أخرى أمام آل داشوود للمناقشة فى أمر بقية الأطفال ، لأن سير جون لم يشأ أن يغادر المنزل قبل أن يأخذ وعداً منهن بتناول الغداء فى منزله غدا .

الفصل السابع

كان قصر بارتون بارك يبعد عن المنزل الريفي زهاء نصف ميل ، وقد مر به السيدات فى طريقهن على طول الوادى ، ولكن كان يقوم دونه تل يحول دون رؤيته من المنزل الريفى . وكان القصر يمتاز بالسعة والجمال ويتصف أهله – آل ميدلتون – بخصلتين : كرم الضيافة ، والظرف ، أولاهما من خصائص سير جون، والأخرى من خصائص زوجته . وقلما خلا قصرهما من بعض الأصدقاء الذين ينزلون عندهما . وكان لهما أصدقاء من كل نوع أكثر من أصدقاء أية أسرة فى جوارهما . وكان هذا من مستلزمات سعادتهما ؛ لأنهما على اختلافهما فى الطباع والسلوك الظاهرى كانا يتفقان بشكل واضح فى افتقارهما الكلى إلى المواهب العقلية والفنية ، مما جعل نشاطهما الاجتماعى محصورا فى دائرة ضيقة ، فكان سير جون رياضيا ، وكانت ليدى ميدلتون أما : هو يهوى الصيد والرماية وهى تهوى تدليل الأطفال ، وهذا هو كل عملهما . وكانت ليدى ميدلتون تمتاز بالقدرة على إفساد أخلاق أطفالها على مدار السنة ، فى حين أن أعمال سير جون الخاصة لاتستغرق إلا نصف وقته فقط . بيد أن مواعيدهما المستمرة داخل المنزل وخارجه كانت تسد كافة وجوه النقص لديهما من حيث التعليم والمواهب العقلية ، كما كانت تدخل السرور على نفس سير جون ، وتتيح الفرصة لزوجته لتظهر ما تتحلى به من أخلاق طيبة .

وكانت ليدى ميدلتون تتباهى بأناقة مائدتها ، وحسن نظام بيتها ، وتجد فى ذلك أكبر متعة لها فى المآدب التى تقيمها . ولكن سير جون كان يجد متعته الكبرى فى الاجتماع بالناس ، فيلذ له أن يجمع حوله من الشباب أكثر مما يتسع له منزله ، ويزداد سروراً كلما علا ضجيجهم . والواقع أن وجوده كان نعمة

على شباب الحى لأنه كان يقيم لهم فى الصيف حفلات خلوية يطعمهم فيها لحم الخنزير المقدَّد ولحم الدجاج ، ويقيم لهم فى الشتاء حفلات رقص عديدة فى منزله تشبع رغبة كل سيدة شابة ، لا تكابد من الصبابة ما تكابده الفتاة فى سن الخامسة عشرة .

وكان يسره دائماً قدوم كل أسرة جديدة إلى الريف ، وزاد من سروره قدوم السيدات اللائى جئن إلى منزله الريفى فى بارتون ، وكانت بنات داشوود يمتزن بالجمال والشباب ولا تعرفن التصنع ، وهذا يكفى للظفر بحسن تقديره ، لأن عدم التصنع هو كل ما تحتاج إليه الفتاة الجميلة حتى تكون جذابة فاتنة فى ذاتها وشخصيتها . وكان ماطُبع عليه من صدق الوداد يجعله يشعر بالسعادة لإسكان فتيات تنكر لهن الحظ إذا قيس حاضرهن بماضيهن . ولذلك كان يشعر براحة الضمير حين يغدق بره وعطفه على ذوى قرابته ، ويجد فى إسكان أسرة كلها من الإناث فى منزله الريفى كل ما يشعر به الرجل الريفى من ارتياح وغبطة ، لأن الرجل الرياضى وإن لم يقدر من بنى جنسه إلا من كان رياضياً مثله لا يرغب غالباً فى تشجيعهم على الرياضة عن طريق إسكانهم فى منزل يتم فى حدود ضيعته .

استقبل سيرجون مسز داشوود وبناتها عند باب قصره ، فرحب بمقدمهن إلى بارتون بارك ترحيباً صادقاً لايشوبه التصنع ، وردد على مسامعهن ، وهو يرافقهن إلى حجرة الاستقبال ، ما ردده بالأمس ، وهو أسفه لأنه لم يستطع إحضار أى شاب أنيق لمقابلتهن وقال : إن الرجل الوحيد الذى سيشاهدنه خلافه ، هو صديق خاص ينزل فى البارك . ولكنه ليس صغير السن ، ولا كثير المرح . وأعرب عن أمله أن يغفرن له قلة المدعوين إلى المأدبة ، وأكد لهن أن ذلك لن يتكرر أبداً ،

وأنه طاف على عدة أسر فى صباح ذلك اليوم بقصد زيادة العـدد ولـكن الليالى فى ذلك الوقت كانت مقمرة ، وكان كل إنسان مرتبطاً بميعاد . ولحسن الحظ وصلت والدة ليدى ميدلتون إلى بارتون فى الساعة الأخيرة، وكانت امرأة لطيفة مرحة . ولذلك كان يرجو ألايشعرن بالضجر والملل كما كن يتصورن ، فأعربت الفتيات وأمهن عن ارتياحهن التام لوجود شخصين غريبين فى المأدبة ولم يرغبن فى أكثر من ذلك .

وكانت مسز جننجز – والدة ليدى ميدلتون – امرأةعجوزاً سمينة تفيض مرحاً و بشاشة ، وتـكثر من الحديث وتبـدو عليها أمارات السعادة وتميل إلى شىء من التبذل ، وتـكثر من النـكات والضحك ، فقصت عليهن أثناء الغداء كثيراً من المُلَح والطرف عن العشاق والأزواج ، وأعربت عن أملها ألا يكن قد تركن خلفهن أحبابهن فى سسكس،وادعت – إن حقاً وإن باطلا — أن حمرة الخجل تعلو وجوههن ، فامتعضت مريان لذلك إشفاقاً على أختها، وصوَّبت نظرها إلى إلينور لترى كيف تتحمل هذه الغمزات ، وكانت مريان تحدق النظر بصورة آلمت إلينور أكثر مما آلمها مزاح مسز جننجز المبتذل .

لم يكن ثمة تشابه فى الأخلاق بين كولونيل براندون – صديق سيرجون – وسيرجون حتى يصلح صديقاً له ، ولا بين ليدى ميدلتون وزوجها حتى تـكون زوجة له ، ولا بين مسز جننجز وليدى ميدلتون حتى تـكون أماً لها . وكان براندون رجـلا صامتاً رزيناً ، ولـكن مظهره لم يكن منفراً، و إن رأت مريان ومرجريت أنه شيخ عزب لأنه نيف على الخامسة والثلاثين ، وكانت ملامح وجهه، وإن لم يكن وسيماً ، تنم على رقة مشاعره، وحديثه حديث الرجل المهذب .

ولم يكن أى واحد من الحاضرين يتصف بشىء يحببه إلى بنات داشوود ، ولـكن ما اتصفت به ليدى ميدلتون من برود الطبع وثقل الظل كان يبعث على

الاشمئزاز الشديد، بحيث إذا قيس بهما وقار كولونيل براندون، بل المرح الصاخب الذى يتصف به سير جون وحماته، كان شيئاً مقبولا. ولم يتألق وجه ليدى ميدلتون بالسرور إلا عندما دخل أطفالها الأربعة الصاخبون بعد الغداء، وطفقوا يجذبون رداءها، ويمزقون ثيابها، ويقاطعون كل حديث، اللهم إلا ما كان يدور حول أشخاصهم .

وفى المساء طلب الحاضرون إلى مريان أن تعزف لهم على البيان ، بعد أن عرفوا أنها تحذق الموسيقى ، ففتحت المعزف ، واستعد الجميع لتشنيف آذانهم ، وأجادت مريان العزف ، وطلبوا إليها أن تعزف لهن أهم الأغانى التى أحضرتها ليدى ميدلتون معها عند زواجها ، والتى يحتمل أن تكون بقيت فى مكانها على البيان من ذلك الحين، لأن هذه السيدة هجرت الموسيقى ابتهاجاً بزواجها على الرغم من إجادتها الغناء بشهادة أمها ، وولوعها به كما قالت هى .

قابل الحاضرون غناء مريان بالتصفيق والهتاف ، ورفع سير جون عقيرته إعجاباً بها بعد كل أغنية كما كان يرفع صوته فى حديثه مع غيره أثناء كل أغنية ، وكثيراً ماطلبت إليه ليدى ميدلتون أن يحافظ على النظام ، وتساءلت كيف يتسنى لإنسان أن يتلهى عن الغناء لحظة واحدة ، وطلبت إلى مريان أن تعيد أغنية معينة بعد عزفها . وكان كولونيل براندون هو الشخص الوحيد الذى سمع غناءها دون أن يشعر بنشوة الطرب . وكل ما فعله هو أنه أولاها شرف الاستماع ، فشعرت نحوه بالاحترام دون غيره، لما أبدوه من عجز فاضح عن تذوق الغناء ، وكان ماشعر به الكولونيل من لذة الغناء ، وإن لم يرتفع إلى حد النشوة التى تسمو إلى نشوتها هى ، أمراً جديراً بالتقدير إذا قيس بما أبداه غيره من بلادة الإحساس، وأنصفت الكولونيل حين قدرت أن رجلا فى سن الخامسة والثلاثين جدير بأن يفقد حدة الإحساس والشعور المرهف بالمتعة واللذة ، وطابت نفسها بالتماس كل عذر له تقضى به الإنسانية بسبب تقدمه فى السن .

الفصل الثامن

كانت مسز جننجز أرملة ذات بائنة عقارية كبيرة ، ولم يكن لها سوى بنتين زوجتهما فى حياتها من رجلين جليلين ، ولذلك أصبح شغلها الشاغل هو تزويج بقية الناس ، فسعت جاهدة لتحقيق هذا الغرض بقدر ما اتسع له الذرع، ولم تدع فرصة تمر دون تدبير خطة لتزويج كل من تعرفه من الشباب . وكانت تكشف الحب بين الرجل والمرأة بسرعة غريبة ، وتمتاز بإثارة حمرة الخجل فى وجه الكثيرات من الفتيات ، وتبعث الغرور فى نفوسهن، كأن تلوح لهن بأن لهن سلطاناً على قلوب الشبان، ومكنتها هذه القدرة على اكتشاف الحب من أن تصرح بلهجة قاطعة عقب وصولها إلى بارتون مباشرة أن كولونيل براندون يهيم حبا بمريان داشوود . والغالب أنها لحظت هذا الحب مساء أول يوم اجتمعوا فيه بسبب إصغائه الشديد لها وهى تغنى لهم . ولما رد آل ميدلتون الزيارة لهن وتناولوا الغداء فى منزلهن تأكدت من هذا الحب حين رأته يصغى لها مرة أخرى ، فجزمت بأنه يحبها ، ورسخ هذا الاعتقاد فى نفسها ، ورأت أنه سيكون زواجا رائعاً لأنه ذو مال ، وهى ذات جمال . وكانت مسز جننجز تحرص على تزويج كولونيل براندون من امرأة طيبة منذ أن عرفته عن طريق سيرجون، كما كانت تحرص دائماً على إيجاد زوج طيب لكل فتاة جميلة .

وكانت الفائدة المباشرة التى تعود عليها من وراء ذلك لايستهان بها على الإطلاق ، لأنها كانت تجد فى ذلك معيناً لاينضب من النكات التى تتندر بها على الطرفين . ففى البارك تندرت على الكولونيل ، وفى المنزل الريفى تندرت

على مريان . وكانت هذه النكات بالنسبة للأول أمراً عادياً يثير اهتمامه ، أما بالنسبة للأخرى فلم تفهم الغرض منها فى بداية الأمر ، ولما فهمته لم تدر أتضحك على سخافتها أم تقدح فى سخافتها ، لما تتضمنه من تهكم قاس على تقدم الكولونيل فى السن ، وما يعانيه من بؤس وشقاء بسبب عزوبته وكبر سنه ؟

وحاولت مسز داشوود أن تبرئ مسز جننجز من تهمة الرغبة فى التهكم على سنه ، لأنها لم تعتقد أن رجلاً يصغرها بخمس سنوات يعد عجوزاً طاعناً فى السن ، كما بدا ذلك لخيال ابنتها الفتى .

« ولكنك يا أماه لاتستطيعين — على الأقل — أن تنكرى سخافة التهمة وإن كنت تعتقدين أنها لم تصدر عن سوء نية وخبث طوية . لاشك أن كولونيل براندون أصغر من مسز جننجز ، ولكنه كبير إلى حد يعد فى سن أبى . وإذا كان قد شعر بالحب يوما ما فلا ريب أنه فقد هذا الشعور منذ أمد طويل . إن الأمر يدعو إلى الضحك والسخرية ! متى يأمن الإنسان مثل هذه النكات إذا كانت سنه وعجزه لا يحميانه منها ؟ »

فقالت إلينور : « عجزه ! أتضفين كولونيل براندون بالعجز ؟ فى وسعى أن أفترض أنه يبدو لك أكبر بكثير مما يبدو لأمى . ولكن ليس فى وسعك أن تخدعى نفسك فتقولى : إنه عاجز عن الحركة ! »

« ألم تسمعى أنه يشكو وجع المفاصل . أليس ذلك هو أكثر حالات العجز الدال على تدهور الصحة ؟ »

فضحكت أمها وقالت : « يابنيتى العزيزة ! على هذا الأساس لابد أنك تشعرين بالفزع دائماً لتدهور صحتى ، وتَرَيْن أنى عشت إلى سن الأربعين بمعجزة » .

« أماه ! أنت لا تفهمين قصدى . أنا أعرف جيداً أن كولونيل براندون

لم يبلغ من السن حداً يجعل أصدقاءه يخشون فقده حسبما جرت به سنة الحياة ، فقد يعيش عشرين سنة أخرى . ولكن رجلاً بلغ الخامسة والثلاثين لا يصلح للزواج » .

قالت إلينور « ربما لا يصلح رجل فى سن الخامسة والثلاثين للزواج بامرأة فى سن السابعة عشرة . ولكن إذا اتفق وجود امرأة فى السابعة والعشرين فلن يكون ثمة فيما أعتقد أى اعتراض على زواجها من كولونيل براندون الذى يبلغ الخامسة والثلاثين » .

فأطرقت مريان هنيهة ثم قالت « ليس لامرأة فى سن السابعة والعشرين أى أمل فى أن تشعر بالحب ، أو تبعثه فى قلب رجل مرة أخرى . وإذا كان بيتها غير مريح ، أو كانت رقيقة الحال،ففى وسعى أن أقول : إنه يجدر بها أن تروض نفسها على الاضطلاع بمهمة الممرضة حتى توفر لنفسها وسائل العيش والطمأنينة . ولن يكون زواجه بمثل هذه المرأة أمراً غير مناسب ، لأنه سيكون زواج منفعة ومصلحة ، يرضى كلا الطرفين . وفى نظرى أن مثل هذا الزواج لا يعد زواجاً على الإطلاق، بل ليس بشىء ، إنه فى نظرى ليس إلا ضرباً من المبادلات التجارية التى يروم فيها كل من الطرفين أن ينتفع على حساب الآخر » .

فقالت إلينور « أنا أعلم أنه ليس من المستحيل أن أقنعك بأن فى وسع امرأة فى سن السابعة والعشرين أن تشعر نحو رجل فى الخامسة والثلاثين بعاطفة قريبة جداً من الحب تجعل منه رفيقاً محبوباً ، ولكنى أرى لزاماً على أن أعترض عليك حين تحكمين على كولونيل براندون وزوجته بالاعتكاف الدائم فى حجرة

المرض لا لسبب إلا أنه اتفق أن شكا أمس (وكان الطقس قارس البرد مشبعاً بالرطوبة) ألماً مفصلياً بسيطاً في كتفه » .

قالت مريان : « ولكنه تكلم عن الصُّدْرة المصنوعة من الفانِلة . وعندى أن الصدرة المصنوعة من الفانلة تقترن دائماً بالألم والتشنج وداء المفاصل ، وكافة ضروب العلل التى تعترى الشيوخ والضعفاء » .

« لو أنه أصيب بحمى شديدة فقط لما نزل من عينيك نصف هذا القدر . اصدقينىالقوليامريان : ألا تلذ لك الوجناتُ المتوردة ، والعيون الغائرة والنبض السريع مما يصاحب الحمى ؟ »

وسرعان ما قالت مريان عندما غادرت إلينور الحجرة « أمَّاه ! إن حديث المرض يدخل فى رُوعى من الفزع مالا أستطيع إخفاءه عنك . وأنا واثقة أن إدوارد فيرارز متوعك المزاج . لقد مضى علينا هنا قرابة أسبوعين دونأن يحضر وما من شىء يمكن أن يحبسه عن الحضور إلا وعكة ألمت به . وإلا فماذا يحبسه فى نورلاند ؟ » .

فقالت مسز داشوود « وهل كنت تتوقعين حضوره فى مثل هذه الموعد القريب ؟ إننى لم أتوقع ذلك بل على العكس . إن كان ساورنى شىء من القلق فلأنه لم يبد ارتياحاً أواستعداداً لقبول دعوتى حينما دعوته لزيارة بارتون . وهل تتوقع إلينور فعلا حضوره ؟ » .

« لم أذكر لها هذا الأمر قط ، لكن أعتقد أنها تتوقع حضوره » .

« يغلب على ظنى أنك مخطئة لأنى حين تحدثت معها بالأمس فى تركيب

شبكة من القضبان لغرفة النوم الاحتياطية، أجابت أنه لا ضرورة عاجلة لها لأنه لا يحتمل أن نحتاج إلى هذه الحجرة قريبا » .

« ما أغرب ذلك ! وما معناه يا ترى ! لقد كان مسلك كل منهما تجاه الآخر ضرباً من الألغاز ! كان وداعهما الأخير فاتراً هادئاً ! وكان حديثهما فى آخر اجتماع لها فاتراً ! ولم يميز إدوارد فيرارز فى وداعه بينى و بين إلينور إذ أعرب فى وداعه عن التمنيات الطيبة التى يتمناها الأخ الودود لأختيه . وقد تعمدت الابتعاد عنهما مرتين فى صباح آخر يوم، فكان فى كل مرة يخرج من الحجرة على أثرى بطريقة لم أستطع أن أفهم لها سبباً . وعندما ودعت إلنيور نورلاند لم تبك كما بكيت ، ولا تزال حتى الآن تحتفظ بضبط النفس كما كانت يومئذ . متى ترينها تحاول أن تعتزل الناس ، أو تشعر بالقلق أو الاستياء من مخالطتهم ؟ » .

الفصل التاسع

استقر الآن آل داشوود في بارتون ، وشعرن بقدر لا بأس به من الراحة في الإقامة به ، وأ لفن المنزل والحديقة بكل مايحيط بهما من المناظر ، وعدن إلى الأعمال العادية التي كانت تضفي على قصر نورلاند نصف مافيه من سحر وجاذبية ، فأقبلن على ممارستها بشغف ولذة أكبر بكثير مما وجدنه في نورلاند منذ وفاة أبيهن . ولم يخف سير جون الذي زارهن كل يوم خلال الأسبوعين الأولين دهشته لما رآه من انهما كهن الدائب في العمل ، إذا لم يتعود أن يرى مثل هذا العمل الكثير في منزله .

ولم يتردد عليهن زوار كثيرون إذا استثنينا أهل بارتون بارك ، لأن حب الاستقلال الذي فطرت عليه مسز داشوود تغلب على رغبتها في اختلاط بناتها بالمجتمع ، على الرغم من إلحاح سير جون عليهن بالاختلاط مع جيرانهن وتأكيده الدائم لهن أن عربته تحت تصرفهن في أي وقت ، وصممت ألا تزور أية أسرة لا يمكن زيارتها مشيا على الأقدام ، لكن الأسر التي ينطبق عليها هذا الشرط كانت قليلة ، ولم يكن من الميسور زيارتها جميعا وكانت البنات قد اكتشفن في إحدى جولاتهن الأولى قصراً قديما فخما يبعد عن منزلهن زهاء ميل ونصف ، ويقع على طول وادي أ لنهام الضيق المتعرج الذي يتفرع من وادي بارتون كما وصفنا آنفا . وكان هذا القصر يشبه نورلاند بعض الشبه ، فاشتقن لرؤيته ، وتاقت نفوسهن إلى التعرف بأهله . ولكنهن عندما استقصين خبره علمن أن صاحبته سيدة عجوز حميدة الخصال ، ولكن لسوء الحظ وهن منها العظم فلا تستطيع الاختلاط بالناس ولا تتحرك من البيت .

وكان الإقليم الذى يحيط بهن عامراً بالمتنزهات الجميلة، ومنظر التلال والمروج العالية يدعوهن من سائر نوافذ المنزل إلى الخروج لتنسم الهواء العليل على قمم التلال، فكن يؤثرن التوجه إليها إذا حجبت أقذار الوديان السفلى جمال التلال الرائع. وفى صباح يوم مشهود توجهت مريان ومرجريت إلى أحد هذه التلال يحدوهما سطوع بعض أشعة الشمس فى سماء يوم مطير، بعد أن ضاقتا ذرعا بالاعتكاف فى المنزل بسبب هطول المطر طول اليومين الماضيين. ولم يكن الطقس مغريا لدرجة تحمل الأخريين بترك القلم والكتاب، على الرغم من تصريح مريان أن الطقس سيظل جميلا طول اليوم، وأن السحب الداكنة ستنقشع عن التلال وهكذا خرجت الفتاتان معا.

فصعدتا التلال وشعرتا بالبهجة والسرور كلما نظرتا إلى السماء، ورأتا — حينما لفحت وجهيهما الرياحُ العاصفة من جهة الجنوب الغربى — المخاوف التى منعت أمهن وإلينور من المشاركة فى هذه المتعة.

وقالت مريان: «هل من متعة أعظم من ذلك يا مرجريت؟ سنتنزه هنا ساعتين على الأقل». فوافقتها مرجريت على ذلك، وواصلتا المسير فى وجه الريح، وهما تقاومانها فى ضحك وشغف زهاء عشرين دقيقة، وإذا بالسحب تتجمع فوق رأسيهما، والمطر الغزير ينهمر على وجهيهما، فاضطرتا إلى العودة على مضض وهما تشعران بالأسى والدهشة، لأنه لم يكن ثمة مأوى أقرب إليهما من منزلهما، غير أنه لم يكن أمامهما سوى وسيلة واحدة للخلاص اقتضتها ضرورة الموقف ألا وهى الهرولة بأقصى سرعة على التل الشديد الانحدار المؤدى إلى باب الحديقة مباشرة. فشرعتا تهبطان، وسبقت مريان أختها، ولكن زلت قدمها فسقطت على الأرض فجأة. ولم تستطع مرجرت أن تتوقف عن الهبوط لمساعدة أختها، فأسرعت مضطرة فى النزول ووصلت إلى السفح بسلام.

وكان رجل يحمل بندقية وحوله كلبان يلعبان ، يهم بطلوع التل على مسافة قصيرة من مريان حينما وقع هذا الحادث ، فألقى بندقيته ، وسارع إلى نجدتها ، ونهضت من عثرتها، ولـكنهالم تستطع الوقوف،لأن قدمها التوت عند سقوطها ، فعرض عليها أن يساعدها ، ولـكن الحياء منعها من قبول مايقتضيه الموقف ، فما كان منه إلا أن حملها بين ذراعيه بدون تردد ولا توان ، ونزل بها من التل ، ثم اخترق الحديقة وكانت مرجريت قد تركت بابها مفتوحا ، فأدخلها فى المنزل مباشرة حيث وصلت مرجريت لتوها ، ولم يتركها حتى أجلسها على كرسى فى ردهة المنزل .

فوقفت إلينور وأمها فى دهشة عند دخولها ، وصَوَّبتا إليه النظر فى عَجَبٍ ظاهر ، وإعجابٍ كامنٍ مبعثهما جمال منظره ، فاعتذر لهما عن تطفله لدخول المنزل، وقص عليهما أمره بأسلوب يتسم بالصراحة والظرف والـكياسة ، وكانت عذوبةُ صوته ، ورقةُ تعبيره تزيد من مفاتن وجهه الذى يمتاز بالجمال البارع . وحتى لو كانهذا الرجل عجوزاً ودميماً وسُوقياً لـكان جديراً بشكر مسز داشوود وبرها لاهتمامه بينتها ، ولـكن شبابه وجماله وظرفه زاد من قيمة العمل الذى مسَّ إحساسها .

فـكررت له الشكر ، ودعته إلى الجلوس بلهجتها الرقيقة التى لاتفارقها قط . ولـكنه أبى واعتذر لأن ثيابه قذرة ومبتلة . وحينئذ طلبت إليه أن يعرفها بنفسه، فقال : إن اسمه « ولبى » وأنه يقيم حالياً فى ألِنهَام : ثم طلب إليها أن تسمح له بشرف الزيارة فى الغد ليسأل عن صحة مس داشوود ، فأولته هذا الشرف دون تردد . ثم انصرف والمطر ينهمر غزيراً ، فزاده ذلك حبا فى نفوسهن .

وسرعان ماأصبح جماله ومروءته وظرفه الفائق مثاراً لإعجابهن جميعا ،

وتضاحكن من مريان لما أبداه من شهامة فى إنقاذها ، وزادهن إغرقا فى الضحك جمال منظره . ولم تكن مريان قد أنعمت فيه النظر مثلما فعل غيرها ، لأن حمرة الخجل التى علت وجهها عندما رفعها بين ذراعيه ، سلبتها القدرة على النظر إليه ، بعد أن دخلا المنزل . ولكنها شاهدت من جماله ما يكفى لأن تشاركهن الإعجاب به ، وتلهج بالثناء عليه . وكانت شخصيته وشمائله تطابق الصورة التى رسمتها فى خيالها لفتى أحلامها . ومما زادها ثناء على تصرفه ما أبداه من سرعة البديهة فى حملها إلى المنزل دون كلفة . وكانت كل أحواله أمراً محببا إلى النفس ، فاسمه جميل ، ومحل إقامته فى قريتهن المحبوبة . وسرعان ما رأت أن سترة الصيد هى أجمل ملابس الرجال ، وأصبح فؤادها مشغولا به ، وقلبها عامراً بالبهجة والسرور ، ونسيت الألم الناشىء عن التواء كاحلها .

وزارهن سيرجون بمجرد أن سمحت له الفترة التالية من الطقس الجميل فى ذلك الصباح بالخروج من المنزل ، وحكين له قصة الحادث الذى وقع لمريان وسألنه باهتمام ، هل يعرف رجلا باسم « ولبى » فى قرية إلنهام ؟

فصاح سيرجون « ولبى ! أموجود هو بالريف ؟ إنه لخبر مدهش ! ومع ذلك فهو خبر سار . سأركب غداً وأدعوه لتناول الغداء يوم الخميس »

فقالت مسز داشوود « كأنك تعرفه إذن ؟ »

« كيف لا ! أعرفه حقاً . إنه يأتى هنا كل عام »

« وماذا تعرف عنه ؟ »

« أؤكد أنه من خيرة من عرفتهم من الرجال ، فهو صياد ماهر . وليس فى إنجلترا من هو أجرأ منه فارساً . »

فصاحت مريان غاضبة « وهل هذا كل ماتعرفه عنه ؟ ما أخلاقه التى عرفتها بحكم صلتك الوثيقة به ؟ ما أعماله ومواهبه وعبقريته ؟ »

فارتبك سيرجون بعض الارتباك .

وقال : «لعمرى إن مبلغ علمى عنه لا يصل إلى هذا الحد. ولكنه إنسان لطيف حلق المحيا. له كلبة سوداء لم أر أجمل منها ، هل كانت هذه الكلبة معه اليوم ؟»

ولكن مريان لم تستطع أن تذكر له لون كلبته، كالم يستطع هو أن يذكر لها شيئاً عن مواهبه وعبقريته .

وسألته إلينور : « ولكن ماهو ؟ وما بلده ؟ وهل له منزل فى إلنهام ؟ »
ولم يستطع سيرجون أن يجيب عن هذه الأسئلة جوابا مؤكدا . وأخبرهن أن مستر«ولبى» ليس له أملاك خاصة فى الريف، وأنه لا يقيم هناك إلا ريثما يزور السيدة العجوز فى إلنهام كورت التى تربطه بها صلة القربى ، والتى سيرث هو أملاكها ، وأضاف قائلا : « نعم نعم ! أؤكد لك يامس داشوود أنه جدير بالاصطياد ! فله ضيعة صغيرة خاصة فى مقاطعة سمرستشاير المجاورة . ولو كنت مكانك لما زوجته صغرى بناتى على الرغم من التعثر على جوانب التلال. وعلى مس مريان ألا تتوقع أن تستولى على جميع الرجال . إن براندون سيشعر بالغيرة إذا لم تأخذ حذرها » .

فتبسمت مسز داشوود وتهلل وجهها بالبشر وقالت « لا أعتقد أن محاولة إحدى ابنتى لما تسميه بالاصطياد سيسبب لمستر«ولبى» شيئاً من الضيق والانزعاج . فهذا عمل لم يألفاه . ولا خطر منا على الرجال مهما كانوا أثرياء . ولكنى سررت حين علمت من حديثك أنه شاب جدير بالاحترام ، وأنه لا ضير من معرفته » .

فردد سيرجون ماقاله من قبل : « إنه من خيرة من عرفتُ من الرجال ، وأذكر أننا أقمنا حفلة رقص فى عيد الميلاد الماضى فرقص فيها من الساعة الثامنة إلى الساعة الرابعة دون توقف » .

فصاحت مريان وقد برقت عيناها « أصحيح أنه رقص ، ورقص برشاقة ونشاط ؟ »

« نعم ، ثم استيقظ فى الساعة الثامنة ليركب إلى حمى الصيد » .

« هذا هو ماأحبُّ وأهوى . وهكذا ينبغى أن يكون الفتيان ! مهما يكن العمل الذى يمارسونه فعليهم أن ينهمكوا فيه إلى حد الإفراط ، دون أن يشعروا بأى تعب أو نصب » .

فقال سيرجون « نعم نعم ! قد فهمت ماترمين إليه . تريدين أن تظفرى به ولاتفكرين فى براندون المسكين » .

فقالت مريان محتدة : هذا تعبير أمقته مقتا شديداً . إننى أمقت كل عبارة مبتذلة يراد بها التندر والدعابة ، وأبغض العبارات إلى كلمة « الظفر بالرجال » و«غزو قلوب الرجال» إنها عبارات سمجة وغير كريمة . وإذا كان فى صياغتها شىء من البراعة فقد فات زمن هذه البراعة .

ولم يفقه سيرجون معنى لهذا التعنيف ، فقهقه ضاحكا ثم أجاب :

« نعم ، إننى أعتقد أنك ستغزين قلب هذا الرجل أو ذاك غزواً كاملا . واحسرتاه على براندون المسكين ! لقد جُرح فؤاده من قبل ، وأعتقد أنه جدير بإعجابك على الرغم من كل هذا التعثر على جوانب التلال ، والتواء الأقدام » .

الفصل العاشر

جاء «منقذ مريان» كما شاءت مرجريت أن تسمى «ولبى»، وهو اسم أقرب إلى الرقة منه إلى الدقة، وزارهن فى منزلهن الريفى صباح اليوم التالى يسأل بنفسه عن صحة مريان، فاستقبلته مسز داشوود بأدب جم وحفاوة بالغة مبعثهما ثناء سيرجون عليه، وعرفانها بجميله. وكان كل مادار فى هذه الزيارة من شأنه أن يؤكد له ما تتصف به الأسرة، التى ساقته الصدفة إلى التعرف إليها، من عقل راجح وظرف فائق، وحب متبادل، وهناء «عائلى». ولم يكن بحاجة إلى زيارة أخرى ليقتنع بما يتحلين به من المحاسن الشخصية.

كانت مسز داشوود ذات وجه نحيف منتظم القسمات، كما كانت بارعة الحسن والجمال، وكانت مريان تفوقها حسنا وجمالاً، وكان قوامها — وإن لم يكن سوياً كقوام أختها — أخاذاً يلفت الأنظار لأنه كان فارعا، وكانت طلعتها تزدان بالبهاء بحيث إذا وُصفت فى لغة الثناء العادية بأنها جميلة لم يكن هذا الوصف تجنياً على الحقيقة. وكانت بشرتها شديدة السمرة ولكنها تبدو متألقة لشفوفها، ومعارف وجهها كلها لطيفة، وابتسامتها حلوة جذابة، وعيناها دعجاوان يتوقدان حيوية وحمية، بحيث لا يسع من ينظر إليها إلا أن يشعر بالسرور. وكانت فى بداية الأمر تغض بصرها عن «ولبى» لما تشعر به من حرج عندما تتذكر إنقاذه لها، ولكن عندما ارتفع هذا الحرج واستجمعت قواها، وعرفت أنه يجمع بين الخلق المهذب والصراحة والمرح، وسمعته فوق ذلك كله يصرح أنه شديد الولع بالموسيقى والرقص — صارت تنظر إليه بعين الرضا والقبول حتى خصها بأكبر قسط من الحديث طوال الفترة الباقية من الزيارة.

وكان يكفى ذكر أى ضرب من ضروب التسلية المحبوبة حتى تشترك فى الحديث ، فلم تكن تطيق السكوت عندما تثار هذه الأمور ، ولا يعتريها الخجل أو التحفظ فى مناقشتها . وسرعان ماعرفا أنهما يشتركان فى حب الرقص والموسيقى ، وسبب هذا الحب هو اتفاقهما فى الحكم على ما يتصل بهذين الأمرين، وشجعها ذلك على استقصاء رأيه فى بقية الأمور ، فانتقلت إلى موضوع الكتب ، فذكرت له أسماء الكتاب الذين تحبهم ، وأخذت تغدق عليهم الثناء بحيث لا يسمع أى شاب فى سن الخامسة والعشرين إلا أن يؤمن بجودة مؤلفاتهم مهما كانت منبوذة من قبل ، واتضح أن ذوقهما واحد بصورة تلفت النظر ، كلاهما يهوى من الكتب والفصول ما يهواه الآخر ، وإذا بدا منه أى خلاف أو اعتراض لم يلبث أن يزول أمام قوة حجتها وبريق عينيها ، ولا يسعه إلا أن يوافق على كل آرائها ويبدى مثل حماستها . وقبل انتهاء زيارته بفترة طويلة ظلا يتحدثان بدون كلفة حديث الصديقين اللذين تعارفا منذ زمن طويل .

وما إن ودعهن حتى قالت إلينور: « حسنا يامريان ! أعتقد أنك قمت بعمل رائع فى صباح يوم واحد . لقد تبينت آراء مستر « ولبى » فى كل أمر ذى بال ، فعرفت رأيه فى كوبر وسكوت ، وتأكدت أنه يقدر مؤلفاتهما الرائعة كما ينبغى، وتلقيت منه كل تأكيد بأنه لن يعجب بيوب أكثر مما ينبغى . ولكن كيف يطول تعارفكما بعد أن قتلتما كل موضوع بحثاً فى هذا الحديث العجيب. ولن تلبثا أن تستنفدا كل موضوع شائق . وأعتقد أن اجتماعاً آخر سيكفى لإيضاح رأيه فى المناظر الجميلة التى تستحق التصوير ورأيه فى الزواج الثانى ، وحينئذ لن تجدى ما تسألينه .

فصاحت مريان « أهذا من الإنصاف ؟ أهذا من العدل ؟ أأفكارى بمثل هذا القدر من الضآلة ؟ لكنى ما أعرف ما تقصدين لقد أرسلت نفسى على سجيتها ، وأبديت من السرور والصراحة ما يجاوز الحد المألوف ، وخرجت عن حد الحشمة والوقار ، فتحدثت بصراحة وإخلاص حيث كان ينبغى أن ألوذ بأهداب التحفظ والانقباض والخداع . ولو أنى تحدثت عن حالة الطقس والطرق، ولم أتكلم إلا مرة واحدة كل عشر دقائق ، ما أنحيت على باللائمة .

فقالت أمها: «حبيبتى ! لاينبغى لك أن تنضبى من إلينور، فهى تمزح معك وأنا نفسى لا أتردد فى توبيخها إذا أرادت أن تحرمك من لذة الحديث مع صديقنا الجديد » . فهدأ ذلك من روع مريان فى الحال .

وقدم «ولبى» من جانبه كل دليل على سروره بالتعرف إليهن يمكن أن تقدمه الرغبة الواضحة فى توثيق أواصر هذه المعرفة ، فصار يتردد عليهن كل يوم ، وكانت حجته فى البداية هى السؤال عن صحة مريان ، ولكن ما كان يلقاه من حفاوة ، ومظاهر الحب التى تزداد يوماً بعد يوم ، لم يجعل لهذه الحجة ضرورة قبل أن تصبح غير ذات موضوع بشفاء مريان التام . وظلت مريان تلازم الفراش بضعة أيام . ولكن ملازمتها للفراش لم تكن قط أبعد عن السآمة والملل كما كانت فى تلك الأيام . وكان «ولبى» فتى ذكى الفؤاد، سريع البديهة، خفيف الروح ، صريح اللهجة ، حلو الشمائل ، كأنه خلق ليوافق هوى مريان تماماً ، إذ لم يكن يجمع إلى هذا كله شخصية ساحرة فحسب بل وحمية فطرية يزيد من توقدها واحتدامها ، اتصافها هى بهذه الخصلة التى حببتها فيه أكثر من أى خصلة أخرى .

وصارت صحبته بالتدريج أ كبر متعة لها ، فكانا يقرآن معاً و يتحدثان معاً ويغنيان معاً . وكانت له مواهب غنائية عظيمة ، كما كان يقبل على القراءة بلذة وشغف ينقصان إدوارد لسوء الحظ.

وكانت مسز داشوود ترى كما ترى مريان أنه رجل لا عيب فيه. أما إلينور فكانت لا تعيب فيه إلا ميله للمبالغة والإفصاح عن رأيه فى كل الأمور دون مراعاة لشعور الأشخاص أو مقتضيات الأحوال ، وهى خصلة تشبه خصلة أختها شبهاً قوياً وتسرها كثيراً . وكان فى تسرعه فى الحكم على الناس وإبداء هذا الحكم ، وفى مجافاته لأصول المجاملة مع الناس بانصرافه عنهم ليقبل بكليته على مناجاة من يهواه ، وفى استهتاره بالأصول المرعية التى تواضع عليها الناس - يبدى من عدم الحذر ما تستنكره إلينور على الرغم من كل ما يسوق هو ومريان من حجج فى الدفاع عن هذه الخصلة .

وبدأت مريان تدرك الآن أن اليأس الذى اعتراها فى السادسة عشرة والنصف من رؤية إنسان تتوافر فيه صفات الكمال التى تصبو إليها ضرب من النزق والطيش ، فقد كان «ولبى» هو الصورة الكاملة التى تخيلتها فى تلك الفترة الأليمة، وفى كل لحظة مشرقة للرجل الذى يملك القدرة على استمالة قلبها ، وكان سلوك «ولبى» يدل على أن رغبته الصادقة فى استمالة قلبها تعادل قدرته على ذلك .

ولم يمض أسبوع حتى أصبحت أمها ترجو وتتوقع - دون أن يكون الباعث على هذا الأمل هو ثروته المستقبلة - أن يتم زواجهما ، وتغتبط فى سرها لفوزها بزوجين لبنتيها هما إدوارد وولبى .

ثم تبينت إلينور — لأول مرة — محبة كولونيل براندون لمريان التى اكتشفها أصدقاؤه فى بداية الأمر ، ثم صرفوا النظر عنها ، وتحول اهتمامهم ونكاتهم إلى غريمه الذى كان أسعد منه حظاً ، فكفوا عن النكات التى تندروا بها على الكولونيل قبل أن يحب مريان ، فى الوقت الذى أخذت فيه مشاعره تستوجب التهكم الذى وجه بحق إلى العاطفة الجامحة . واضطرت إلينور — على كره منها — أن تعتقد أن أختها أصبحت تثير فى نفسه الآن تلك العاطفة التى سبق أن نسبتها إليه مسز جننجز بمحض هواها ، وأن التباين الشديد بين أخلاقها وأخلاقه لم يمنعه من حبها على الرغم من أن تشابه الطباع بينها وبين «ولبى» من شأنه أن يوثق أواصر المحبة بينهما .

ولذلك ساورها الشعور بالقلق ، إذ أى أمل لرجل صامت وقور فى الخامسة والثلاثين، فى مواجهة فتى مرح طروب فى الخامسة والعشرين ؟ وتمنت من صميم فؤادها أن ينصرف عن محبة أختها لأنها لم تر له أى أمل فى النجاح . وكانت إلينور تضمر له الود على الرغم من رزانته وتحفظه لأنها كانت تراه جديراً بالمودة ، فقد كان دمث الأخلاق على وقاره وكان يبدو أن تحفظه يرجع إلى الشعور بالأسى لا إلى الكآبة الطبيعية ، وقد سبق أن أشار سير جون إلى مااعتراه من خيبة الأمل وحل به من الأذى ، مما يبرر الاعتقاد بأنه رجل سيئ الحظ ، ولذلك كانت تنظر إليه بعين الاحترام والعطف .

ولعل ممازادها احتراما له وإشفاقا عليه إهانة «ولبى» ومريان له، ودأبهما على الغض من قدره ، وتحاملهما عليه لأنه لا يستخفه المرح ،ولا يترقرق فيه ماء الشباب .

قال «ولبى» ذات يوم وهما يتحدثان عنه : « براندون هو ذاك الذى يُثنى الناس عليه ، ولا يأبهون له ، ويحبون رؤيته ، ولايفكرون فى التحدث إليه » .

فصاحت مريان : « هذا هو رأيى فيه تماما » .

فقالت إلينور : « لاتتباهَىْ بذلك لأن ذلك الرأى يجانب الإنصاف منكما فإن أهل البارك يجلونه كل الإجلال ، وأنا لاأراه قط دون أن أحرص على التحدث إليه » .

فأجاب «ولبى» « لاريب أن دفاعك عنه شهادة طيبة فى حقه . أما احترام غيرك له فإنه سُبَّة فى حد ذاته . من ذا الذى يقبل على نفسه معرة التقدير الذى يصدر عن امرأتين أمثال ليدى ميدلتون ومسز جننجز لايعبأ بهما أحد ؟ »

« ولـكن لعل سبابك وسباب مريان يـكفر عن احترام ليدى ميدلتون وأمها . وإذا كان مدحهما ذما فإن ذمكما قد يكون مدحا ، لأنهما إذا افتقرتا إلى صحة التمييز ، فأنتما تفتقران إلى الإنصاف » .

« إنك تذهبين فى الدفاع عن صنيعتك إلى حد الوقاحة » .

« إن صنيعتى ـ كما تسميه ـ رجل عاقل ، وسأظل أحب العقل دائما . نعم أحب العقل يامريان حتى فى رجل بين الثلاثين والأربعين . إنه رجل جاب كثيراً من الأقطار ، وكابد الأسفار ، وقرأ كثيراً من الأسفار وله عقل مفـكر . وقد أمدنى بـكثير من المعلومات فى مختلف الموضوعات ، وأجاب عن أسئلتى بأدب ولطف . »

فصاحت مريان بلهجة الاحتقار « أى أنه حدثك عن جزر الهند الشرقية ، فقال : إن المناخ حار ، والبعوض ضار » .

« لاريب أنه كان يخبرنى بذلك لو وجهت إليه مثل هذه الأسئلة . ولكنى كنت أعرف هذه الأمور من قبل » .

فقال ولبى : « لعله شاهد ــ فيما شاهد ــ النُّوّابَ ، والأمهار ، وتَخْت رُوَان[1] » .

« فى وسعى أن أقول إن مشاهداته أوسع مما تقول . ولكن حدثنى لماذا تكرهه ؟ »

« أنا لا أكرهه . ولكنى ــ على العكس ــ أعده رجلا جديراً بالاحترام ، يثنى عليه الناس خيراً ، ولايعيرونه التفاتا ، وعنده من المال أكثر مما ينفق ، ومن الوقت أكثر مما يلزم ، وسترتان جديدتان فى كل عام » .

وصاحت مريان: « أضف إلى ذلك أنه مجرد من العبقرية والذوق والمرح ، وأنه ليس ذكى الفؤاد ، ولا مشبوب العاطفة ، ولا طلق اللسان » .

فأجابت إلينور « إنك تقررين عيوبه على وجه الإجمال ، وتعتمدين على قوة خيالك بحيث يبدو ثنائى عليه فاتراً وتافها بالنسبة لما ذكرت من عيوبه . وقصارى ماأقوله: إنه رجل عاقل مهذب واسع الاطلاع ذو حديث لطيف،وأعتقد أنه يحمل بين جنبيه قلبا رقيقا » .

---

(١) النواب جمع نائب وهو نائب الحاكم فى الهند ، أو الحاكم المولى لإحدى المقاطعات الهندية والأمهار جمع مهر وهو بالإنجليزية غزال فى شمال إفريقية . وتخت روان محفة تشبه الهودج كانت تستخدم سابقا فى شرق آسيا لنقل شخص واحد ، وهى صندوق خشبى يحمل على أكتاف الرجال . (المترجم)

وصاح ولبى: «مس داشوود ! إنك تعاملينني بقسوة، وتحاولين أن تجرديني من سلاحي بقوة العقل والمنطق ، وتقنعيني على كره مني. ولـكن ذلك لن يجدى . ستجدين أنني أوتيتُ من العناد ، بقدرما أوتيت من الدهاء. إنني أكره كولونيل براندون لأمور ثلاثة لاسبيل للرد عليها : أنذرني أن الطقس سيكون مطيراً ، وأنا أريده جميلاً ، وانتقد ستائر «عربتى»،ولم يقبل شراء فرسى الـكُمَيْت.و إذا سرك أن أقول:إنه لاغُبار على أخلاقه فيما عدا ذلك ، فأنا مستعد للاعتراف بذلك وفى نظير هذا الاعتراف الذى يؤلمنى بعض الألم أرجوأن تسمحى لى بأن أكرهه كما كرهته من قبل » .

الفصل الحادي عشر

قلما كانت مسز داشوود و بناتها يتصورن عندما جئن أول مرة إلى ديفو . نشاير، أنهن سير تبطن بمواعيد كثيرة تشغل وقتهن كتلك المواعيد التى ارتبطن بها فى المستقبل القريب أو أنهن سيتلقين من الدعوات الكثيرة ، و يستقبلن سيلا لا ينقطع من الزائرين لا يدع لهن متسعا من الوقت للعمل الجدى . ولكن هكذا كان شأنهن . فما إن شفيت مريان حتى أخذ سير جون ينفذ ما فكر فيه من ضروب اللهو والتسلية داخل المنزل وخارجه . فبدأت حفلات الرقص الخاصة فى البارك ، ونظمت النزهات فى أغلب الأوقات التى سمح بها شهر أكتوبر المطير .

وشهد «ولبى» كل هذه الاجتماعات ، وكان جو الألفة ورفع الكلفة الذى يسود هــذه الحفلات بالطبع ، من شأنه أن يوثق أواصر الود بينه و بين أسرة داشوود ، وأن يتيح له الفرصة لمشاهدة محاسن مريان ، و إبداء الإعجاب الشديد بها ، وأن يلمس بنفسه من سلوكها معه ما يؤكد حبها له كل التأكيد .

ولم تدهش إلينور لما شعرا به من الحب . وكل ما كانت تريده ن يقللا من مظاهر الحب . وقد نصحت مريان مرة أو مرتين بالتزام شيء من ضبط النفس . ولكن مريان كانت تمقت كل كتمان لهذا الحب لأنها لم تجد أى عار فى إظهاره ، وكانت ترى أن كبت العواطف غير المذمومة فى حد ذاتها أمر لا ضرورة له ، فحسب بل هو ضرب من إخضاع العقل لرق الأفكار الخاطئة البالية . وكان «ولبى» يرى رأيها ، وتصرفهما فى جميع الأوقات يعبر عن رأيهما .

ولم تـكن مريان تنظر فى حضوره إلى أحد سواه ، وكانت ترى كل ما يفعله صائباً ، وكل ما يقوله سديداً . وإذا ختما السهرة فى البارك بلعب الورق غش هو نفسه وغش بقية اللاعبين لبمـكنها من الفوز عليهم . وإذا كان الرقص هو وسيلة التسلية فى الليل رقصا معا نصف الوقت ، وإذا تخليا عن الرقص ليرقص غيرهما وقفا يتحدثان معا ، دون أن يوجها كلمة إلى أحد . وكان مثل هذا السلوك منهما مدعاة لإثارة السخرية ، ولـكن السخرية لم تثر فى نفسيهما شيئاً من الخجل أو الاستفزاز .

وكانت مسز داشوود تشاركهما فى جميع مشاعرهما بحرارة لم تترك (فى نفسها) ميلا للحد من إسرافهما فى إظهار عواطفهما ، وكان من رأيها أن هذا نتيجة طبيعية للحب الشديد عند الشباب المشبوب العاطفة .

كان هذا هو موسم السعادة فى حياة مريان ، إذ هام قلبها بحب «ولبى» ، وأضفت صحبته على منزلها الحالى جواً من السحر والجاذبية خفف بدرجة لم تـكن تتصورها من حدة الحب العميق لنورلاند الذى حماته معها من سسكس .

أما إلينور فلم تشعر بمثل هذه السعادة، ولم تنعم براحة البال، ولم تجد متعة خالصة فى وسائل لهوهم لأن هذه الوسائل لم تتح لها رفيقاً يعوضها عن خلفته وراءها، أو يخفف من لوعة فراقها لنورلاند . ولم يكن فى حديث ليدى ميدلتون ولا مسز جننجز ما يعوضها عن الحديث الذى فقدته ، وإن كانت الأخيرة محدثة لا ينضب معين حديثها ، وقد حبت إلينور منذ البداية بعطفها وخصتها بالشطر الأكبر من حديثها، وقصت عليها تاريخها ثلاث مرات أو أربعا، ولو أن إلينور كانت قوية الذاكرة لعرفت أن مسز جننجز سبق أن حكت لها فى بداية حديثها جميع تفاصيل

مرض مستر جننجز الأخير، وما قاله لزوجته قبل موته بدقائق معدودات . وكانت ليدى ميدلتون أحب إلى إلينور من أمها فى خصلة واحدة، ألا وهى الصمت . على أن إلينور لم تكن بحاجة إلى إمعان النظر لتدرك أن صمتها لم يكن سوى ضرب من الهدوء لاصلة له بالعقل ، وكان مسلكها حيال زوجها وأمها كمسلكها حيالهن ، ولذلك لم تسع إلى توثيق أواصر الود معهن وكانت لا ترغب فى ذلك ، ولا تقول اليوم مالم تقله بالأمس، وكانت ثقيلة الظل لا يتغير مزاجها ولا يتبدل، ولا تعارض فى الحفلات التى يقيمها زوجها بشرط أن تجرى على السنن المألوف ، وأن يرافقها ولداها الكبيران ، ولكنها لا تجد فيها من المتعة أكثر مما تجده فى الجلوس بالمنزل ، وقلما كانت تدخل السرور على الحاضرين ، فتشاركهم فى الحديث ،حتى لقد كانوا ينسون أنها موجودة بينهم لولا اهتمامها بشغب أولادها .

وكان كولونيل براندون هو الشخص الوحيد من بين معارف إلينور الذى تحترم مواهبه، وتحب صداقته، وتهوى صحبته. أما «ولبى» فكان من المستحيل أن تفكر فى صحبته . وكانت تخص براندون بالاحترام والمحبة بل تحبه محبة الأخت لأخيها ، ولكنه كان يحب مريان و يوليها كل اهتمامه . ولو أن رجلا أقل منه لطفا وأنسا تقدم إليها لكان من المحتمل أن يظفر على وجه العموم برضاها . ولكن كولونيل براندون لم يلق منها لسوء الحظ مثل هذا التشجيع حتى يفكر فيها فقط ، فوجد فى حديث إلينور أعظم عزاء له عن إعراض مريان .

ومما زاد من عطف إلينور عليه أنها عرفت أنه أصيب بخيبة الأمل فى الحب وخامرها هذا الظن من بضع كلمات بدرت منه مصادفة وهما فى البارك ذات ليلة ، وكانا قد اتفقا على الجلوس معا بينما كان الآخرون يرقصون .

وكانت عيناه معقودتين بمريان ثم قال ـ بعد أن أطرق بضع دقائق وعلى

شفتيه ابتسامة خفية : « علمت أن أختك لاتوافق على الزواج الثانى » .

فأجابت إلينور « نعم ، إن آراءها كلها خيالية » .

« أو بعباوة أصح ــ فيما أعتقد ــ ترى أنه من المستحيل وجود مثل هذا الزواج » .

« أعتقد أنها ترى ذلك . ولـكنى لاأدرى كيف تذهب إلى هذا الرأى دون أن تفكر فيما فعله أبوها الذى تزوج مرتين . ولـكن آراءها ستقوم بعد بضع سنوات على أساس من حسن الإدراك ودقة الملاحظة ، وحينئذ يسهل على أى إنسان آخر أن يحدد هذه الآراء ويبررها » .

فأجاب « أكبر الظن أن هذا ما سيصير الأمر إليه . ومع ذلك فإن الشبان يجدون لذة فى اتباع أهوائهم ، ولذلك يأسف المرء لانقيادهم وراء الآراء التى تقوم على التعميم » .

فقالت إلينور « لايمـكن أن أوافقك على ذلك ، فهناك متاعب تترتب على مثل هذه العواطف التى تشعر بها مريان ولايمكن تبريرها بالحماسة والجهل بأحوال الدنيا ، فهى تميل بطبعها كل الميل إلى الاستخفاف بأصول اللياقة وهو أمر يدعو إلى الأسف . وإنى لآمل أن تجنى أكبر الفائدة متى ازدادت خبرة بأحوال الدنيا » .

وبعد أن أطرق هنيهة استأنف حديثه قائلاً : « ألا تفرق أختك فى اعتراضها على الزواج الثانى ؟ وهل هو جريمة فى حق كل إنسان على السواء ؟ وهل الذين لم يوفقوا فى اختيارهم الأول بسبب الخيانة الزوجية أو سوء الحظ ، سواء فى الحكم طوال المدة الباقية من حياتهم ؟ . »

« لعمر الحق لأدرى تفصيلات رأيها . وكل ما أعرفه أننى لم أسمعها قط تغتفر أية حالة من حالات الزواج الثانى » .

فقال : « هذا لا يستقيم . ولكن لا ترغبى فى تغيير عواطفها تغييراً تاماً كلا — كلا ! لأن الشباب حينما يصاب بخيبة الأمل فى الحب والغرام يعتنق هذه الآراء الشاذة الخطرة ! إنى أتكلم عن خبرة وتجربة . فقد عرفت ذات مرة سيدة تشبه أختك فى طباعها وعقلها شبها شديداً ، وتفكر وتحكم على الأشياء مثلها ثم طرأت سلسلة من الظروف المحزنة . .

وهنا أمسك عن الكلام فجأة ، وبدا له أنه جاوز القصد فى تعبيره ، وأثارت أسارير وجهه فى نفس إلينور ظنونا ما كانت لتخطر ببالها قط . وكان من المحتمل ألا تحوم الشبهات فى ذهن إلينور حول هذه السيدة لولا أنه أقنعها أنه ينبغى له ألا ينبس ببنت شفة تمس هذه السيدة . والواقع أن المرء لم يكن بحاجة إلى إجهاد ذهنه ليرى أنه هاجت به ذكريات حب مضى ، ووقفت إلينور عندهذا الحد . . ولكن مريان لو كانت مكانها لما اكتفت بهذا القدر اليسير من التفكير بل كانت تفكر فى الأمر حتى تكتمل خيوط القصة كلها بسرعة فى خيالها النشيط ثم ترجع كل شىء إلى حب مشئوم أثار فيه أشد الشجون .

الفصل الثاني عشر

بينما كانت إلينور ومريان تتنزهان معاً فى صباح الغد أفضت هذه لأختها بنبأ أثار فى نفسها الدهشة لما كان يحمله من شهادة صارخة على اتصافها بالتهور والنزق ، وذلك على الرغم من أن إلينور كانت تعرف عن أختها هاتين الخصلتين . أخبرتها مريان—وهى تبدى أعظم السرور—أن «ولبى» أهداها جواداً رباه بنفسه فى ضيعته بمقاطعة سومر ستشاير ، وأعده إعداداً تاما لركوب امرأة ، فقبلت الهدية دون تردد ، وأخبرت أختها الخبر وهى فى أشد الفرح ، دون أن تتدبر أن أمها لا تنوى أن تقتنى جواداً ، وأنها إذا غيرت نيتها من أجل هذه الهدية وجب أن تشترى جواداً آخر للخادم ، وتخصص له خادما يركبه ، ثم تبنى — فوق ذلك كله — إصطبلاً للجوادين .

واستطردت قائلة: « إنه ينوى أن يرسل سائسه إلى سومر ستشاير فى الحال ليسوس الجواد ، ومتى وصل ركبناه كل يوم ، وستشتركين معى فى ركوبه . تصورى يا عزيزتى إلينور لذة العدو على بعض هذه المروج .

وأبت مريان كل الإباء أن تفيق من هذا الحلم اللذيذ ، وأن تدرك الحقائق الأليمة التى تكتنف هذا الموضوع . وظلت بعض الوقت ترفض التسليم بهذه الحقائق ، فقالت: إن النفقات التى يتطلبها خادم جديد أمرها هين ، وأكدت أن ماما لن تعارض فى ذلك أبداً ، وأن أى جواد يكفى الخادم إذ يستطيع أن يحصل دائماً على جوادمن البارك . أما الإصطبل فإن أى حظيرة تكفى . وحينئذ ذكرتها إلينور أنه ليس من اللائق أن تقبل هدية من شخص لم يعرفنه كثيراً ،

أو على الأقل عرفته أخيراً . وكان هذا الـكلام أكثر مما تطيقه مريان .

فقالت محتدة : « تخطئين يا إلينور حين تظنين أنني لا أعرف عن «ولبى» إلا قليلا . صحيح أنني لم أعرفه منـذ عهد بعيد ، ولـكنى أصبحت أكثر الناس — ما عداك أنت وماما — معرفة به فى العالم . إن الذى يحدد الألفة ليس هو الزمن أو الفرصة . وإنما يحددها الطبع وحده ، فسبع سنين قد لا تكفى لتعارف بعض الناس ، وسبعة أيام تكفى غيرهم وزيادة ، وأعتقد أننى لو كنت قبلت جواداً من أخى لـكنت جاوزت حدود اللياقة أكثر مما لو قبلته من «ولبى» لأنى لا أعرف عن أخى إلا القليل ، وإن كنت عشت معه عدة سنين . أما «ولبى» فقد كونت عنه رأيى منذ عهد بعيد » .

ورأت إلينور من الحـكمة أن تكف عن الحديث فى هذا الشأن لأنها تعرف طبع أختها ، والمعارضة فى هذا الموضوع الحساس من شأنها أن تزيدها إصراراً على رأيها ، ولـكنها ذكرتها بحبها لأمها ، وشرحت لها المتاعب التى ستجلبها هذه الأم الرءوم على نفسها (وهذا ما يحتمل أن يحدث) إذا ما وافقت على زيادة خدمها ، وسرعان ما اقتنعت مريان بقولها ، ووعدت ألا تزين لأمها الإقدام على هذا العمل الأحمق ، فلا تذكر لها نبأ الهدية ، وأن تخبر « ولبى » عندما تراه ألا مناص من رفض الهدية .

وبرت مريان بوعدها وعند ما قدم «ولبى» إلى المنزل فى اليوم نفسه سمعتها إلينور تعرب له عن أسفها بصوت خفيض لاضطرارها إلى رفض هديته وسردت عليه أسباب الرفض فى الوقت نفسه على نحو لم يدع له مجالا للكلام والإلحاح . ولكن أمارات القلق ارتسمت على وجهه فقال بصوت خفيض بعد أن أعرب عن قلقه

بشدة : « ولكن يا مريان سيظل الجواد جوادك ، و إن لم تستطيعى استخدامه الآن . سأحتفظ به حتى تطلبيه . وعندما تغادرين بارتون لتستقرى فى منزلك الدائم ، فإن « كوين ماب » سوف تستقبلك » .

سمعت إلينور كل ذلك عرضاً ، ولمست فى هذه الجملة كلها وفى طريقة إلقائها ومخاطبته لأختها باسمها الشخصى وداً صادقا ، ومعنى صريحا يدلان على وجود اتفاق تام بينهما . ومنذ تلك اللحظة لم تشك أنهما تواعدا على الزواج ، ولم يثر هذا الاعتقاد فى نفسها من الدهشة سوى ما كانت تشعر به هى أو إحدى صديقاتها لو اكتشفت وجود هذا الاتفاق بالصدفة بفضل ما فطرا عليه من الصراحة .

وقصت عليها مرجريت فى الغد ما ألقى ضوءاً أكبر على الأمر . ذلك أن «ولبى» قضى مساء أمس معهن ، وبقيت مرجريت فى بهو المنزل ليس معها إلاهو ومريان ، وبذلك أتيحت لها الفرصة لأن تلحظ بعض الأمور التى أفضت بها لأختها الكبرى بلهجة الفخر حينما اختلت بها بعد ذلك .

قالت « إيهاً ! إلينور . عندى سر خطير عن مريان أحب أن أفضى به إليك . أؤكد لك أنها ستتزوج «ولبى» قريباً جداً » .

فأجابت إلينور « لقد ظللت تقولين ذلك كل يوم تقريباً منذ أن التقيا فى هاى تشرش داون ، ولم يمض على تعارفهما أسبوع حتى اعتقدت أن مريان تحمل صورته حول جيدها ، ثم تبين أنها ليست سوى صورة صغيرة لعمنا الكبير » .

« ولـكن الواقع أن هذا شيء مختلف تماما . إنني واثقة أنهما سيتزوجان قريباً جداً لأنه أخذ خصلة من شعرها » .

« حذار يا مرجريت ! قد لا تـكون سوى خصلة من شعر أحد أعمـامه الـكبار » .

« ولـكني أؤكد لك أنها من شعر مريان . أكاد أجزم بذلك لأني رأيته يقصها بنفسه . حينما خرجت أنت وماما من الحجرة في الليـلة الماضية بعد تناول الشاي رأيتهما يتهامسان ويتحدثان معاً بأسرع ما يمكن ، وبدا لي أنه طلب منها شيئاً ، وما هو إلا أن تناول المقص ، وقص خصلة طويلة من شعرها لأنه كان يتهدل على ظهرها ثم قبل الخصلة ، ولفها في ورقة بيضاء وطواها في محفظته » .

ولم يسع إلينور إزاء هذه التفصيلات التي روتها مرجريت إلا أن تصدقها ، وكانت لا تميل إلى تـكذيبها لأن الواقعة التي روتها تتفق تماماً مع ما سمعتـه ورأته بنفسها .

وكانت مرجريت لا تـكشف دائماً عن فطنتها بطريقة ترضى أختها ، فقد حدث ذات مساء في البارك أن طلبت إليهـا مسز جننجز أن تخبرها باسم الفتى الذي تحبه إلينور ، وكانت تتوق إلى معرفته منذ زمن بعيد ، فنظرت مرجريت إلى أختها وقالت : «ليس في وسعي أن أخبرك به . هل تسمحين لي يا إلينور ؟»

فضحك الجميع بالطبع ، كما ضحكت إلينور أيضا ، ولـكنها تألمت لما حدث لأنه وقر في يقينها أن مرجريت تعرف شخصا معينا لم تطق أن تذكر اسمه حتى لا يكون مادة دائمة لتندر مسز جننجز .

وتألمت مريان لأختها أشد الألم ، ولكنها أساءت إلى القضية أكثر مما أحسنت إذ احمر وجهها ، وقالت لمرجريت فى لهجة الغضب :

« مهما تكن ظنونك فليس من حقك أن ترددبها على الأسماع » .

فأجابت مرجريت : « لم أكن أظن فى الأمر شيئاً . لقد كنت أنت التى حدثتنى بذلك » .

فأغرق الحاضرون فى الضحك ، وألحوا على مرجريت أن تزيد الأمر إيضاحا.

وقالت مسز جننجز : « وى ! أرجوك يا مس مرجريت أن تحكى لنا القصة بحذافيرها . ما اسم الرجل ؟ » .

« ليس من حقى أن أذكره يا سيدتى . ولكنى أعرفه جيداً ، وأعرف أيضا أين هو الآن » :

« نعم نعم ، فى وسعنا أن نحدس أين هو . فى منزله بنورلاند ، ما فى ذلك شك . أكاد أجزم أنه كاهن الأبرشية » .

« كلا ! ليس به . لا مهنة له على الإطلاق »

فقالت مريان محتدة : «أنت تعلمين أن ما تقولين حديث مفترى من عندك ، وأنه لا وجود لمثل هذ الشخص على الإطلاق » .

« إذن لا بد أنه مات أخيراً يا مريان لأنى واثقة أن مثل هذا الشخص كان موجوداً واسمه يبدأ بحرف ، ف » .

وما أجزل الشكر الذى شعرت به إلنيور لليدى ميدلتون إذ قاطعتهم فى تلك

اللحظة قائلة «لقد هطل مطر غزير» وإن كانت إلينور تعتقد أنها لم تقاطعهم رعاية لشعورها، وإنما قاطعتهم لأنها ملت النكات السخيفة التى تسر زوجها وأمها. ثم قفى كولونيل براندون على أثرها فتابع الحديث فى الموضوع الذى أثارته، وكان براندون يراعى مشاعر غيره فى كل مناسبة، فأفاض هو والسيدة فى حديث المطر وفتح «ولبى» البيان، وطلب إلى مريان أن تعزف عليه، وهكذا تاه موضوع إلينور فى لجة المحاولات التى بذلها الحاضرون لترك الحديث، ولكن إلينور لم تفق من غمرة الفزع الذى اعتراها بسببه.

واتفقت جماعة منهم فى تلك الليلة على القيام برحلة لمشاهدة مكان جميل على مسيرة زهاء اثنى عشر ميلا من بارتون يملكه زوج أخت كولونيل براندون. وكان من المتعذر مشاهدة هذا المكان بدون وساطة براندون لأن صاحبه سافر إلى الخارج إذ ذاك، وترك أوامر مشددة فى هذا الشأن. وكانت حدائقه رائعة، وكان سير جون الذى أثنى عليها ثناء مستطابا يعرفها جيداً لأنه نظم رحلات لزيارتها بمعدل رحلتين على الأقل فى صيف كل عام خلال السنوات العشر الماضية وكانت تشتمل على بحيرة جميلة يمكن للانسان أن يتنزه فيها على مركب شراعى فى الصباح. وتقرر أن يأخذوا معهم طعاما ناضجا، وعربات مكشوفة، وتم إعداد كل شىء على الوجه الذى تستلزمه رحلة بقصد التنزه.

وكان بعضهم يرى فى هذه الرحلة مشروعا جريئاً فى مثل هذا الوقت من السنة بسبب هطول المطر طيلة الأسبوعين الماضيين. وأقنعت إلينور أمها بالبقاء كى الزكام.

الفصل الثالث عشر

لم تتم الرحلة التي أزمعوا القيام بها إلى هو يتهيل على نحو ما توقعته إلينور . كانت تتوقع البلل والتعب والخوف ولكن ما جرى كان أسوأ مما توقعته ، لأن الرحلة لم تتم على الإطلاق .

وما إن حانت الساعة العاشرة حتى انتظم شمل الجميع في البارك ليتناولوا طعام الفطور حسبما كان مقررا . وكان الطقس في الصباح مناسبا للرحلة إلى حد ما ، وإن ظل المطر ينهمر طول الليل ، إذ تقشعت السحب عبر السماء ، وظهرت الشمس في أغلب الأوقات ، وعلا البشر وجوههم جميعاً ، وملأ السرور قلوبهم ، وعقدوا العزم على تجشم كافة المتاعب والعقبات مهما كانت .

وبينما كانوا يتناولون طعام الفطور إذ وافت بعض الخطابات ومنها خطاب لكولونيل براندون ، فتسلمه وألقى نظرة على عنوانه ، فاربدّ وجهه ، وغادر الحجرة من فوره .

فسأل سيرجون : « ما بال براندون ؟ »

فلم يحر أحد جواباً .

وقالت ليدى ميدلتون : « أرجو ألا يكون قد تلقى أخباراً سيئة ، ولا يمكن أن يغادر كولونيل براندون مائدة الفطور فجأة على هذا النحو ، إلا لأمر غير عادى . »

ثم عاد بعد زهاء خمس دقائق .

وما إن دخل الحجرة حتى قالت مسز جننجز : « أرجو ألا تكون هناك أخبار سيئة يا كولونيل . »

« لا شيء على الإطلاق يا سيدتى . شكراً لك . »

« هل الخطاب من أفنيون ؟ أرجو ألا يتضمن أن أختك ساءت حالها . »

« كلا يا سيدتى . لقد جاء من لندن ، وهو لا يتصل إلا بالعمل . »

« ولكن إذا كان لا يتصل إلا بالعمل ، فكيف يزعجك إلى هذا الحد ؟ لا تخف عنا السر يا كولونيل . إن هذا الكلام لا يخدعنا . حدثنا عن حقيقة الأمر » .

فقالت الليدى ميدلتون : « سيدتى العزيزة ! تذكرى ما تقولين » .

فقالت مسز جننجز ، غير آبهة بتعنيف بنتها : « لعله أنبأك بزواج فانى ابنة عمك »

« كلا ! لا شيء من ذلك . »

« حسنا ! إنى أعرف من أرسله يا كولونيل . وأرجو أن تكون هى بصحة طيبة »

فقال وقد امتقع لونه قليلا : « من تعنين يا سيدتى ؟ »

« عجباً لك ! أنت تعرف من أعنى »

فقال مخاطباً ليدى ميدلتون : إنى لآسف أشد الأسف يا سيدتى أن أتلقى هذا الخطاب اليوم ، لأنه يتصل بعمل يتطلب وجودى فى لندن على الفور .

فصاحت مسز جننجز : « فى لندن ! ماذا تصنع فى لندن فى هذا الوقت من السنة ؟ » .

فأردف قائلا : « إن خسارتى كبيرة بسبب اضطرارى إلى مغادرة هذا الحفل الجميل ، ولكن أسفى أشد لأنى أخشى ألا يتسنى لكم الدخول فى هوبتويل إلا إذا كنت موجوداً . »

وما كان أشد وقع هذا الكلام عليهم جميعاً ! .

فقالت مريان بحدة : « ولـكن إذا كتبت رسـالة وجيزة إلى مديرة المنزل ألا يـكفى ذلك ! » .

فهز رأسه .

وقال سير جون : «لابد من القيام بالرحلة ، ولا يجوز إرجاؤها بعد أن أصبحنا على مقربة من المـكان . إنك لن تستطيع يا براندون أن تذهب إلى لندن إلا غداً وبذلك يمكن تسوية الأمر » .

« بودى لو أمكن تسوية الأمر بمثل هذه السهولة . ولـكن ليس فى وسعى أن أرجىء السفر يوما واحـداً ! » .

فقالت مسز جننجز : « لو أنك أخبرتنا عن مهمتك لأمـكن أن ننظر أيمكن إرجاؤها أم لا » .

وقال «ولبى» « لو أنك أرجأت سفرك حتى نعود من رحلتنا لما تأخرت ست ساعات» .

« ليس فى وسعى أن أرجىء سفرى ساعة واحدة ! »

ثم سمعت إلينور «ولبى» وهو يهمس فى أذن مريان : «من الناس من لا يطيق صحبة أهل الأنس والسرور، ومن هؤلاء براندون . أكاد أجزم أنه يخشى الإصابة بالبرد ، ولذلك اخترع هذه الحيلة ليتخلص من الرحلة . أراهن بخمسين جنيها أن هذا الخطاب بخط يده » .

فأجابت مريان : « ليس عندى فى ذلك أى شك » .

وقال سير جون : « أعرف عنك يا براندون من قديم أنك متى عقدت العزم على أمر فلا سبيـل لحملك على تغيير رأيك ولـكن أرجو أن تنعم النظر فى الأمر . تأمل أن كريمتى مستر كارى جاءتا إلى هنا من نيوتن ، وكريمات داشوود الثلاثة

جئن من منزلهن الريفي ، ومستر « ولبى » استيقظ قبل موعده المعتاد بساعتين ، وذلك بغية الذهاب إلى هو يتويل ؟ »

وعاد كولونيل براندون فكرر أسفه لأنه السبب فيما أصابهم من خيبة الأمل وصرح فى الوقت نفسه أن الأمر لا مفر منه » .

« ومتى تعود إذن ؟ » .

واستطردت الليدى قائلة : «أرجو أن نراك فى بارتون بمجرد أن تغادر لندن فى الوقت المناسب ، وأرى لزاما علينا أن نرجىء الرحلة إلى هو يتويل إلى حين عودتك » .

« إنك تطوقين جيدى بحسن صنيعك ، ولكن لا أدرى متى أستطيع العودة ، ولذلك لا أجرؤ أن أرتبط بميعاد على الإطلاق » .

فصاح سير جون : « أواه ! يجب أن يعود ، وسيعود . وإذا لم يعد فى نهاية الأسبوع فسأسافر وراءه » .

فصاحت مسز جننجز : « نعم ! سافر وراءه . ولعلنا حينئذ نعرف المهمة التى سافر من أجلها » .

« لا أريد أن أتدخل فى شئون غيرى . وأظن أنه أمر يخجل هو من ذكره» .

ثم وصلت جياد كولونيل براندون .

وأضاف سير جون : « هل تذهب إلى لندن على صهوة جوادك ؟ » .

« كلا ! إلى هو ينتون فقط . ثم أواصل السير بأقصى سرعة ممكنة » .

« حسناً ! وما دمت مصمما على السفر فأرجو لك سفراً سعيداً . ولكن يحسن بك أن تعدل عن رأيك » .

« أؤكد لك أن هذا ليس فى استطاعتى » .

ثم ودع الحاضرين جميعاً .

«أليست هنالك فرصة لرؤيتك ورؤية أخواتك فى لندن هذا الشتاء يا مس داشوود؟»

«أخشى أن أقول : إنه لا فرصة على الإطلاق» .

« إذاً أودعك وداعاً أطول مما كنت أود » .

واكتفى بالانحناء لمريان دون أن يقول شيئاً .

وقالت مسز جننجز : «هيا يا كولونيل ! أرجو أن تحدثنا قبل سفرك عن مهمتك»

فقال لها : « أنعمى صباحاً » وغادر الحجرة يشيعه سير جون .

وحينئذ انطلقت الأنات والآهات التى كظمها الجميع فى صدورهم ومنعهم الأدب من التنفيس عنها وأجمعوا على ترديد القول بأن خيبة أملهم على هذا النحو أمر يستفز النفوس » .

وقالت مسز جننجز ، وهى تتهلل فرحاً : « أستطيع — مع ذلك — أن أحدس ما هى مهمتـه » .

فسألها كلهم تقريباً : « أى مقدورك هذا ؟ » .

« إن الأمر يتعلق بمس وليامز — فيما أعتقد » .

فسألت مريان : « ومن هى مس وليامز ؟ » .

« عجباً ! ألا تعلمين من هى مسز وليامز ؟ إننى واثقة أنك سمعت عنها من قبل . فهى ياعزيزتى إحدى قريبات كولونيل براندون . ولن أحدد صـفة هذه القرابة خشية أن تصاب الآنسات الصغيرات بصدمة ثم خفضت صوتها قليلا وقالت لإلينور : إنها ابنته الشرعية » .

« أحق ما تقولين ؟ » .

«عجباً ! نعم ، وهى تشبهه كل الشبه . وأعتقد أن الكولونيل سيوصى لها بكل ماله»

ثم عاد سير جون وشاركهم الأسف على هذا الحادث المحزن ، ولكن ختم حديثه قائلا : إنهم يجب أن ينتهزوا فرصة اجتماعهم هنا ، ويعملوا شيئاً يدخل السرور على قلوبهم ، واتفقوا بعد التشاور فى الأمر أنهم يمكن أن يروحوا عن نفوسهم بجولة فى الريف وهم يركبون العربات ، مع اقتناعهم بأن الرحلة إلى هويتويل هى المتعة الوحيدة . فطلبوا العربات ، وجاءت عربة «ولبى» أولاً ، ولم تشعر مريان قط بمثل ماشعرت به من السعادة حين ركبتها ، وسارت العربة خلال البارك بسرعة كبيرة حتى اختفيا عن الأنظار ، ولم يرهما أحد حتى عادا بعد أن عاد جميع الباقين . وكان يبدو عليهما السرور بهذه النزهة ، ولكنهما قالا بعبارات عامة إنهما التزما السير فى الدروب التى تتخلل الحقول بينما سار الآخرون فى المروج .

وتقررت إقامة حفلة رقص فى المساء حتى ينعم كل منهم بألوان المرح والسرور إلى أبعد مدى ، وجاء آخرون من أسرة كارى لتناول الغداء ، وجلس ما يقرب من عشرين شخصاً إلى المائدة وقلوبهم ملأى بالسرور ، الأمر الذى ملأ قلب سير جون بالغبطة والرضا . وجلس «ولبى» كعادته بين كريمتى داشوود الكبيرتين وجلست مسز جننجز على يمين الينور ، ولم يطل بهم الجلوس حتى انحنت مسز جننجز خلفها وخلف ولبى وقالت لمريان بصوت عال يستطيع كلاهما أن يسمعه : « لقد اكتشفت أمرك على الرغم من جميع حيلك ، فعرفت أين قضيت الصباح »

فتغير لون مريان ، وأجابت من فورها : « أين ؟ أرجوك ! » .

فقال ولبى : « ألم تعلمى أننا خرجنا للنزهة فى عربتى ؟ » .

« بلى بلى ! أيها الوقح ! إننى أعرف ذلك جيداً ، وقد صممت أن أكتشف أين ذهبتما — أرجو أن يكون بيتكِ أعجبكِ يامس مريان . أنا أعرف أنه بيت

رحب واسع، وأرجو أن أراه جديد الأثاث حين أزورك فيه ، لأنى رأيته فى أشد الحاجة إلى الأثاث عندما زرته منذ ست سنوات .

وأشاحت مريان بوجهها فى اضطراب شديد . وأغرقت مسز جننجز فى الضحك ، وعرفت إلينور أن مسز جننجز حين صممت على معرفة المكان الذى ذهبا إليه ، طلبت إلى خادمتها أن تستقصى الخبر من سائس مستر ولبى ، فأخبرها أنهما ذهبا إلى ألنهام حيث قضيا وقتاً طويلا يتنزهان فى الحديقة ويتفقدان البيت كله .

ولم تستطع إلينور أن تصدق هذا الخبر لأنها استبعدت أن يقترح ولبى أو ترضى مريان أن يدخلا البيت أثناء وجود مسز سميث التى لا تعرفها مريان أدنى معرفة

وما أن غادرن غرفة الطعام حتى سألت إلينور أختها عن الخبر ، ولشد مادهشت عندما عرفت أن القصة التى روتها مسز جننجز صحيحة بحذافيرها . وغضبت مريان من أختها أشد الغضب ، لارتيابها فى صحة هذه القصة .

« لماذا تتصورين ياإلينور أننا لم نذهب هناك أو أننا لم نشاهد البيت ؟ أليس هذا هو ما كنت تتمنين كثيراً أن تفعليه أنت نفسك ؟ » .

« بلى يامريان ، ولكن ما كنت لأذهب إليه ، ومسز سميث فيه ، ولا أذهب إليه فى صحبة مستر ولبى بالذات »

« ولكن مستر «ولبى» هو الشخص الوحيد الذى يملك الحق فى أن يطلعنى على البيت ، وكان من المتعذر أن أذهب مع غيره ، لأن له عربة مكشوفة . أنا لم أقض فى حياتى كلها وقتاً هو أبهج من صباح ذلك اليوم » .

فأجابت إلينور : « أخشى أن أقول : إن البهجة التى يشعر بها المرء فى عمل مالا تدل دائماً على أنه عمل لائق » .

« على العكس يا إلينور ، إننى أرى أن الشعور بالبهجة أقوى دليل على ذلك ، إذ لو كان هذا العمل غير لائق فى الحقيقة ، لشعرت بذلك فى حينه فالمرء يشعر دائما بالخطأ وقت ارتكابه . ولو كنت أعتقد أن هذا العمل غير لائق لما شعرت بشىء من البهجة على الإطلاق » .

« ولـكن ياعزيزتى مريان لقد عرضك هذا العمل لبعض التقولات الوقحة أفلا يخالجك الشك الآن فى حكمة هذا التصرف ؟ »

« إذا عُدّتْ تقولات مسز جننجز دليلاً على أن هذا التصرف غير لائق كانت تصرفاتنا جميعاً معيبة فى كل لحظة من لحظات حياتنا . وأنا لا أقيم وزناً لقدح مسز جننجز أو مدحها ، لأنى أشعر أننى لم أرتكب إثماً حين تجولت فى حديقة مسز سميث أو شاهدت بيتها . إنها ستكون حديقة مستر ولبى يوماً ما وحديقة . . . »

« إذا كانت هذه الحديقة ستصبح ملـكا لك يامريان فى يوم ما ، فلا يعد ذلك مبرراً لما فعلت » .

فاحمرّ وجه مريان خجلا من هـــذه الإشارة ، ومع ذلك بدا عليها السرور لسماعها . ولـكنها عادت إلى أختها بعد أن فـكرت فى الأمر عشر دقائق وقالت ووجهها يتألق بشراً : « ربما كان ذهابى يا إلينور إلى ألنهام عملا مجانباً للحكمة ، ولـكن مستر ولبى كان شديد الرغبة فى إطلاعى على البيت ، وأؤكد لك أنه

بيت يأخذ بالألباب ، ففيه حجرة جلوس جميلة فى الطبقة العليا ، وهى رحبة تمكن الإنسان من استخدامها بصفة دائمة ، وإذا زودت بالأثاث الحديث أصبحت رائعة ، وهى تقع فى أحد أركان البيت ، ولها نوافذ على جانبين ، أحدهما يطل على الملعب المخصص للكرة الخشبية خلف المنزل وعلى غابة معلقة وراء الملعب ، والجانب الآخر يطل على الكنيسة والقرية ، وفيما وراءهما تشاهد التلال الجميلة الشديدة الانحدار التى أثارت إعجابنا كثيراً ، ولكن منظر هذه الحجرة لم يعجبنى كثيراً لأنى لم أر ما هو أحقر من أثاثها . بيد أنها إذا أثثت بأثاث جديد ـ يقول ولى : إن مائتى جنيه تجعل منها حجرة صيفية من أروع الحجرات فى إنجلترا » .

ولو أن إلينور أصغت إليها دون أن يقطع أحد عليهما الحديث لوصفت لها سريان كل حجرة بمثل هذه البهجة .

الفصل الرابع عشر

كان انتهاء زيارة كولونيل براندون فى البارك فجأة ، وإصراره على كتمان السبب ، مما شغل بال مسز جننجز وأثار دهشتها يومين أو ثلاثة . وكانت مسز جننجز امرأة طُلَعة ، شأن من يهتم كثيراً بغدوات أصدقائه وروحاته . فتاقت كثيراً إلى معرفة السبب الذى دعا براندون إلى إنهاء زيارته ، وكانت تعتقد أنه تلقى أخباراً سيئة ، وقلبت فى ذهنها كل ضائقة يمكن أن تلم به وهى تجزم أن الأمر لا يخلو من أحدها .

قالت : «لاشك أن حادثاً محزناً جداً ألم به . لقد رأيت أثر ذلك فى وجهه . لهفى عليه ! أخشى أن تكون ظروفه سيئة ، فضيعته فى ديلافورد لم تغل قط أكثر من ألفى جنيه فى العام ، وأخوه ترك الضيعة غارقة فى الديون . وأظن أنه استدعى لأمور مالية ، وإلا فما ذا عسى أن يكون السبب ؟ ليت شعرى هل السبب كذلك ؟ بودى لو وقفت على حقيقة الأمر . لعله يتعلق بمس وليامز . وعلى ذكر مس وليامز أكاد أجزم أنه كذلك ، لأنه ظهر عليه الاهتمام حينما ذكرت اسمها . ربما تكون مريضة فى لندن ، وهذا هو أكثر الأمور احتمالاً لأنى أعرف أنها تشكو العلة دائما ، وأنا أراهن أن الأمر يتصل بها . وليس من المحتمل كثيراً أن تحل به أزمة مالية الآن لأنه رجل حسن التدبير ، ولابد أنه صفى الديون التى تراكمت على الضيعة وإلا فما هو السبب يا ترى ؟ ربما ساءت حال أخته فى أفنيون فاستدعته ، وإسراعه بالرحيل يدل على ذلك . وعلى كل حال أتمنى من صميم فؤادى أن تنتهى كل متاعبه ، وأتمنى له زوجة صالحة أيضاً.

هكذا كانت ظنون مسز جننجز ، وهكذا كان حديثها . كان رأيها يتغير مع كل ظن جديد ، وكانت هذه الظنون تبدو كلها محتملة على حد سواء عندما تخطر ببالها . وكانت إلينور على اهتمامها بأمر كولونيل براندون لا تدهش كل الدهشة لسفره المفاجيء كما أرادت مسز جننجز منها ذلك ، لأنها رأت أن الأمر لا يستدعي هذه الدهشة الدائمة ولا هذه الظنون المختلفة ، بل كانت تدهش لأمر آخر ألا وهو الصمت الغريب الذي لاذت به أختها هي وولبي إزاء هذا الموضوع مما يدل على أنهما يعرفان لا محالة أن الأمر يهمهما بصفة خاصة . ولما استمر هذا الصمت اتضح لها كل يوم أنه صمت أغرب وأعجب من أن يتفق مع طباعهما ولم تستطع إلينور أن تتصور لماذا لا يكاشفانها هي وأمها بحقيقة ما حدث ، مما يدل عليه مسلك كل منهما تجاه الآخر .

وكانت إلينور تدرك بسهولة أنه ليس في وسعها إتمام الزواج في الحال ، لأنه لم يكن ثمة من الأسباب ما يحمل على الاعتقاد بأن «ولبي» رجل ثري وإن كان يعيش في سعة . وكان سير جون يقدر إيراد ضيعته بما يقرب من ستمائة أو سبعمائة جنيه في العام ، ولكن نفقاته كانت تتجاوز دخله . وكان هو نفسه يشكو الفقر كثيراً ، ولكنها كانت تحار في تفسير ذلك الكتمان الغريب الذي أحاطا به خطبتهما ، وهو كتمان لم يخف في الحقيقة شيئاً على الإطلاق كما كان يتنافى مع آرائهما وتصرفاتهما إلى حد جعلها تشك أحياناً في أنهما مخطوبان بالفعل . وبلغ هذا الشك حداً جعلها تمتنع عن سؤال مريان في الأمر .

لم يكن ثمت ما هو أدل على حب «ولبي» لهن جميعاً من مسلكه . كان يظهر كل الحنان الذي يغمر قلب المحب ، ويبدي لبقية أفراد الأسرة من الحب والاهتمام

مايبديه الابن والأخ ، ويعـد منزلهن الريفى و يحبه كمنزله ، ويقضى فيه من الساعات أكثر مما يقضى فى ألينهام . وإذا لم يرتبطن بموعد عام فى البارك ختم رياضته التى تستدعى الخروج فى الصباح بزيارتهن حيث يقضى بقية اليوم مع مريان ، يرافقه كلب صيده المحبوب .

وظهر لهن فى مساء يوم من الأيام ، بعد سفر كولونيل براندون بنحو أسبوع أنه يضمر فى قلبه كل حب لما يراه فى المنزل ، فقد أعربت مسز داشوود عن اعتزامها إصلاح المنزل فى الربيع ، فما كان منه إلا أن عارض بشـدة فى إجراء أى تغيير فى البيت الذى زين له الحب أنه مثال الـكمال .

صاح قائلاً : « وَىْ ! إصلاح المنزل المحبوب ! كلا ! هـذا أمر لا أوافق عليه أبداً ، لن يضاف حجر إلى جدرانه ، ولا قيد أنملة إلى حجمه ، إذا كنتن تحرصن على مراعاة شعورى » .

فقالت مس داشوود « لا ترُعْ ! لن يحدث شىء من ذلك لأن والدتى ليس لديها من المال ما يكفى لذلك » .

فقال : « يسرنى كثيراً أن أسمع ذلك ، وأرجو أن تظل فقيرة إذا لم تستطع أن تنفق أموالها فى خير من ذلك » .

« شـكراً لك يا ولبى . ثق أننى لن أضحى بحبك لهـذا المـكان أو بحب أى شخص أحبه فى سبيل أى نوع من الإصلاح . ثق أنه مهما توافر لى مبلغ من المال عندما أصفى حسابى فى الربيع فسأدخره دون أن أنتفع به ولا أنفقه فى أمر يؤلمك ، ولـكن حدثنى: أتحب هذا المـكان حباً لا ترى معه فيه عيباً ؟ » .

فأجاب « نعم ، لا أرى فيه عيباً ، بل أكثر من ذلك أنى أراه المكان الوحيد الذى ينعم فيه المرء بالسعادة . ولو كان لدى قدر كافٍ من المال لهدمت كومب من فورى ، وأعدت بناءه على نمط هذا البيت الريفى » .

فقالت إلينور : « أظنك ستبنيه بهذا الدرج الضيق المظلم ، والمطبخ الذى ينبعث منه الدخان » .

فصاح بنفس لهجته الحماسية « بكل شىء فيه — كما هو بعيوبه ومحاسنه دون أدنى تغيير ، وحينئذٍ وحينئذٍ فقط ، وتحت مثل هذا السقف ، أنعم بالسعادة فى كومب كما نعمت بها فى بارتون » .

فقالت إلينور : « أعتقد أنك ستجد بيتك فى المستقبل مثال الكمال كما ترى بيتنا الآن ، حتى مع عيوبه التى تتمثل فى غرفه الواسعة ودرجه العريض » .

فقال ولبى : « لا ريب أن هناك ظروفاً قد تحبب إلى بيتى . ولكنى سأظل أدين لهذا البيت بحب لا يشاركه فيه غيره » .

فنظرت مسز داشوود بعين ملؤها السرور إلى مريان التى رمقت « ولبى » بنظرات تعبر بوضوح عن فهمها لقصده .

واستطرد يقول : « كم وددت حينما كنت فى ألنهام فى مثل هذا الوقت من العام الماضى أن أرى بارتون كوتيج مسكوناً ! وما مررت به قط على مرأى منه إلا وأعجبت بموقعه ، وحزنت لخلوه من السكان . وقلما خطر ببالى أن أول نبأ سأتلقاه من مسز سميث حينما أعود إلى الريف أن بارتون كوتيج قد تم تأجيره ، فشعرت فى الحال بالارتياح لهذا الحادث والاهتمام به . ولا تعليل لذلك إلا إحساسى

السابق بالسعادة التى سوف ألقاها فى هذا المكان» . وهمس فى أذن مريان قائلا: « أما كان يجب أن يكون الأمر كذلك يا مريان ؟ » ثم استطرد يقول بلهجته السابقة : «ومع ذلك فأنت تريدين إفساد هذا البيت يامسز داشوود ، وتصرين على تجريده من بساطته بالإصلاحات الخيالية ! وتصرين على تحويل هذه الردهة العزيزة إلى مدخل عادى ، وهى الردهة التى تعارفنا فيها لأول مرة ، وقضينا فيها ساعات كثيرة منذ ذلك الحين ، وكلنا نتوق إلى أن نمر خلال الغرفة التى توافر فيها حتى الآن من وسائل الراحة والاستعداد لاستقبال الزائرين مالا يتوافر فى أى غرفة فى العالم بالغة من السعة ما بلغت » .

فأكدت له مسز داشوود من جديد ، أنها لن تقدم على إدخال أى تغيير فى البيت .

فأجاب بحرارة : «أنت امرأة طيبة. وهذا الوعد من شأنه أن يريح بالى . و إذا توسعت فى هذا الوعد قليلا كنت سعيداً . لا أريد أن تعدينى فحسب أن يظل البيت كما هو بلا تغيير ، بل أريد أن تعدينى أيضا أن تظلى أنت و بناتك على عهدى بكن ، وأن تشمليني دائما بالعطف الذى حبب إلى كل شىء يمت لك بصلة» .

فوعدته بذلك من فورها ، وكان مسلك « ولبى » طوال هذا المساء ينبىء عما يكنه بين جوانبه من الحب والسرور .

وبينما كان يودعهن قالت له مسز داشوود : «هل لك أن تتناول معنا الغداء غدا . لا أكلفك الحضور فى الصباح ، لأننا مرتبطات بالذهاب إلى البارك لزيارة ليدى ميدلتون » .

فوعد بزيارتهن فى الساعة الرابعة .

الفصل الخامس عشر

زارت مسز داشوود ليدى ميدلتون فى الغـد يرافقها اثنتان من بناتها ، واعتذرت مريان عن مرافقتهن بحجة واهية هى مشاغلها فى البيت ، وارتاحت أمها تمـام الارتياح لبقائها فى المنزل لعلمها أن « ولبى » وعد أمس بزيارتهن فى أثناء غيابهن .

وعندعودتهن رأين عربة «ولبى» وخادمه لدى الباب، فاعتقدت مسز داشوود أنها أصابت فى ظنها . وكان كل شىء يجرى حتى الآن على نحو ما تتوقع ، ولـكنها عندما دخلت المنزل شاهدت مالم تـكن تتوقعه قط ، فما إن وطئت أقدامهن الطرقة حتى أسرعت مريان بالخروج من الردهة تبـدو عليها أمارات الحزن الشديد وتمسح دموع عينيها بمنديلها ، ثم هرولت على الدرج دون أن تعيرهن التفاتاً ، فاستحوذ عليهن الفزع والدهش ، ودخلن من فورهن الحجرة التى خرجت منها ، فوجدن فيها «ولبى» جالساً وحده ، مستنداً إلى جوار المدفأة وظهره إليهن ، فاستدار عند دخولهن وعلى وجهه أمارات الانفعال الشديد الذى بدا على وجه مريان .

فصاحت مسز داشوود عندما دخلت : «مابال مريان ؟ هل هى مريضة ؟ »

فأجاب وهو يتصنع البشاشة : « أرجو ألا تـكون كذلك » ثم تـكلف الابتسام وأردف : « إننى أنا الذى أتوقع أن أصاب بالمرض لأنى أعانى الآن خيبة أمل مرة » .

« خيبة أمل ! » .

« نعم لأنى لا أستطيع الوفاء بما ارتبطت به معكن . فمسز سميث أوصت فى هذا الصباح بمالها لبنت عم فقيرة ، وكلفتنى السفر إلى لندن للقيام ببعض الأعمال ، وتسلمت الآن الأوراق الرسمية الخاصة بذلك ، وغادرت ألنهام . وجئت الآن لأسرى عنكن وأقول لكن وداعاً » .

« إلى لندن ! وستسافر هذا الصباح ! »

« بل أ كاد أسافر فى هذه اللحظة » .

« إنه لأمر مؤسف . ولكن مسز سميث لا بد أن تكون مضطرة ... وأرجو ألا تحجبك أعمالها عنا وقتاً طويلاً » .

فأجاب وقد اربد لونه : « هذا كرم بالغ منك ، ولكن لا أمل إطلاقاً فى العودة إلى ديفونشاير فى القريب العاجل ، فأنا لا أ كثر الزيارة لمسز سميث فى غضون العام » .

« ولعل مسز سميث هى صديقتك الوحيدة ؟ وهل ألنهام هو البيت الوحيد فى هذه الجهة الذى يستقبلك على الرحب والسعة ؟ ياللعار يا ولبى ! هل تنتظر دعوة منا ؟ »

فازداد لونه تغيراً ونكس رأسه إلى الأرض ، وما كان جوابه إلا أن قال: « هذا فضل كبير منك » .

ونظرت مسز داشوود إلى إلينور فى دهشة ، وكانت إلينور لا تقل عنها

شعوراً بالدهشة . وخيم الصمت على الجميع بضع دقائق ، وكانت مسز داشوود أول من تـكلم :

« كل ما أريد أن أضيفه ياعزيزى «ولبى» أننا سنستقبلك دائماً فى منزلنا على الرحب والسعة ، ولا أريد أن ألح عليك فى أن تعود قريباً ، لأنك أنت الذى تستطيع أن تحكم إلى أى حد يرضى ذلك مسز سميث . وفى هذه القضية لا أرتاب فى حكمك أكثر مما أرتاب فى رغبتك » .

فأجاب « ولبى » وهو يختلج اضطراباً : «إن مواعيدى فى الوقت الحاضر من شأنها — أن — لا أعتقد » . وأمسك عن الـكلام ، وعقدت الدهشة لسان مسز داشوود عن الـكلام ، ثم ساد الصمت لحظة ، وقطعه «ولبى» ، فتـكلم وقد افتر ثغره عن ابتسامة خفيفة : « من الحماقة أن أتلبث على هذا النحو . لا أريد أن أعذب نفسى بالبقاء أكثر من ذلك بين قوم يتعذر على بعـد الآن أن أنعم بصحبتهن » .

فودعهن جميعاً على عجل ، و بارح الحجرة ، ورأينه يركب عربته ، ولم يلبث أن اختفى عن الأنظار .

وعقد الأسى لسان مسز داشوود عن الـكلام ، فغادرت الردهة فى الحال ، ليستبد بها فى الخلوة ، ما أثاره هذا السفر المفاجىء من قلق وفزع .

وكان ماشعرت به إلينور عن قلق لايقل عما خالج أمها ، وأخذت تفـكر فيما حدث منذ قليل فى شىء من القلق وسوء الظن ، وانزعجت كثيراً لمسلك «ولبى» فى توديعهن وارتباكه وتصنعه البشاشة . ومما زادها انزعاجاً عدم رغبته فى

قبول دعوة أمها مما لا يتفق مع طباع المحب ولا مع طبـاعه هو . وكانت تارة تخشى ألا يكون «ولى» قد خالجتهقط رغبـة جدية فى الزواج من أختها ، وتارة تخشى أن يكون قد شجر خلاف مؤسف بينه وبين أختهـا ، ورأت أن أقرب الأشياء إلى العقل هو أن الحزن الذى بدا على مريان عند مغادرتها الحجرة يرجع إلى نشوب هذا الخلاف الخطير ، ولـكنها رأت استحالة حدوث هذا الخلاف لما تعرفه من حب مريان له .

ولـكن مهما تـكن أسباب هذا الفراق فقد حزنت إلينور حزنا شديداً لا شك فيه ، وخالجتها أرق مشاعر العطف والحنان لما شعرت به مريان من بالغ الأسى . وأكبر الظن أن مريان استسلمت لهذا الأسى لا ليخفف من مصابها فحسب بل لأنها كانت ترى من الواجب أن تسترسل فيه .

وعادت أمها بعد نصف ساعة ولم تـكن عابسة الوجـه ولـكن عينيها قد احمرتا من البكاء .

وقالت حين جلست : « إن عزيزنا ولى الآن على بضع أميال من بارتون يا إلينور ، يحمل بين جنبيه قلباً مفعماً بالأسى » .

« إن الأمر كله يدعو إلى العجب . سفره المفاجىء على هذا النـحو ! يبدو لى أنه ابن ساعته . لقد كان معنا فى الليـلة الماضية مفعم القلب بالغبطة والبهجة والمحبة ! والآن وبعد إخطار لا يتجاوز عشر دقائق — يسافر حتى بدون أن ينوى العودة ! — لا بد أن شيئاً أكثر مما اعترف به لنا قد حدث . إن حديثه وتصرفه معنا لا يتفقان مع ما نعرفه عنه . لا بد أنك لاحظت الفرق كما لاحظته . ماذا جرى

يا ترى ؟ هل تشاجرا ؟ وإلا فما الداعى لإظهاره عدم الرغبة فى قبول دعوتك ؟»

« إن الرغبة لا تنقصه يا إلينور . لقد بدت لى منه بوضوح ، ولـكنه لايملك القدرة على قبولهـا . أؤكد لك أنى قلبت الأمر فى ذهنى ، وفى وسعى أن أعلل تماما لـكل شىء بدا لك غريباً لأول وهلة كما بدا لى ».

« أحقاً تستطيعين ذلك ؟ »

« نعم لقد فسرت الأمر فى نفسى على نحو مقنع للغاية ـــ ولـكنك أنت يا إلينور ، يا من تميلين إلى الشك حيث أمكنك — لن يشفى غليلك تفسيرى فيما أعلم . ولـكنك لن تستطيعى أن تزعزعى إيمانى بصحته أنا أعتقـد أن مسز سميث يخالجها الظن بأنه يحب مريان وهى تستنكر هذا الحب (ربما لأنها تريد له زوجة أخرى) ولهذا السبب تحرص على إبعاده عنها — والمهمة التى أرسلته من أجلها إلى لندن هى تعلة تذرعت بها لإبعاده . هـذا ما أعتقد أنه حدث . وهو يعلم — إلى ذلك — أنها لا توافق على هذا الزواج ، ولا يجرؤ فى الوقت الراهن أن يعترف لها بخطبته لمريان ، ويشعر أنه مضطر — بسبب اعتماده عليها — إلى مسايرتها فى أغراضها ، والتغيب عن ديفونشاير بعض الوقت . أنا أعلم أنك ستقولين قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون ، ولـكن لن أصغى لأية مغالطة أو مكابرة ما لم تفسرى لى الموقف بطريقة مقنعة كطريقتى . والآن يا إلينور هات ما عندك ! »

« لا شىء عندى لأنك قد سبقتنى إلى الجواب » .

« إذن كنت تريدين أن تقولى قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون . عجبا

لك يا إلينور ! أنا لا أستطيع أن أفهم شعورك . أنت تميلين لإساءة الظن بالناس بدلا من حسن الظن بهم ، وتتلمسين أسباب الشقاء لمريان ، والتجنى على ولبى، بدلا من أن تلتمسى له الأعـذار ، وتصممين على القول بأنه ملوم لأنه أظهر فى وداعنا من الحب أقل مما تعودناه منه . أما يجدر بنا أن نعتذر له بالسهو أو الحزن لما أصابه أخيراً من خيبة الأمل ! أيصح ألا نسلم بأى احتمال من الاحتمالات لا لسبب إلا لأنها أمور غير يقينية ! أما يجب علينا أن نرعى حق الرجل الذى يوجد لدينا جميعاً كثير من الأسباب التى تحملنا على حبه ، وليس ثمة ما يدعونا إلى إساءة الظن به ! ألا يحتمل أن تـكون لديه أسباب وجيهة فى حد ذاتها ، وإن لم يجد مفراً من كتمانها فترة من الزمن ! وأخيراً أسألك : ماذا يريبك منه ؟»

« لا أستطيع أن أجيبك أنا نفسى — ولـكن الظن بأن فى الأمر شيئاً لا يبعث على الرضا هو نتيجة حتمية لمثل هذا التغيير الذى شاهدناه فيه . على أن ثمة كثيراً من الحق فيما ذكرت من الأعذار التى ينبغى التماسها له . وأنا أحب أن أكون صريحة فى حكمى على كل إنسان . لاريب أن ولبى قد يكون لديه ما يكفى من الأسباب لتبرير سلوكه ، ولـكن كان الأجدر به أن يعترف بهذه الأسباب فى الحال . قد يكون الـكتمان مستحسنا ، ولـكن لا يسعنى إلا أن أعجب حين يلجأ هو إلى الـكتمان » .

« ومع ذلك فلا تلوميه على إتيانه أمراً يتنافى مع أخلاقه حيث توجب عليه الضرورة ذلك . ولـكنى أراك تعترفين فى الواقع بصحة الأعذار التى التمستها دفاعا عنه ؟ إننى سعيدة بهذا الاعتراف ، لقد ظهرت براءته » .

« لم أعترف بصحتها كلها ! قد يكون من المناسب إخفاء خطبتهما (إذا

صح أنهما مخطوبان) عن مسز سميت — وإذا كان الأمر كذلك كان من مصلحة مستر ولي أن يحتجب عن ديفونشاير في الوقت الحاضر . ولكن ذلك لا ينهض عذراً لإخفائهما هذه الخطبة عنا » .

« إخفائها عنا ! أتتهمين يا بنتي العزيزة ولي ومريان بالإخفاء ؟ هذا غريب حقا ، وأنت ترمقينهما كل يوم بعين التأنيب لما يبديان من عدم الحذر » .

فأجابت إلينور : « لا أريد دليلا على حبهما ، ولكن على خطبتهما أريد دليلا » .

« إنني مقتنعة تماما بوجود الأمرين كليهما » .

« ولكن أحداً لم يقل لك كلمة في هذا المعنى » .

« لست بحاجة إلى الكلام ما دامت الأفعال تنطق بأفصح مقال . ألم يدل سلوكه نحو مريان ونحونا جميعاً خلال الأسبوعين الماضيين على الأقل ، على أنه يحبها ويعدها زوجته المستقبلة ، وأنه يحبنا محبة ذوي الأرحام ؟ ألم يفهم بعضنا بعضاً حق الفهم ؟ ألم يطلب موافقتي كل يوم بنظراته وأحواله واحترامه الذي ينطوي على الحب والاهتمام ؟ عزيزتي إلينور ! أيجوز أن نشك في خطبتهما ؟ كيف يتبادر إلى ذهنك هذا الظن ؟ كيف تظنين أن ولي — على الرغم من تأكده من حب أختك له — يهجرها وربما يهجرها عدة شهور ، دون أن يفضي لها بحبه — وأن يفترقا دون أن يفضي أحدهما للآخر بسره ؟ » .

فأجابت إلينور : « إنني أعترف أن جميع القرائن تؤيد خطبتهما ما عدا قرينة واحدة ، وهذه الواحدة هي صمتهما المطبق بشأن هذا الأمر ، وعندي أن هذه القرينة ترجح جميع القرائن الأخرى » .

« ياله من أمر غريب ! إنك تسيئين الظن كثيراً بولبى إذا كنت تشكين — بعد كل الذى جرى بينهما صراحة — فى كنه العلاقة التى تربطهما أكان ولبى يمثل دوراً فى سلوكه إزاء أختك طول هـذه المدة ؟ . أتظنين أنه لا يعبأ بها حقا ؟ » .

« كلا ! لا أظن ذلك . من المؤكد أنه يحبها ، وأنه يحبها فعلا . لا شك عندى فى ذلك » .

« ولـكنه حب من نوع غريب ، إذا صح أنه يهجرها غير آبه بها ، ولا مكترث بمستقبلها كما تقولين عنه » .

« يجب أن تتذكرى — يا والدتى العزيزة — أننى لم أجزم بذلك قط . إننى أعترف أن الشكوك ساورتنى ، ولـكنها تضاءلت أكثر مما كانت عليه . وربما زال أثرها من نفسى عما قريب . وإذا اتضح أنهما يتراسلان زالت كل المخاوف من نفسى » .

« تساهل عظيم حقاً ! إذا أتيح لك أن تريهما عند المذبح ، صدقت أنهما سيتزوجان . يالك من بنت غليظة القلب ! أما أنا فلا أحتاج لمثل هذا الدليل لأنى لم أر شيئاً مما حدث يبرر الشك ، فلم يحاول أحدهما أن يلوذ بالـكتمان . كل شىء جرى بصراحة و بلا تحفظ على حد سواء . وليس فى وسعك أن تشكى فى رغبة أختك . فلم يبق إلا ولبى الذى تشكين فى أمره . ولـكن لماذا ؟ أليس رجلا ذا شرف و إحساس ؟ هل بدا منه من تقلب الأهواء ما يثير الفزع ؟ أيمكن أن يكون رجلا خداعا ؟ »

فصاحت إلينور: « أرجو ألا يكون ، وأعتقد أنه ليس كذلك . أنا أحب ولبي وأحبه بإخلاص . والشك فى نزاهة مقصده لا يمكن أن يؤلمك أكثر مما يؤلمني . لقد خالجني هذا الشك على كره مني ، ولن أسمح لنفسي بالتمادى فيه . وأعترف أنني ذعرت عندما لمست تغير أحواله هذا الصباح ، فلم يتكلم كعادته ولم يقابل عطفك وبرك بأى مظهر من مظاهر الود . ولكن ذلك كله يمكن تعليله بما ذكرت من دقة موقفه . لقد فارق أختى ورآها تعانى لوعة الأسى لفراقه وإذا كان قد شعر بأنه مضطر — خوفا من إغضاب مسز سميث — إلى كبح جماح رغبته فى العودة إلى هذا المكان قريبا ، ثم شعر أنه برفضه لدعوتك وبقوله : إنه سيتغيب إلى حين ، أنه يرتكب فى حق أسرتنا عملا مريبا غير كريم ، كان من حقه أن يشعر بالحرج والاضطراب . وفى مثل هذه الحالة كان اعترافه الصريح بما يواجه من مشاكل ومتاعب أجدر بشرفه — كما يكون أشبه بما نعهده من أخلاقه — ولكني لا أريد أن أعترض على مسلك أى إنسان على أساس غير كريم ألا وهو اختلافه معى فى الرأى ، وانحرافه — فيما أعتقد — عن جادة الحق والثبات على المبدأ . »

« إنك تقولين قولا سديداً . ومن المؤكد أنه لا يجدر بنا أن نرتاب فى أمر ولبي . فهو ليس غريبا فى هذا الجزء من العالم ، وإن لم نعرفه من عهد بعيد ، ومن ذا الذى عاب فى حقه ؟ ولو أنه كان فى موقف يملك فيه حرية التصرف وإتمام الزواج فى الحال لكان من الغريب أن يرحل عنا دون أن يصارحنا من فوره بكل شيء ، ولكن الأمر بخلاف ذلك . فخطبتهما بدأت بداية غير موفقة من بعض الوجوه لأن الزواج لابد أن يتم فى موعد بعيد غير مؤكد . ويبدو لى أن مراعاة الكتمان ما أمكن قد تكون الآن أمراً مستحسنا جدا . »

ودخلت مرجريت فقطعت عليهما الحديث، وبذلك أتيحت الفرصة لإلينور لتتأمل بحرية فى اعتراضات أمها ، وتعترف باحتمال صحة الكثير منها ، وترجو أن تكون كلها عادلة .

ولم تظهر مريان إلى أن حان وقت الغداء ، فدخلت الغرفة وجلست إلى المائدة دون أن تنبس ببنت شفة ، وعيناها حمراوان متورمتان ، وكانت تحبس الدموع فى مآقيها بصعوبة ، وتتجنب النظر إليهن جميعا ، ولم تأكل أو تتكلم . وبعد برهة ضغطت أمها يدها فى صمت ، بشىء من الحنان والعطف ، فانهار ذلك القدر الضئيل من التجلد الذى أبدته ، وأجهشت بالبكاء وغادرت الغرفة .

وظلت تشعر بلوعة الأسى طول المساء ، وخارت قواها لأنها فقدت كل رغبة فى ضبط نفسها ، وكانت لا تطيق أدنى إشارة إلى أى شىء يتصل بولبى ، واستحال على أهلها — مع حرصهن البالغ على راحتها — أن يتحاشين — إذا تكلمن على الإطلاق أى موضوع يتصل به .

الفصل السادس عشر

لو أن سريان استطاعت أن تنام على الإطلاق فى أول ليلة بعد فراق ولبى لعدت ذلك ذنباً لا يغتفر ، ولو أنها لم تهب من فراشها أحوج إلى الراحة منها حين أوت إليه لخجلت أن تواجه أهلها فى صباح اليوم التالى . ولكن العاطفة التى جعلتها تعد مثل هذا الهدوء ضرباً من العار جعلتها لاتخشى التعرض له ، فقد سهرت الليل كله ، وبكت فيه إلا أقله ، واستيقظت وهى تشعر بالصداع ، والعجز عن المشى ، والرغبة عن الطعام ، وتبعث الألم فى نفس أمها وأخواتها فى كل لحظة ، ولم تقبل منهن أى عزاء أو سلوى . لقد كانت عاطفتها قوية جداً .

ولما انتهى طعام الفطور ، خرجت وحدها للنزهة ، وتجولت فى قرية ألنهام وهى تستغرق فى ذكريات الأيام الماضية الممتعة ، وتبكى على محنتها الحاضرة معظم ساعات الصباح .

وقضت مساء ذلك اليوم وهى تستعيد هذه الذكريات ، وعزفت كل أغنية محبوبة كانت تعزفها لولبى ، ورددت كل لحن اشتركا معا فى غنائه ، وجلست إلى الآلة الموسيقية وهى تتأمل فى كل سطر من سطور الأغانى التى كتبها لها إلى أن اعتراها من الحزن ما لا مزيد عليه . وظلت تتجرع غصص الأحزان كل يوم ، وتقضى الساعات الطوال أمام البيان بين الغناء والبكاء حتى تخنقها العبرات . وكانت تشعر بلوعة الأسى عند القراءة ، كما تشعر بها عند الغناء ، وذلك إذا قارنت بين حالها فى الماضى وحالها فى الحاضر ، ولم تقرأ شيئاً إلا ما كانت تقرؤه معه .

والواقع أنها لم تستطع أن تتجرع غصص الآلام إلى الأبد ، فقد استحالت هذه الآلام فى خلال أيام إلى ضرب من الكآبة التى تقترن بالهدوء . ولكن الأعمال التى كانت تمارسها كل يوم ، وضروب النزهة التى تقوم بها منفردة ، والتأملات الصامتة التى تستغرق فيها — كل ذلك كان يذكى لهيب الأسى فى فؤادها .

ولم يرد خطاب من ولبى ، ولم تتوقع مريان — فيما يبدو — أن تتلقى منه خطابا ، ودهشت لذلك أمها ، وعادت إلينور فساورها القلق . ولكن مسز داشوود كانت تلتمس المعاذير ، كلما أرادت ، وتجد فيها ما يشفى غليلها على الأقل .

قالت « تذكرى يا إلينور كم مرة يأتينا سير جون بالخطابات من البريد ويحملها إليه . لقد اتفقنا على أن الكتمان قد يكون ضروريا ، ويجب علينا أن نعترف أنه لا يمكن استمرار هذا الكتمان إذا وقعت خطاباتهما فى يدى سير جون » .

ولم يسع إلينور أن تنكر هذه الحقيقة ، ورأت فى ذلك باعثا قويا على التزام الصمت . ولكنها كانت ترى وسيلة مباشرة وبسيطة — وفى رأيها أنها خير وسيلة — للوقوف على حقيقة الأمر ، وإزالة ما يكتنفه من الغموض على الفور ، ولم يسعها إلا أن تقترح هذه الوسيلة على أمها .

قالت : « لم لا تسألين مريان حالا أمخطوبة هى لولبى أم غير مخطوبة ؟ والسؤال منك أنت الأم الحنون الرءوم لا يمكن أن يثير غضبها ، بل تراه نتيجة طبيعية لحبك لها . ومريان لا تعرف التحفظ والتكتم وبخاصة معك » .

« لايمكن أن أسألها هذا السؤال بأى حال من الأحوال هي أنهما غير مخطوبين ألا يسبب لها هذا السؤال أشد الألم ؟ وعلى كل حال فإنه يكون خاليا من الشهامة ولا أكون جديرة بثقتها مرة أخرى إذا انتزعت منها اعترافا بأمر يراد أن يبقى فى طى الـكتمان فى الوقت الراهن . إنني أعرف شعور مريان : أعرف أنها تحبنى حبا جما ، وأننى لن أكون آخر من يعلم بالأمر حينما تجمل الظروف إظهاره أمرا مستحسنا . ولا أود أن أنتزع سر أى إنسان فضلا عن ابنتي لأن الشعور بالواجب قد يمنعها من إنكار ما تريد هى إنكاره » .

وكانت إليفور ترى هذه الشهامة أمرا متكلفا ، بالنظر إلى حداثة أختها، وألحت على أمها فى الأمر مرة أخرى ولـكن عبثا ، وتلاشى العقل والحذر والحـكمـة أمام العواطف الرقيقة الخيالية التى تتصف بها أمها .

ومرت عدة أيام دون أن يرد اسم ولبى أمام مريان على لسان أحد من أهلها، أما سيرجون ومسز جننجز فلم يبديا مثل هذا التحفظ ، فزادتها نكاتهما ألما على ألم وفى مساء يوم من الأيام تناولت مسز داشوود عرضا أحـــد كتب شكسبير وصاحت :

«إننا لم نتم قط قراءة هملت يامريان . لقد سافر عزيزى ولبى قبل أن نفرغ منها . سندعها جانبا حتى إذا عاد . ولـكن قد تمضى شهور قبل تلك العودة ».

فصاحت مريان فى دهشة شديدة « شهور ! كلا — ولا أسابيع كثيرة . »

وتأسفت مسز داشوود على ما قالت ولـكن إليفور سرت بمـا قالت لأنه انتزع من مريان جوابا يعبر عن ثقتها بولبى ومعرفتها بنواياه .

وفى صباح يوم وبعد حوالى أسبوع من مغادرته الريف قبلت مريان أن تشارك أخواتها فى نزهتهن المعتادة بدلا من أن تتجول وحدها، وكانت تأبى حتى ذلك الوقت أن تصحب أحدا فى جولاتها ، فإذا أراد أخواتها أن يتنزهن فى المروج تسللت منهن ،ومضت لاتلوى على شىء نحو الدروب التى تتخلل الحقول. و إذا تحدثن عن النزهة فى الوادى أسرعت بالتسلق على التلال ، ولم يعثرن لها على أثر . ولـكن إلينور فى جولاتها عثرت عليها أخيرا وكانت تمقت هذه العزلة المستمرة. فسرن فى الطريق الذى يتخلل الوادى والصمت يغلب عليهن ، لأنه لم يـكن فى وسع مريان أن تضبط نفسها . واكتفت إلينور بهذه الخطوة ولم تطلب إلى أختها شيئا آخر . وكان يمتد أمامهن طريق طويل هو الذى سرن فيه عند قد ومهن إلى بارتون أول مرة ، وذلك وراء مدخل الوادى الذى كانت فيه الأرض على خصوبتها قليلة الزروع ، عارية من الغابات والأشجار . وعندما وصلن إلى هذا المكان توقفن عن السير لينظرن حولهن ويتأملن فى منظر يمتد على طول المسافة التى يقع عليها بصرهن من منزلهن ، وذلك من نقطة لم يحدث أن وصلن إليها فى أية جولة من جولاتهن السابقة .

وسرعان ماشاهدن ــ فيما شاهدنه من الأشياء ــ شبحا ينبض بالحياة ، وكان هذا الشبح يمتطى صهوة جواد ويتجه نحوهن ، وبعد دقائق معدودات استطعن أن يتبين أنه رجل ، وماهى إلا أن صاحت مريان وقد استطيرت فرحا .

إنه هو حقا ــ أنا أعرف أنه هو ! ــ وسارعت إلى لقائه ، وإذا بإلينور تصيح بها :

« أظن يامريان أنك مخطئة فى واقع الأمر . ليس بولى ، فهذا الشخص

ليس فارع القوام مثله ، وليست له هيئته».

فصاحت مريان « له هيئته ، له هيئته . أنا واثقة من ذلك . هيئته وسترته وجواده . كنت أعلم أنه سيأتى قريبا» .

وهرولت مسرعة وهى تتكلم ؛ وأرادت إلينور أن تمنعها من استقصاء أمره لأنها كانت توقن أنه ليس ولبى ، فأسرعت خطاها ولحقت بها ، وأصبحتا على بعد ثلاثين ياردة من الرجل ، وأعادت مريان النظر فَسَقطَ فى يدها .

استدارت من فورها وعادت مسرعة ، وإذ صاحت بها أختاها أن تتوقف عن المسير ، صاح بها شخص ثالث يكاد يكون معروفا لها كولبى ، متوسلا إليها أن تتوقف . فالتفتت مشدوهة وإذا بها ترى إدوارد فيرارز وترحب به .

وكان هو الشخص الوحيد فى العالم الذى تستطيع أن تعفو عنه لأنه ليس ولبى ، الشخص الوحيد الذى كان يمكن أن يظفر منها بابتسامة . ولكنها مسحت دموعها لتبتسم له ، ونسيت — إلى حين — فى فرحة أختها ، ما شعرت به هى من خيبة الأمل .

وترجل عن جواده ، وسلمه إلى خادمه ، وسار معهن عائداً إلى منزلهن الذى قدم إليه لزيارتهن فاستقبلنه جميعا استقبالا ينم على صادق الود ، وبخاصة مريان التى احتفت بمقدمه أكثر من إلينور نفسها ، ولاحظت مريان أن لقاء إدوارد وأختها لم يكن الا استمرارا للفتور الذى لا تدرى له سببا والذى لاحظته فى نورلاند كثيراً فى مسلك كل منهما تجاه الآخر ، ولم يكن فى حديثه

إدوارد - بالذات — ونظراته شيء مما ينبغي أن يظهره المحب في هذه المناسبة . كان مرتبكا لا تبدو عليه مظاهر السرور بلقائهن ، فلا هو غلبت عليه نشوة الفرح ، ولا هو بدت عليه خفة المرح ، ولا تكلم إلا بما انتزعنه منه بأسئلتهن ، ولم يختص إلينور بشيء من مظاهر الحب . ونظرت مريان وأصغت إليه وهي في دهشة زائدة حتى لقد كادت تشعر نحوه بشيء من الكراهية ، وانتهى بها الأمر كما ينتهي كل شعور يخالجها ، بالتفكير في ولي الذي تختلف أخلاقه اختلافا بينا عن هذا الذي يراد أن يكون زوجا لأختها .

و بعد فترة صمت وجيزة أعقبت دهشة اللقاء وأسئلته ، سألت مريان إدوارد هل قدم من لندن مباشرة . فأجاب بالنفي وقال : إنه مضى عليه أسبوعان في ديفونشاير .

فرددت « أسبوعان ! » وقد اعترتها الدهشة لبقائه هذه المدة الطويلة في البلد نفسه الذي تقيم فيه إلينور دون أن يراها .

وظهر عليه بعض الألم حينما أضاف أنه كان ينزل عند بعض الأصدقاء بالقرب من بليموث .

قالت إلينور : « هل ذهبت إلى سسكس أخيراً ؟ »

« كنت في نورلاند منذ حوالى شهر » .

فصاحت مريان : « وكيف حال نورلاند العزيزة ؟ »

قالت إلينور : « لعل حال نورلاند العزيزة المحبوبة كحالها دائما في مثل هذا الوقت من السنة — الغابات والمراعي تكسوها الأوراق الذابلة » .

فصاحت مريان: « لشد ما كان يستخفنى الطرب حينما أرى هذه الأوراق وهى تتساقط ! كم كان سرورى عند ما تذروها الرياح حولى أثناء نزهتى ، وكأنها وابل من المطر . وما أرق المشاعر التى يثيرها فى النفس عبير الهواء والطقس . لا أحد الآن ينعم برؤيتها ، بل هى قذى يميطه الإنسان عن الطريق ، ويقذفه بعيداً عن الأنظار » .

قالت إلينور « ما كل إنسان يشعر بما تشعرين به من عاطفة نحو الأوراق الذابلة » .

« كلا ! كثير من الناس لا يشاركوننى عواطفى ولا يفهمونها . ولكن بعضهم يشاركنى إياها ويفهمها » وعندما قالت ذلك سبحت فى طوفان من أحلام اليقظة برهة من الزمن ، ثم أفاقت وقالت لإدوارد وهى تلفت نظره إلى منظر الوادى: « تأمل هنا وادى بارتون يا إدوارد . انظر إليه وانعم براحة البال ما استطعت . انظر إلى هـذه التلال ! هل رأيت لها مثيلا ؟ إلى يسارك قصر بارتون بارك بين الغابات والمزارع ، تستطيع أن ترى طرفا منه . وهناك منزلنا الريفى أسفل ذلك التل البعيد الذى يشمخ بأنفه » .

فأجاب « إنه إقليم جميل ، ولكن من المؤكد أن تتلوث هذه الأغوار فى الشتاء بالأقذار » .

« كيف تفكر فى الأقذار مع هذه المناظر الجميلة التى تبدو أمامك ؟ »

فأجاب مبتسما : « لأنى أرى بين بقية الأشياء التى تبدو أمامى درباً قذراً جداً » .

فقالت مريان فى نفسها، وهى تواصل السير: « يا له من أمر غريب ! »

« هل جيرانكم قوم صالحون ! وهل آل ميدلتون قوم طيبون ! »

فأجابت مريان : « كلا ! ليسوا كذلك إطلاقا . وليس ثمة مكان أسوأ مما نحن فيه » .

فصاحت أختها قائلة: « كيف تظلمين القوم إلى هذا الحد ؟ إن آل ميدلتون قوم جديرون بالاحترام يا مستر فيرارز ، قد عاملونا معاملة تنطوى على أصدق الود . هل نسيت يا مريان كم قضينا معهم من أيامٍ عِذاب ! »

فقالت مريان في صوت خافت: « كلا ! ولم أنس كم قضينا معهم من لحظاتٍ عَذاب » .

ولم تعر إلينور هذا القول التفاتا ، ووجهت نظرها إلى الزائر ، وحاولت أن تستدرجه إلى الحديث ، فحدثته عن مسكنها الحالى ومزاياه الخ، وبذلك انتزعت منه بعض الأسئلة العارضة ، والملاحظات العابرة . وتألمت كثيراً لبروده وتحفظه إلى درجة أوغرت صدرها ، وأثارت حفيظتها ، ولكنها آثرت أن تعامله بما ينبغى أن يعامل به أولو القربى والأرحام .

الفصل السابع عشر

لم تدم دهشة مسز داشوود لرؤيته إلا لحظة واحـدة ، لأنها كانت ترى أن قدومه إلى بارتون أمر طبيعي للغاية ، وتلاشت دهشتها في نشوة الفرح وعبارات الحب الذي غمر قلبها ، ورحبت بمقدمه أجمل ترحيب ، فتلاشى حياؤه وفتوره وتحفظه أمام هذه الحفاوة . وكانت هذه الخصال قد بدأت تزايله قبل أن يدخل المنزل، ولـكنها تلاشت تماماً أمام شمائل مسز داشوود التي تأخذ بالألبـاب . والواقع أن الإنسان لا يستطيع أن يحب إحدى ابنتيها دون أن يشملها بهذا الحب أيضاً ، وسرت إلينور حين رأته يعود إلى حالته الطبيعية ، وبدا أن حبه لهن جميعاً قد زاد قوة كما أن اهتمامه بأمرهن عاد فأصبح واضحاً . ولـكنه كان كاسف البال فقد امتدح البيت وأعجب بمنظره ، وأظهر اهتمامه بأمرهن وعطفه عليهن، ولـكنه ظل كاسف البـال كذلك ، وفطن جميع أفراد الأسرة إلى ذلك ، ورأت مسز داشوود أنه يرجع إلى تقتير أمه عليه ، وجلست إلى المائدة وهي تنقم على جميع الآباء الذين يتصفون بالأنانية .

ولما انتهى الطعام والتفقن حول المدفأة سألته : « ماذا تريد لك مسز فيرارز في الوقت الحاضر يا إدوارد ؟ ألا تزال تريد أن تـكون خطيباً رغم أنفك ! »

« كلا ! أرجو أن تـكون أمي قد اقتنعت الآن أنه ليس لدى من المواهب إلا الميل للحياة العامة » .

« ولـكن كيف تتهيأ لك الشهرة ؟ لأنك لـكي ترضي أهلك لابد أن تـكون رجلا مشهوراً . ومع عدم الرغبة في الإنفـاق ، وعدم الحب للغرباء ،

وبدون مهنة ولا ثقة بالنفس قد يكون ذلك عليك عسيراً » .

« لن أسعى إلى ذلك ، لأنى لا أحب أن أكون رجلا مشهوراً ، ولدى كل الأمل فى أنى لن أكونه . الحمد لله ! لا سبيل لإرغامى على أن أكون عبقريا وخطيباً بليغاً » .

« أنا أعرف جيداً أنك رجل لا تعرف الطموح ، وكل أمانيك تتسم بطابع الاعتدال » .

« أعتقد أنها تتسم بطابع الاعتدال الذى تتسم به أمانى الناس جميعاً . إننى أحب أن أنعم بالسيادة الكاملة كما يحب الناس جميعا . ولكن يجب أن تكون هذه السعادة على النحو الذى أريده أنا ، شأنى فى ذلك ، شأن كل إنسان آخر . والعظمة لن تجعلنى كذلك » .

فصاحت مريان : « وإذا جعلتك كذلك كان أمراً غريباً ! أى صلة للغنى أو العظمة بالسعادة » .

فقالت إلينور : « العظمة تمت للسعادة بصلة ضعيفة ، أما الغنى فيمت لها بصلة قوية » .

فردت مريان : « إلينور ! يا للعار ! إن المال لا يجلب السعادة إلا حيث لا يجلبها غيره . وأى قدر من المال جاوز حد الكفاف ، لا يجلب شيئاً من السعادة للإنسان فى حد ذاته[1] » .

(١) فى هذا المعنى إشارة إلى قول الشاعر العربى :

« غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة فان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا »

فقالت إلينور وهى تبتسم : « لا يمكن أن نتفق فى الرأى . فالكفاف الذى تقصدينه ، والغنى الذى أقصده ، يكادان يتشابهان فيما أعتقد . وبدونهما — كما هو الشاهد الآن — يتعذر على الإنسان أن ينعم بأى ضرب من ضروب الرفاهية الخارجية . وكل ما فى الأمر أن أفكارك أسمى من أفكارى . والآن حدثينى ما هو الكفاف فى عرفك ؟ » .

« حوالى ألف وثمانمائة أو ألفى جنيه فى العام ، لا أكثر من ذلك »

« فضحكت إلينور « ألفان فى العام ! إن ألفا واحدا هو الغنى فى نظرى . لقد حدست ما تريدين أن تقولى » .

فقالت مريان : « ومع ذلك ، أرى أن ألفى جنيه فى العام هو دخل معتدل جداً . وأى أسرة لا يمكن أن تعيش بدخل أقل . وأنا أعتقد أننى لا أسرف فى طلباتى . فالأسرة التى تشتمل على عدد من الخدم ولها عربة أو عربتان ، وصيادون لا يمكن أن تعيش بدخل أقل من ذلك » .

فضحكت إلينور مرة أخرى عندما سمعت أختها تصف بدقة نفقاتها المستقبلة فى كومب ماجنا .

وردد إدوارد : « صيادون ! ولكن لماذا يكون عندك صيادون ؟ فكل إنسان لا يصطاد . »

فتغير لون مريان وقالت : « ولكن معظم الناس يصطادون . »

وخطرت لمرجريت فكرة جديدة فقالت : «أتمنى أن ترزق كل منا برجل يعطيها ثروة طائلة ! »

فقالت مريان : « ليت لنا ذلك ! » وبرقت عيناها بالسرور ، وتوردت وجنتاها حين استخفها الطرب لهذه السعادة الخيالية . »

وقالت إلينور : « أظن أنكن جميعاً مجمعات على هذه الأمنية على الرغم من عدم كفاية الثروة . »

وصاحت مريان : « وى عزيزتى ! كم أكون سعيدة ! إننى لا أدرى ماذا أفعل بها ! »

وكانت نظرات مريان تدل على أنها لا تشك فى هذا الأمر .

وقالت مسز داشوود : « إننى سأحار فى إنفاق ثروتى الطائلة إذا رزقت بناتى بالغنى دون مساعدتى . »

فردت إلينور قائلة : « يجب عليك أن تشرعى فى إصلاح البيت ، وحينئذ لن تجدى أية صعوبة فى إنفاقها . »

وقال إدوارد : « وما أعظم الطلبات التى ستنهال من هذه الأسرة على لندن فى هذه الحالة . ياله من يوم سعيد لبائعى الكتب والمعازف والأدوات الموسيقية وأصحاب المطابع ! فأنت يامس داشوود ستمنحين عمولة عامة لكل من يوافيك بثمرات المطابع . وأما مريان — وأنا أعرف علو همتها — فإن جميع الآلات الموسيقية فى لندن لن تكفى لإشباع نهمتها . والكتب ! — طمسون ، وكوبر ، وسكوت — ستشتريها هى جميعا بدل المرة مرات ؛ ستشترى كل نسخة منها — فيما أعتقد — حتى لا تقع فى يد من لا يستحقها . وستشترى كل كتاب يحدثها عن الأشجار العتيقة الملتوية . أليس كذلك يامريان؟ استميحك عفوا إذا أنا تطاولت عليك ! ولكنى أردت أن أبين لك أنى لم أنس خلافاتنا القديمة . »

« إننى أحب يا إدوارد من يذكرنى بالماضى سـواء أكان يثير الحزن أم الفرح . أحب أن أذكـره — ولن أغضب منك إذا أنت حدثتنى عن الأيام الخالية . لقد أصبت فيما ذكرت عن الوجوه التى أنفق فيها مالى — أو بعضه على الأقل — لا شك أننى سأنفق مصروفتى النثرية فى زيادة ما أقتنيه من الـكتب والأدوات الموسيقية . »

« وأما جملة ثروتك فستجعلين منها معاشات سنوية للمؤلفين أو ورثتهم . »

« كلا يا إدوارد ، سأنفقها فى شىء آخر ».

« إذن ربما جعلت منها جائزة تمنح لمن يكتب أحسن مقال فى الدفاع عن حكمتك المحبوبة ، وهى أن الإنسان لا يمكن أن يحب أكثر من مرة واحـدة فى حياته — لأنى أظن أن رأيك فى هذا الموضوع لم يطرأ عليه تغيير »

« بلا شك . وأنا لم أغير آرائى طول حياتى . ولا يحتمل أن أرى أو أسمع الآن شيئا يحملنى على تغيير آرائى . »

وقالت إلينور: «أنت ترى أن مريان ثابتة على رأيها كما كانت، لم يطرأ عليها أى تغيير . »

« لـكنى أرى أنها أصبحت أميل إلى الرزانة قليلا »

فقالت مريان: « نعم يا إدوارد ! لا حاجة بك لأن تؤنبنى، فأنت نفسك لست كثير المرح »

فأجاب وهو يتنهد : « لماذا ترين ذلك ؟ إن المرح لم يكن قط من شأنى » .

وقالت إلينور: « ولا هو من شأن مريان فيما أظن. إننى لا أسميها فتاة مرحة

فهى تميـــل إلى الجد والحماسة فيما تصنع ، تتحدث كثيراً فى بعض الأحيان ، ولـكنها لا تميل إلى المرح فى أغلب الأحيان . »

فأجاب : « أعتقد أنك على حق. ومع ذلك فقد كنت أعدها دائما فتاة مرحة»

وقالت إلينور « لقد تبين لى كثيرا أننى وقعت فى مثل هذا الخطأ ، فأسأت فهم أخلاق غيرى على نحو ما ، فتصورت أن بعض الناس أكثر مرحا أورزانة أو أنهم أكثر ذكاء أو غباء منهم فى واقع الأمر . ولا أدرى سبباً أو مصدراً لهذا الخطأ . أحياناً يتأثر الإنسان بما يقوله الناس عن أنفسهم ، وغالباً بما يقوله الغير عنهم ، دون أن يتريث فى الحـكم . »

فقالت مريان : «ولـكنى كنت أظن أنه من الصواب أن يستأنس الإنسان بآراء غيره فى كل شىء ، وأن آراء الإنسان يجب أن تخضع دائما لآراء جيرانه ، وقد كان هذا مبدأك دائماً فيما أعتقد . »

« كلا يامريان ! لم يكن هذا مبدئى قط . لم يهدف مبدئى قط إلى خضوع العقل. وكل ما حاولت التأثير فيه هو السلوك. يجب ألا يلتبس عليك فهم مرادى، إننى أعترف بأنى رغبت إليك أكثر من مرة فى أن تراعى شعور معارفك بوجه عام أكثر مما تفعلين ، ولـكن متى نصحتك أن تتأثرى بعواطفهم ، أو تنزلى على حكمهم فى خطير الأمور . ؟ »

وقال إدوارد لإلينور : « كأنك لم تستطيعى أن تحملى أختك على اتبـاع خطتك فى مجاملة الناس . ألم تنجحى فى هذا السبيل ؟ »

فأجابت قائلة « على عكس ذلك تماما » وهى تنظر إلى مريان نظرة معبرة .

فرد قائلا « إن رأيى أشبه برأيك ، ولـكن معاملتى للناس أشبه بمعاملة أختك. وأنا لا أميل أبدا لجرح شعور الناس . ولـكن شدة خجلى للقرون بالغباء تجعلنى أبدو قليل الا كتراث بهم، فى حين أن الحرج الذى أشعر به عادة فى حضورهم هو الذى يمنعنى من الترحيب بهم عند لقائهم . وطالما خطر لى أنى فُطرتُ على الميل لصحبة أهل المحتد الوضيع لأنى أشعر بالحرج مع الغرباء أهل المحتد الرفيع »

فقالت إلينور : «ليس لمريان من الخجل والحياء ماينهض عذرا لعدم اهتمامها بالناس . »

فأجاب إدوارد : « إنها تعالى بنفسها بحيث لا حاجة بها لتصنع الخجل . والخجل ليس إلا نتيجة الشعور بالنقص فى ناحية من النواحى . ولو أنى اعتقدت أنى بلغت الـكمال فى لطف الشمائل ودماثة الأخلاق لما شعرت بالخجل » .

فقالت مريان: «ولـكنك ستظل مع ذلك متحفظا ، وهذا أسوأ من الخجل»

فحدق فيها النظر وقال : « متحفظ ؟ أمتحفظ أنا يا مريان ؟ »

« نعم ، جداً » .

فتغير لونه وأجاب : « لست أفقه ما تقولين . متحفظ ! كيف ؟ وعلى أى وجه ؟ ماذا أقول لك ؟ وماذا تظنين ؟ »

فارتسمت علائم الدهشة على وجه إلينور لانفعاله ، ولـكنها حاولت أن تصرف الموضوع بالضحك ، فقالت له: «ألا تعرف أختى جيداً حتى تفهم قصدها؟ ألا تعلم أنها تتهم بالتحفظ كل من لا يحاكيها فى سرعة حديثها ، ولا يبدى إعجابه الشديد بما تعجب هى به ؟ »

فلم يحرِ إدوارد جوابا ، وارتسمت على وجهه علائم الجد والتفـكير بأجلى مظاهرها — وجلس بعض الوقت وهو صامت كئيب .

الفصل الثامن عشر

نظرت إلينور بعين القلق الشديد إلى ما بدا على صديقها من الكآبة والانقباض ، ولم تبعث زيارته فى نفسها إلا قليلاً من السرور و بدا أنه هو أيضاً لم يسر كثيراً بهذه الزيارة ، فقد كان لا يخفى شعوره بعدم السعادة ، وكانت تود لو أنه لم يخف أيضاً شعوره بالحب الذى لم تشك أنه خامره فيما مضى . ولكن الشك ساورها فى استمرار هذا الحب حتى ذلك الوقت . وكان ما يبديه إزاءها من التحفظ تارة ، يناقض ما يبديه من الانبساط تارة أخرى .

وانضم إليها هى ومريان فى غرفة الفطور فى صباح الغد قبل أن تنزل الأخريان وكانت مريان تحرص دائما على تهيئة أسباب السعادة لهما بقدر المستطاع ، فخرجت من الغرفة ليجلسا على انفراد . ولكن ما إن صعدت إلى منتصف الدرج حتى سمعت باب الردهة وهو يفتح ، فاستدارت ، ودهشت حين رأت إدوارد يخرج منها.

قال : « إنى ذاهب إلى القرية لأتفقد جيادى لأنك لم تستعدى بعد لتناول الفطور ، وسأعود بعد قليل » .

وعاد إدوارد إليهن ، وهو يبدى مزيداً من الإعجاب بالبيئة التى تحيط بهن، إذ استطاع فى أثناء ذهابه إلى القرية أن يشاهد كثيراً من أنحاء الوادى بوضوح وكان موقع القرية ذاتها أكثر ارتفاعا من موقع المنزل ، فأمكن له أن يلقى نظرة عامة على جميع أنحاء الوادى وما يشتمل عليه ، فازداد إعجابا بما رآه . وأثار هذا الموضوع اهتمام مريان ، فأخذت تبدى له إعجابها بهذه المناظر ، وتوجه إليه أسئلة دقيقة عن المناظر التى استرعت نظره بصفة خاصة ، فقاطعها إدوارد بقوله:

«لاتسأليني كثيراً ياحريان — تذكرى أنه لاخبرة لى بوصف المناظر الرائعة، وأخشى أن يسوؤك جهلى ، وافتقارى إلى الذوق السليم إذا دخلنا فى التفاصيل،فقد أصف التلال بأنها منحدرة حيث ينبغى أن توصف بأنها قائمة ، وأصف السطوح بأنها غريبة خشنة حيث ينبغى أن توصف بأنها وعرة غير منتظمة . وأصف الأشياء البعيدة بأنها محتجبة عن الأنظار حيث ينبغى القول بأنها غير واضحة لوجود غلالة رقيقة من الضباب تشوب الجو . وعليك أن تقنعى بالوصف الذى أستطيع أن أذكره بصدق وأمانة . إننى أقول: إنه اقليم رائع الجمال — التلال شديدة الانحدار والأدغال مليئة بالأشجار ذات الخشب الجميل ، والوادى يبدو رحب الجناب ، أنيق المنظر ، بمراعيه الوافرة ، ومنازل الفلاحين المنبثة هنا وهناك . وهذا الإقليم يتفق مع رأيى عن البلاد الجميلة لأنه يجمع بين الجمال والفائدة — وفى وسعى أن أقول : إنه إقليم رائع المنظر أيضا لأنك معجبة به . وأعتقد أنه ملىء بالصخور والرءوس والطحالب الشهباء والحسك ، ولكن هذه الأشياء لاتسترعى نظرى لأنه لاخبرة لى بالمناظر الرائعة .

قالت مريان : «أخشى أن أقول إنك تبالغ فى وصفك . ولكن حدثنى لماذا تعجب بهذا الإقليم ؟ »

قالت إلينور « أظن إدوارد أراد أن يتحاشى نوعا من التكلف والتصنع ، فوقع فى نوع آخر ،فهو يعتقد أن كثيراً من الناس يدعون من الأعجاب بمفاتن الطبيعة أكثر مما يشعرون به فعلاً ، وهو يمقت مثل هذا الادعاء ولذلك يتصنع عدم المبالاة بهذه المفاتن ويدعى عدم التمييز بينها أكثر مما يشعر به فعلاً . إنه أراد أن يتحرج من التكلف فوقع فيه » .

فقالت مريان : « لاشك أن الإعجاب بالمناظر الطبيعية الحلوية قد أصبح ضرباً من اللغو ، فكل إنسان يدعى أنه يعجب بهذه المناظر ، ويحاول أن يصفها بالذوق السليم والأسلوب البليغ الذى وصفها به من عرف الجمال الرائع أول مرة . إننى أكره اللغو من أى نوع كان . ولذلك ترانى أحياناً أكتم مشاعرى فى نفسى لأنى لاأجد من الألفاظ ما أستطيع وصفها به ، إلا ما كان بالياً مبتذلاً خاليا من أى معنى على الإطلاق » .

وقال إدوارد : « أعترف أنك تشعرين فعلاً بكل ماتقولين إنك تشعرين به من متعة عند مشاهدة أى منظر جميل ، ولكن أرجو فى نظير هذا الاعتراف أن تسلم لى أختك بأنى لا أشعر بأكثر مما أقول . إننى أحب المنظر الجميل لالأنه منظر رائع يستحق التصوير ، فأنا لا أحب الأشجار المعوجة الملتوية الذابلة ، ولكن أعجب بها أكثر إذا كانت باسقة مستقيمة زاهرة . ولا أحب نبات القريض أو الحسك والعوسج أو أزهار الخلنج ولكنى أجد من المتعة فى مشاهدة بيت أنيق من بيوت الفلاحين أكثر مما أجد فى مشاهدة برج من أبراج المراقبة ، وأسر برؤية طائفة من أهل الريف الذين تبدو عليهم مظاهر السعادة والنظافة أكثر مما أسر برؤية أجمل قطاع الطرق فى العالم . »

ونظرت مريان إلى إدوارد بعين الدهشة،وإلى أختها بعين العطف والإشفاق أما إليتور فلم يسعها إلا أن تضحك .

وأقفل باب الحديث فى هذا الموضوع ، واستغرقت مريان فى الصمت والتفكير ، و إذا بموضوع جديد يثير اهتمامها ، وذلك أنها كانت تجلس بجانب

إدوارد قد يده أمامها مباشرة لتناول الشاى من مسز داشوود ، فرأت فى إحدى أصابعه خاتماً فى وسطه جديلة من شعر .

فصاحت : «لم أر يا ادوارد خاتماً فى إصبعك من قبل . هل هذا شعر فانى ؟ إننى أذكر أنها وعدت أن تعطيك بعض شعرها ، ولـكنى كنت أظن أن شعرها أفحم من ذلك . »

وكانت مريان تعبر عما تشعر به دون روية أوتدبر ، ولـكنها حين أحست أن كلامها آلم إدوارد خالجها من الـكدر لما أبدته من الطيش مثل ما خالجه ، وتورد وجهه بحمرة الخجل ، ونظر نظرة خاطفة إلى إلينور ثم أجاب : « نعم ! إنه شعر أختى ، وأنت تعرفين أن ترصيع الخاتم يضفى عليه دائماً لوناً مختلفاً . »

والتقت عين إلينور بعينه ، وبدا عليها الاهتمام أيضاً إذ تبينت على الفور أن الشعر هو شعرها هى كما تبينت مريان ، ولـكن الفرق الوحيد بينهما فى الاعتقاد هو أن ما حسبته مريان هدية خالصة من أخته رأت إلينور أنه شعرها حصل عليه بطريق السرقة أو بأية حيلة أخرى لاتعرفها ، على أنها لم تشأ أن تنظر إلى الأمر على أنه إهانة لها ، فتظاهرت بعدم الا كتراث وخاضت فى حديث آخر ، وصممت فى قرارة نفسها أن تنتهز بعد ذلك كل فرصة لمعاينة الشعر والتأكد بما لايدع مجالاً للشك من أن لونه هو لون شعرها تماما .

وارتبك إدوارد بعض الوقت ، وانتهى هذا الارتباك بشرود ذهنه فترة أطول ، وبدا ساهم الوجه طول الصباح ولامت مريان نفسها على ما قالته لوماً شديداً ، ولو أنها علمت أن أختها لم تشعر بالاستياء لما قالته لاغتفرت لنفسها هذه الزلة .

وقدم سيرجون ومسز جننجز قبل الظهيرة لزيارتهن ، وكانا قد سمعا عن مقدم رجل إلى المنزل الريفي ، فأرادا أن يلقيا نظرة على هذا الضيف . وما لبث سيرجون أن تبين بمساعدة حماته أن اسم فيرارز يبدأ بحرف « ف » وكان هذا يهيىء مادة غزيرة للتندر على إلينور المحبوبة ، ولولا أنهما كانا حديثي عهد بمعرفة إدوارد لبدأ هذا التندر في الحال .

ولم يكن سيرجون يأتي إلى آل داشوود قط إلا ليدعوهن للغداء في البارك في الغد أو ليترشف الشاي معهن في المساء . ولكنه أراد أن يواعدهن على الأمرين معا في هذه المناسبة رغبة في مؤانسة ضيفهن ، إنه رأى أن الواجب يحتم عليه المشاركة في إدخال السرور عليه .

قال : « يجب أن تشربن الشاي معنا هذه الليلة لأننا سنكون وحدنا — وغدا تتناولن معنا الغداء حتما لأن المأدبة سيحضرها عدد كبير . »

وألحت مسز جننجز في وجوب قبول الدعوة وقالت : « ومن يدري لعل وجودكن يشجع على الرقص . وهذا يلذ لك يامس مريان . »

فصاحت مريان : « رقص ! مستحيل ! ومن ذا الذي سيرقص ؟ »

« من ؟ أنتن أنفسكن وآل كاري وهُوِ شـكَر فيما أعتقد — عجبا ! أتظنين أنه لن يرقص أحد لأن شخصاً لا أسميه قد ذهب » .

فصاح سيرجون : «ليت ولبي كان معنا !»

وأثار هذا الـكلام ، وحمرة الخجل التى علت وجه مريان ، الظنون فى نفس إدوارد .

فسأل فى صوت خافت مسز داشوود وكان جالساً بجوارهـا « ومن هو ولبى ؟ »

فأجابت بإيجاز ، وكانت نظرات مريان تنم على رغبتها فى المزيد من الإفضاء ولكن إدوارد سمع مايكفى لالفهم كلام غيره فحسب، بل وفهم عبارات مريان التى التبس عليه فهمها من قبل . ولما انصرف الزائران ، انثنى إليها من فوره ، وهمس فى أذنها قائلا : لقد حزرت الأمر ؟ فهل أخبرك بما حزرت ؟

« ماذا تعنى ؟ »

« هل أخبرك ؟ »

« نعم ! »

« حزرت أن مستر ولبى صياد » .

فدهشت مريان وارتبـكت ، ولـكنها لم تتمالك أن ابتسمت لمداعبته ، ثم أطرقت هنيهة وقالت : «عجبا ! إدوارد ! كيف تستطيع ؟ - ولـكن أرجو أن يحين الوقت . . . . أعتقد أنك ستحبه » .

فأجاب : « لاشك فى ذلك » وقد اعترته بعض الدهشة لمـا أبدته من اهتمام وحماس ، ولو لم يتصور أن ماقاله هو نـكتة لصالح صديقها بوجه عام ترتـكز على وجود صلة كبيرة أو صغيرة بين ولبى و بينها ، لما اجترأ على ذكرها .

الفصل التاسع عشر

لبث إدوارد فى المنزل الريفى أسبوعا ، وألحت عليه مسز داشوود بشدة أن يطيل إقامته ، ولكنه فيما يبدو أزمع الرحيل وهو أشد مايكون سروراً بين صديقاته ، وكأنه موكل بتعذيب نفسه . وقد صفا مزاجه فى اليومين الآخيرين أو الأيام الثلاثة الأخيرة وإن ظل شديد التقلب ، فازداد حبه للمنزل وما يحيط به ، ولم يذكر الرحيل قط إلا تنهد ، ثم قال : إنه غير مرتبط بموعد على الإطلاق — بل لم يدر أين يذهب إذا هو فارقهن . ومع ذلك كله أصر على الرحيل . ولم يحدث قط أن مر عليه أسبوع بمثل المسرعة التى مر بها هذا الأسبوع ، بل لم يصدق أنه انقضى ومضى . وردد ذلك كثيرا ، ثم صرح بأقوال أخرى عديدة تنبىء عن حقيقة شعوره ، وتكذب أفعاله ، إذ قال : إنه لم يطب نفسا بالإقامة فى نورلاند ، وإنه مل الإقامة فى لندن ، ومع ذلك أصر على السفر إلى نورلاند . وأعرب لهن عن أعظم تقديره لكرمهن وعطفهن ، وشعوره بالسعادة الكبرى بين ظهرانيهن ، ومع ذلك أصر على فراقهن فى نهاية الأسبوع على كره منه ، وبدون أن يكون مرتبطا بأى موعد من المواعيد .

وقد عزت إلينور كل مارأته من تصرفاته الغريبة إلى أمه ، وكأنه يسعدها أن تكون له أم لاتعرف هى أخلاقها معرفة تامة حتى يتسنى أن تعزو إليها كل ماتراه فى ابنها من غريب الأطوار . ولكنها برغم ما كانت تشعر به من خيبة الأمل وشدة الكدر ، وما تشعر به أحيانا من الاستياء لمسلكه المتقلب إزاءها ، كانت تميل كثيرا إلى أن تنتحل له الأعذار الصريحة والمبررات الكريمة التى انتزعتها منها أمها لصالح ولبى بطريقة أليمة . فكانت تعزو فى الغالب

كآبته و تحفظه وتقلبه إلى فقدانه حرية التصرف، ومعرفته بطباع أمه ومقاصدها، كما تعزو قصر زيارته وإصراره على الرحيل إلى تقييد إرادته وضرورة مسايرة أمه في رغباتها وأهوائها ، وترى أن السبب في ذلك كله هو الشكوى القديمة التي لم يغيرها الزمن وهي تعارض الواجب مع الإرادة، ووقوف الآباء في وجه الأبناء. وكانت تود أن تعرف متى تنتهي هذه العقبات ، و تزول هذه المعارضة — متى يصلح حال مسز فيرارز ، ويتمتع ابنها بالحرية كي ينعم بالسعادة . ولكنها اضطرت أن تطرح هذه الأماني الباطلة جانبا لتلتمس العزاء في تجدد ثقتها بمحبة إدوارد لها، وفي تذكر كل مابدا لها من مظاهر الحب ، في نظراته أو كلماته التي بدرت منه أثناء إقامته في بارتون ، وفوق ذلك كله هذا البرهان السار على تلك المحبة الذي يتمثل في الخاتم الذي يلبسه دائما حول إصبعه. وقالت له مسز داشوود وهو يتناول الفطور في صباح آخر يوم « إخال يا إدوارد أنك ستكون أسعد حالا إذا مارست مهنة تشغل وقتك وتساعدك على تحقيق أغراضك . قد ينجم عنها بعض المتاعب لأصدقائك لأنها ستحول دون أن تعطيهم الكثير من وقتك ولكنها (بابتسامة) ستعود عليك بفائدة مادية على الأقل ، وهي أنك ستعرف أين تذهب حينما تتركهم » .

فأجاب : « أؤكد لك أنني فكرت في هذه الأمر مليا كما تفكرين أنت الآن . لقد أحزنني و سيحزنني دائما ألا أجد عملا يشغل وقتي ، ولامهنة تهيء لي أسباب العمل ، وتتيح لي مايشبه الاستقلال . ولكن حماقتي وحماقة أصدقائي لسوء الحظ جعلتني عاطلا عاجزا كما ترين الآن . إننا لم نستطع أن نتفق على اختيار مهنة معينة . ولقد كنت — ولازلت — أفضل أن أكون قسيسا .

ولكن هذه المهنة لاتقترن بمظاهر الأبهة والأناقة التى تصبو إليها أسرتى — فهم يحبون أن أكون ضابطا فى الجيش ، ولكن ذلك فيه من مظاهر الأناقة أكثر مما يلائمنى. وكان من المسلم به أن طلبة الحقوق يمتازون بحسن البزة ، وكثير من الشبان فى بيت طلبة الحقوق يبدو مظهرهم جميلا فى الدوائر الأولى ، ويسيرون فى لندن فى عربات أنيقة . ولكن لم يكن لى ميل للدراسات القانونية حتى الدراسات القانونية السهلة التى وافقت عليها أسرتى . أما العمل فى البحرية فكان أيضا يمتاز بأناقة المظهر ولكن سنى كانت أكبر من أن تؤهلنى للعمل فيها حينما بدأ التفكير فى ذلك، وأخيراً رؤى أن البطالة على وجه العموم هى أصلح الأشياء وأشرفها إذ لا ضرورة لممارسة أية مهنة على الإطلاق مادام فى وسعى أن أكون شابا جريئا مبذراً سواء لبست سترة حمراء أو سوداء على كتفى أم لم ألبس ، وليس من دأب الفتى الذى بلغ الثامنة عشرة أن يحرص على العمل حرصا يدعوه إلى مخالفة أصدقائه الذين يغرونه بالبطالة. ولذلك قيدت اسمى فى أكسفورد وبقيت عاطلا منذ ذلك الحين .

فقالت مسز داشوود : « أظن أن نتيجة ذلك أنك ستنشىء أبناءك على ممارسة جميع الأعمال والوظائف والمهن والحرف شأنهم فى ذلك شأن محور السمع فى الطيور والهوام ، مادام الفراغ هو سبب شقائك » .

فقال فى لهجة الجد : « سأنشئهم على نهج يخالف نهجى بقدر الإمكان : فى المشاعر والأعمال والأحوال ، بل فى كل شىء » .

« دع عنك ذا يا إدوارد ، هذا كلام صادر عن لوعة الأسى . إنك حزين

الفؤاد ، وتتخيل أن كل إنسان يخالف نهجك لابد أن يكون سعيداً . ولكن تذكر أن كل إنسان يشعر أحيانا بلوعة الألم لفراق أصدقائه مهما كان تعليمهم أو حالهم . اعرف أين هى سعادتك . أنت لا تحتاج إلا إلى الصبر أو إن أردت اسما خلابا ـ الأمل . إن أمك ستتيح لك فى الوقت المناسب حرية التصرف التى تصبو إليها . هذا واجبها ولن يمضى وقت طويل حتى يسمدها أن تصون شبابك الغض من أن يبلى فى الضجر والسخط . ما أكثر الأمور التى يمكن أن تتم فى بضعة شهور ! »

فأجاب إدوارد : «فى وسعى أن أتحدى أى إنسان يرجو لى أى خير بعد كثير من الشهور . »

وقد ضاعف هذا اليأس ـ وإن لم تشعر به مسز داشوود ـ من آلامهن جميعاً عند الفراق الذى تم بعد قليل وترك أثراً سيئا فى نفس إلينور بصفة خاصة تطلبت إزالته بعض العناء والوقت . ولكنها حين اعتزمت أن تزيل هذا الأثر من نفسها دون أن تبدى من الألم لفراقه اكثر مما أبداه أهلها لم تسلك السبيل الذى سلكته مريان محكمة فى موقف مناسب ألا وهو زيادة الحزن بالالتجاء إلى الصمت والعزلة والكسل . لقد كانت وسائلهما تختلف كما تختلف أهدافهما ، وتتلاءم مع مستوى ثقافتهما .

وما أن غادر المنزل حتى جلست إلينور إلى لوحة الرسم ، وأكبت على العمل طول اليوم ، ولم تحاول أن تذكر اسمه أو تتحاشى ذكره ، وأظهرت ما كانت تظهره دائما من الاهتمام بالشئون العامة الخاصة بالأسرة . وإذا كان هذا المسلك لم يقلل

من حزنها فقد حال على الأقل دون زيادته بلا ضرورة ، وأعفى أمها وأخوتها من الجزع والقلق على حالها .

وكانت مريان ترى أن مثل هذا المسلك الذى يناقص مسلكها تماما غير جدير بالثناء بقدر ما كان مسلكها هى معيبا، وكان رأيها بيساطة فى موضوع ضبط النفس أن الإنسان إذا كانت قوى العاطفة تعذر عليه أن يضبط نفسه ، وإذا كان هادىء الطبع لم يكن له فضل فى ضبط النفس . ولم تجرؤ مريان أن تنكر أن عاطفة أختها من النوع الهادىء، وإن خجلت من هذا الاعتراف . أما عاطفتها هى فأوضح دليل على قوتها هو حبها واحترامها لأختها ، على الرغم من أنه يؤلمها أن تقول ذلك .

وكانت إلينور — فى جميع حالاتها النفسية التى تتغير بتغير الأوقات — تجد فى كل يوم من الفراغ ما يكفى للتفكير فى إدوارد وفى مسلك إدوارد ، تفكيراً يتسم بالحنان والإشفاق والاستحسان واللوم والشك ، دون أن تحبس نفسها عن أهلها أو تخرج من البيت لتكون بمعزل عنهن ، أو تسهر الليل كله لتستغرق فى التأمل والتفكير ، فكانت تسنح لها لحظات كثيرة — إن لم يكن بسبب غياب أمها وأخواتها فبطبيعة أعمالهن على الأقل — تعفيها من الحديث معهن ، وتهيىء لها العزلة بكل معانيها . ولا محالة حينئذ أن يصبح ذهنها طليقا ، ويستأثر الماضى والحاضر — فى أمر يهمها كثيراً — باهتمامها ويشغل ذاكرتها وتفكيرها وخيالها .

وبينما كانت مستغرقة فى طوفان كهذا من أحلام اليقظة على أثر رحيل إدوارد وهى تجلس إلى لوحة الرسم إذ أفاقت على أثر قدوم بعض الزائرين . واتفق

أن كانت وحدها ، وكان الباب الصغير عند مدخل الفناء المعشوشب الواقع أمام البيت مغلقا ، فاتجه نظرها إلى النافذة ، فرأت جماعة كبيرة متجهة إلى الباب من بينهم سيرجون وليدى ميدلتون ومسز جننجز ، ولكن معهما رجل وسيدة لا تعرفهما . وكانت تجلس بالقرب من النافذة فما إن رآها سيرجون حتى ترك بقية الرفقة وتقدم ليطرق الباب وسار على الأرض المكسوة بالعشب فاضطرت أن تفتتح النافذة لتتحدث معه على الرغم من قصر المسافة بين الباب والنافذة بحيث لم يكن من المستطاع أن يتكلم الإنسان من أحدهما دون أن يسمع صوته من الآخر .

قال : « لقد جئنا ببعض الغرباء فما رأيك فيهما ؟ »

« صه ! إنهما يسمعان ! »

« لا ضير من سماعهما . إنهما السيد بالمر وزوجته . لا أعدو الحقيقة إذا قلت : إن شارلوت جميلة . وفى وسعك أن تشاهديها إذا نظرت من هذه الجهة » .

فاستماحته عذراً لأنها تعرف أنها ستراها بعد برهة دون ماحاجة إلى هذا الفضول .

« أين مريان ؟ هل هربت لأننا حضرنا ؟ إننى أرى البيان مكشوفا » .

« أعتقد أنها تتنزه » .

ثم لحقت بهما مسز جننجز التى لم تطق الانتظار حتى يفتح الباب وتحكى قصتها فجاءت إلى النافذة تقول مرحبة : « كيف حالك ياعزيزتى ؟ وكيف حال مسز داشوود ؟ وأين أخواتك ؟ وى ! أأنت وحدك ؟ لقد جئنا بجماعة صغيرة يسرك الجلوس معها . جئت بابنى وابنتى الأخرى لتشاهديهما . تصورى كيف

فوجئت بزيارتهما ! طرق سمعى صوت عربة فى الليلة الماضية ونحن نشرب الشاى، ولم يخطر ببالى قط أنها تقلهما ، وما خطر لى إلا أن كولونيل براندون عاد من سفره ، فقلت لسير جون : « أؤكد أننى أسمع صوت عربة . لعل الـكولونيل عاد من السفر . »

واضطرت إلينور أن تتحول عنها — وهى تروى قصتها — لتستقبل بقية الرفقة . وقدمت ليدى ميدلتون الزائرين الغريبين ، ونزلت مسز داشوود ومرجريت فى الوقت نفسه ، وجلسن جميعا لينظر أحدهما إلى الآخر فى حين واصلت مسز جننجز قصتها وهى تسير فى الطرقة الموصلة إلى ردهة المنزل يرافقها سيرجون .

كانت مسز بالمر تصغر ليدى ميدلتون بعدة سنوات ، وليس بينهما أى وجه من الشبه . كانت قصيرة القامة بدينة الجسم ذات وجه جميل تلوح عليه أمارات البشاشة . ولم تـكن حلوة الشمائل كأختها ولـكنها كانت أكثر منها جاذبية . وابتسمت عندما دخلت ، وظلت تبتسم طول الزيارة إلا متى ضحكت ، ثم ابتسمت عندما انصرفت . وكان زوجها رجلاً رزيناً وقوراً يبلغ من العمر خمسا أو ستا وعشرين سنة و يبدو أوفر أدبا وأرجح عقلاً من زوجته والـكنه أقل منها رغبة فى مشاركة الناس فى سرورهم . ودخل الغرفة تبدو عليه مخايل الغرور ، فانحنى قليلاً للسيدات دون أن ينبس ببنت شفة ، وبعد أن ألقى نظرة قصيرة عليهن وعلى غرفتهن أخذ صحيفة من النضد ، واستمر فى القراءة طول مدة الزيارة.

وكانت مسز بالمر على نقيض ذلك . لم تـكد تجلس حتى أبدت إعجابها بالردهة وكل ما فيها ، وكانت مسز بالمر امرأة مهذبة ومرحة معاً .

حسنا ما أجمل هذه الغرفة ! لم أر فى حياتى ماهو أروع منها . تأملى ياأماه كيف زادت حسنا عما رأيتها فى زيارتى الأخيرة ! لقد كنت أعتقد دائما أنها حجرة جميلة ياسيدتى (وهى تلتفت إلى مسز داشوود) ولكنك زدتها روعة وجمالا ! ألا ترين ياأختى أن كل مافيها جميل ! كم وددت لو أن لى بيتاً كهذا ! ألا تتمنى مثل ذلك يامستر بالمر ؟

فلم يحر مستر بالمر جوابا بل لم يرفع عينيه عن الصحيفة .

فقالت وهى تضحك : « مستر بالمر لا يسمعنى ! إنه لا يسمعنى أحيانا . إن هذا الشىء مضحك جداً » .

وكانت هذه فكرة جديدة تماما على مسز داشوود فلم تألف قط أن يتندر أحد على أحد لعدم إصغائه ، ولم يسعها إلا ان تدهش الرجل وزوجته .

على أن مسز جننجز ظلت تتحدث بأعلى صوتها ، وتحكى عن دهشتهن فى الليلة الماضية عندما رأين مستر بالمر وزوجته ولم تكف عن الكلام حتى فرغت من قصتها ، وأغرقت مسز بالمر فى الضحك عندما تذكرت دهشتهن ، وأجمع كل الحاضرين مرتين أو ثلاث مرات على أنها كانت مفاجأة سارة .

وانحنت مسز جننجز إلى الأمام نحو إلينور ، وكلمتها بصوت خافت كأنها تريد ألا يسمع كلامها أحد سواها ، مع أنهما كانتا تجلسان فى جانبين مختلفين من الحجرة ، قالت : « فى وسعك أن تصدقى مبلغ سرورنا بلقائهما . ومع ذلك وددت لو أنهما لم يسافرا بمثل هذه السرعة ، ولا قاما بهذه الرحلة الطويلة ، فقد قدما عن طريق لندن لإنجاز بعض الأعمال ، لأنك تعلمين (وهى تهز رأسها

بطريقة ذات مغزى وتشير إلى ابنتها) أن السفر مضر بها . وكنت أريد أن تظل في البيت ، وتستريح هذا الصباح ، ولكنها أصرت على الحضور معنا لأنها تتوق كثيراً إلى رؤيتكن جميعاً ! » .

وضحكت مسز بالمر وقالت : إن حضورها لن يضرها على الإطلاق .

واستطردت مسز جننجز قائلة : «ينتظر أن تكون في حالة وضع في فبراير . »

ولم تطق ليدى ميدلتون سماع هذا الحديث أكثر من ذلك ، فالتفتت إلى مستر بالمر وسألته أفي الصحيفة أخبار جديدة ؟ فأجاب : « كلا ! لا شيء إطلاقا » واستمر في القراءة .

وصاح سير جون : «ها قد جاءت مريان ! وسترى الآن يا بالمر فتاة رائعة الجمال»

ودلف إلى الطرقة من فوره ، وفتح الباب الأمامي وسمح لها بالدخول وسألتها مسز جننجز عند حضورها : هل ذهبت إلى ألنهام ؟ وقهقهت مسز بالمر ضاحكة لهذا السؤال مما يدل على أنها تفهم المراد منه . وتطلع إليها مستر بالمر عند دخولها وحلق فيها بضع دقائق ، ثم عاد إلى صحيفته . ثم وقع بصر مسز بالمر على الصور المعلقة حول الحجرة ونهضت لتلقى عليها نظرة فاحصة « عجبا ما أجمل هذه الصور ! نعم ! ما أروعها ! تأملي يا ماما ، ما أحلاها ! إنني أصرح أنها فاتنة ، لا أمل النظر إليها أبداً » ثم عادت فجلست وسرعان ما نسيت وجود شيء من هذا القبيل في الحجرة .

ولما وقفت ليدى ميدلتون استعداداً للخروج وقف مستر بالمر أيضا ، ووضع الصحيفة وتمطى وأجال النظر فيهن جميعاً .

فقالت له زوجته ضاحكة : « هل كنت نائما ياحبيبى ؟ »

فلم يحر جوابا . وكل ما قاله بعد أن تفحص الحجرة : إنها مرصوفة بالحجارة وإن سقفها متعرج ثم انحنى محييا وخرج مع بقية الأسرة .

وألح سيرجون عليهن جميعا أن يقضين اليوم التالى فى البارك . وكانت مسز داشوود لا تريد أن تتغدى عندهم أكثر مما يتغدون عندها ، فرفضت الدعوة رفضا باتا عن نفسها ، وتركت لبناتها الخيار . ولكنهن لم يتقن إلى معرفة كيف يتناول مستر ومسز بالمر غداءهما ، وفيما عدا ذلك لم يتوقعن أية متعة ، فالتمسن الأعذار أيضا لرفض الدعوة ، متعللات بأن الطقس متقلب ، وأنه يحتمل ألا يكون لطيفا . ولكن سير جون لم يقتنع بذلك ، فقال : إنه سيرسل عربته إليهن ، ولابد من حضورهن ، وألحت ليدى ميدلتون عليهن أيضا ، وإن لم تلح على أمهن وانضمت مسز جننجز ومسز بالمر إليهما فى الإلحاح عليهن ، وبدا القلق على الجميع لإصرارهن على عدم حضور المأدبة العائلية ، وأمام هذا الإلحاح لم يسع الآنسات إلا قبول الدعوة .

وقالت مريان بعد انصرافهم : « لماذا يدعوننا ؟ إن إيجار منزلنا الريفى قليل كما يقولون ، ولكنه يكلفنا غاليا إذا وجب علينا أن نتغدى فى البارك كلما نزل بهم أو نزل بنا أحد » .

فقالت إلينور : « إنهم يريدون بهذه الدعوات المتكررة أن يظهروا لنا الآن من البر والعطف ما أظهروه لنا منذ أسابيع قلائل . ولكن مأدبهن إذا أصبحت مملة مضجرة فقدت ما ننشده من تغيير المناظر ، وحينئذ يجب أن ننشد هذا التغيير فى مكان آخر » .

الفصل العشرون

عندما دخلت الآنستان داشوود حجرة الاستقبال فى البارك من الغد ، من أحد بابى الحجرة ، خفت مسز بالمر للقائهما من الباب الآخر ، وأسارير وجهها تتألق بالبشر والسرور كشأنها من قبل ، فصافحتهما معا بكل حب و إخلاص ، وأعربت عن سرورها بلقائهما مرة أخرى .

وقالت بعد أن جلست بين إلينور ومريان : « إننى مسرورة برؤيتكما ، وكنت أخشى أن تحول رداءة الطقس دون حضوركما ، وهو أمر كان يزعجنى كثيراً ، لأننا سنسافر غداً مرة أخرى ، وهو أمر لا بد منه لأن آل وستون سيزورونـا فى الأسبوع القادم كما تعلمان . والواقع أن قدومنا كان أمراً مفاجئاً تماماً ، ولم أعلم به إلا عندما وقفت العربة بالباب وحينئذ سألنى مستر بالمر هل أسافر معه إلى بارتون . إنه رجل غريب الأطوار ! فهو لا يحدثنى عن أى شىء . وأنا آسفة لأننا لن نستطيع أن نمكث هنا أكثر من ذلك . على أن أملى أن أراكما قريباً فى لندن مرة أخرى . »

فاضطرتا أن تضعا حداً لهذا الأمل .

فصاحت مسز بالمر وهى تضحك : « لن تذهبا إلى لندن ! إنه ليحزننى ألا تذهبا إليها . فى وسعى أن أدبر لكما أجمل بيت فى العالم يكون مجاوراً لبيتنا فى ميدان هانوفر . يجب أن تحضرا إلينا . وسأكون سعيدة بمرافقتكما فى أى وقت حتى يحين وقت الوضع إذا لم ترغب مسز داشوود فى الخروج . »

فشكرتاها ولكنهما اضطرتا إلى الاعتذار عن إجابة رجائها .

فصاحت مسز بالمر بزوجها الذى دخل الحجرة فى تلك اللحظة : « هيا ياحبيبى ضم صوتك إلى صوتى لإقناع الآنستين داشوود بالسفر إلى لندن هذا الشتاء . »

ولكن حبيبها لم يحر جوابا ، وأخذ يشكو من الطقس بعد أن انحنى للآنستين انحناءة خفيفة .

قال : « تباً لهذا الطقس ! إنه يجعل الإنسان يضيق برؤية كل شىء وكل شخص . والمطر يورث الضجر داخل البيت وخارجه ، ويبغض إلى الإنسان رؤية معارفه وأصحابه . أى شيطان هذا الذى وسوس إلى سير جون ألا يخصص حجرة للبلياردو فى بيته ؟ ألا ما أقل الذين يعرفون معنى الترفيه ؟ إن سير جون والطقس ، سواء فى الغباء . »

وسرعان ما دخل بقية الرفاق .

وقال سير جون : « أخشى يامس مريان أن تكونى قد قمت بنزهتك المعتادة إلى ألنهام اليوم . »

فارتسم الوجوم على وجهها ولم تقل شيئاً .

وقالت مسز بالمر : « لا تتظاهرى بالمكر أمامنا لأننا نعرف كل شىء . وأنا معجبة كثيراً بذوقك لأنى أعتقد أنه ذو جمال فائق . وأنت تعلمين أننا لا نبعد عنه كثيراً فى الريف ، ولعل المسافة لا تتجاوز عشرة أميال . »

فقال زوجها : « زهاء ثلاثين . »

«وَىْ ! ليس الفرق كبيراً . وأنا لم أذهب إلى بيته قط ، ولكنهم يقولون: إنه بيت جميل أنيق . »

فقال مستر بالمر : « لم أر فى حياتى أقبح منه . »

ولاذت مريان بالصمت المطبق ، وإن عبرت أسارير وجهها عن اهتمامها بما قالا .

واستطردت مسز بالمر : « أقبيح هو ؟ إذن لا بد أن يكون البيت الجميل الذى أعرفه بيتاً غيره فيما أظن . »

ولما جلسوا فى حجرة الطعام أعرب سير جون عن أسفه لأن عدد ضيوفه لا يتجاوز الثمانية .

وقال لزوجته : « من دواعى الأسف ياعزيزتى أن يكون عددنا قليلا . لماذا لم تدعى آل جلبرت لزيارتنا اليوم ؟ »

« ألم أقل لك يا سير جون عندما كلمتنى فى ذلك من قبل: إنه متعذر لأنهم تناولوا طعام الغداء عندنا أخيراً . »

فقالت مسز جننجز: «ينبغى لى ولك ياسير جون ألا نتمسك بهذه الشكليات»

فصاح مستر بالمر : « إذا تكونى امرأة غير مهذبة » .

فقالت له زوجته ، وهى تضحك كعادتها : « يا حبيبى أنت تناقض كل إنسان . ألا تعلم أنك رجل فظ ؟ »

« أنا لا أعرف أنى ناقضت إنسانا حين قلت : إن أمك غير مهذبة . »

فقالت السيدة العجوز الطيبة القلب : « أجل ! لك أن تشتمنى كما تشاء . لقد

أخذت شارلوت منى ، ولن تستطيع أن تردها إلى مرة أخرى . ولذلك فالسوط فوق رأسك ! »

وقهقهت شارلوت ضاحكة لاعتقادها أن زوجها لا يستطيع التخلص منها واستخفها الفرح ، وقالت : إنها لا تهتم إذا عبس زوجها فى وجهها لأنه لا بد لهما من العيش معا . والواقع أنه لم يكن ثمة من يفوق شارلوت فى طيبة قلبها ، وتصميمها على إظهار المرح والحبور ، ولم تتألم قط لما أبداه زوجها من تعمد الاستخفاف بها ، وما أظهره من السخط والوقاحة بل كانت تضحك إذا أنبها أو شتمها .

وهمست فى أذن إلينور قائلة : « مستر بالمر رجل غريب الأطوار ، ودائما هو معكر المزاج »

ولم تجنح إلينور للاعتقاد - بعد أن أنعمت النظر قليلا — بأنه رجل مجبول فعلا على ما كان يريد أن يتظاهر به من خبث الطوية وسوء الأدب . وربما ساءت طباعه قليلا حينما تبين أن الانسياق الأعمى وراء الجمال أوقعه فى شباك امرأة سخيفة العقل ، شأنه فى ذلك شأن الكثير من أبناء جنسه ولكن إلينور كانت تعلم أن الوقوع فى مثل هذا الخطأ أمر شائع الحدوث لا يتأذى به العقلاء من الرجال على الدوام ، وكانت تعتقد أن الباعث له على احتقار الناس واستخفافه بكل شىء يراه إنما هو حب الشهرة ، وهذا الباعث أمر مألوف لا يدعو إلى العجب ولكن الوسيلة التى لجأ إليها لم يكن من المحتمل أن تجلب له من المودة إلا مودة زوجته ، وإن نجحت هذه الوسيلة فى إثبات تفوقه على غيره فى سوء الأدب .

ولم تلبث مسز بالمر أن قالت : « عزيزتى مس داشوود ! أريد منك ومن

أختك أن تصنعا معى جميلا . هل لـكما فى زيارتنا وقضاء بعض الوقت فى كليفلاند فى عيد الميلاد القادم ؟ أرجو أن توافقا على هذه الدعوة وزيارتنا أثناء إقامة آل وستون عندنا . ليس فى وسعك أن تتصورى كم أكون سعيدة بهـذه الزيارة ! ستكون ممتعة جدا ! — ثم اتجهت إلى زوجها · « ألا تتوق لقدوم الآنستين داشوود إلى كليفلاند ؟ »

فأجاب ضاحكا : « يقينا ! لقد جئت إلى ديفونشاير لهذا الغرض وحده . »

فقالت زوجته : « ها أنتما تان تريان أن مستر بالمر يأمل فى حضـوركما . فأرجو ألا ترفضا الدعوة . »

فرفضت كلتاهما الدعوة بقوة وإصرار .

« لا ! لابد من حضوركما وستحضران : وأنا أعتقد أنـكما ستستمتعان بها إلى أقصى حد . وسيكون آل وستون معنا ، وسيكون فى ذلك متعة ، أى متعة ! وليس فى وسعكما أن تتصورا جمال كليفلاند . ونحن الآن ننعم بالبهجة والسرور لأن مستر بالمر يطوف دائمـا فى البلاد ليقوم بالدعاية الانتخابية ، ولذلك يأتى إلينا كثير من الناس لم أرهم قط ، ليتناولوا معنا طعام الغداء ، وهو أمر رائع حقا ؛ ولـكن وارحمتاه له ! إنه يلقى كثيرا من التعب والنصب لأن الواجب يدعوه أن يخطب ود كل إنسان . »

ولم تستطع إلينور أن تتمالك من الضحك عندما أقرتها على ما ينطوى عليه هذا الواجب من عناء ومشقة .

قالت شارلوت : «ما أجمل أن أراه عضوا فى البرلمان ! أليس كذلك ؟ إننى لن أكف عن الضحك ! لأنه من المضحك حقا أن أرى الناس يرسلون إليه خطاباتهم بعنوان « ع ب » — ولـكن ألا تعلمين أنه يقول لى : إنه لن يرسل لى خطابا ؟ لقد صرح لى بذلك . أليس كذلك يامستر بالمر ؟ »

فلم يعرها مستر بالمر التفاتا .

واستطردت قائلة : « إنه لايطيق الكتابة لأنه يزعم أنها شىء فظيع حقاً » .

قال : « كلا ! لم أقل مثل هذا الهراء . لا تنسى إلى ألفاظ السباب التى عرفتها فى اللغة . »

« ها أنت ذى ترين كيف أنه رجل غريب الأطوار . هذا دأبه وديدنه . يسكت دهرا ثم ينطق كفراً فيحدثنى عما يعرفه عن كل شىء فى العالم . »

وقد دهشت إلينور كثيراً عندما سألتها مسز بالمر ،ألاتحبين مستر بالمر كثيراً ؟

فأجابت إلينور : « بلى ! إنه رجل لطيف » .

« حسنا ! يسرنى أنك تحبينه . وكنت أعتقد ذلك لأنه فعلا رجل ظريف . وفى وسعى أن أقول : إنه معجب بك وبأخواتك كثيراً ، وليس فى وسعك أن تتصورى مبلغ استيائه إذا لم تحضرى إلى كليفلاند ــ إننى لاأدرى لماذا تعارضين فى ذلك . »

واضطرت إلينور أن تكرر رفضها للدعوة ، وأرادت أن تضع حداً لتوسلاتها ، فغيرت مجرى الحديث ، إذ رأت أنه من المحتمل أن تكون مسز بالمر ــ لأنها تقيم مع ولبى فى بلدواحد ــ أقدرعلى وصف أخلاقه من آل ميدلتون الذين يعرفونه معرفة جزئية . وكانت إلينور تحرص على تعرف أخلاقه من أى إنسان حتى لا يكون هناك احتمال للخوف على مريان ، فسألتها . هل رأيت ولبى كثيراً فى كليفلاند وهل تعرفينه حق المعرفة ؟

فأجابت مسز بالمر : « نعم ياعزيزتى . أعرفه كل المعرفة ، ولكن لم أكلمه

فى الواقع ، بيدأنى رأيته فى لندن دائما . ولم يتفق لى قط ــ لسبب لاأعرفه ــ أن كنت فى بارتون أثناء إقامته فى ألنهام . أما ماما فقد رأته هنا ذات مرة ، ولكنى كنت فى ويموث مع عمى . على أنى أؤكد أنه كان من المحتمل أن أراه كثيراً فى سمر سنشاير ، لولا أن سوء الحظ شاء ألا نلتقى فى الريف قط . وهوقلما يقيم فى كومب فيما أعتقد ، وحتى لو أقام فيه كثيراً لمازاره مستر بالمر فيما أظن لأنه ينتمى إلى الحزب المعارض كما تعلمين ، ثم إنه بعيد جداً . وأنا أعرف لماذا تسألين عنه . إن أختك ستتزوجه . وأنا فى غاية السرور بذلك لأنها حينئذ ستكون جارة لى كما تعلمين . »

فأجابت إلينور : « صدقينى أنك تعرفين عن هذا الأمر أكثر مما أعرف إذا كان لديك من الأسباب ما يحملك على توقع هذا الزواج . »

« لاتدعى إنكاره ، فهو حديث كل إنسان كما تعلمين . وأؤكد لك أننى سمعته فى طريقى إلى لندن . »

« عزيزتى مسز بالمر ! » :

« أقسم لك بشرفى أننى سمعته ــ قابلت كولونيل براندون صباح يوم الجمعة فى بوند ستريت قبيل مغادرتنا لندن وحدثنى عنه فاه إلى فىَّ . »

« هذا أمر يدهشنى كثيراً . كولونيل براندون يحدثك عنه ! حقا إنك مخطئة . فليس من ديدن كولونيل براندون أن يفضى بمثل هذا النبأ لإنسان لا يهمه سماعه ، حتى ولو كان صحيحا . »

لكنى أؤكد لك أن هذا ما حدث على الرغم مما تقولين . وسأخبرك كيف

حدث . حينما التقينا عاد وسار معنا ، فأخذنا نتحدث عن أخى وأختى وكيت وكيت وقلت له : « سمعت يا كولونيل أن أسرة جديدة قدمت إلى منزل بارتون الريفى ، وأبلغتنى ماما أن بناتها تمتزن بالجمال ، وأن إحداهن ستتزوج مستر ولبى صاحب كومب ماجنا . أصحيح هذا ؟ إنك بالطبع أدرى بحقيقة الأمر إذ كنت فى ديفونشاير أخيراً . »

« وماذا قال الكولونيل ؟ »

« عجبا ! — لم يقل كثيراً ولكن بدا عليه أنه يعرف أن الخبر صحيح . ومن تلك اللحظة وقر فى صدرى أنه أمر محقق . وأنا أصرح أنه سيكون زواجا رائعاً ! ومتى سيتم ؟ »

« لعل مستر براندون كان يتمتع بصحة طيبة . »

« نعم ، على خير ما يرام ، وقد أثنى عليك كثيراً . ولم يقل عنك إلا كل جميل . »

« يسرنى ثناؤه على. ويبدو لى أنه رجل مفضال. وأعتقد أنه لطيف جداً . »

« وكذلك رأيى فيه — فهو رجل حلو الشمائل إلى حد يجعلنى أشعر بالأسف عندما أراه ساهم الوجه كاسف البال . وتقول ماما : إنه أحب أختك أيضـا . وأؤكد لك أن هذا الأمر لو صح لكان دليلا على إعجابه العظيم بها ، لأنه قلما يحب أى إنسان بسهولة . »

قالت إلينور : « هل مستر ولبى معروف كثيراً فى المنطقة التى تقيمون بها فى سمرسنشاير ؟ »

« نعم معروف جداً بمعنى أن جل الناس لا يعرفونه فيما أعتقد لأن كومب ماجنا بعيدة جداً ، ولكنى أؤكد أن كلهم يعتقدون أنه رجل محبوب . ليس ثمت من هو أحب إلى الناس منه أينما ذهب . وفى وسعك أن تقولى لأختك ذلك. وأقسم بشرفى أنها سعيدة الحظ بالزواج منه ، إلا أنه هو أسعد حظا بالزواج منها ، لأنها على حظ وافر من الجمال والأخلاق المرضية ، بحيث لا يوجد من يصلح لها . على أنى لا أعتقد أنها أوتيت من الجمال حظا أوفر من حظك ، لأنى أرى أنكما تمتازان بفرط الجمال ، وكذلك يرى مستر بالمر كما أعتقد ، وإن لم نستطع حمله على اعتراف بذلك فى الليلة البارحة . »

لم تكن المعلومات التى ذكرتها مسز بالمر عن ولبى ذات قيمة كبيرة ، ولكن كل شهادة لصالحه كانت تبعث فى نفسها السرور ، مهما كانت ضئيلة .

واستطردت شارلوت قائلة : « يسرنى كثيراً أننا تعارفنا فى الليلة الماضية . وأرجو أن تتوثق بيننا دائما أواصر الصداقة الوطيدة بعد اليوم . وليس فى وسعك أن تتصورى كم كنت أتوق لرؤيتك . وإنه لمن بواعث السرور أن تقيمى فى المنزل الريفى ! إنه بيت لا مثيل له فيما أعتقد ويسرنى أن أختك ستتزوج زوجا طيبا ! وأرجو أن تزورى كومب ماجنا كثيراً فهو بيت جميل باعتراف الجميع. »

« ألم تتعرفى بكولونيل براندون منذ زمن طويل ؟ »

« بلى ، منذ مدة ، منذ أن تزوجت أختى ـ كان من خاصة أصدقاء سيرجون » وأردفت بصوت خافت : « كان يسره أن يتزوجنى لو استطاع ، وكان سيرجون وليدى ميدلتون يتمنيان ذلك كثيراً . ولكن ماما لم تر أنه يصلح لى زوجا ، وإلا لتحدث سيرجون إلى الكولونيل فى ذلك ، وتزوجنا فى الحال . »

« ألم يعلم كولونيل براندون باقتراح سير جون على أمك قبل عرضه عليها ؟ ألم يصارحك قط بحبه لك ؟ »

« كلا ! ولـكنى أعتقد أنه لولا معارضة أمى هذا الزواج لـكان هو يؤثره على غيره . ولم يـكن حينذاك قد رآنى أكثر من مرتين لأنه رآنى قبل أن أترك المدرسة . على أنى سعيدة بزوجى الحالى لأنى أحب بالذات ذلك الطراز من الرجال . »

الفصل الحادي والعشرون

عاد آل بالمر إلى كليفلاند من الغد ، و بقيت أسرتا بارتون ليقبادلا الزيارة والمسامرة . ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فما إن نسيت إلينور الزوار الذين زاروها اخيراً وقضت العجب من شعور شارلوت بالسعادة بدون ما سبب ومن تصرف مستر بالمر بمثل هذه السذاجة مع مواهبه الطيبة ، ومن عدم التوافق الغريب بين الرجل وزوجته ، حتى جاءها سير جون ومسز جننجز ببعض المعارف الجدد لتراهن وتتعرف إليهن ، جريا على عادتهما فى الحرص على التعارف بين الناس .

وذلك أن سير جون ومسز جننجز قاما برحلة إلى إكستر فى الصباح ، فقابلا فتاتين ، فسرت مسز جننجز حين عرفت أنهما تمتان لها بصلة القربى ، وكان هذا كافياً لأن يدعوهما سيرجون فى الحال لزيارة البارك . بمجرد أن تنتهى مواعيدهما فى إكستر ، فلم يسعهما إزاء هذه الدعوة إلا إلغاء مواعيدهما فى أكسفورد على الفور وذعرت ليدى ميدلتون عندما عاد سير جون وأبلغها أن فتاتين لم ترهما من قبل سيزورانها بعد قليل . ولم تؤمن بأناقتهما ولا حتى بدماثتهما لأن تأكيدات زوجها وأمها فى هذا الشأن لم تكن تساوى شيئاً . ومما زاد الطين بلة أنهما كانتا تمتان لها بصلة القربى ، ولم تجد محاولات مسز جننجز فى التهوين عليها ، إذ نصحت لها أمها ألا تكترث كثيراً لأناقتهما لأنهما من الأقارب ، وعلى الأقارب أن يتسامح بعضهم مع بعض .

و إذ لم يكن بد من زيارتهما ، فقد وطنت ليدى ميدلتون نفسها على قبول الأمر الواقع بكل ما تتصف به المرأة المهذبة من صبر واحتمال ، واكتفت بتوجيه عتاب رقيق إلى زوجها فى ذلك خمس مرات أو ست مرات كل يوم .

وقدمت الفتاتان ، ولم يكن مظهرهما يجافى الأناقة أو الدماثة . كانت ملابسهما أنيقة ، وأخلاقهما مهذبة ، وأبدتا إعجاباً بالمنزل وأثاثه ، كما أظهرتا من الحب للأطفال ماجعل ليدى ميدلتون تحسن الظن بهما بعد مرور ساعة على وجودهما بالمنزل ، فصرحت بأنهما فتاتان لطيفتان حقاً ، وكان هذا الثناء منها بمثابة إعجاب حماسى . وازداد سير جون ثقة برأيه فيهما على أثر سماعه هذا الثناء المستطاب ، فتوجه من فوره إلى المنزل الريفى ليخبر الآنسات داشوود بقدوم الآنستين ستيل ، ويؤكد لهن أنهما أحلى الفتيات فى العالم . على أن هذا الثناء لم يتضمن كثيراً من التعريف بهما إذ كانت إلينور تعرف جيداً أن المرء يستطيع أن يرى فى إنجلترا أحلى فتاة فى العالم شكلا ووجها وطبعاً وعقلا على اختلاف صورها جميعاً . وطلب سير جون أن يتوجه أفراد الأسرة جميعاً من فورهن إلى البارك ليشاهدن ضيفتيه. ياله من رجل محب للخير وللإنسانية ! لقد كان يعز عليه أن يحتفظ لنفسه بقريب ثالث ! قال : « أرجوكن ، تعالين الآن — أرجوكن تعالين — يجب أن تحضرن — إننى أقول لكن : تعالين — ليس فى وسعكن أن تتصورن كم ستعجبن بهما . لوسى رائعة الجمال ، و بشوش الوجه ، ودمثة الخلق ! الأطفال كلهم يتعلقن بها كأنهم يعرفونها من قديم . كلتاهما تتوق إلى رؤيتكما لأنهما سمعتا فى إكستر أنكن أجمل نساء العالم، وقلت لهما : إن هذا صحيح بل أكثر من ذلك . وأنا واثق أنكن ستعجبن بهما . لقد ملأتا كل العربة بلعب الأطفال . كيف تعارضن فى الحضور ، وأنتن تعلمن أنهما تمتان لكن بصلة القربى من بعض الوجوه ، فأنتن من أقاربى ، وهما من أقارب امرأتى ، ومن ثم فهما وأنتن من ذوى الأرحام بلا ريب . »

ولكن سير جون لم يوفق فى حملهن على الحضور ، وكل ما استطاع أن

يفعله هو الحصول على وعد بزيارة البارك فى غضون يوم أو يومين ، وانصرف مذهولا لعدم اهتمامهن بالزيارة ، وتوجه إلى منزله ليردد فخره بمحاسنهن على أسماع الآنستين ستيل ، كما سبق أن ردد على أسماعهن فخره بهما .

ولما قمن بزيارتهن الموعودة إلى البارك ، وتعرفن إلى الآنستين لم يجدن فى منظر كبراهما ما يثير الإعجاب ، فقد كانت تناهز الثلاثين ، وكان وجهها خاليا من سمات الجمال لا يدل على رقة الشعور . ولكن اعترفن بأن الأخرى التى لا يزيد عمرها على اثنتين أو ثلاث وعشرين سنة ، قد أوتيت قسطا وافراً من الجمال ، إذ كانت قسمات وجهها جميلة ، ونظراتها حادة وسريعة ، وهيئتها أنيقة مما كان يميزها عن أختها ، وإن كانت لا توصف فى الواقع بأنها رشيقة أو رقيقة وكان سلوكها يتسم بالمجاملة الشديدة . ورأت إلينور أنهما على جانب من العقل حين رأتهما يكسبان ود ليدى ميدلتون بما يبديان دائما من ضروب الرعاية والاهتمام الدالة على الفطنة ، فكانتا تظهران السرور بملاعبة الأطفال ، وتمتدحان جمالهم ، وتتوددان إليهم وتسايران أهواءهم ، وإذا بقى لديهما شيء من الوقت بعد قضاء هذه الواجبات الملحة التى تقتضيها المجاملة ، صرفتاه فى إبداء الإعجاب بكل ما تعمله ليدى ميدلتون ، إذا صادف أن عملت شيئا ، أو صرفتاه فى إعداد نموذج لثوب جديد أنيق رأتاه على هذه السيدة بالأمس فأثار إعجابهما ، ومن حسن حظ الذين يتوددون إلى الناس عن طريق مواطن الضعف هذه ، أن الأم المغرمة بحب أطفالها هى — إلى كونها أسرع الناس الى تصيد الثناء على أطفالها — أسرعهم أيضا إلى تصديق ما يقال عنهم ، فهى شرهة فى طلب الثناء عليهم وتَتَبُّع كل ما يقال عنهم . ولذلك نظرت ليدى ميدلتون إلى ما أبدته الآنستان ستيل نحو

أطفالها من فرط الحب والاحتمال دون أن تخالجها أدنى دهشة أو ريبة كما نظرت بعين الرضا المعروف عن الأم إلى الاعتداءات الوقحة والحيل الخبيثة التى يتعرض لها أقاربها ، فشاهدت أطفالها وهم يفكون أحزمتهما ، ويشدون شعرهما حول آذانهما ، ويفتشون فى حقائبهما ، ويسرقون مداهما ومقصهما ، دون أن يخالجها أى شك فى أن هذا العبث يبعث السرور فى نفسيهما ، ودون أن يعتريها شىء من الدهشة اللهم إلا الدهشة لجلوس إلينور وماريان فى سكينة وهدوء دون أن تشتركا فى هذا العبث .

وقالت عندما أخذ جون منديل جيب مس ستيل ، وقذفه من النافذة « جون فى غاية الفرح والمرح اليوم ! إنه يأتى من الحيل الكثيرة ما يشبه حيل القرود . »

ولم يلبث الولد الثانى أن قرض بعنف أظافر السيدة نفسها ، فقالت أمه بحنان وحب : « وليم ! ياله من ولد لعوب ! »

واستطردت تقول ، وهى تلاطف برقة وحنان طفلة صغيرة عمرها ثلاث سنوات لم تحدث ضجة فى الدقيقتين الأخيرتين : « ها هى ذى أنامارية ، بنتى الحلوة الصغيرة ! دائما لطيفة ووديعة — لم أر فى حياتى ما هو أهدأ من هذه الطفلة الصغيرة الوديعة ! »

ولكن حدث لسوء الحظ — وهى تتحف أولادها بهذه الأحضان والقبلات — أن خدش دبوس فى لباس رأسها رقبة هذه الطفلة خدشا بسيطا ، فصاحت هذه الطفلة التى وصفتها بأنها أنموذج الرقة والدعة صياحا عنيفا لا يصدر من أى مخلوق مشهور بين الناس بإثارة الجلبة والضجة ، فكانت دهشة الأم بالغة ، ولكن فزع الآنستين كان أبلغ ، وقام الثلاثة فى هذه الأزمة الدقيقة بكل ما تمليه المحبة مما عساه أن يخفف من آلام الطفلة الصغيرة ، فأجلستها أمها فى حجرها ، وغمرتها بقبلاتها ، وجثت إحدى الآنستين على ركبتيها لتضمد جراحها ، فغسلتها بماء اللاوندا ، أما الآنسة الأخرى فحشت فمها بالمسكَّرات . وكانت الطفلة أعقل من أن تكف عن البكاء والصياح أمام هذا العطف الذى استدرته دموعها ، فأخذت تصيح وتجهش بالبكاء ، وترفس أخويها لأنهما تقدما إليها ليمسكا بها ، وأخفقت كل الوسائل التى اتخذتها جميعا لتهدئة الطفلة إلى أن تذكرت ليدى ميدلتون لحسن الحظ أنها استعملت مربى التفاح بنجاح فى أزمة مماثلة فى الأسبوع الماضى حين أصيب صدغ الطفلة برضوض ، فاقترحت هذا العلاج نفسه لمداواة هذا الخدش الأليم ، وما إن سمعت الطفلة اسم المربى حتى هدأ صياحها ، فكان ذلك باعثا على الأمل فى أنها لن ترفض المربى ،فحملتها أمها بين ذراعيها خارج الحجرة بحثا عن هذا الدواء ، وآثر الولدان أن يتبعا أمهما مع إلحاحها عليهما بالبقاء ، وبقيت الآنسات الأربع فى هدوء لم تعرفه الحجرة عدة ساعات .

وقالت مس ستيل بمجرد أن خرجوا : « مسكينة هذه الطفلة الصغيرة ! لقد كان يخشى أن يكون الحادث محزنا جدا . » فصاحت مريان : « لا أدرى كيف يكون ذلك ، اللهم إلا إذا كانت الظروف تختلف عن ذلك تمام الاختلاف . ولكن هذا هو الأسلوب المعتاد للتهويل من الفزع حيث لا داعى للفزع فى الحقيقة . »

وقالت لوسى ستيل : « ما ألطف ليدى ميدلتون ! »

فلزمت مريان الصمت لأنه كان من المستحيل أن تقول مالا تعتقد مهما بلغت تفاهته. وهكذا وقع عبء الكذب كله على عاتق إلينور كلما اقتضته المجاملة. فبذلت جهدها حينما دعتها الضرورة لذلك ، فلهجت بالثناء على ليدى ميدلتون أكثر مما تعتقد ، وإن كان ثناؤها دون ما ذكرته الآنسة لوسى بكثير . »

وصاحت الأخت الكبرى : « وسير جون أيضا ، ياله من رجل ظريف ! »

وهنا أيضا كان ثناء مس داشوود ثناء بسيطا وعادلاً ، صادراً بدون أية ضجة فاكتفت بأن قالت : إنه رجل بشوش ودود .

« وما أظرف أطفالها الصغار ! إننى لم أر أظرف من هؤلاء الأطفال فى حياتى — إننى أصرح أننى أحبهم حبا جما . والحق أنى أهيم دائما بحب الأطفال »

فقالت إلينور بابتسامة : « لقد حزرت ذلك مما شاهدت فى هذا الصباح. »

فقالت لوسى : « يخيل إلى أنك تظنين أن ليدى ميدلتون تسرف فى تدليل أطفالها ، وربما كان هذا التدليل يجاوز الحد ولكنه أمر طبيعى فى ليدى ميدلتون وأنا شخصيا أحب الأطفال الذين تنبض نفوسهم بالحياة والمرح ، ولا أطيق منظر الأطفال الذين يخلدون إلى الهدوء والدعة »

فأجابت إلينور : « أعترف أننى لا أنظر أبدا — وأنا فى بارتون بارك — بعين المقت إلى الأطفال الذين يخلدون إلى الهدوء والدعة . »

وساد الصمت برهة بعد هذا الحديث ، وكانت مس ستيل أول من قطعه إذ كان يبدو عليها الميل لمجاذبة أطراف الحديث فقالت فجأة : « وما رأيك فى ديفو

نشاير يامس داشوود ؟ أظن أنك شعرت بالأسف الشديد لمفارقة سسكس . »

فأجابت إلينور أنها شعرت بذلك ، واعترتها بعض الدهشة لما انطوى عليه هذا السؤال من الجرأة أو على الأقل للهجة التي قيل بها .

وأردفت مس ستيل : « نورلاند مكان جميل . أليس كذلك ؟ »

وقالت لوسى ، وكأنها تلتمس بعض العذر لجرأة أختها : « لقد سمعنا سير جون يثنى على نورلاند ثناء مستطابا » .

فأجابت إلينور . « أعتقد أن كل من أتيح له أن يشاهد هذا المكان لا يسعه إلا الإعجاب به ، ولكن لا ينبغى أن يتبادر إلى الذهن أن إنسانا يستطيع أن أن يقدر محاسنه كما نقدرها نحن . »

« وهل كان فيه كثير من الفتيان الحسان الظرفاء ؟ أظن أنك لا تجدين كثيراً منهم فى هذه البقعة من العالم . أما أنا فأعتقد أنه يوجد منهم كثيرون دائما . »

وقالت لوسى ، وقد بدا عليها الخجل من حديث أختها : « ولماذا تظنين أنه لا يوجد فى ديفو نشاير كثير من الشبان الظرفاء كما يوجد فى سسكس ؟ »

« كلا يا عزيزتى ! أنا لا أدعى أنه لا يوجد منهم أحد ، فأنا واثقة أنه يوجد كثير من الفتيان الحسان المتأنقين فى إكستر ، ولكن أنى لى أن أعرف ما عسى أن يوجد من الفتيان الحسان المتأنقين فى نورلاند . كل ما كنت أخشاه أن تشعر الآنسات داشوود بالملل فى بارتون ، إذا لم يجدن فيها من الفتيان الحسان ما ألفنه من قبل . ولكنكن معشر الفتيات لا تعبأن بالفتيان الحسان ، وسواء

عندكن وجودهم وعدمهم . أما أنا فأعتقد أن وجودهم يبعث على الرضا والسرور بشرط أن يكون ملبسهم أنيقا وسلوكهم مهذبا ولـكنى لا أطيق أن أرى منظرهم قذراً ، وأخلاقهم سيئة . أما منا الآن فى إكستر مسترروز ، وهو شاب أنيق جدا ، وجميل جـــداً ، يعمل كاتبا لمستر سمبسون كما تعلمين ، ومع ذلك إذا قابلته فى الصباح لا تطيقين النظر إليه ــ وأظن أن أخاك يامس داشوود كان شابا متأنقا جدا قبل أن يتزوج لأنه كان غنيا جداً . »

وأجابت إلينور: « صدقينى أننى لا أستطيع أن أجيبك لأنى لا أفهم معنى هذه الـكلمة تماماً. ولـكنى أستطيع أن أقول لك هذا ، وهو أنه إذا كان متأنقاً قط قبل زواجه ، فإنه لايزال كذلك لأنه لم يطرأ عليه أدنى تغيير » .

« عجباً ياعزيزتى ! إن الناس لا يرون أبداً أن المتزوجين متأنقون لأن لديهم مايشغلهم عن التأنق . »

فصاحت أختها : « ياحفيظ ! لا حديث لك يا آن إلا عن المتأنقين — ستجعلين مس داشوود تعتقد أنك لا تفـكرين فى شيء آخر » ثم أرادت أن تحول مجرى الحديث فأخذت تثنى على البيت والأثاث .

وكان فى هذا القدر من حديث الآنستين ما فيه الـكفاية . فما أظهرته الـكبرى من التبذل والجرأة والحماقة لم يدع مجالاً للثناء عليها ، وما اتصفت به الصغرى من جمال وذكاء لم يُعْمِ إلينور عن خبثها ودهائها ، ولذلك غادرت المنزل دون أية رغبة فى زيادة التعرف إليهما .

أما الآنستين ستيل فقد أبدتا عكس هذه الرغبة ــ لقد جاءتا من إكستر

وهما تلهجان بالثناء على حسن معاملة سير جون وأهله وجميع أقاربه، ووجهتا نصيباً غير قليل من هذا الثناء إلى قريباته الحسناوات، فصرحتا بأنهما لم تريا من الفتيات من يفقهن جمالا وظرفا وأدباً ولطفاً، وأنهما تحرصان على زيادة التعرف إليهن. ولم تلبث إلينور أن رأت أنه لا مفر من زيادة هذا التعارف لأن سيرجون أيد الآنستين ستيل تأييداً كاملا، وبذلك عزز جانبهما إلى حد لا تجدى معه المعارضة. ولم يكن بد من الإذعان للجلوس معهما ساعة أو ساعتين في حجرة واحدة كل يوم تقريباً، ولم يستطع سيرجون أن يفعل أكثر من ذلك. ولكنه لم يدر أن الأمر يتطلب شيئاً أكثر، وكان من رأى سيرجون أن الاجتماع معناه زيادة الألفة، وأنه متى نجحت خطته في استمرار الاجتماع بينهن، لم يصبح هناك شك في توثيق عرى الصداقة بينهن.

ومن الإنصاف أن نقول: إنه بذل كل ما في وسعه لإزالة التحفظ بينهن إذ أطلع الآنستين ستيل على كل ما يعرفه ظناً أو يقينا من أحوال أقربائه صغيرها وكبيرها. ولم تكد إلينور تقابلهما أكثر من مرتين حتى هنأتها كبراهما بتوفيق أختها في الظفر بشاب جميل أنيق منذ قدمت إلى بارتون.

قالت: «من دواعي السرور حقا أن تتزوج مثل هذا الشاب. وقد سمعت أنه شاب أنيق جداً ووسيم جداً وأرجو أن يسعدك الحظ بمثله قريباً — ولكن لعل لك بالفعل صديقا في السر».

ولم تكن إلينور تظن أن سيرجون سيبدى من الكياسة في إعلان مايخالجه من ظنون بصدد حبها لإدوارد أكثر مما أبداه بشأن مريان، إذ الواقع أنه كان يرى في أمرها مادة للمزاح والفكاهة أحب إليه من أمر مريان، باعتباره أمراً

جديداً قابلا للحدس والتخمين . ولم تتناول معه الغداء منذ زيارة إدوارد دون أن يشرب نخبها متمنيا لها التوفيق فى الحب ، بطريقة ذات مغزى، مكثراً من إنغاض الرأس والغمز بالعين إلى حد يثير اهتمام الجميع . وكذلك كان يردد دائما ذكر الحرف « ف » ويجد فيه مادة خصبة لنكات لاحد لها حتى استقر فى يقين إلينور أنه أفكه حرف من الحروف الهجائية .

وكانت الآنستان ستيل تجدان ـ كما توقعت إلينور ـ أكبر متعة فى هذه النكات التى أثارت فى كبراهما حب الاستطلاع لمعرفة اسم الرجل المشار إليه وعبرت عن هذا الحب بوقاحه تتفق مع الفضول الذى دفعها إلى البحث فى شئون الأسرة . ولكن سيرجون لم يلبث أن أشبع غريزة حب الاستطلاع التى طاب له أن يثيرها ، لأنه كان يحلو له على الأقل ذكر الاسم كما يحلو لمس ستيل سماعه .

فقال فى همس تسمعه الأذن : « اسمه فيرارز ولكن أرجوك ألا تذكريه لأنه سر كبير » فرددت مس ستيل « فيرارز ! هل مستر فيرارز هو الرجل السعيد ! وى! أخو « سلفتك » يامس داشوود ، إنه رجل لطيف حقا. إننى أعرفه جيدا» ؟

فصاحت لوسى ، وكانت تصحح عادة أقوال أختها : « كيف تقولين ذلك يا آن ؟ صحيح أننا رأيناه مرة أو مرتين فى منزل خالى ، ولكن ذلك لايبرر الادعاء بأننا نعرفه جيدا . » وسمعت إلينور كل ذلك باهتمام ودهشة . « ومن عسى أن يكون هذا الخال؟ وأين يقيم ؟ وكيف تأتى لهما التعرف به؟. » وكانت تود كثيراً أن تواصلا الحديث فى هذا الموضوع وإن لم تشأ أن تشترك فيه ، ولكنهما كفتا عن الخوض فيه . واعتقدت لأول مرة فى حياتها أن مسز جننجز تعوزها

القدرة على استطلاع دقائق الأمور ، أو تعوزها الرغبة فى الإفضاء بها . وكانت اللهجة التى تحدثت بها مس ستيل عن إدوارد مما زاد من فضولها ، لأنها أحست أنها صدرت بسوء نية ، وظنت أن هـذه الفتاة تعرف أو تتخيل أنها تعرف أشياء فى غير صالحه . ولـكن هذا الفضول لم يأت بنتيجة لأن مس ستيل لم تعر الأمر التفاتا حينما أشار سيرجون إلى اسمه ، أو حتى حينما ذكره صراحة .

الفصل الثاني والعشرون

لم تكن مريان التي تمقت كل لون من ألوان الوقاحة والتبذل ، وانحطاط الأخلاق ، بل كل من يختلف عنها في ذوقه ومشربه ، تميل في ذلك الوقت خاصة الذي ساءت فيه حالتها النفسية، إلى الترحيب بالآنستين ستيل أو تشجيعهما على خطب ودها . وإلى هذا الفتور الذي اتسم به مسلك مريان والذي صد كل محاولة من جانبها لتوثيق عرى المودة ، عزت إلينور حبهما لها هي ، الذي تجلى في مسلك كل منهما ، ولاسيما لوسي التي لم تدع فرصة تمر دون أن تتجاذب معها أطراف الحديث ، أو تعمل على توثيق أواصر الصداقة معها بالإعراب الصريح عن عواطفها .

وكانت لوسي ذكية الفؤاد بفطرتها ، كما كانت ملاحظاتها سديدة ومسلية . وكانت إلينور لاتمل حديثها إذا لم يزد على نصف ساعة . ولكن التعليم لم يصقل ملكاتها العقلية ، فكانت جاهلة وأمية . ولم يخف على إلينور ما تفتقر إليه من الثقافة والمعلومات العامة برغم سعيها الدائب للظهور بمظهر المرأة المثقفة . وكانت إلينور ترثى لها لإهمالها مواهبها التي كان يرجى أن يؤدى التعليم إلى صقلها وتهذيبها ، ولكنها لم ترث كثيراً لما يعوزها من رقة الشعور ، واستقامة السلوك ، ونزاهة القصد مما كشف عنه ما أظهرته في البارك من ضروب الاهتمام والكد والملق . ولذلك لم يسع إلينور أن تشعر بالارتياح الدائم لصحبة امرأة تجمع بين النفاق والجهل ، ولاتؤهلها ثقافتها للتحدث مع إلينور على قدم المساواة ؛ امرأة كان سلوكها نحو غيرها يجعل ماتبديه نحو إلينور من مظاهر الاهتمام والاحترام أمراً لاقيمة له .

وقالت لها لوسى ذات يوم ، وهما يسيران معا من البارك إلى المنزل الريفى :
« أخشى أن تعدى سؤالى غريبا : هل تعرفين مسز فيرارز أم « سلفتك » ، معرفة شخصية ؟ »

وفعلا عدت إلينور هذا السؤال غريبا ، و بدا ذلك على وجهها حين أجابتها أنها لم تر مسز فيرارزقط .

فقالت لوسى : « صحيح ! إنى لأعجب لذلك لأنى ظننت أنك لابد قد رأيتها فى نور لاند أحيانا . وإذن فليس فى وسعك أن تخبرنى عن أخلاقها . »

فأجابت إلينور : « بلى ، لا أعرف عنها شيئاً . » وهى تحاذر أن تخبرها برأيها الحقيقى فى أم إدوارد ، ولا ترغب كثيراً فى إرضاء فضولها .

وقالت لوسى ،وهى تتفرس فى وجه إلينور : « أعتقد أنك تظنين أنى امرأة غريبة الأطوار حدا لسؤالى عنها بهذه الطريقة . ولكن لعل هناك أسباباً — بودى لو استطعت إبداءها — ولكن أرجو ألا تعتقدى أنى أريد أن أكون فضولية . »

فردت عليها إلينور ردا مهذبا ، وسارتا بضع دقائق فى صمت ، ثم قطعته وهى التى جددت الحديث فى الموضوع فقالت فى شىء من التردد :

« أنا لا أطيق أن تظنى أنى فضولية . أؤكد لك أننى أوثر أى شىء فى العالم على أن تظن بى ذلك امرأة يهمنى أن أظفر بحسن ظنها ، كما أؤكد أنه لايساورنى أدنى خوف من الثقة بك . والواقع أنه يسرنى أن أسمع نصيحتك فيما يجب أن أفعله فى الموقف الحرج الذى أواجهه . ولكن لاداعى لإزعاجك . إننى آسفة لأنك لاتعرفين مسز فيرارز »

فقالت إلينور بلهجة تنم على مزيد الدهشة : « إننى آسفة لعدم معرفتى بها إذا كانت لك فائدة فى معرفة رأيى فيها . ولكن الواقع أننى لم أفهم قط أنك تمتين بأية صلة لهذه الأسرة ، ولذلك أعترف بأنى أدهش بعض الدهشة لاهتمامك بالسؤال عن أخلاقها . »

« أعتقد أنك تدهشين ، وأنا لا أعجب لذلك إطلاقا . ولكن إذا أمكننى أن أحدثك عن كل شىء فلن تدهشى كثيراً . صحيح أنه لاصلة لى الآن بمسز فيرارز — ولكن قد يحين الوقت — وموعده يتوقف عليها — الذى يقسنى فيه أن نرتبط ارتباطا وثيقاً . »

وطأطأت رأسها فى استحياء لطيف وهى تقول ذلك ، ونظرت من طرف خفى إلى صاحبتها لترى أثر الحديث عليها .

فصاحت إلينور : « يالله ! ماذا تعنين ؟ أتعرفين مستر روبرت فيرارز ؟ هل أنت مخطوبة له ؟ »

ولم تشعر بكثير من الارتياح لأن تكون هذه الفتاة سلفَةً لها .

فأجابت لوسى : « كلا ! ليس لمستر روبرت فيرارز — فأنا لم أره قط فى حياتى ،ولكن — وسلطت نظرها على إلينور — لأخيه الأكبر . »

ماذا شعرت به إلينور فى تلك اللحظة ؟ الدهشة التى كان يحتمل أن تكون مؤلمة بقدر ما كانت شديدة لولا أنها اقترنت بما يكذب هذا الزعم ، واتجهت نحو لوسى فى ذهول وصمت لأنها لم تستطع أن تحزر سبب هذا القول أو الغرض منه ، ولكنها أبت — برغم تغير لونها — أن تصدقه ، ولم تخش أن تتعرض لنوبة عصبية أو تخر مغشيا عليها .

واستطردت لوسى : « من حقك أن تدهشى لأنه لم يكن فى وسعك أن تعرفى شيئاً عن هذا الأمر من قبل ، فإدوارد - على ما أظن - لم يشر إليه أدنى إشارة لالك ولا لأحد من أهلك ، لأننا تعاهدنا على كتمانه وأعتقد أننى حافظت على هذا الكتمان بإخلاص حتى هذه الساعة ، فلا يعرف هذا الأمر أحد من أسرتى إلا آن ، ولولا ثقتى التامة بأنك ستكتمين هذا السر لما أخبرتك به قط . والواقع أنى رأيت أن توجيه هذه الأسئلة الكثيرة عن مسز فيرارز لابد أن يبدو لك غريبا ، فأردت أن أوضح لك السبب فى ذلك ، ولا أظن أن مستر فيرارز سيستاء حين يعلم أننى أفضيت إليك بهذا السر لأنى أعرف أنه يحسن الظن بأسرتكن كثيراً ، ويعدك أنت وجميع أخواتك بمثابة أخواته هو - ثم سكتت . »

ولزمت إلينور الصمت بضع دقائق . وكانت دهشتها لما سمعته تجل عن الوصف فى بداية الأمر ولكنها اضطرت فى النهاية أن تتكلم ، وتتكلم بحذر ، فقالت بهدوء يخفى دهشتها وقلقها : « أتسمحين لى أن أسألك : هل مضى على خطبتكما وقت طويل ؟ . »

« لقد تمت خطبتنا منذ أربع سنوات . »

« أربع سنوات ! »

« نعم »

على أن إلينور أبت أن تصدق ذلك ، وإن اعترتها دهشة كبيرة .

قالت : « أنا أعلم أنكما تعارفتما منذ أيام قلائل . »

« لكننا تعارفنا منذ سنوات عدة — لقد ظل فى كفالة خالى كما تعلمين مدة طويلة . »

« خالك ؟ »

« نعم ، مستر برات . ألم تسمعيه قط يتحدث عن مستر برات ؟ »

فأجابت إلينور : « أظن أنى سمعت » وذلك بلهجة قوية ازدادت بازدياد انفعالها .

« لقد عاش أربع سنوات مع خالى الذى يقيم فى لونجستيبل بالقرب من بليموث ، وهنا بدأ تعارفنا لأنى كنت وأختى نقيم مع خالى ، وهناك تمت خطبتنا وإن لم يكن ذلك إلا بعد سنة من تركه المدرسة ، ولكنه كان يقيم معنا فى غالب الأحيان بعد ذلك . ولم أكن راغبة فى عقد الخطبة — وفى وسعك أن تتصورى ذلك — بدون علم أمه وموافقتها . ولكنى كنت صغيرة ، أحبه كثيراً إلى حد لم أستطع معه أن أتمسك بأهداب الحكمة كما ينبغى — ومع أنك يامس داشوود لا تعرفينه كما أعرفه فلا بد أنك اختلطت به كثيرا بحيث شعرت أنه يستطيع أن يحمل أية امرأة على أن تحبه بإخلاص . »

فأجابت إلينور : « يقينا » دون أن تدرى ما تقول ، ولكنها أردفت بعد أن أطرقت هنيهة ، بلهجة تنم على تجدد ثقتها بشرف إدوارد ومحبته ، وكذب صاحبتها : « مخطوبة لمستر إدوارد فيرارز ! » إنى أعترف بأنى أدهش كثيراً لما تقولين ، وأخشى — ومعذرة فى ذلك — أن تكونى أخطأت فى الشخص أو اسمه . كلانا لا يمكن أن يعنى شخصا واحداً اسمه مسترفيرارز ... »

فصاحت لوسى وهى تبتسم : « كلانا لا يعنى شخصا آخر . إن إدوارد فيرارز ، أكبر أبناء مسز فيرارز التى تقيم فى بارك ستريت ، وشقيق « سلفتك » مسز جون

داشوود هو الشخص الذى أعنيه . يجب أن تسلمى بأنه ليس من المحتمل أن أخطىء فى اسم الشخص الذى تتوقف عليه سعادتى كلها . »

فأجابت إلينور بلهجة تنم على أشد الارتباك : « من الغريب أنى لم أسمعه قط يذكر حتى اسمك . »

« كلا ، لم يكن هذا مستغربا بالنظر إلى موقفنا . لقد كان همنا الأكبر هو كتمان الأمر . لم تكونى تعرفين شيئاً عنى أو أسرتى ، فلم يكن ثمة داع لأن يذكر لك اسمى ، وكان يخشى دائما أن تعرف أخته عن الأمر شيئاً ، وهذا مبرر كاف لعدم ذكره لك . »

فلاذت بالصمت — وفقدت إلينور الثقة بنفسها ، ولكنها ظلت محتفظة بضبط النفس .

وقالت بصوت حازم : « مضى على خطبتكما أربع سنوات ! »

« نعم ، والله يعلم كم سننتظر . مسكين إدوارد ! إن هذا سيثبط من همته . » ثم أخذت صورة مصغرة من جيبها وأردفت : « تكرمى وتأملى هذا الوجه حتى لا تظنى أن هناك خطأ . من المؤكد أنها صورة لا تمثله تماما ، ولكنى أعتقد أنك لن تخطئى فى معرفة الشخص الذى أخذت هذه الصورة له . لقد حصلت عليها منذ أكثر من ثلاث سنوات مضت . »

وألقت الصورة ، وهى تتكلم ، فى يد إلينور ، فلم تشك حين رأتها أنها تمثل وجه إدوارد ، على الرغم من الشكوك الأخرى التى قد يولدها فى ذهنها خوفها من التسرع فى الحكم أو رغبتها فى كشف الكذب . ثم أعادتها إليها على الفور معترفة بأنها صورته .

واستطردت لوسى : « لم أستطع قط أن أبادله صورتى ، وهو أمر يؤلمنى كثيراً لأنه ظل يحرص دائما على الحصول عليها . ولكنى مصممة على تصوير نفسى عند سنوح أول فرصة . »

فأجابت إلينور بهدوء : « أصبت » ثم سارتا بضع خطوات فى صمت . وتكلمت لوسى أولاً .

قالت : « ليس عندى أى شك إطلاقاً فى أنك ستكتمين هذا السر بإخلاص ، لأنك تعلمين بلا شك أنه يهمنا كثيرا ألا يصل إلى أمه لأنها فيما أظن لن توافق على زواجنا مطلقا ، وأنا أعتقد أنها امرأة متغطرسة . »

قالت إلينور : « لم أسع قط إلى الحصول على سرك . وأنت لا تخطئين إذا اعتمدت على ، فسرك مصون عندى . ولكن معذرة إذا أعربت لك عن بعض دهشتى لهذا القول لأن معناه أنك شعرت أن اطلاعى على هذا السر قد يؤدى إلى إفشائه . »

وعندما قالت ذلك حدقت فى لوسى لعلها تكتشف فى أسارير وجهها ما يدل على كذب الشطر الأكبر من حديثها ، ولكنها لم تر فى وجهها أى تغيير .

قالت : « لقد خشيت أن تظنى أنى تجرأت عليك حين أخبرتك بكل ذلك . إننى لم أعرفك منذ زمن طويل — معرفة شخصية على الأقل ، ولكنى عرفتك وعرفت أسرتك بالوصف منذ زمن . وما إن رأيتك حتى شعرت كأنى أعرفك من قديم . وفضلا عن ذلك رأيت من حقك على فى قضيتى الحاضرة أن أقدم لك بعض الإيضاح ، وذلك بعد أن سألتك عن أم إدوارد ولم يسعدنى الحظ بأن

يهمني لى مخلوقا أستطيع أن أستشيره . وآن هي الشخص الوحيد الذي يعرف هذا الأمر ، ولكنها لا تبدى رأيا على الإطلاق . والواقع أن ضررها أكبر من نفعها لأنى أخشى دائما أن تفشى سرى ، فهي لا تعرف كيف تمسك لسانها كما تبين لك . وقد ارتعدت فرائصى أخيراً حينما ذكر سيرجون اسم إدوارد ، خشية أن تفضى بالأمر كله . وأنت لا تستطيعين أن تتصورى كم أعانى من الآلام النفسية من جراء هذا الأمر . وإنى لأعجب كيف تسنى لى أن أعيش بعد كل ما قاسيت من أجل إدوارد خلال السنوات الأربع الماضية . كنت نهباً للبلابل والهواجس .. ولم أكن أراه إلا قليلا — إذ كنا لا نلتقى أكثر من مرتين فى العام . وإنى لأعجب كيف لم يتحطم قلبى . »

وهنا أخرجت منديلها ، ولكن قلب إلينور لم يرق لها كثيراً .

واستطردت لوسى بعد أن مسحت دموعها : « أحيانا أقول : أليس من الخير لنا أن نفسخ الخطبة؟» وعندما قالت ذلك صوبت نظرها إلى صاحبتها : «ولكن من جهة أخرى يخوننى العزم أحيانا — لأنى لا أطيق أن أحزن إدوارد ، وأنا أعلم أن مجرد ذكر هذا الأمر سيحزنه . وأنا أيضا لا أطيق هذه الصدمة لأنى أحبه حباجما . ماذا تشيرين به على فى هذه الحال يامس داشوود ؟ ماذا تفعلين لو كنت مكانى ؟ »

فأجابت إلينور وقد أفزعها هذا السؤال : « معذرة ! ليس فى وسعى أن أسدى إليك أية نصيحة فى مثل هذه الظروف ، وعليك أن تسترشدى برأيك . »

واستطردت لوسى تقول، بعد أن التزم الجانبان الصمت بضع دقائق: « لا بد لأمه أن تكفل له وسائل العيش إن عاجلا و إن آجلا . ولكن إدوارد منكسر

الخاطر بسبب ذلك . ألا ترين أنه كاسف البال فى بارتون؟ لقد كان يشعر بالألم حينما تركنا فى لونجستيبل ليذهب إليكن حتى لقد خشيت أن تظنى أنه مريض . »

« هل قدم من عند خالك إذن عندما زارنا ؟ »

« أوه ! نعم ، أقام عندنا أسبوعين. هل ظننت أنه قدم من لندن مباشرة ؟ »

فأجابت إلينور وهى تتنبه لشكل قرينة جديدة تؤيد صدق لوس « كلا ! أذكر أنه أخبرنا أنه أقام مدة أسبوعين عند بعض الأصدقاء فى بليموث . »
وتذكرت إلينور دهشتها أيضا فى ذلك الوقت حين أبى أن يذكر شيئاً عن هؤلاء الأصدقاء وصمت حتى عن ذكر أسمائهم . »

فرددت لوس « ألم تعتقدى أنه كاسف البال ؟ »

« بلى ، لا سيما عندما قدم لأول وهلة . »

« لقد رجوته أن يتجلد خشية أن تظنى أنه ألمت به نازلة . ولكنه تألم كثيراً لأنه لم يستطع أن يقيم عندنا أكثر من أسبوعين ، ولأنه رآنى متأثرة لفراقه — واهاً له ! إنى لا أخشى أن يكون الآن كاسف البال أيضا ، فقد كتب لى بلهجة تقطر أسى ، وقد تلقيت منه خطاباً قبيل مبارحتى لإكستر، وأخرجت خطاباً من جيبها ، وأطلعت إلينور على عنوانه بدون مبالاة ، « أنت تعرفين خطه . لاشك أنه جميل جداً ، ولكن خطه فى هذا الخطاب أقل جمالا من خطه المعتاد — كان متعباً لاشك لأنه ملأ الورقة كلها بالكتابة . »

ورأت إلينور أن الخطاب مكتوب بخطه ، ولم يعد يساورها أى شك فى

الأمر . وكانت ترى أن الصورة ربما تم الحصول عليها بطريق الصدفة ، وربما لم تكن هدية من إدوارد . أما المراسلة بينهما بطريق الخطابات فلا يمكن أن تتم إلا إذا كانا مخطوبين بالفعل ، ولا يمكن التصريح بها إلا فى ظل الخطبة . وكاد يستولى عليها الأسى بضع دقائق ، واستبد بها اليأس والقنوط ، ولم تستطع الوقوف على قدميها ، ولكن لم يكن بد من التجلد ، فحاولت جهدها أن تخفى شعورها بالأسى ووفقت فى ذلك سريعا ، وكان توفيقها تاما إلى حين .

وأعادت لوسى الخطاب إلى جيبها وقالت : «المراسلة هى السلوى الوحيدة فى هذا الفراق الطويل . نعم إن لى سلوة أخرى فى صورته ، ولكن إدوارد المسكين تعوزه حتى هذه السلوة ، فلو كان يحتفظ بصورتى ، لنعم براحة البال كما قال . لقد أعطيته خصلة من شعرى وضعها فى خاتم حينما كان فى ونجستييل آخر مرة ، وقال : إن فى ذلك بعض العزاء ، ولكنه لايعادل الصورة . ولعلك لاحظت الخاتم حينما قابلته . »

قالت إلينور : « لقد لاحظته » وذلك بصوت هادىء يخفى تحته شعوراً بالأسى يقصر دونه الوصف . واستولى عليها الكمد والفزع والهلع .

ولحسن حظها أنهما وصلتا حينئذ إلى المنزل الريفى ، فلم يتسن لهما مواصلة الحديث ، وجلست الآنستان ستيل مع الأسرة بضع دقائق ثم عادتا إلى البارك ، وحينئذ خلا الجو لإلينور لتفكر كما تشاء وتحزن كما تشاء .

الفصل الثالث والعشرون

مهما بلغ من شك إلينور فى صدق لوسى فقد كان من المستحيل عليها عندما تنعم النظر أن تشك فى قصتها الحاضرة حيث لا داعى يحدوها إلى اختلاق قصة كاذبة من هذا القبيل . ولذلك لم تستطع إلينور أن تشك ولم تعد تجرؤ على الشك فى القصة التى أكدت لوسى صحتها ، وأيدتها القرائن والبراهين من كل جانب ، ولم يناقضها إلا أمانيها هى . ولقد كانت الفرصة التى سنحت للتعارف بين لوسى وإدوارد بمنزل مستر برات هى الأساس الذى انبنى عليه كل ما حدث بعد ذلك ، وهو أمر لا نزاع فيه ، كما أنه يثير الفزع . وكانت الزيارة التى قام بها إدوارد بالقرب من بليموث ، والكآبة التى خيمت عليه ، وعدم ارتياحه إلى المستقبل ، وتقلب مسلكه إزاءها ، ومعرفة الآنستين ستيل بنورلاند وبأقاربهن معرفةً وثيقةً أثارت دهشتها كثيراً ، والخطاب والخاتم — كل ذلك كان حشداً من الأدلة لايدع لديها مجالا للخوف من إدانته بغير حق ، كما ثبت سوء معاملته لها على نحو لايستطيع أى محب له أن يتغاضى عنه . وكان استياؤها لسلوكه ، وسخطها لكونها هى ضحية هذا السلوك مما جعلها ترثى لحالها برهة من الزمن ، ولكن سرعان ما طافت بذهنها أفكار واعتبارات أخرى : هل كان إدوارد يتعمد خداعها ؟ هل كان يتظاهر بحب لايخالجه ؟ هل مصدر خطيئته هو الحب ؟ كلا ! مهما يكن مصدرها فى الماضى فلا يمكن فى اعتقادها أن يكون كذلك فى الحاضر . لقد كان يصفيها الحب كله . لم يكن يخالجها أى شك فى ذلك . لقد كانت أمها وأخواتها وفانى كلهن يشعرن بحبه لها فى نورلاند . ولم يكن ذلك ضربا من الوهم زينه لها الغرور . كان يحبها يقينا .

وما كان أشد تأثير هذا الاعتقاد فى تهدئة روعها ! وما أشد ما كان يحملها على عدم العفو عنه ! لقد كان ملوما وملوما جدا حين بقى فى نورلاند بعد أن شعر أولا أن سلطان حبها عليه أقوى مما ينبغى . لم يكن له عذر فى هذا البقاء . ولكن لئن كان قد أساء إليها ، لقد أساء إلى نفسه أكثر ، ولئن كانت حالها تدعو إلى الرثاء ، لقد كانت حاله تدعو إلى اليأس . لقد أثار تهوره فى نفسها لواعج الحزن والألم فترة من الزمن ، ولكنه هو لم يكن أقل حظا منها فى ذلك . إنها قد تنعم بالطمأنينة وراحة البال على مر الزمن . أما هو فماذا يأمل فى المستقبل ؟ هل يمكن أن ينعم بالسعادة مع لوسى سقيل ؟ هل فى وسعه — بفرض أنه لم يعد يحب إلينور — أن يرضى مع أمانته ورقته وثقافته عن زوجة مثل لوسى تتصف بالجهل والمكر والأنانية .

لاريب أن الافتتان الذى يعترى الشاب فى سن التاسعة عشرة يعميه عن كل شىء إلا جمالها ودماثة أخلاقها ، ولكن من المؤكد أن السنوات الأربع التالية — وهى سنوات إذا أحسن الإنسان الانتفاع بها ثقفت عقله — فتحت عينيه على ماتتصف به من نقص الثقافة بينما قضت هى هذه المدة نفسها فى صحبة السفلة من الناس وإتيان الأعمال الطائشة فسلبتها تلك البساطة التى كان يحتمل أن تزيد من جمالها .

وإذا كان قد لقى عقبات كبيرة من جانب أمه عندما سعى إلى الزواج بإلينور فما أشد ما سيلقاه من العقبات إذا كانت الفتاة التى خطبها أدنى منها نسبا بيقين ، وربما كانت أقل منها ثروة . وقد يتسع صبره لاحتمال هذه العقبات بالإضافة إلى كراهية أمه للوسى . ولكن العجب أن تشعر بالأسى من فى وسعها أن ترى فى معارضة أمه المنتظرة وقسوتها ضربا من العزاء !

لقد بكت عليه أكثر مما بكت على نفسها حينما طافت بذهنها هذه الاعتبارات المؤلمة . وكان يعزيها في مصابها اعتقادها أنها لم تفعل ما تستحق عليه هذا الشقاء ، وأن إدوارد لم يأت ما يفقده تقديرها ، ولذلك رأت أنها تستطيع حتى مع هذه الضربة الأليمة التي أصيبت بها أن تتذرع بضبط النفس حتى يتسنى لها أن تحول دون أن تلمح أمها أو أختها أية شبهة من الحقيقة . وقد استطاعت أن تحقق ما أرادته لدرجة أنها حين اشتركت معهن في طعام الغذاء بعد ساعتين فقط من انهيار أعز آمالها ، لم يكن في وسع أحد أن يعرف من منظر الأختين أن إلينور تشعر في قرارة نفسها بالألم لقيام العقبات التي من شأنها أن تفرق بينها و بين حبيبها إلى الأبد ، وأن مريان تتأمل في باطنها محاسن رجل تشعر أنها احتلت سويداء قلبه ، وتتوقع أن تراه في كل عربة تمر بالقرب من المنزل .

وكان وجوب كتمان ما استودعته من سر على الرغم مما كان يكلفها من جهد مستمر لايزيد من آلامها ، بل على العكس كان يخفف منها لأنه أعفاها من مئونة الإفضاء إليهن بما يؤلمهن ، كما أعفاها من سماع ما يحتمل أن تسيل به أفواههن من توجيه اللوم المقذع لإدوارد بدافع من حبهن لها ، وهو أمر أفظع من أن تطيق سماعه .

ثم عرفت أنها لن تستطيع أن تجد أى عزاء في مشورتهن أو حديثهن ، وأن حنانهن وأسفهن سوف يزيد من آلامها كما أنهن لن يشجعنها على التذرع بضبط النفس سواء بالأسوة الحسنة أو الثناء الجميل . وكانت تشعر وهى وحدها أنها أشد قوة ، وتجد في عقلها وحسن إدراكها مايعينها على احتمال آلامها إلى حد أحست معه بأن عزمها لايتزعزع وأن مظاهرها المرح لايتغير ، وذلك بالقدر الذى يمكن أن يحس به أى إنسان يكابد مثل هذه الآلام المبرحة الطارئة .

ولم تلبث أن شعرت برغبة شديدة فى تجديد الحديث مع لوسى على الرغم من أنها تألمت كثيراً من حديثها الأول فى الموضوع ، وهذا لأكثر من سبب ، فقد أرادت أن تسمع من لوسى ثانية كثيراً من تفصيلات خطبتهما ، وأرادت أن تفهم بصورة أوضح حقيقة شعور لوسى نحو إدوارد ، وهل هى صادقة فيما قالته من أنه تحبه حباً جماً ، ثم أرادت بوجه خاص أن تقنع لوسى — باستعدادها للتحدث فى الموضوع مرة أخرى ، وهدوئها فى مناقشته — أنها لا تهتم بالأمر إلا بوصفها صديقة ، وذلك أنها خشيت أن يكون الاضطراب الاضطرارى الذى اعتراها حين استمعت إلى حديثها فى الصباح قد ترك على الأقل فى نفسها بعض الشك فى ذلك .

وكانت إلينور تظن أن لوسى تشعر بالغيرة منها ، فقد اتضح لها أن إدوارد كان يلهج دائماً بالثناء عليها لا من أقوال لوسى فحسب ، ولـكن من إقدامها — بعد أن تعرفت إليها بفترة وجيزة — على الإفضاء بسر لا تخفى أهميته . وكذلك كان للخبر الذى أورده سير جون مورد الدعابة بعض الأثر فى هذه الغيرة ولـكن الواقع أن إلينور كانت تعتقد فى قرارة نفسها أن إدوارد يحبها حقا ، ولذلك لم تـكن بحاجة إلى قرينة أخرى تثبت أن غيرة لوسى أمر طبيعى ، والدليل على ذلك هو إفضاؤها لها بسرها . وأى سبب للافضاء به يمـكن أن يتصوره العقل إلا أن لوسى تريد أن تفهمها أنها أحق منها بإدوارد ، وتحذرها من الاتصال به فى المستقبل ، وهكذا لم تجد عناء كبيراً فى فهم الـكثير من مقاصد غريمتها . ولكن إلينور حين عقدت العزم على معاملتها بما تقضى به مبادىء الشرف والأمانة ، وأن تـكبح جماح حبها لإدوارد وتقلل من مقابلته بقدر الإمكان ، أرادت أن تريح بالها بإقناع لوسى أن قلبها لم يجرح . وإذ كانت لا تتوقع أن تسمع ما يؤلمها أكثر

مما سمعته من قبل ، لم تشك فى قدرتها على سماع قصة لومى مرة أخرى ، بكل هدوء وسكينة .

ولكن الفرصة لم تسنح فى الحال ، و إن كانت لومى تميل مثلها إلى انتهاز كل فرصة تسنح لها لتعيد حديثها ، فقد كان الطقس فى أغلب الأوقات لا يسمح بخروجهما معاً للتنزه ، حيث يتيسر لهما أن تفترقا عمن سواهما بكل سهولة . وعلى الرغم من التقائهما فى المساء يوما بعد آخر على الأقل ، إما فى البارك و إما فى المنزل الريفى — وبخاصة فى الأول — فإن الغرض من هذا اللقاء لم يكن هو تجاذب أطراف الحديث ، فقد كان ذلك أبعد الأشياء عن تفكير سيرجون ومسز جننجز . ولذلك لم يكن ثمة إلا فرصة ضئيلة للحديث العام، ولا فرصة على الإطلاق للحديث الخاص . وكان الغرض من الاجتماع هو الاشتراك فى الطعام والشراب والضحك ولعب الورق ولعبة القصة أو أى نوع آخر من اللعب الصاخب .

وتم اجتماع أو اجتماعان من هذا القبيل دون أن تتاح الفرصة لإلينور للتحدث مع لومى على انفراد ، ثم جاء سيرجون ذات صباح إلى المنزل الريفى ليرجو باسم المحبة أن يتفضلن جميعاً بتناول طعام الغذاء مع ليدى ميدلتون فى ذلك اليوم ، وذلك بسبب اضطراره لشهود النادى فى إكستر ، و بذلك ستكون ليدى ميدلتون وحدها هى وأمها والآنستان ستيل. وقبلت إلينور الدعوة فى الحال لأنها كانت ترى أن المجال أفسح لإثارة الموضوع الذى تريده ، بين هذه الجماعة التى يحتمل أن تتمتع بينها بالحرية تحت توجيه ليدى ميدلتون الهادىء المهذب أكثر مما تتمتع به حين يجمعها سيرجون على غرض واحد صاخب . وكذلك وافقت مرجريت بعد أن أذنت لها أمها بذلك . وكانت مريان تكره دائما أن

تشترك فى هذه الاجتماعات ، ولكن أمها أقنعتها بالذهاب كذلك لأنها لاتطيق أن تحرمها من أية فرصة من فرص اللهو والتسلية .

وذهبت الفتيات ، وسعدت ليدى ميدلتون بهن ، لأنهن أزلن الوحشة المخيفة التى هددتها . وكان الاجتماع تافها كما كانت إلينور تتوقع . ولم يظهر فيه أى رأى أو قول جديد، ولم يكن ثمة ماهو أتفه من حديثهن سواء فى غرفة الطعام أو حجرة الاستقبال ، وقد رافقهن الأطفال فى الحجرة الأخيرة ، ورأت إلينور وهن جالسات فيها أنه يتعذر أن تسترعى انتباه لوسى . ولم يغادرن الحجرة إلا بعد أن رفعت منها معدات الشاى ، ونصبت مائدة الورق ، وعجبت إلينور لأنها علات نفسها بالأمل فى وجود الفرصة المناسبة للحديث فى البارك . ثم نهضن جميعاً للاشتراك فى لعبة الورق الدائرية .

قالت ليدى ميدلتون للوسى: « يسرنى ألا تنجزى سلة أنا مارية الصغيرة هذا المساء ، لأنى أعتقد أن الاشتغال بالزركشة التخريمية على ضوء الشموع يضر بعينيك . وأنا سأطيب خاطرها بما يعوضها عن ذلك غداً ، وحينئذ لن تهتم بالأمر كثيراً . »

وكانت هذه الإشارة كافية لأن تذكر لوسى فأجابت : « الواقع أنك مخطئة جد الخطأ ياليدى ميدلتون . لقد كنت أنتظر فقط لأرى هل تستطيعين تكوين فريق اللعب بدونى ، ولولا ذلك لبدأت التخريم من قبل . أنا لا أريد أن أكسر خاطر الفتاة الصغيرة بأى حال من الأحوال وإذا أردت أن أشترك فى اللعب ، أنجزت السلة بعد العشاء . »

« إنك طيبة القلب جداً ، وأرجو ألا تضرى عينيك ــ هل لك فى أن تدق الجرس لإحضار بعض الشموع ؟ إننى أعرف أن الفتاة الصغيرة ستحزن كثيراً إذا لم تتم السلة غدا . وهى واثقة من الحصول عليها غدا ، مع أنى أخبرتها أنها لن تحصل عليها . »

وأدنت لوسى مائدة الشغل منها ، وجلست أمامها بخفة ومرح يدلان على أنها لا تجد متعة أكبر من العمل فى تخريم سلة لطفلة مدللة .

واقترحت ليدى ميدلتون على الباقيات أن تلعبن لعبة الورق المعروفة باسم كازينو ، ولم يعارض فى ذلك إلا مريان التى صاحت دون مبالاة ــ كعادتها ــ بما تقضى به أصول المجاملة : « أرجوك أن تعفينى من اللعب ، فأنت تعلمين أننى أمقت لعب الورق . سأذهب إلى البيان فإنى لم أعزف عليه منذ إصلاحه ، ثم ذهبت إلى المعزف . »

ونظرت إليها ليدى ميدلتون وكأنها تحمد الله لأنها لم تتكلم قط بمثل هــذه اللهجة الجافية .

وقالت إلينور محاولة التخفيف من وقع الإساءة : « مريان لا تطيق البعد عن البيان زمنا طويلا ياسيدتى . وأنا لا أعجب لذلك كثيراً لأن هذا البيان أشجى ما سمعت من المعازف نغما . »

وأخذت الخمس الباقيات تلعبن الورق .

واستطردت إلينور : « إذا أتيح لى أن أقطع الأوراق فلعلى أستطيع أن أساعد

مس ستيل فى طى الورق وأظن أن السلة لا تزال بحاجة إلى عمل كثير بحيث يتعذر عليها أن تعمل منفردة وأن تفرغ منها هذه الليلة . إننى أرحب بالعمل إذا سمحت لى بالمشاركة فيه . »

فصاحت لوسى : « لاشك ، إننى أشكرك على معاونتك ، فقد ظهر لى أن السلة تحتاج إلى عمل أكثر مما قدرت ، وأنا لا أريد أن أكسر خاطر أنا مارية العزيزة على كل حال ، فهذا أمر فظيع . »

وقالت مس ستيل : « أوه ! حقا سيكون أمراً فظيعاً . كم أحبك يا روحى العزيزة ! »

وقالت ليدى ميدلتون لإلينور : «ما أرق شعورك! وإذ كنت تحبين المشاركة فى العمل فأظن أنه يحسن ألا تشتركى فى اللعب حتى يبدأ دور آخر أم تريدين أن تدخلى فيه الآن ؟ »

وأخذت إلينور بالاقتراح الأول وهى تشعر بالسرور . وهكذا بقليل من الكلام المعسول الذى أبت مريان أن تقوله استطاعت إلينور أن تحقق غايتها ، وتدخل السرور على ليدى ميدلتون فى الوقت نفسه . وبادرت لوسى بإفساح المكان لها ، وهكذا جلست الغانيتان المتنافستان جنبا لجنب إلى مائدة واحدة ، واشتركتا فى عمل واحد وهما فى غاية الانسجام والوفاق . ومن حسن الحظ أن البيان الذى جلست إليه مريان مستغرقة فى غنائها وأفكارها ، حتى نسيت أن أحداً معها فى الحجرة ، كان قريباً منهما بحيث رأت مس داشوود أن فى وسعها أن تبدأ حديثها الهام ، وهى آمنة ، فى ضجيج العزف على البيان ، دون أن تخشى أن تسمعه إحدى الجالسات حول مائدة الورق .

الفصل الرابع والعشرون

وبدأت إلينور الحديث بلهجة حازمة ، وإن كانت تتسم بالحذر فقالت :
« لا أعد نفسى جديرة بالثقة التى أوليتنى إياها إذا لم أشعر بالرغبة فى استمرارها أو فى المزيد من المعلومات عن الموضوع ، ولذلك لا أجدنى بحاجة إلى الاعتذار عن إثارته من جديد . »

فصاحت لوسى بحرارة : « شكراً لك لمفاتحتى فى الحديث . لقد أرحت بالى بذلك لأنى كنت أخشى أن أكون أسأت إليك بما أخبرتك به يوم الاثنين . »

« أسأت إلى ! كيف يتبادر هذا الظن إلى ذهنك ؟ صدقينى (قالت إلينور ذلك بكل إخلاص) إننى أبعد ما يكون عن التفكير فى ذلك . وهل يعقل أن يكون السبب الذى حدا بك إلى الثقة بى سبباً غير شريف أو لا يدل على التقدير لى ؟ »

فأجابت لوسى وعيناها الحادتان مليئتان بالمعانى : « ومع ذلك أؤكد لك أننى لاحظت عليك من أمارات الفتور والنفور ما أقلق بالى ، وجعلنى أعتقد أنك غضبت منى وظللت أعاتب نفسى من ذلك الوقت لاجترائى عليك بحيث أزعجتك بالحديث فى شئونى ولكنى أشعر الآن بسرور كبير لأنى عرفت أن ذلك من هواجس خيالى ، وأنك غير عاتبة على . وإذا عرفت كم شعرت بالسلوى والعزاء حين أرحت بالى بالتحدث إليك عما يشغل فكرى فى كل لحظة من لحظات حياتى لدفعتك الرأفة إلى التجاوز عن كل هفواتى . »

« الواقع أننى أستطيع أن أدرك بسهولة أن إفضاءك لى بحالك كان فيه راحة كبيرة لبالك، وثقى أنك لن تندمى عليه أبداً. وحالتك تبعث على الأسف الشديد، و يبدو لى أن ثمة صعاباً تعترض سبيلك ، ولـكن محبتكما المتبادلة ستـكون عوناً لـكما على تذليل هذه الصعاب. وأعتقد أن مستر فيرار زيعتمد على أمه اعتماداً كلياً. »

« إنه لا يملك سوى ألفى جنيه . ومن الجنون أن يقدم الإنسان على الزواج بمثل هذا المبلغ ، و إن كنت أنا شخصياً لا أطمع فى أكثر منه . وقد اعتدت دائماً أن أعيش بدخل ضئيل جداً . وفى وسعى أن أكافح أى لون من ألوان الفقر فى سبيله ، ولـكنى أحبه حباً يمنعنى من أن أكون أنانية، أسلبه كل ما عسى أن تعطيه أمه إذا تزوج الزوجة التى تريدها . وأرى لزاماً علينا أن ننتظر ، وقد يدوم هذا الانتظار عدة سنين . وهذا الانتظار ينذر بشر مستطير فى حق كثير من الرجال ، أما إدوارد فأنا أعلم أنه لن يستطيع أحد أن يحرمنى من محبته ووفائه . »

« يجب أن يكون فى هذا الاعتقاد أكبر عزاء لك، وهو بلا شك يثق فيك كما تثقين فيه . ولو وهنت قوة حبكما المتبادل — كما يحدث بالطبع بين كثير من الناس وفى كثير من الأحوال ، خلال الخطبة التى تدوم أربع سنوات — لـكانت حالك تدعو إلى الرثاء حقاً . »

فرفعت لوسى عينيها ، ولـكن إلينور حرصت ألا يبدو على وجهها أى مظهر يضفى على كلامها معنى يثير الشبهات فى نفس لوسى .

وقالت لوسى : « لقد وضعت محبة إدوارد لى موضع الاختبار خلال غيابنا الطويل منذ أن تمت خطبتنا ، فثبتت على محك الاختبار بحيث يعد ارتيابى فيها

ذنباً لا يغتفر . وفى وسعى أن أقول وأنا مطمئنة : إنى لم أر منه منذ البداية ما يثير الخوف فى نفسى لحظة واحدة . »

ولم تدر إلينور أتضحك أم تتنهد لهذا القول .

ثم استطردت لوسى قائلة : «وأنا أيضاً أميل إلى الغيرة بطبعى. وكان اختلاف مركزنا فى الحياة ، وخبرته بأحوال الدنيا أكثر منى ، وفراقنا المستمر ، من الأمور التى جعلتنى أميل إلى الارتياب بحيث أعرف حقيقة الأمر فى الحال إذا لاحظت أدنى تغيير فى سلوكه نحوى عند لقائنا ، أو أى اكتئاب لا أدرى له سبباً ، أو إذا أكثر الحديث عن امرأة دون أخرى ، أو أظهر من السرور فى لونجستيبل أقل مما اعتاد أن يظهره على أى وجه من الوجوه . لا أريد أن أقول : إننى دقيقة الملاحظة أو ثاقبة النظر بوجه عام ، ولكن أريد أن أقول: إنه لا يمكن أن يخدعنى فى مثل هذه الحالة . »

وقالت إلينور فى نفسها : « كل ذلك جميل جداً ولكنه لا ينطلى علينا نحن الاثنين . »

وقالت بعد أن أطرقت هنيهة : « ولكن ما هو رأيك ؟ هل ترين ضرورة الانتظار حتى تموت مسز فيرارز وهو أمر يثير الأسى والفزع ؟ هل ابنها مصمم على قبول ذلك ، واحتمال ضجر الانتظار عدة سنوات — وهو الضجر الذى قد يعتريك أيضاً — بدلا من أن يتعرض لسخطها برهة من الزمن إذا اعترف بالحقيقة ؟ »

« إذا تأكدنا أن هذا السخط سيدوم برهة من الزمن ! ولكن مسز

فيرارز امرأة عنيدة متكبرة ، وإذا بلغها الخبر فلن تتردد فى فورة الغضب أن توصى بثروتها كلها لروبرت . وكلما فكرت فى هذا الأمر ، رأيت أن مصلحة إدوارد تدعونى إلى التريث . »

« وكذلك مصلحتك أيضاً ، وإلا فأنت تظهرين من نزاهة القصد ما يجاوز حد المعقول . »

ونظرت لوسى إلى إلينور مرة أخرى ، ولاذت بالصمت .

وسألتها إلينور : « هل تعرفين مستر روبرت فيرارز ؟ »

« لا أعرفه إطلاقاً — لم أره قط . ولكنى أظن أنه يخالف أخاه كثيراً ، فهو سخيف ومتحذلق كبير . »

فرددت مس ستيل « متحذلق كبير ! » وطرقت أذنها الكلمتان أثناء توقف ماريان عن العزف .

« عجباً أظن أنهما يتحدثان عمن يحبان من الفتيان الحسان . »

فصاحت لوسى : « كلا يا أختى ! أنت مخطئة فى ظنك . إن أحبابنا من الفتيان الحسان ليسوا متحذلقين . »

وقالت مسز جننجز وهى تقهقه : « أستطيع أن أؤكد أن حبيب مس داشوود ليس متحذلقاً ، فهو من أكثر الناس تواضعاً ، وأكثر من عرفت من الشبان أدباً . أما لوسى فهى فتاة صغيرة ماكرة ، ولا سبيل لمعرفة من تحبه . »

فاستدارت مس ستيل ونظرت إليها نظرة ذات مغزى قائلة : « أؤكد أن

حبيب لوسى متواضع ومؤدب كحبيب مس داشوود . »

وظهرت على إلينور حمرة الخجل على كره منها ، وعضت لوسى شفتيها ، ونظرت إلى أختها نظرة تنم على الغضب ، ولاذت كلتاهما بالصمت برهة . وقطعت لوسى الصمت ، فقالت فى صوت خافت ، وإن كانت مريان تعزف لهن فى ذلك الوقت لحناً موسيقياً قوياً رائعاً يحمى الأسماع من سماع صوتها :

« سأحدثك بإخلاص عن مشروع خطر ببالى أخيراً لأوضح لك الأمور والواقع أرانى مضطرة لأن أطلعك على السر لأنك من الأطراف التى يهمها الأمر وأظن أنك قابلت إدوارد كثيراً بحيث عرفت أنه يؤثر العمل فى الكنيسة على أى مهنة أخرى . ومشروعى هو أن يبادر إدوارد إلى الدخول فى رتبة الكهنوت ما استطاع ، ثم تتوسطين له لدى أخيك ليعطيه أبرشية نورلاند ، وأنا واثقة أنك ستستخدمين نفوذك لدى أخيك بدافع من صداقتك لإدوارد، وأرجو أن يكون بدافع من حبك لى أيضاً . وقد علمت أن هذه الأبرشية ذات إيراد طيب، وأن القسيس الحالى لا يحتمل أن يعمر طويلا . وهذا يكفينا للزواج، ثم نترك الباقى للزمن والظروف . »

فأجابت إلينور : « يسرنى دائماً أن أبدى أى مظهر من مظاهر التقدير والصداقة لإدوارد ، ولكن ألا ترين أن وساطتى فى هذا الأمر قد لا تكون لها ضرورة على الإطلاق ؟ فهو شقيق مسز جون داشوود ، وهذه الصلة تزكية كافية له عند زوجها . »

« ولكن مسز جون داشوود قد لا توافق على دخول إدوارد فى رتبة الكهنوت . »

« إذن لن يكون لوساطتى تأثير كبير . »

ولاذتا بالصمت مرة أخرى عـدة دقائق ، وأخيراً تنهدت لوسى تنهداً عميقاً وقالت :

« أعتقد أن أصوب وسيلة هى إنهاء هذا الأمر فوراً وفسخ الخطبة . فالمصاعب تحيط بنا من كل جانب فيما يبدو ، وإذا كنا سنأسف على ذلك بعض الوقت ، فقد نشعر بالسرور فى نهاية الأمر ، ولكن ألا تقدمين لى مشورتك يا مس داشوود ؟ »

فأجابت إلينور بابتسامة تخفى ما تشعر به من اضطراب شديد : « كلا ! لن أسدى إليك مشورتى فى الأمر . فأنت تعرفين جيداً أنه لن يكون لرأيى وزن عندك ، ما لم يكن متفقاً مع رغباتك . »

فأجابت لوسى بلهجة الجد : « الواقع أنك تظلمينى ، فأنا لا أقدر رأى إنسان كما أقدر رأيك . وأعتقد أنك إذا قلت لى : « إننى أنصح لك بكل وسيلة أن تضعى حداً لخطبتك مع إدوارد فيرارز لأن هذا سيكون أدعى إلى سعادتك وسعادته » صممت على فسخها من فورى .

واصطبغت وجنتا إلينور بالخجل لنفاق زوجة إدوارد المستقبلة وأجابت: « هذا الثناء من شأنه أن يجعلنى أتردد فى إبداء رأيى فى الأمر ، لو كان لى فيه رأى ، كما أنه يجعل لى من التأثير أكثر مما لى . وليس فى مقدور شخص محايد أن يفرق بين شخصين يجمع بينهما الحب الشديد . »

فقالت لوسى: « ومن أجل أنك شخص محايد أقيم أنا وزناً خاصاً لرأيك »

بشيء من الانفعال، ومؤكدة هذه الكلمات «وما كنتُ لأفكر في استشارتك لو خامرني الظن بأنك تتأثرين بعواطفك بوجه من الوجوه . »

ورأت إلينور من الحكمة ألا تجيب على ذلك حتى لا تسترسل في الحديث، إلى حد ترتفع فيه الكلفة، ويزول التحفظ. وذهب بها الأمر إلى حد أنها أضمرت في نفسها ألا تذكر الموضوع مرة أخرى . ثم ساد الصمت عقب هذا الحديث عدة دقائق وكانت لوسي أيضاً هي أول من قطعه .

قالت ببهجتها الرقيقة المعتادة : « هل ستذهبين إلى لندن هذا الشتاء يامس داشوود ؟ »

« كلا ! »

فأجابت الأخرى وقد برقت عيناها بالسرور عند سماعها هذا الخبر : « يؤسفني ذلك وكان يسرني أن ألقاك هناك ! ولكن أظن أنك ستذهبين إليها على الرغم مما تقولين ، لأنه من المؤكد أن أخاك وأختك سيدعوانك إلى زيارتهما . »

« لن يكون في وسعي أن أجيب هذه الدعوة إذا فعلا ذلك . »

« يا له من أمر يدعو إلى الأسف ! لقد كنتُ أعول على لقائك هناك . وسأذهب أنا وآن في أواخر يناير لزيارة بعض الأقارب الذين ألحوا علينا في زيارتهم منذ سنين عديدة ! ولكن لن أذهب إلا لأرى إدوارد لأنه سيكون هناك في فبراير ، و إلا فلا أرب لي في لندن ، ولا رغبة لي في زيارتها . »

ثم دعيت إلينور للاشتراك في لعب الورق بعد انتهاء الشوط الأول ، وبذلك انتهى الحديث الخاص بين الفتاتين عن تراض منهما ، لأنه لم يصدر عن

إحداهما من القول مايجعل إحداهما تكره الأخرى أقل من ذى قبل . وجلست إلينور إلى مائدة اللعب وهى تعتقد آسفة أن إدوارد لايحب المرأة التى ستكون زوجته المستقبلة فحسب، بل إن أسباب السعادة الزوجية غير مهيأة له ، وهى السعادة التى كان فى وسعها أن توفرها له بفضل محبتها الصادقة ، ذلك أن المصلحة الشخصية وحدها هى التى يمكن أن تدفع المرأة إلى حمل الرجل على التمسك بخطبة تشعر هى بأن الرجل قد ملها .

ومن ذلك الوقت لم تثر إلينور الموضوع قط ، وكانت لوسى لاتدع فرصة تمر دون أن تثيره ، كما كانت تحرص على الإفضاء لأمينة سرها بسرورها كلما تلقت خطابا من إدوارد ، ولكن إلينور كانت تسايرها فى الحديث بهدوء وحذر ، ثم لاتلبث أن تقفل بابه متى سمحت أصول المجاملة بذلك ، لأنها كانت تشعر أن مثل هذه الأحاديث مِنَّةٌ لاتستحقها لوسى ، كما كانت خطراً عليها هى نفسها .

وطالت زيارة الآنستين ستيل فى البارك أكثر مما تضمنته الدعوة الأولى ، وزادت خدماتهما فلم يَتَسَنَّ الاستغناء عنهما ، وعارض سيرجون فى سفرهما بشدة ، وأقنعهما بالبقاء قرابة شهرين فى البارك للمساعدة فى الاحتفال اللائق بذلك المهرجان الذى يتطلب قدراً غير عادى من حفلات الرقص والمآدب الكبيرة إظهاراً لأهميته ، وذلك على الرغم من ارتباطهما فى إكستر بمواعيد عديدة منذ زمن بعيد ، وعلى الرغم من ضرورة عودتهما للوفاء بها فى الحال ، وكان الوفاء بها يتم فى نهاية كل أسبوع .

الفصل الخامس والعشرون

كان لمسز جننجز بيتها الخاص على الرغم من قضائها شطراً كبيراً من العام فى بيوت أولادها وأصدقائها ، وكانت تقيم كل شتاء فى بيت يقع فى أحد الشوارع القريبة من ميدان بورتمان ، وذلك منذ وفاة زوجها الذى كان يشتغل بالتجارة فى أحد أحياء لندن المتواضعة . وعندما اقترب شهر يناير أخذت تفكر فى الذهاب إلى هذا البيت ،فدعت ذات يوم فجأة وعلى غير انتظار الآنستين داشوود الكبيرتين لمرافقتها فى السفر ، ولكن إلينور رفضت الدعوة من فورها وهى شاكرة معتقدة أنها تعبر فى هذا الرفض عن رغبتها هى وأختها ، دون أن تلاحظ التغير الذى بدا على وجه مريان ، والنظارة القوية التى تعبر عن سرورها بهذه الدعوة . وكانت حجة إلينور هى عدم رغبتهما فى مفارقة أمهما فى ذلك الوقت من السنة . وقابلت مسز جننجز هذا الرفض بشىء من الدهشة ، وكررت الدعوة من فورها .

« عجبا ! إننى واثقة أنه فى وسع أمكما أن تستغنى عنكما ، وأرجو ألا تضنا على بصحبتكما لأنى عقدت العزم على ذلك ، ولا تتوهما أنكما ستسببان لى شيئا من المتاعب لأنى لن أتجشم أية مشقة فى السفر . كل ماهنالك أننى سأتجشم إرسال « بتى » فى عربة البريد ، وأرجو أن يتيسر لى ذلك . أما نحن الثلاثة فسنسافر فى عربتى ، و إذا لم ترغبا عندما نكون فى لندن أن تذهبا معى حيثما ذهبت فبها ونعمت ، ولا عليكما أن تخرجا دائما مع إحدى بناتى . وأنا واثقة أن أمكما لن تعارض فى هذه الزيارة ، لأن جميع بناتى لحسن الحظ لن تكن معى ، ولذلك فإن أمكما سترى أننى خير من يرعاكما . و إذا لم أوفق فى تزويج إحدا كما قبل

انتهاء هذه الزيارة فلن يكون ذلك ذنبي ، وكونا على ثقة أنني سأثني عليكما خيراً أمام جميع الشبان . »

وقال سيرجون : «أعتقد أن مس مريان لن تعارض في هذه الزيارة إذا وافقت أختها الكبرى عليها ، وإنه ليعز على أن تُحْرَم من هذه المتعة البسيطة لأن مس داشوود لا ترغب في ذلك . ولذلك أنصح لكما أنتما الاثنين أن تسافرا إلى لندن عندما تسأمان الإقامة في بارتون ، دون أن تخبرا مس داشوود بذلك . »

فصاحت مسز جننجز : « نعم إن صحبة مس مريان ستسعدني كثيراً سواء ذهبت مس داشوود أو لم تذهب . كل ما في الأمر أنه كلما زاد العدد زاد السرور وأن وجودهما معا يزيد من أنسهما ، لأنه إذا ملت إحداهما حديثي أنست بحديث أختها ، وسخرت من أطواري الغريبة وراء ظهري ، ولكن إحداهما لابد أن تصحبني . رحماك اللهم ! أنَّى لي أن أعيش وحدي وأضيع وقتي سدى ، وأنا التي تعودت دائما أن أصحب شارلوت في هذا الشتاء ! هيا بنا يامس مريان نتعاهد على القيام بهذه الزيارة ، وإذا غيرت مس داشوود رأيها فبها بعد فيها ونعمت » .

فأجابت مريان بحرارة : « شكراً ياماما ، شكراً جزيلا ! سأشكر لك هذه الدعوة ماحييت ، ويسعدني كثيراً بل كل السعادة أن أوفق لقبولها ولكن أمي ، أمي العزيزة الرقيقة — إنني أشعر بصواب ماقالته إلينور . وإذا كان غيابنا سيسبب لها شيئاً من الألم أو التعب فما من شيء فيما أعتقد يمكن أن يغريني بمفارقة أمي . ويجب ألا نفعل ذلك إذا هي عارضت فيه . »

فأعادت مسز جننجز تأكيدها بأن مسز داشوود يمكن أن تستغنى عنهما تماما ، وفهمت إلينور رغبة أختها فى هذه الرحلة . ورأت أن رغبتها فى لقاء مستر ولبى مرة أخرى جعلتها تضرب عرض الحائط بأى اعتبار آخر . لذلك أمسكت إلينور عن إبداء أية معارضة ، وا كتفت بأن فوضت لأمها البت فى الأمر . على أنها لم تتوقع أن تؤيدها أمها فى سعيها لمنع هذه الرحلة التى لم توافق عليها حرصا على مصلحة مريان ، ولأنه كان لديها هى من الأسباب الخاصة مايدعوها لتجنبها ، وكانت تعلم أن أمها تسارع إلى تلبية رغبات مريان ، ولذلك لم تتوقع أن تحمل أمها على سلوك سبيل الحذر فى أمر لم تستطع قط أن تحملها على الارتياب فيه ، كما أنها لم تجرؤ أن تبين لأمها السبب فى عدم ميلها هى إلى السفر . وكان تجاهل مريان — وهى التى لايعجبها العجب ، والتى تعرف أخلاق مسز جننجز كل المعرفة ، وتبدى اشمئزازها الدائم من هذه الأخلاق — لكل هذه المتاعب ، وتغاضيها عن كل ما لابد أن يؤذى شعورها أشد الإيذاء جريا وراء شخص واحد — كل ذلك كان دليلا صارخا على منزلة ذلك الشخص فى نفسها بحيث لم تستطع إلينور — على الرغم من كل ماحدث — أن تطيق مشاهدة هذا المنظر .

ولما علمت مسز داشوود بهذه الدعوة رأت أن هذه الرحلة ستهيىء لكريمتيها كثيراً من أسباب الترفيه والتسلية كما آنست رغبة مريان فيها ، فلم توافق على رفضهما للرحلة من أجلها ، وأصرت على ضرورة قبولهما لهذه الدعوة فى الحال ثم أخذت تتنبأ — وهى تشعر بالبهجة والسرور كعادتها — بالفوائد التى ستعود عليهن جميعا من هذا الفراق .

قالت : « إننى مسرورة بهذه الرحلة ، وهى ما كنت أتمناه تماما . وسأفيد أنا ومرجريت منها كما تفيدان أنتما . وحينما تسافران أنتما وآل ميدلتون سنقضى الوقت بين الكتب والموسيقى فى سعادة وهدوء ! وستجدان عند عودتكما أن مرجريت قد زادت ثقافتها . وأنا أنوى إجراء بعض التغيير فى غرفة نومكما كذلك ، وهو أمر يتسنى لى عمله الآن دون أن أزعج أحداً ، ومن الصواب أن تذهبا إلى لندن ، و بودى لو أن كل فتاة فى مثل مركزكما ذهبت إليها ، لتتعرف أحوالها وملاهيها . وستكونان فى رعاية امرأة تحمل بين ضلوعها عاطفة الأم ولا أشك فى أنها ستحوطكما ببرها وعطفها وأكبر الظن أنكما ستلقيان أخا كما ، ومهما يكن من عيوبه وعيوب امرأته ، فإننى حينما أفكر فى أبيه لا أحب أن تنفصم عرى المودة بينكما وبينه . »

وقالت إلينور : « على الرغم من أنك ذللت ـ بحرصك المعتاد على سعادتنا ـ كل عقبة يمكن أن تخطر ببالك فى سبيل هذه الزيارة فهناك اعتراض لا يمكن فى رأيى تذليله بسهولة » .

واكفهر وجه مريان .

قالت مسز داشوود : « وماذا تريد ابنتى العزيزة الحكيمة أن تقوله ؟ ماهى العقبة الهائلة التى تريد أن تتحدث عنها ؟ أرجو ألا أسمع منك كلمة عن نفقات الرحلة . »

« اعتراضى هو هذا : لا أعتقد أن صحبة مسز جننجز ـ برغم ما تكنه من الحب والعطف ـ من شأنها أن تبعث فينا السرور ، ولا أن رعايتها لنا من شأنها أن ترفع من قدرنا . »

فأجابت أمها : « هذا صحيح . ولـكنكما لن تـكونا فى صحبتها — بعيداً عن صحبة غيرها — إلا قليلاً ، وستظهران دائماً أمام الجمهور فى صحبة ليدى ميدلتون. »

وقالت مريان : « إذا كانت إلينور تخشى صحبة مسز جننجز فهذا على الأقل لا يمنعنى من قبول دعوتها ، فأنا لا أخشى تلك الصحبة . وفى وسعى أن أحتمل كل مضض من هذا القبيل دون عناء كبير . »

ولم تتمالك إلينور أن تبتسم لما أعربت عنه مريان من عدم اكتراثها بأخلاق امرأة ، كانت إلينور تتجشم كثيراً من العناء فى حمل مريان على معاملتها بشىء من الأدب ، وصحت نيتها على الذهاب إلى لندن إذا أصرت أختها على هذه الرحلة لأنها لم تر من المناسب أن تترك مريان وشأنها أو تترك مسز جننجز — أثناء وقت راحتها فى المنزل — تحت رحمة مريان . ومما دعاها إلى قبول ذلك أنها تذكرت أن إدوارد فيرارز — على قول لوسى — لن يكون فى لندن قبل شهر فبراير وأن زيارتهما — إذا طالت — ستنتهى قبل هذا التاريخ .

قالت مسز داشوود : «إننى أصر على ذهابكما معا وهذه الاعتراضات ضرب من اللغو ، وستجدان متعة كبيرة فى زيارة لندن ، ولا سيما فى وجودكما معاً ، وإذا كانت إلينور تلتمس أية متعة ، ففى وسعها أن تلتمسها من مصادر مختلفة ، وربما وجدت بعض ذلك فى توثيق أواصر المودة بينها وبين أسرة زوجة أخيها . »

وكثيراً ما كانت إلينور تتمنى أن تسنح لها الفرصة لتضعف من إيمان أمها بوجود علاقة حب بينها وبين إدوارد ، حتى تـكون الصدمة عليها خفيفة حينما تتكشف لها الحقيقة . فلما أشارت أمها إلى هذا الموضوع أقدمت إلينور على

انتهاز هذه الفرصة لتنفيذ خطتها ـ وإن لم تأمل فى نجاحها كثيراً ـ فقالت بكل هدوء : إننى أحب إدواردفيرارز كثيراً ، ويسرنى دائما أن أراه ، أما من عداه من سائر أفراد الأسرة فسواء على أعرفتهم أم لم أعرفهم . »

فابتسمت مسز داشوود ولم تقل شيئا . ورفعت مريان عينيها فى دهشة ورأت إلينور أنه يحسن بها أيضا أن تمسك لسانها . وبعد حديث وجيز استقر الرأى نهائيا على قبول الدعوة قبولاً تاما فلا تسل عما شعرت به مسز جننجز من السرور عندما بلغها هذا النبأ ولا عن العبارات التى أكدت فيها عطفها ورعايتها . ولم يقتصر هذا السرور عليها بل شمل سير جون أيضا لأن أكبر ما يخشاه هو الوحدة ، ولاريب أن إضافة شخص أوشخصين إلى أسرته فى لندن يعد كسبا . بل إن ليدى ميدلتون اهتمت بإظهار سرورها . أما الآنستان ستيل ولا سيما لوسى فلم يسعدهما قط شيء فى حياتهما كما أسعدهما هذا النبأ .

ووافقت إلينور على هذه الرحلة التى تتعارض مع رغبتها ، وهى تشعر بامتعاض أقل مما توقعت أن تشعر به . ولم يعد يهمها ـ فيما يتعلق بنفسها ـ أن تذهب أو لا تذهب إلى لندن . ولما رأت أمها مسرورة بهذه الرحلة ، ورأت علائم السرور بادية فى نظرات أختها وصوتها وأحوالها ، وأنها عادت إلى نشاطها المعتاد ، وشعرت بأكثر من مرحها المعتاد لم يسعها إلا الرضا بهذه الرحلة ، ولم تشك فيما عسى أن ينجم عنها .

وكانت فرحة مريان تكاد تزيد على السعادة بدرجة ، واستبد بها القلق ، والشوق للرحلة ، وكان امتعاضها لفراق أمها هو العامل الوحيد الذى لطف من

شدة شوقها إلى السفر ، وعندما حانت ساعة الوداع اشتدت بها لوعة الأسى ، ولم تكن لوعة أمها تقل عن لوعتها . وكانت إلينور هى الوحيدة من بين الثلاثة التى رأت أن الفراق لن يدوم طويلا .

وتم السفر فى الأسبوع الأول من شهر يناير على أن يسافر آل ميدلتون بعدهما بأسبوع ، وبقيت الآنستان ستيل فى البارك حتى تسافرا مع بقية أفراد الأسرة .

الفصل السادس والعشرون

لم تكد إلينور ترى نفسها فى «العربة» مع مسز جننجز ، وتبدأ الرحلة إلى لندن تحت رعايتها وفى ضيافتها حتى أخذت تقضى العجب من حالها وتتساءل : ما أقصر الفترة التى عرفتْ فيها هذه السيدة ، وما أشد التباين بينى و بينها فى الطباع والسن ، وما أكثر الاعتراضات التى وجهتها إلى هذه الرحلة منذ أيام قلائل ، ولكن مريان وأمها تغلبتا على جميع هذه الاعتراضات أو تجاهلتاها فى حماسة الشباب التى اشتركت فيها كل منهما على السواء . ولم تستطع إلينور على الرغم مما كان يساورها أحيانا من شك فى وفاء ولبى — أن تشاهد نشوة الآمال الحلوة التى غمرت قلب مريان ، وتألقت فى بريق عينيها — دون أن تدرك أنها لا تشعر بأمل فى المستقبل ، بل تشعر بالكآبة بالقياس إلى مريان ، ودون أن تدرك أنه يسرها أن تشارك مريان فى اهتمامها بالرحلة ، حتى تظل تتطلع إلى ما تصبو إليه ، وتحتفظ بنفس الأمل الذى ترجوه . على أن نوايا ولبى لا بد أن تتضح بصفة قاطعة بعد وقت قصير جدا ، وأكبر الظن أنه موجود فى لندن بالفعل . وقد دل تلهف مريان على الرحلة على ثقتها بوجوده فيها . وصممت إلينور لا على أن تستشف حقيقة أخلاقه فى ضوء ملاحظتها هى أو أخبار غيرها فحسب ، بل صممت كذلك على مراقبة سلوكه تجاه أختها عن كثب حتى تستوثق من أخلاقه ونواياه قبل أن تتكرر بينهما الاجتماعات . فإذا كانت نتيجة هذه الملاحظات غير مشجعة فقد صممت على أن تفتح عين أختها فى كل حال من الأحوال ، أما إن كانت مشجعة فقد وجب عليها أن تسلك طريقا آخر وهو أن تتحاشى كل مقارنة تنطوى على الأنانية بينها وبين أختها ، وأن تتجنب كل

مظهر من مظاهر الأسى من شأنه أن يقلل من شعورها بالرضا نحو سعادة مريان .

وقضين ثلاثة أيام فى رحلتهن كان سلوك مريان فى أثنائها نموذجا طيبا لما عسى أن تبديه فى المستقبل نحو مسز جننجز من لين الجانب ، ورقة العاشرة . جَلَسَتْ صامتة طول الطريق تقريبا مستغرقة فى تأملاتها ، وقلما طابت نفسها بالـكلام اللهم إذا انتزع منها أحد المناظر الرائعة صيحة إعجاب توجهها لأختها فقط . ولذلك كفرت إلينور عن هذا السلوك ، فأخذت على عاتقها مهمة المجاملة التى ارتضتها لنفسها ، فأولت مسز جننجز أكرم رعاية فحادثتها ، وضحكت معها ، وأصغت إليها ما استطاعت . وكانت مسز جننجز تعاملهما من جانبها بـكل ماوسعها من ضروب العطف والبر ، وتوفر لهما أسباب الراحة والمتعة ، ولا شىء يضايقها إلا أنها عجزت عن حملها على اختيار ألوان الغذاء فى النُزُل وانتزاع اعتراف منهما بإيثار السـلمون على القَدّ ، أو لحم الدجاج المسلوق على شرائح لحم العجول . ووصلن لندن فى الساعة الثالثة من اليوم الثالث . وسررن حين انطلقن من سجن « العربة » بعد تلك الرحلة ، وتأهبن للتمتع بالدفء على ضوء نار طيبة .

كان البيت جميلا مجهزا بأثاث جميل ، وسرعان مااحتلت الفتاتان شقة مزودة بوسائل الراحة ، وكانت هى الشقة التى أقامت فيها شارلوت من قبل ، ولا يزال الإنسان يرى فوق سجاف المصطلى منظرا طبيعيا مرسوما على نسيج من الحرير الملون من صنع يديها ، مما يدل على أنها أفادت من السنوات السبع التى قضتها فى إحدى المدارس الـكبرى بلندن .

وإذ لم يكن من الميسور أن يتم إعداد طعام الغداء قبل ساعتين من وصولهما ، فقد اعتزمت إلينور أن تقضى هذه الفترة فى الكتابة لأمها ، فجلست لهذا الغرض . ولم تمض بضع دقائق حتى فعلت مريان نفس الشىء وقالت لها إلينور : « إننى أكتب خطابا للأسرة يامريان . أما يحسن أن ترجئى خطابك يوما أو يومين ؟ »

فأجابت مريان بسرعة وكأنها تريد أن تتفادى أى سؤال آخر : «لن أكتب لأمى . » فلم تقل إلينور شيئاً ، وخطر ببالها فوراً ، أنها تكتب لولبى حتما ، واستنبطت من ذلك أنهما مخطوبان ، وإن حاولا إخفاء الخطبة ، وسرها هذا الاعتقاد ، وإن لم تتوافر الدلائل على صحته ، واستمرت فى كتابة الخطاب بخفة ونشاط . ولم يستغرق خطاب مريان أكثر من بضع دقائق ، إذ لم يزد على أن يكون تذكرة . وبعد أن انتهت من كتابته طوته ، وأغلقته ، وعنونته بسرعة وخفة . واستطاعت إلينور أن تميز حرف « و » فى العنوان . ولم تكد مريان تفرغ منه حتى دقت الجرس ، وطلبت إلى الساعى الذى لبى النداء أن يحمل هذا الخطاب إلى صندوق البريد الخاص بالخطابات ذات البنسين ، وكان هذا هو الذى حسم مادة الشك فى الحال .

وظلت تشعر بالفرح والمرح ، ولكن مع شىء من الاضطراب لم يسر أختها كثيراً ، وزاد هذا الاضطراب عندما اقترب المساء . ولم تكد تذوق شيئاً من طعام الغداء ، وحينما عادتا بعد ذلك إلى حجرة الاستقبال ، كانت تصغى لصوت كل عربة فى لهفة واشتياق .

وكان من دواعى ارتياح إلينور أن مسز جننجز كانت مشغولة كثيراً فى

حجرتها الخاصة ، فلم تستطع أن تلاحظ كثيراً مما حدث . وجيء بمعدات الشاى ، وكانت مريان قد شعرت بخيبة الأمل أكثر من مرة عندما تسمع دقاً على الباب المجاور ، وإذا بطارق يقرع الباب قرعا عاليا ، فهرولت نحو الباب ، وخيم الصمت على الجميع ، ولم يكن من الممكن احتمال هذا الصمت أكثر من بضع ثوان ، ففتحت مريان الباب ، وسارت بضع خطوات نحو السلم ، وأنصتت برهة ، ثم عادت إلى الحجرة فى اضطراب ينبيء عن اعتقادها أن الطارق هو ولبى ، ولم تتمالك من فرط السرور أن صاحت «وى ! إلينور ! إنه ولبى ! حقا هو ولبى» ! وهمت بإلقاء نفسها بين ذراعيه ، لولا أنها رأت كولونيل براندون .

وكانت صدمة أجل من أن تحتمل فى هدوء وسكينة ، فغادرت الحجرة من فورها ، وشعرت إلينور بخيبة الأمل كذلك ، ولكن تقديرها لكولونيل براندون حملها على الترحيب بمقدمه ، وساءها كثيراً أن يلحظ رجل يحب أختها كثيراً أنها لا تشعر عند رؤيته إلا بالحزن وخيبة الأمل . ولكنها سرعان ما رأت أنه لم يلحظ ذلك ، بل لحظ مريان ، وهى تغادر الحجرة ، بكثير من الدهشة والقلق بحيث لم ير فى سلوكها ما يتنافى مع واجب المجاملة .

قال : «هل أختك مريضة ؟» .

فأجابت إلينور بلهجة يشوبها بعض الألم : إنها كذلك ، ثم تحدثت عن الصداع والكآبة والإرهاق وعن كل شيء يسمح لها الأدب أن تعزو إليه سلوك أختها .

واستمع إلى كلامها بكل جوارحه ، ولكن بدا عليه أنه يستجمع قواه

فكف عن الحديث فى الموضوع ، وأخذ من فوره يعرب عن سروره برؤيتهما فى لندن ، ويواجه الأسئلة المعتادة عن رحلتهن ، وعمن خلفنه وراءهن من الأصدقاء .

وبهذا الأسلوب الهادئ وبدون كثير من الاهتمام من الجانبين استمرا يتجاذبان أطراف الحديث ، وكلاهما يشعر بالانقباض والكآبة ، وكلاهما شارد الفكر فى واد آخر . وكانت إلينور تتوق كثيراً أن تسأله هل ولبى فى لندن حينئذ ، ولكنها خشيت أن تؤلمه بسؤاله عن غريمه . وأخيراً سألته من باب مجاذبة الحديث : هل ظل مقيما فى لندن منذ أن رآته آخر مرة . فأجاب فى شىء من الارتباك : « نعم ، لم أكد أفارقها من ذلك الحين ، غير أنى زرت ديلافورد مرة أو مرتين لبضعة أيام ، ولكن لم يتيسر لى قط أن أعود إلى بارتون . »

وكان هذا الجواب واللهجة التى قيل بها مما أعاد فى الحال إلى ذهنها جميع الملابسات التى احتاطت بمغادرته هذا المكان ، وما أثارته من قلق وشبهات فى نفس مسز جننجز ، وخشيت أن يكون سؤالها قد تضمن من حب الاستطلاع أكثر مما شعرت به .

وسرعان ما دخلت مسز جننجز ، فقالت بمرحها الصاحب المعتاد : « إيهاً يا كولونيل ، إننى مسرورة برؤيتك أعظم السرور ، وآسفة لأنى لم أبادر بالحضور . معذرة لأنى اضطررت أن ألقى نظرة على ماحولى ، وأرتب أمورى ، إذ مضت فترة طويلة لم أحضر فيها إلى البيت ، وأنت تعلم الأشياء الصغيرة الغريبة التى يجب على الإنسان أن يعملها بعد أن يغيب عن منزله ، ثم على بعد ذلك أن أسوى

حسابى مع صانع «العربات» . رباه ! لقد كنت فى عمل دائب كالنحلة منذ الغداء ولكن كيف عرفت يا كولونيل أننى سأصل إلى لندن اليوم ؟ »

« سمعت النبأ فى بيت بالمر حيث تناولت طعام الغداء . »

« عجبا ! تغديت هناك ؟ حسنا ! وكيف حالهم جميعاً ؟ وكيف حال شارلوت أنا أؤكد أنها أصبحت رائعة . »

« مسز بالمر فى صحة طيبة . وقد كلفونى أن أبلغك أنها ستزورك غدا . »

« حقا ، لقد تبادر ذلك إلى ذهنى . والآن يا كولونيل أحب أن أقول لك : إننى جئت معى بفتاتين . أمامك الآن منهما واحدة ، والأخرى فى مكان آخر صديقتك مس مريان ، أيضا — وهو خبر لايسوؤك سماعه . وأنا لا أدرى ماذا أنت فاعل ومستر ولبى بها . نعم ما أجمل أن يجمع الإنسان بين الشباب والجمال نعم ! كنت أتمتع بالشباب فى ماضى الأيام ، ولكنى لم أحظ بالجمال الرائع قط — واسوأتاه ! ولكنى ظفرت بزوج طيب جدا ، ولا أدرى كيف تحصل أجمل امرأة على زوج خير منه آه ! وا أسفا عليه ! لقد توفى منذ أكثر من ثمانى سنين ولكن حدثنى يا كولونيل أين كنت منذ افترقنا ؟ كيف حال شئونك المالية ؟ خبرنى عن الحقيقة فليس بين الأصدقاء سر ! »

فأجاب بهدوئه المعتاد عن كل الأسئلة ، ولكن دون أن يشفى غليلها فى واحد منها ثم أخذت إلينور تعد الشاى ، واضطرت مريان إلى الحضور ثانية .

وبعد دخولها استغرق كولونيل براندون فى الصمت والتفكير أكثر من ذى

قبل ولم تستطع مسز جننجز أن تحمله على البقاء طويلا . ولم يأت زائر آخر في مساء اليوم ، واتفقن جميعا على الذهاب إلى الفراش مبكرات .

واستيقظت مريان في صباح الغد ، وقد عادت إلى حالتها الطبيعية ، و بدت عليها أمارات السرور . و يبدو أنها نسيت — في نشوة الأمل الذي ترجوه اليوم خيبة الأمل التي ألمت بها مساء أمس . ولم يمض وقت طويل على تناولهن طعام الفطور حتى وقفت «عربة» مسز بالمر بالباب، وما هي إلا بضع دقائق حتى دخلت الحجرة وهي تضحك . وفرحت بلقائهن جميعا فرحا لايدري المرء معه أهي أشد فرحاً بلقاء أمها أم بلقاء الآنستين داشوود . وأبدت مزيد دهشتها لحضورهما إلى لندن وإن توقعت ذلك دائما ، كما أبدت شدة غضبها لقبولهما دعوة أمها بعد أن رفضتا دعوتها ، وإن لم تكن في الوقت نفسه لتغفر لهما لو أنهما تخلفتا عن الحضور !

وقالت : « مستر بالمر يسعده أن يراكما . ماذا تظنان أنه قال عندما سمع بقدومكما مع ماما ؟ لقد نسيت الآن ماقال ، ولكنه قال كلاما غريبا مضحكا . »

وبعد ساعة أو ساعتين قضيتا فيها أسمته أمها حديثا شائقا ، أو بعبارة أخرى في توجيه مختلف الأسئلة عن معارفهما جميعا من جانب مسز بالمر ، اقترحت هذه أن يصحبنها إلى بعض المحلات التجارية لشراء بعض مايلزمها فوافقت مسز جننجز وإلينور في الحال ، لأنهما أرادتا كذلك شراء بعض الأشياء ، ورفضت مريان الذهاب معهما بادىء الأمر ، ولكنهما حملتاها على ذلك .

وحيثما ذهبن ، لم تكف مريان بصرها عن مراقبة الناس ، وفي بوند ستريت خاصة الذي كان يشتمل على معظم ما يلزمهما لم تكف عن تفحص الوجوه ،

وكذلك كان ذهنها فى كل محل ذهبن إليه يشرد عن كل مايقع تحت أبصارهن، وعن كل شىء يسترعى نظرهن ويثير اهتمامهن ، و بدا عليها القلق وعدم الرضا فى كل مكان ، ولم تستطع أختها استشارتها فى أى شىء تريد شراءه ، وإن كان يهمهما على السواء ، وعزفت نفسها عن كل شىء ، وتلهفت على العودة إلى البيت ، ولم تستطع أن تخفى ضجرها من مسلك مسز بالمر التى يسترعى نظرها كل جميل أو غال أو جديد فى الأشياء ، وتتوق إلى شراء كل شىء ولـكنها تتردد فى شرائه ، وتضيع الوقت بين الإعجاب والتردد .

وعدن إلى المنزل فى ساعة متأخرة . وما إن وصلن إلى المنزل حتى طارت مريان إلى السلم وأعقبتها إلينور ، فوجدتها تشيح بوجهها الحزين عن المائدة ، مما دل على أن ولبى لم يكن موجوداً .

وقالت للساعى حينما دخل يحمل بعض «الطرود» : «ألم يرد لى خطاب منذ أن خرجت ؟ فأجاب بالنفى ، ثم قالت : « هل أنت متأكد من أن خادما أو بواباً لم يترك لى خطاباً أو تذكرة ؟ »

فأجاب الرجل بأن أحداً لم يأت بشىء .

فقالت فى صوت خافت يائس ، وهى تلتفت إلى النافذة : « ما أغرب ذلك ! »

ورددت إلينور فى نفسها ، وهى تنظر إلى أختها فى قلق : « حقا ما أغرب ذلك ! لو لم تعلم أنه فى لندن لما كتبت إليه كما فعلت ، بل كانت كتبت إليه فى كومب ماجنا . وإذا كان هو فى لندن فما أغرب ألا يحضر أو يكتب إليها ! آه يا أمى العزيزة ! لابد أنك أخطأت فى السماح بعقد خطبة بين فتاة صغيرة السن كهذه

ورجل لا نعرف عنه إلا القليل ، فى مثل هذه الظروف الغامضة المريبة ! إننى أتوق إلى استقصاء الخبر . ولكن كيف يطاق تدخلى ؟ »

وقررت بعد شىء من الروية والتفكير إذا ظلت مريان كاسفة البال عدة أيام، كما يبدو عليها الآن، أن توضح لأمها بأقوى عبارة ضرورة استقصاء الأمر.

وتغدى معهما مسز بالمر وسيدتان كبيرتان من صديقات مسز جننجز المخلصات قابلتهما فى الصباح فوجهت الدعوة إليهما . ثم انصرفت السيدة الأولى عقب الشاى مباشرة للوفاء بمواعيدها المسائية . واضطرت إلينور أن تشارك فى إعداد مائدة لعبة الوِسْت لغيرها من السيدات ، ولم تبد مريان نشاطا فى الأمرين لأنها لا تعرف هذه اللعبة، ولكنها على الرغم من أنها كانت حرة التصرف فى وقتها لم تقض المساء فى عمل شىء يجلب لها من السرور أكثر مما وجدته إلينور ، بل قضته فى تجرع غصة الانتظار ولوعة الخيبة . وكانت تحاول أحيانا أن تسلى نفسها بالقراءة دقائق معدودات ولكنها لا تلبث أن تطرح الكتاب جانبا ، ثم تعود فتسلى نفسها بما هو أمتع من ذلك ، فتذرع الحجرة جيئة وذهابا ثم تتوقف هنيهة عند وصولها إلى النافذة على أمل أن تسمع الدقة التى طال انتظارها .

الفصل السابع والعشرون

قالت مسز جننجز عندما جلسن إلى مائدة الفطور في صباح الغد: « إذا استمر هذا الطقس الجميل طويلا فلن يرغب سيرجون في مغادرة بارتون في الأسبوع القادم . إنه ليعز على المشتغلين بالصيد أن يحرموا أنفسهم متعة يوم واحد . وارحمتاه لهم ! إنني أرثى لهم دائما إذا حرموا هذه المتعة — إنه ليحزنني إذا حرموا منها . »

فصاحت مريان بلهجة المرح ، وهى تتجه إلى النافذة أثناء الكلام لتفحص حال الطقس : « هذا صحيح . لم يخطر ذلك ببالى . هذا الطقس سيحمل الكثير من هواة الصيد على البقاء فى الريف . »

وكانت هذه ذكرى سعيدة أعادت إليها الشعور بالبهجة والمرح . وأردفت وهى تجلس إلى مائدة الفطور بوجه طلق: « إنه طقس رائع لهم حقا. ما أجدرهم بأن يتمتعوا به كثيراً ! ولكن (بشىء من القلق الذى عاد إليها) لاينتظر أن يستمر هذا الطقس طويلا . ومن المؤكد أننا لن نرى المزيد منه فى مثل هذا الوقت من السنة ، وبعد هذا المطر المتواصل . وسيبدأ الصقيع عما قريب ، وبكل شدة فيما أظن ، وربما كان ذلك بعد يوم أو يومين .وهذا الاعتدال الزائد لا يمكن أن يستمر طويلا — نعم ، ربما بدأ الصقيع الليلة ! »

وقالت إلينور، وهى تريد أن تحول دون أن تفهم مسز جننجز مقصد أختها فهما واضحاً كما تفهمه هى : « أؤكد أننا نرى سيرجون وليدى ميدلتون فى لندن

فى نهاية الأسبوع القادم . »

« نعم ياعزيزتى ! أعتقد أننا سنراهما . ومارية دائما تركب هواها . »

وحدست إلينور فى صمت : « والآن سترسل له خطابا على كومب ، فى بريد اليوم . »

ولـكنها إذا فعلت ، فإنها تـكتب الخطاب وترسله خفية حتى لايقع عليه بصر أختها . ومهما تـكن حقيقة الأمر،ومهما يـكن من عدم شعور إلينور بالرضا عن ذلك ، فإنه لم يسعهـا أن تشعر بالـكدر ، وهى ترى أختها تشعر بالبهجـة والسرور ، فقد كانت مريان مسرورة، وسعيدة باعتدال الطقس، ولكنها كانت أسعد بتوقع الصقيع .

وقضين معظم ساعات الصباح فى ترك البطاقات فى منازل صديقات مسز جننجز لإخبارهن بقدومها إلى لندن ، وظلت مريان مشغولة طول الوقت بملاحظة اتجاه الريح ، ومراقبة تقلبات السماء ، وتخيل حدوث تغيير فى الهواء .

« ألا ترين يا إلينور أن الجو أبرد الآن مما كان فى الصباح . يبدو لى أن ثمة فرقا واضحاً جداً . إننى لا أكاد أشعر بالدفء فى يدى حتى وهما فى الموفة[١] ولم يـكن الجو كذلك بالأمس فيما أظن . ويبـدو أن السحب تقشعت أيضا ، وأن السماء ستشرق بعد هنيهة ، وسنتمتع بجو صحو فى الأصيل . »

وكانت إلينور ينتابها الألم والسرور ، أما مريان فقدظلت على حال واحدة ،

---

(١) الموفة (Muff) أسطوانة من فرو توضع فيها اليدان من طرفيها للتدفئة (المترجم)

فكانت ترى فى ضوء النار كل ليلة ،وفى مظهر الجو كل صباح أعراض الصقيع المقبل التى لاشك فيها .

لم يكن ثمة من الأسباب مايحمل الآنستين داشوود على الاستياء من أسلوب معيشة مسز جننجز وصديقاتها ولا من مسلكها الذى اتسم إزاءهن بالبر والعطف وكانت تسوس أمورها المنزلية على نحو لايحد من حريتها على الإطلاق ، ولم تقم بزيارة أى إنسان تعلم أن التعرف به يؤذى شعورهما بوجه من الوجوه ، فيما عدا بعض صديقاتها فى لندن اللاتى لم تقطع صلتها بهن ، وهو مادعا اليدى ميدلتون إلى الأسف . ولما كانت إلينور تشعر براحة البال من هذه الناحية أكثر مما توقعت فقد تغاضت عما كان يعوزها من المتعة الحقة فى اجتماعاتهم المسائية التى ينتظم شملها سواء فى داخل المنزل أو خارجه لالشىء إلا للعب الورق ، الأمر الذى لم تجد فيه كثيراً من التسلية .

وكان كولونيل براندون مدعواً لزيارة المنزل فى أى وقت ،فكان يزورهما كل يوم تقريبا . وجاء ليشاهد مريان ، ويتحدث إلى إلينور التى كانت تجد فى حديثه من الارتياح أكثر مما تجد فى أى شأن من شئون الحياة اليومية، وإن شعرت فى الوقت نفسه بقلق بالغ لاهتمامه الدائم بأختها . وكانت تخشى أن يزداد هذا الاهتمام قوة ، وتحزن لما كان يبدو فى نظراته إلى مريان من الجد والاهتمام ، ولم يكن ثمة شك فى أن حالته النفسية أسوأ مما كانت عليه فى بارتون .

وثبت بعد قدومهما إلى لندن بنحو أسبوع أن ولبى قدم إليها أيضا ، فقد رأتا بطاقته على النضد ، عندما عادتا من نزهتهما الصباحية فى « العربة » .

صاحت مريان : « عجبا ! لقد زارنا أثناء نزهتنا » وسرت إلينور حينما تأكدت من وجوده فى لندن، وقالت لأختها مؤكدة: «ثقى أنه سيعود إلى زيارتنا غداً » ولكن يبدو أن مريان لم تسمعها ، وعندما دخلت عليهما مسز جننجز هربت من الحجرة ومعها البطاقة الثمينة .

وسرت إلينور بهذا الحادث ، ولكنه أعاد إلى أختها ماسبق بل أكثر مما سبق أن شعرت به من الاضطراب ، فلم يهدأ بالها منذ تلك اللحظة ؛ وظلت تتوقع حضوره فى كل ساعة من ساعات النهار إلى حد جعلها تعزف عن كل عمل وأصرت على البقاء وحدها بالمنزل فى صباح الغد عندما خرج غيرها .

وكانت إلينور مشغولة البال بما عسى أن يجرى فى بركلى ستريت أثناء غيابهما . فلما عادتا نظرت إلى وجه أختها هنيهة ، وكانت هذه النظرة كافية للدلالة على أن ولبى لم يعد للزيارة ، وحينئذ وردت تذكرة ووضعت على المنضدة .

فصاحت مريان وأقبلت مسرعة « لى ! »

« لا ياسيدتى ، بل هى لربة البيت »

ولكن مريان لم تقتنع بذلك ، فتناولتها من فورها .

« حقا إنها لمسز جننجز . إنه لشىء يغيظ ! »

ولم تستطع إلينور أن تظل صامته فقالت « كأنك تتوقعين خطابا ! »

« نعم قليلا لا كثيراً . »

وأطرقت هنيهة ثم قالت « أنت لاتثقين بى يامريان . »

« نعم ، إلينور ، هذا تأنيب مقك — منك يامن لاتثقين فى أحد ! »

فردت عليها إلينور فى لهجة يشوبها بعض الاضطراب «منى أنا ! حقا يامريان ليس لدى ما أقوله . »

وقالت مريان بحدة : « وكذلك أنا . كلانا سواء . ليس لدى إحدانا ماتقوله . ليس لديك لأنك تكتبين الرسائل ، وليس لدى لأنى لا أخفى شيئا . »

وتألمت إلينور لتهمة التكتم التى وجهت إليها ، ولم يسعها أن تنفيها ، ولم تدر كيف تطالب أختها فى هذه الظروف بالمزيد من الصراحة . »

وسرعان ماحضرت مسز جننجز وتسلمت التذكرة فقرأتها بصوت عال ، فتبين أنها مرسلة من ليدى ميدلتون تعلن فيها قدومها هى وزوجها إلى كوندوى ستريت ليلة أمس ، وتدعو أمها وقريباتها إلى زيارتها فى مساء الغد قائلة : إن المانع من قدومها إلى بركلى ستريت هو مشاغل سيرجون من جهة ، وإصابتها هى بزكام شديد من جهة أخرى . وقبلت الدعوة ، ولكن حينما أزفت ساعة الزيارة لقيت إلينور بعض العناء فى إقناع أختها بمرافقتها فى هذه الزيارة ، لأنها لم تر ولبى حتى الآن ، على الرغم من أن واجب المجاملة نحو مسز جننجز كان يقضى بذهابها مع أختها . ولذلك كانت مريان تكره أن تخرج لتسرى عن نفسها ، بقدر ما كانت تكره أن يزورها مرة أخرى أثناء غيابها .

ولما انقضت السهرة وجدت إلينور أن طبع الإنسان لا يتغير تغيراً ماديا بتغير المكان . ذلك أن سيرجون على الرغم من قلة إقامته بلندن ، استطاع أن يجمع حوله ما يقرب من عشرين شابا ، وأن يرفه عنهم بإقامة حفلة رقص لهم . ولكن ليدى ميدلتون استنكرت هذا العمل لأنها رأت أن إقامة حفلة رقص لم تتخذ لها

العدة أمر جائز فى الريف ، أما فى لندن حيث يهتم الناس بالرشاقة والأناقة، وحيث يتعذر توافرهما فكانت ترى أنها تضحى بالشيء الكثير من أجل الترفيه عن بضع فتيات ، حين يعلم الناس أنها أقامت حفلا راقصا صغيراً يشهده ستة أو ثمانية عشر شخصا ، وعازفان على الكمان ، ولا يقدم فيه سوى طعام يسير . »

وكان مستر بالمر وزوجته من بين المدعوين للحفل ، ولم يكن قد رأينه منذ وصولهن إلى لندن ، وعندما دخلن ، لم يبد ما يدل على أنه يعرفهن ، لأنه كان يحرص ألا يظهر أى اهتمام بحماته ، ولذلك لم يكن يقترب منها قط ، ونظر إليهن بازدراء دون أن يبدو عليه أن يعرف من هن ، واكتفى بأن أومأ برأسه إلى مسز جننجز من الجانب الآخر من الحجرة ، وألقت مريان نظرة واحدة على أرجاء الحجرة عند دخولها ، وكانت هذه النظرة تكفى للدلالة على أنه ليس موجودا فيها ـ وجلست وهى لا تريد أن تشعر بالسرور ، ولا أن تبعث السرور فى أحد . وبعد أن اجتمع الشمل بما يقرب من ساعة ، وثب مستر بالمر نحو الآنستين داشوود ليعرب لهما عن دهشته لقدومهما إلى لندن ، على الرغم من أن كولونيل براندون علم أول ما علم بنبأ قدومهما فى بيته ، وأنه هو نفسه علق بكلام غريب عند ما بلغه أنهما سيأتيان .

قال : « كنت أظن أنكما فى ديفونشاير . »

فأجابت إلينور : « صحيح ! »

« ومتى تعودان إليها ؟ »

« لا أدرى . » وهكذا انتهى الحديث .

ولم يكن الرقص أبغض إلى نفس مريان فى أى يوم من أيام حياتها منه

فى مساء ذلك اليوم ، ولم تشعر بتعب منه كما شعرت فى ذلك الوقت ، وشكت من ذلك عندما عادت إلى بركلى ستريت .

قالت مسز جننجز : « نعم نعم ! إننى أعرف السبب جيدا . لو أن شخصا معينا لا أذكر اسمه كان حاضرا لما شعرت بشىء من التعب قط ، والحق أنه لم يكن يجمل به ألا يلبى دعوتك إلى لقائه . »

فصاحت مريان : « دعوتى ! ٠

« هذا ما أخبرتنى به ابنتى ميدلتون، لأنه يبدو أن سير جون قابله فى مكان ما فى الشارع صباح اليوم ٠ »

فلم تقل مريان شيئاً ، ولكن بدا عليها أشد الألم. وحفز هذا الحادث إلينور إلى ضرورة القيام بعمل يخفف من آلام أختها ، فصممت أن تكتب لأمها صباح الغد ، وتثير فى نفسها المخاوف على صحة مريان ، فتحملها بذلك على استقصاء الخبر الذى كانت تتوق إلى معرفته من زمن طويل ، وزادها تصميما على ذلك الأمر أنها رأت مريان — عقب طعام الفطور فى الغد — تعاود الكتابة إلى ولبى ، لأنه لم يكن ثمة مجال للظن بأنها تكتب لأحد سواه . »

وفى منتصف ذلك اليوم خرجت مسزجننجز وحدها لبعض شأنها ، فأخذت إلينور فى كتابة الخطاب فى الحال ، على حين استبد القلق بمريان بحيث لم تقو على العمل أو الحديث ، بل أخذت تمشى من نافذة إلى أخرى ، أو تجلس بجانب المدفأة مستغرقة فى تأملاتها الحزينة . وقد اصطنعت إلينور لهجة الجد فى مخاطبة أمها فقصت عليها كل ما حدث ، وأفضت لها بما يساورها من الشك فى وفاء ولبى ، وناشدتها باسم الواجب والمحبة أن تطلب إلى مريان الإفصاح عن حقيقة علاقتها بولبى .

ولم تكد تنتهى من كتابة خطابها حتى سمعت طارقا يدق الباب ، وإذا به كولونيل براندون ، وكانت مريان قد رأته من النافذة ، فغادرت الحجرة قبل دخوله لأنها كانت تكره أن ترى أحدا كائنا من كان . وكان يبدو ساهم الوجه على غير عادته ، وجلس دون أن يتفوه بكلمة ، وإن أعرب عن ارتياحه لأنه وجد مس داشوود وحدها ، وكأنه يريد أن يسر لها بأمر خاص. وأيقنت إلينور أن لديه خبرا يتصل بأختها يريد الإفضاء به ، فأخذت تترقب فى شوق ولهفة أن يبدى به . ولم تكن هذه أول مرة شعرت فيها بمثل هذا اليقين لأنه حدث من قبل ــ أكثر من مرة ــ أن كان يبدأ حديثه قائلا : « إن أختك اليوم ليست على ما يرام » أو « يبدو أن أختك مكتئبة » ويبـدو أنه يوشك أن يفضى بنبأ أو يسأل عن أمر يتصل بها . وبعد صمت استمر عدة دقائق ، قطع الصمت وسألها بصوت يخالجه بعض الاضطراب متى يهنئها بأخ لها وفوجئت إلينور بهذا السؤال ، ولم تكن مستعدة للاجابة عنه ، فاضطرت أن تسلك المسلك العادى البسيط فى مثل هذا الموقف فسألته : ماذا يعنى ؟ فأجابها وهو يحاول الابتسام : « إن خطبة أختك لمستر ولبى أمر يعرفه الجميع . »

فردت إلينور : « لا يمكن أن يعرفه الجميع لأن أسرتها ذاتها لا تعرف هذا الخبر . »

فبدت عليه الدهشة وقال : « معذرة ! إنى أخشى أن يكون سؤالى مجافيا للأدب، ولكن لم يتبادر إلى ذهنى أن فى الأمر سرا ، لأنهما يتراسلان علانية وحديث زواجهما على طرف كل لسان . »

« أنى يكون ذلك ؟ ومن أنبأك هذا ؟ »

« كثيرون — بعضهم لا تعرفين عنه شيئا ، و بعضهم تعرفينه جيدا ، مسز جننجز ومسز بالمر وآل ميدلتون . ومع ذلك لم يسعنى أن أصدقه ، لأنه حيث لايميل الإنسان إلى تصديق شىء فإنه يلتمس دائما من الأسباب ما يؤكد شكوكه لولا أنى رأيت بطريق الصدفة فى يد الخادم ، وهو يفتح لى الباب اليوم خطابا بخط أختك معنونا باسم مستر ولبى . لقد جئت لأعرف الخبر ، ولكنى اقتنعت قبل أن أسأل . هل تم الاتفاق نهائيا على كل شىء ؟ هل من المستحيل أن ؟ ولكن ليس لى أى حق ، ولم يكن من الممكن أن تتاح لى الفرصة للنجاح . معذرة يامس داشوود! فإنى أعتقد أنى أخطأت لأنى أسرفت فى القول . ولكنى لا أدرى ماذا أصنع . وإنى أعتمد كل الاعتماد على حكمتك وفطنتك . قولى لى : إن الأمر قد تم البت فيه نهائيا ، وأنه لا فائدة ترجى من بذل أية محاولة ، وأن الرأى قد استقر على كتمان الأمر ، إن كان الكتمان ممكنا .

لقد تأثرت إلينور كثيرا بهذه الكلمات التى تضمنت اعترافا صريحا بحبه لأختها . ولم تستطع أن تجيبه على الفور . وحتى حينما استجمعت قواها أخذت تقلب فى ذهنها بعض الوقت أنسب جواب يمكن الرد به على سؤاله . وكانت لا تعرف كثيرا عن حقيقة الوضع القائم بين ولبى وأختها بحيث إذا حاولت أن توضحه له كان إيضاحها عرضة لأن يزيد على الحقيقة أو ينقص منها ومع ذلك كانت تعتقد أن محبة ماريان لولبى لا تدع مجالا للأمل فى نجاح كولونيل براندون مهما كانت نتيجة هذه المحبة ، وفى الوقت نفسه أرادت أن تحمى سلوك أختها من اللوم ، فرأت بعد إمعان النظر أن الحكمة والشفقة تقضيان بأن تقول أكثر مما تعرفه أو تعتقده ، فلذلك اعترفت بأنها لا تشك فى أنهما يتبادلان

الحب ولا تدهش لأنهما يتراسلان ، على الرغم من أنهما لم يخبراها بحقيقة العلاقة القائمة بينهما .

وأصغى إليها باهتمام مقرون بالصمت . وحينما انتهت من كلامها نهض من مقعده فى الحال وقال بصوت عاطفى : « أتمنى لأختك كل سعادة يمكن أن يتصورها العقل ، وأتمنى لولبى أن يسعى جاهدا لأن يكون جديرا بها » ثم استأذن وانصرف .

ولم يبعث هذا الحديث فى نفس إلينور شيئا من الارتياح ، ولم يخف مايساورها من قلق بشأن الأمور الأخرى ، بل — على العكس — جعلها تعتقد آسفة أن كولونيل براندون يشعر بلوعة الأسى ، ولم يكن فى وسعها أن تتمنى حتى إزالة هذه اللوعة ، وذلك لاهتمامها بنفس الأمر الذى من شأنه أن يزيد هذه اللوعة .

الفصل الثامن والعشرون

لم يحدث خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة التالية ما يدعو إلينور إلى الأسف على ما أقدمت عليه من الكتابة لأمها. ذلك أن ولبى لم يحضر ولم يكتب. وكانت هى وأختها على موعد مع ليدى ميدلتون لمرافقتها فى نهاية هذه المدة إلى إحدى الحفلات التى تخلفت عنها مسز جننجز، لتوعك صغرى بناتها. واستعدت مريان لهذه الحفلة دون أن يبدو عليها أى مظهر من مظاهر الأمل أو السرور، إذ كانت منقبضة الصدر، غير مهتمة بمظهرها، يستوى لديها الخروج أو البقاء فى منزل، وظلت جالسة بجانب المدفأة فى حجرة الاستقبال، بعد تناول الشاى، إلى أن وصلت ليدى ميدلتون، دون أن تتحرك من مقعدها قط أو تغير من جلستها، وهى مستغرقة فى أفكارها، غير شاعرة بوجود أختها، وحينما بلغها أخيرا أن ليدى ميدلتون تنتظرهما لدى الباب تنبهت، وكأنما نسيت أنها على موعد معها.

ووصلن فى الموعد المناسب إلى المكان المقصود. وما إن انصرفت «العربات» التى اصطفت أمامهن حتى نزلن من «العربة»، وصعدن فى الدرج، وسمعن أسماءهن تعلن من «بسطة» إلى أخرى بصوت مسموع، ودخلن حجرة تتلألأ فيها الأنوار، وتعج بالمدعوين ويشتد فيها الحر بدرجة لا تطاق، وبعد أن انحنين مسلمات على ربة الدار أذن لهن بالجلوس مع الحاضرين، ومشاركتهم فى حر المكان وضيقه وقد زاد حضورهن منهما بحكم الضرورة. وبعد أن قضين بعض الوقت فى كلام قليل، وعمل أقل، جلست ليدى ميدلتون إلى إحدى موائد «الكازينو»

ولم ترد مريان أن تتنقل فى الحجرة ، فجلست هى وإلينور بالقرب من المـائدة بعد أن أسعدها الحظ بالجلوس على بعض الـكراسى .

وإنهما لـكذلك وإذا بإلينور تلمح ولبى واقفا على مقربة منهما ، ومنهمكا فى الحديث مع إحدى الفتيات الأنيقات ، وسرعان ما التقت عينها بعينيه ، فانحنى لها من فوره ، ولـكن دون أن يحاول الـكلام معها ، أو يقترب من مريان ، وإن لم يسعه إلا أن يراها ، ثم واصل حديثه مع السيدة المذكورة . ولم تتمالك إلينور أن تلتفت إلى أختها لترى هل لم تلاحظ حديثه مع السيدة ، فبصرت به مريان فى تلك اللحظة لأول مرة ، فتألقت أسارير وجهها من الفرحة ، وهمت بالتوجه اليه فى الحال لولا أن أختها أمسكت بها .

وصاحت : « واطربا ! إنه هنا ـ إنه هنا ـ واعجبا ! ماله لا ينظر إلى ؟ لمـاذا لا أكلمه ؟ »

فصاحت إلينور : « أرجوك ، أرجوك أن تتذرعى بضبط النفس ، ولا تظهرى شعورك لكل واحد من الحاضرين ، فربما لم يلاحظ هو وجودك حتى الآن . »

ولـكن ذلك كان أكثر ممـا تستطيع مريان أن تعتقد ، ولم يكن ضبط النفس فى تلك اللحظة أمراً فوق طاقتها فحسب ، بل مخالفا لرغبتها كذلك ، فجلست على أحر من الجمر ، وارتسم ذلك على كل قسمات وجهها .

وأخيراً التفت حوله مرة ثانية ، ونظر إليهما ، فنهضت واقفة تناديه باسمه بصوت ينم عن الحب ، ومدت يدها إليه ، فاقترب منهما ، وأقبل على إلينور أكثر ممـا أقبل على مريان ، وكأنه يريد أن يتحاشى عينها ، وألا ينظر إليها ، واستفسر

بلهجة خاطفة عن مسز داشوود ، وسأل كم لبثتا فى لندن . فذهلت إلينور لهذه اللهجة ، ولم تحر جوابا ، أما أختها فقد بدا عليها الانفعال فى الحال ، وتضرج وجهها ، وصاحت بصوت ينم على أشد الغضب : « عجبا لك يا ولبى ! ما معنى هذا ؟ ألم تتسلم خطاباتى ؟ ألا تريد أن تصافحنى ؟ »

ولم يستطع حينئذ أن يتجنب مصافحتها ، ولكن بدا عليه الألم حين لمس يدها ، وأمسك بها هنيهة . وكان ظاهراً فى أثناء ذلك أنه يحاول أن يستجمع قواه . وراقبت إلينور ملامح وجهه ، فبدا عليها المزيد من الهدوء والطمأنينة .

وبعد أن أطرق هنيهة قال بهدوء :

تشرفت بزيارتكما فى بركلى ستريت يوم الثلاثاء الماضى ، وأسفت كثيرا لأن الحظ لم يسعدنى بلقائكما ولقاء مسز جننجز فى المنزل . وأرجو ألا تكون بطاقتى قد فقدت . »

وصاحت مريان بلهجة تعبر عن أشد القلق « ولكن ألم تتسلم خطاباتى ؟ أعتقد أنك ارتكبت بعض الخطأ — بل خطأ جسيما . ما معنى ذلك ؟ بربك يا ولبى حدثنى ما الخبر ؟ »

فلم يحر جوابا ، واربد محياه ، وعاد إليه كل ما بدا عليه من الارتباك . ولكن ما إن وقع بصره على الفتاة التى كان يحادثها ، حتى بدا وكأنه أحس بضرورة التظاهر بضبط النفس ، فاسترد قواه ، وبعد أن قال : « نعم ، سررت حين بلغنى نبأ قدومكما إلى لندن ، وهو النبأ الذى تكرمت فأبلغتنى إياه » انحنى انحناءة خفيفة ، وانصرف مسرعاً إلى صديقته .

وبدت مريان شاحبة الوجه ، عاجزة عن الوقوف ، فارتمت فى كرسيها ، وخشيت إلينور أن يغشى عليها فى أية لحظة ، فحالت بينها وبين رؤية غيرها ، وأخذت تنعش قواها بماء الخزامى .

وصاحت بمجرد أن استطاعت الكلام: «اذهبي إليه يا إلينور، وقولي له: لا بد أن أراه ثانية — وأن أتحدث إليه حالا — إنني لن أستريح — لن يهدأ لي بال لحظة واحدة حتى يوضح لي ذلك — أخشى أن يكون ثمة سوء تفاهم شديد — هيا اذهبي إليه في الحال.»

«أني يكون ذلك؟ كلا يا عزيزتي مريان، انتظري. ليس هذا مكان الإيضاح. انتظري إلى غد فقط.»

على أن إلينور استطاعت بصعوبة أن تمنع أختها من التوجه إليه بنفسها، وتعذر عليها إقناعها بأن تهدىء من ثورتها، وتنتظر متظاهرة بالتجلد على الأقل، حتى تتحدث معه على انفراد وبصورة مجدية، ذلك بأن مريان أخذت تبكي على حالها دون انقطاع، وتندب حظها بصوت خافت. ولم تلبث إلينور أن رأت ولبي وهو يغادر الحجرة متجها صوب الدرج، فأخبرت مريان أنه انصرف وأنه يستحيل عليها التحدث معه في ذلك المساء، وكان ذلك حجـــة جديدة تذرعت بها إلينور لتعيد إليها الهدوء والسكينة، فتوسلت مريان إلى أختها أن ترجو ليدي ميدلتون أن تعود معهما إلى المنزل، لأنها لا تستطيع الانتظار لحظة واحدة لما تشعر به من الألم.

ولما علمت ليدي ميدلتون أن مريان ليست على ما يرام، تلطفت فوافقت في الحال على إجابة رغبتها على الرغم من أنها وصلت إلى منتصف الشوط في لعبة الورق فسلمت الورق إلى صديقة لها، وانصرفت بمجرد أن جاءت «العربة». ولم تنبس إحداهما بكلمة أثناء عودتهما إلى بركلي ستريت. وكانت مريان تعاني سكرة الألم في صمت ويغالبها الأسى إلى حد يعز معه البكاء. ولحسن الحظ لم تعد معهما مسز

جننجز ، فاستطاعتا أن تدخلا حجرتهما فى الحال ، واستنشقت مريان بعض النشادر ، فانتعشت قليلا ، وسرعان ما خلعت ملابسها ، ورقدت فى فراشها . وبدت عليها الرغبة فى البقاء بمفردها ، فخرجت أختها من الحجرة وظلت تنتظر عودة مسز جننجز ، وأتاح لها هذا الانتظار من الوقت ما استطاعت فيه أن تفكر فى أحداث الماضى .

ولم تستطع أن تشك فى قيام نوع من الخطبة بين ولبى ومريان ، ولا أن تشك فى أن ولبى قد مل هذه الخطبة ، لأنها لم تستطع – على الرغم من تشبث مريان بأذيال الأمل — أن تعزو مثل هذا المسلك إلى حدوث خطأ أو سوء تفاهم أياً كان نوعه ، وأنه لا تفسير لهذا المسلك إلا أن عاطفته نحو مريان قد تغيرت . وربما ازدادت إلينور سخطاً عليه لو لم تلاحظ عليه من الارتباك ما دل على شعوره بسوء تصرفه ، كما منعها ذلك الارتباك أن تعتقد أنه بلغ من الخطة والدناءة بحيث يتلاعب بعواطف أختها دون مقصد شريف ، ورأت إلينور أنه يحتمل أن يكون غيابه عنها قد أضعف فيه عاطفة الحب ، وأن تكون المصلحة المادية حملته على نسيانه . ولكنها لم تشك أن هذا الحب كان قائماً من قبل .

وعند ما فكرت إلينور فيما سببه هذا اللقاء لمريان من الآلام ، وما يحتمل أن يترتب عليه من آلام أشد وأنكى ، لم يسعها إلا أن تشعر بأشد القلق . وعند ما قارنت نفسها بمريان رأت أنها أحسن منها حالا لأنها طالما قدرت إدوارد كما قدرته من قبل ظلت قريرة العين مهما افترقا فى المستقبل . ولكن جميع الظروف التى من شأنها أن تزيد من مرارة هذا الفراق الأليم تحالفت – فيما يبدو — لتزيد من شقاء مريان بالانفصال النهائى عن ولبى — انفصالا عاجلا لا رجعة فيه .

الفصل التاسع والعشرون

كانت مريان تنحنى — وهى فى نصف ثيابها — على إحـــدى قواعد النافذة لتستضىء بالنور الضئيل الذى ينفذ منها وتـكتب بالسرعة التى يسمح بها الدمع المتون المنهمر من مقلتيها ، وذلك قبل أن توقد الخادمة النار فى الغد ، وتسطع الشمس فتبدد بأشعتها البرد والظلام فى صباح يوم من أيام شهر يناير . وهبت إلينور من نومها على صوت بكائها واضطرابها ، فرأتها على تلك الحال وقالت بعد أن نظرت إليها بضع دقائق فى قلق وصمت بلهجة تفيض رقة وحناناً:

« مريان ! هل لى أن أسأل ؟ » —

فأجابت « كلا ! إلينور ، لا تسألى شيئاً ، وســـتعرفين كل شىء بعد هنيهة . »

ولم يدم الهدوء اليائس الذى قالت به هذه الـكلمات أكثر من الفترة التى تـكلمت فيها ثم عادت فى الحال إلى ما كانت عليه من البكاء والأسى . ومضت بعض الدقائق قبل أن يتسنى لها الاستمرار فى كتابة الخطاب ، وكانت العبرات التى تعبر عما يخالجها من الأسى — فتضطرها أحياناً إلى الإمساك عن الـكتابة — دليلا كافياً يؤيد ما شعرت به إلينور من أنها تـكتب فى الغالب إلى ولبى للمرة الأخيرة .

وأحاطتها إلينور بما وسعها من ضروب الرعايه والاهتمام فى هدوء و بدون تطفل ، ولولا أن مريان توسلت إليها بحدة وهى فى أشد حالات الغضب ألا تـكلمها بأى حال من الأحوال ، لبذلت المزيد من الجهــد لتهدئة أعصابها

والتخفيف من آلامها . وإزاء ذلك كان من الخير لـكل منهما أن تبتعد عن الأخرى . وكانت حالة القلق التى تشعر بها مريان لاتسمح لحسب ببقائها لحظة واحدة فى الحجرة بعد أن لبست ثيابها، بل كانت تتطلب أيضا العزلة والتنقل المستمر معا . لذلك أخذت تتجول حول المنزل حتى حان موعد الفطور ، متحاشية أن ترى أى إنسان .

ولما حان موعد الفطور لم تأ كل ولم تحاول أن تأ كل شيئاً، وأخذت إلينور توجه كل همها لا لحلها على الطعام ولا الرثاء لحالها ، ولا التظاهر بحبها ، ولـكن لصرف أنظار مسز جننجز إليها هى .

وقد استمر الفطور بعد الوقت لأنه كان الوجبة المحببة إلى مسز جننجز . وبعد أن فرغن منه ، جلسن حول مائدة الشغل ، وإذا بالخادم يأتى بخطاب لمريان فأخذته بقوة، ثم اربد وجهها، وجرت من الحجرة فى الحال . وفهمت إلينور من ذلك بوضوح كما لو كانت قرأت العنوان ، أنه من ولبى ، فشعرت باشمئزاز شديد لم تستطع معه أن ترفع رأسها، وسرت فى أوصالها رجفة خشيت أن تـكون مسز جننجز قد لاحظتها ، ولـكن هذه السيدة لم تلحظ إلاأن مريان تسلمت خطابا من ولبى ورأت فيه مجرد نـكتة طيبة، فلم تأخذ الأمر مأخذ الجد إذ أعربت عن أملها، وهى تضحك ، أن ترى فيه مريان مايسرها . أما ما اعترى إلينور من هم وكرب. فإن مسز جننجز كانت منهمكة فى قياس خيوط الصوف اللازم لسجادتها بحيث لم تلاحظ شيئا على الإطلاق ، بل واصلت حديثها فى هدوء فقالت بعد خروج مريان :

« صدقينى أننى لم أر فى حياتى فتاة تهيم حبا كما تفعل مريان ! إن بناتى لم

يكن شيئا بالنسبة لها ، وكن مع ذلك فى غاية الغباء . أما مس مريان فهى تختلف عن ذلك تماما . إننى أرجو من صميم فؤادى ألا يضطرها إلى الانتظار طويلا لأنه من المحزن أن يراها الإنسان ، وقد بدت عليها أمارات اليأس والمرض . ليت شعرى متى يتزوجان ؟ »

واضطرت إلينور إلى الإجابة عن هذا السؤال على الرغم من أنها كانت أشد ماتكون عزوفاً عن الكلام فى ذلك الوقت . ولذلك تكلفت الابتسام فقالت : « هل تعتقدين أن أختى مخطوبة لولبى ؟ لقد كنت أعتقد أن الأمر مجرد نكتة ، ولكن يبدو لى أن سؤالا كهذا يدل على أنه أكثر من نكتة . ولذلك أرجو أن تكونى على بينة من الأمر بعد اليوم . إننى أؤكد لك أنه لاشىء يدهشنى أكثر من أن أسمع أنهما سيتزوجان . »

« واخجلتاه ، واخجلتاه مس داشوود ! كيف تقولين ذلك ! ألسنا جميعا نعلم أنهما لابد أن يتزوجا وأنهما غارقان فى الحب إلى آذانهما منذ أول لحظة التقيا فيها ؟ ألم أرهما فى ديفو نشاير كل يوم وطول اليوم ؟ أولم أعلم أن أختك جاءت إلى لندن بقصد شراء ملابس الزفاف ؟ دعى عنك ذا ، فإنه لاينطلى على . ألأنك تجيدين أساليب المكر والخداع تظنين أن الناس ليست لهم عقول يفقهون بها ؟ ولكن فى وسعى أن أقول لك : إن الأمر ليس كما تقولين لأن الخبر قد شاع وذاع فى جميع أنحاء لندن منذ بعيد ، وأنا أحدث به كل إنسان ، وكذلك تفعل شارلوت . »

فقالت إلينور بلهجة الجد : « الحق ياسيدتى أنك مخطئة . والواقع أنك تعملين عملا غير كريم حين تنشرين هذه الشائعة ، وستعرفين أنك كنت مخطئة ، وإن كنت لاتصدقيننى الآن . »

فضحكت مسز جننجز ثانية ، ولـكن إلينور لم ترغب في المزيد من الحديث ، وكانت تتوق على كل حال لأن تعرف ما كتبه ولبي فأسرعت إلى حجرتها ، وما إن فتحت الباب حتى وجدت مريان مستلقية على الفراش تكاد تخنقها العبرات ، وبإحدى يديها خطاب وبجانبها خطابان أو ثلاثة . فاقتربت منها إلينور ، ولـكن دون أن تتفوه بكلمة ، أو جلست على الفراش وأخذت يدها فقبلتها بحنان عدة مرات ثم أجهشت بالبكاء ، وكان بكاؤها لايقل في البداية عن بكاء مريان ، وشعرت هذه — وان لم تقو على الكلام — بما ينطوي عليه هذا المسلك من حب وحنان ثم ألقت - بعد أن ظلتا تبكيان فترة من الوقت — بجميع الخطابات في يد إلينور ، وغطت وجهها بالمنديل وأجهشت بالبكاء . ورأت إلينور أن تترك أختها تنفس عن نفسها بالبكاء ، و إن أقلقها هذا المنظر ، وجلست بجانبها تواسيها حتى يزول مابها من لوعة الألم ، ثم أقبلت باهتمام على خطاب ولبي فقرأت فيه مايلي :

بوند ستريت ، يناير .

سيدتي العزيزة .

تشرفت الآن بتلقي خطابك ، وأرجو أن تسمحي لي بأن أزجي لك خالص شكري . وإني لأشعر بقلق بالغ إذا كان قد بدر مني في الليلة الماضية ماساءك ، وإني و إن كنت في حيرة لأني لا أدري ما ساءك لسوء الحظ لأرجو أن تسحبي ذيل العفو على مابدر مني ، وأؤكد لك أنني فعلته على غير قصد مني . ولن أذكر ما نشأ بيني و بين أسرتك من مودة في ديفو نشاير دون أن أشعر بأعظم آيات السرور والارتياح ، وأملي ألا تنفصم عرى هذه المودة ، لخطأ وقع مني ، أو سوء فهم لمسلكي . إنني أقدر سائر أفراد أسرتك تقديراً صادقا ، ولـكن إذا

كان سوء الحظ قد شاء أن يؤدى هذا التقدير إلى اعتقادكن شيئاً أكبر مما أشعر به أو مما أردت التعبير عنه ، فانى أنحى على نفسى باللائمة لعدم تحفظى فى الإعراب عن ذلك التقدير ، وأنت تعلمين أنه من المستحيل أن أقصد بهذا التقدير أكثر مما يحتمله ،إذا عرفت أن لى هوى مع امرأة أخرى منذ زمن طويل، وأعتقد أنه لن تمضى عدة أسابيع قبل أن تتم الخطبة . وانى لآسف أشد الأسف حين ألبى طلبك برد الخطابات التى تفضلت بإرسالها إلى ، وخصلة الشعر التى تكرمت بها على .

وإنى لازلت ياسيدتى العزيزة .

خادمكم المطيع الخاضع

جون ولبى

وفى وسع القارىء أن يتصور مدى السخط الذى تشعر به مسز داشوود عندما تقرأ مثل هذا الخطاب . ومع أنها كانت تشعر قبل قراءته أنه لابد أن يتضمن اعترافاً بعدم وفائه ، ويؤكد فراقه لأختها إلى الأبد ، فإنها لم تشعر أن يعلن هذا الفراق بمثل هذه اللغة ! ولا كانت تظن أن ولبى يستطيع أن يتجرد من كل مظهر من مظاهر الشرف ورقة الشعور ، أن يتجرد من الأدب الذى يتحلى به الإنسان المهذب ، فيرسل خطاباً بمثل هـذه القسوة والوقاحة ، خطاباً لايعترف فيه بأنه نكث العهد ، بل ينكر أنه كان يحبها أية محبة خاصة بدلا من أن يقرن فيه رغبته فى الفراق بعبارات الأسف ، خطاباً كل سطر فيه يعد ضربا من الإهانة ، وينطق بأن صاحبه تردى فى هوة النذالة .

وقلبت النظر فيه بعض الوقت بشىء من السخط والدهشة ، ثم قرأته مراراً وتكراراً ، وكلما قرأته ازدادت مقتا لـكاتبه ، وبلغ من سخطها عليه أنها لم تستطع

الكلام خشية أن تجرح شعور مريان جرحا أشد عمقا إذا فسرت لها فسخ الخطبة لا على أنها خسارة حلت بها ، ولكن على أنها منجاة من أسوأ الشرور التى لاعلاج لها ، وهو الاقتران مدى الحياة برجل لاخلاق له ، منجاة لاريب فيها ونعمة لاتعادلها نعمة .

ونسيت إلينور آلام أختها الراهنة فى غمرة تأملاتها فى الخطاب ، وفى النفسية المنحطة التى أملت كلماته ، وربما فى النفسية المختلفة جـدا لشخص مختلف جدا لاصلة له بالأمر إطلاقا سوى صلته بكل ماحدث ، وهى الصلة التى أحس بها قلبها ، كما نسيت أن هناك ثلاثة خطابات فى حجرها لم تقرأها بعد ، بل لقد نسيت تماما كم لبثت فى الحجرة حتى لقد أسرعت إلى النافذة ـ عندما سمعت صوت عربة تقف بالباب ـ لترى من ذا الذى قدم فى هـذه الساعة المبكرة ، ولشد ما دهشت عندما رأت عربة مسز جننجز ، التى كانت تعلم أنها لم تطلبها إلا فى الساعة الواحدة . وقررت إلينور ألا تترك أختها ، وإن لم يكن ثمة أمل فى أن يساعد وجودها على التخفيف عنها فى الوقت الحاضر ، فأسرعت لتعتذر بتوعك صحتها عن مرافقة مسز جننجز ، فقبلت مسز جننجز العذر دون تردد حرصا منها على راحة مريان ، وودعتها إلينور ، ثم عادت إلى أختها فوجدتها تحاول النهوض من الفراش ، ومدت إلينور يدها فى الوقت المناسب لتحول بينها و بين السقوط على الأرض ، وكانت فى حالة إعياء ودوار بسبب الحرمان الطويل من الطعام والراحة ، إذ مضى عليها عدة أيام لم تجد فيها شهوة الطعام ، وعدة ليال لم تذق فيها طعم المنام . وكانت نتيجة ذلك كله بعد أن تكشفت عنها حمى الانتظار أن شعرت بصداع فى رأسها ، وضعف فى معدتها ، و إعياء عام فى أعصابها . أخيراً ، شعرت بالراحة ، واستطاعت أن تعبر عن بعض إحساسها بما أبدته أختها نحوها من بر وعطف فقالت :

« وارحمتاه لك يا إلينور ! كم أتعبتك ! »

فأجابت أختها : « كل ما أتمناه أن أوفق للقيام بعمل يرفه عنك » .

وكان هـذا ، كأى شىء آخر أكثر مما تحتمله مريان ، فلم يسعها إلا أن تصيح ، وهى تشعر بلوعة الأسى :

« آه إلينور ! إنى شقية حقا » وذلك قبل أن يختنق صوتها بالعبرات .

ولم تستطع إلينور أن تشاهد فى صمت هذا السيل المنهمر من العبرات .

فقالت : « تجلدى يا عزيزتى مريان إذا أردت ألا تقتلى نفسك ، وكل من يحبك . فكرى فى أمك ؛ فكرى فيما تشعر به من الألم حينما تراك تتألمين . يجب أن تتجلدى من أجلها . »

فصاحت مريان : « لا أستطيع ، لا أستطيع . دعينى ، دعينى إذا ما كنت أضايقك ، دعينى ، دعينى ، وانسينى ! ولكن لا تعذبينى كذلك . آه ! ما أيسر الحديث عن التجلد على من خلا قلبه من الأسى . إلينور ، السعيدة ، السعيدة ، أنت لا تستطعين أن تتصورى كم أعانى من الألم . »

« أتسميننى سعيدة يا مريان ! آه ! لو عرفت الحقيقة ! — وهل تعتقدين أنى أكون سعيدة ، وأنا أراك فى هذه الحال الأليمة ! »

فطوقت جيد أختها بذراعيها وقالت : « سامحينى ! سامحينى ! أنا أعرف أنك تتألمين الحالى . أنا أعرف أى قلب تحملينه بين الجوانح . ومع ذلك فأنت — لا بد أن تكونى سعيدة ؛ إدوارد يحبك — عجبا ! أى شىء يمكن أن يحطم هذه السعادة ! »

فقالت إلينور فى لهجة الجد : « كثير ، كثير من الظروف . »

فصاحت مريان بعنف « كلا كلا كلا ! إنه يحبك ولايحب إلا إياك ! ليس في وسعك أن تشعرى بالأسى . »

« لا يمكن أن أشعر بالسرور طالما أراك على هذه الحال . »

« ولن ترينى على غير هذه الحال . إن ما أكابده من الشقاء، ليس له دواء . »

لا تقولى ذلك يامريان . أليس لديك كثير من أسباب العزاء ؟ أليس لك أصدقاء ؟ هل مصابك يعز على السلوان ؟ مهما قاسيت الآن ففكرى فيما كنت تقاسينه لو اكتشفت حقيقة أخلاقه فيما بعد — لو أن خطبتك طالت شهوراً وشهوراً قبل أن يريد إنهاءها ، وهو أمر كان يحتمل أن يحدث . لاشك أن كل يوم يمر وأنت تثقين فيه هذه الثقة التعسة كان يمكن أن يجعل الضربة أشد إيلاما . »

فصاحت مريان « خطبة ! لم تكن ثمة خطبة . »

« لاخطبة ! »

« كلا ! ليس هو نذلا كما تعتقدين ، فهو لم يخن قط . »

« ولكنه قال لك : إنه يحبك ؟ » —

« نعم — لا — لم يصرح بذلك قط . كان يقوله كل يوم ضمنا لا صراحة . وكنت أظن أحيانا أنه صرح لى بحبه — ولكن ذلك لم يحدث قط . »

« ولكنك كتبت إليه ؟ »

« نعم — وهل يمكن أن يعد ذلك إثما بعد كل الذى جرى ؟ — ولكن لا أستطيع أن أتكلم . »

وسكتت إلينور عن الكلام ، ثم انتقلت إلى الخطابات الثلاثة التى أثارت

فيها حب الاستطلاع بصورة أشد وتصفحتها جميعا . وكان أولها الخطاب الذى أرسلته إليه عند وصولها إلى لندن ونصه كما يلى :

بركلى ستريت ، يناير

لشد ما تدهش ياولى عندما تتسلم هذا الخطاب . أعتقدأنكستدهش كثيراً إذا عرفت أنى فى لندن ، فقد سنحت لى فرصة الحضور إلى لنـدن ، وإن كان ذلك بصحبة مسز جننجز ، ولـكن هذه الفرصة كان فيها من الإغراء مالايقاوم. أرجو أن يصلك خطابى هذا فى الوقت المناسب حتى يتسنى لك الحضور هنا فى المساء . ولـكن لن أعول على ذلك. على كل حال سأنتظرك غدا ،وداعاً إلى حين.

م . د .

وكان خطابها الثانى الذى كتبته غداة الحفلة الراقصة التى أقيمت فى بيت آ ل ميدلتون كما يلى :

« لا أستطيع أن أعبر لك عما أشعر به من خيبة الأمل لأنه فاتنى لقـاؤك أول أمس ، ولا عن دهشتى لأنى لم أتلق رداً على الخطاب الذى أرسلته إليك منذ أ كثر من أسبوع . لقد كنت أنتظر منك رداً بـل أن أراك أيضا فى كل ساعة من ساعات النهار . أرجو أن تزورنى فى أقـرب وقت ممـكن وتفسر لى السبب فى اضطرارى إلى كل هذا الانتظار الطويل دون جدوى . يحسن بك أن تحضر مبكراً مرة أخرى لأننا نخرج عادة من المنزل فى الساعة الواحـدة . وقد قضينا الليلة البارحة عند آ ل ميدلتون حيث شهدناحفلةرقص، وبلغنى أنك دعيت للحفلة . ولـكن أيمـكن أن يـكون الأمر كذلك ؟ لابد أنك تغيرت عن عهدك منذ افترقنا إذ دعيت للحفلة ولم تشهدها . ولـكن لن أفترض أنهذا ممـكن . أرجو أن أتلقى منك قريبا مايؤكد لى أن الأمر على خلاف ذلك.

م . د

وكان مضمون خطابها التالى كما يلى :

ماذا أقول ياولبى فى تصرفك فى الليلة الماضية ؟ مرة أخرى أطالبك بتفسير لهذا التصرف . لقد تقدمت للقائك وأنا أشعر بالفرحة التى يشعر بهـا الإنسان عادة بعد الفراق ، وبالبشاشة التى يقتضيها ما نشأ بيننا من مودة فى بارتون : لقد رفضت لقائى حقاً ! وقضيتُ ليلة تعسة أحاول فيها جاهدة أن ألتمس لك العذر فى تصرف، لايمكن أن أسميه بأقل من أنه إهانة . ومع أنى لم أوفق حتى الآن فى التماس عذر معقول عن هذا التصرف فإننى على أتم استعداد لأن أسمع منك تبريراً له . ربما سعى الواشون بينى وبينك ، أو أبلغوك عنى أمراً أنزلنى من عينك خبرنى ماهو ، وبين لى الأسباب التى حملتك على هذا التصرف، وسأشعر بارتياح حينما أستطيع أن أقنعك : إنه ليحزننى حقا أن اضطر الى إساءة الظن بك، ولكن إذا لم يكن من ذلك بد ، إذا لم يكن بد من أن أعرف أنك غير ما كنت أعهد فيك حتى الآن ، وأن محبتك لى كانت ضربا من النفاق ، وأن مسلكك نحوى كان ضربا من الخداع ، فـدعنى أعرف ذلك بأسرع ما يمكن . إنى لـفى شك مريب . وإنى أود أن أبرئك . ولـكن قطع الشك باليقين سواء أكان الأمر هذا أم ذاك ، هو السبيل الوحيدة لتخفيف ما أعانيه وإذا كنت قد تغيرت عن عهدك فأرجو أن ترد لى خطاباتى ، وخصلة الشعر التى أخذتها منى .

م . د

لم تـكن إلينور تميل إلى الاعتقاد أنه كان فى وسع ولبى أن يرد على هـذه الخطابات بمثل ماتتضمنه من المحبة والثقة . ولـكن سخطها على ولبى لم يمنعها من لوم مريان على إرسال هذه الخطابات . وبينما كانت تشعر بالأسى — فى صمت — للحماقة التى دفعت أختها لـكتابة هذه الخطابات التى تعرب فيها عن حبهادون

داع ، أو مبرر سابق ، والتي برهنت الحوادث على أنها كانت أمراً منكراً ، إذا بمريان تقول لها : إنها لاتتضمن أ كثر مما يقوله أي إنسان في مثل موقفها .

وأضافت : « لقد كنت أشعر أنني مرتبطة به كما لو كنا مرتبطين بأغلظ المواثيق الشرعية . »

فقالت إلينور : « إنني أصدقك. ولكن لسوء الحظ لم يشعر هو بمثل شعورك. »

« كان يشعر بمثل ذلك ياإلينور — كان يشعر به أسابيع وأسابيع . أنا أعرف ذلك . ومهما تكن الأسباب التي حملته الآن على التغير (ولا شيء يمكن أن يفعل ذلك سوى الفن الأسود الذي استخدم ضدي) فقد كان يحبني فيما مضى كل ما يتمناه فؤادي من الحب . وهذه الخصلة من الشعر التي يتخلى عنها الآن بسهولة التمسها هو مني بكل إلحاح .لوأنك شاهدت منظره وحاله ، لوأنك سمعت صوته في تلك اللحظة ! هل نسيت آخر ليلة اجتمعنا فيها ببارتون ؟ وصباح اليوم الذي افترقنا فيه أيضا ؟ وحينما قال لي : إنه قد تمضي عدة أسابيع قبل أن نلتقي مرة أخرى — حزنه — هل في وسعي أن أنسى قط ما اعتراه من الحزن ! »

وسكتت عن الكلام لحظة أو لحظتين ثم أضافت بلهجة أ كثر حزنا بعد أن هدأت هذه العاطفة :

« إلينور ! لقد عوملت معاملة سيئة ، ولكن لا من ولبي . »

« عزيزتي مريان ! من أساء إليك غيره ؟ ومن حرضه على ذلك ؟ »

« كل الناس هم الذين حرضوه لا قلبه . إنني أميل إلى الاعتقاد أن جميع معارفي تواطأن على الوشاية بي عنده ، مني إلى الاعتقاد بأنه طبع على هذه القسوة

هذه المرأة التى أشار إليها فى خطابه — أيا ما كانت — أو بالاختصار أى شخص ما عداك وما عدا ماما و إدوارد ، يحتمل أن تبلغ بها أو به القسوة إلى حد الوشاية بى عنده . وفيما عدا ثلاثتكم هل من أحد فى العالم لا أسىء به الظن إلا ولى الذى أعرف قلبه حق المعرفة ؟ »

ولم تخالفها إلينور ، واكتفت بأن أجابت : « مهما يكن عدوك الممقوت ، فإنه يجب عليك — يا أختى العزيزة — أن تفوتى عليه فرصة الشماتة ، بأن تظهرى الثقة ببراءتك وحسن سيرتك ، ولا شك أن التظاهر بشىء من الكبرياء المحمود مما يكبت الحقود . »

فصاحت مريان : « كلا كلا ! إن ما بى من الشقاء يمنعنى من التظاهر بالكبرياء وأنا لا أبالى من يعرف تعاستى، وليشمت بى من يشاء . إلينور إلينور ! إن الذين يكابدون القليل من الهموم هم الذين يستطيعون أن يتظاهروا بالكبرياء والاعتداد بالنفس كما يشاءون — هم الذين يستطيعون أن يقاوموا الإهانة و يردوا المهانة — ولكن لا أستطيع . يجب أن أشعر بآلامى — يجب أن أكون تعسة — ولهم أن يفرحوا ما استطاعوا . »

« ولكن من أجل أمى وأجلى . »

إننى أضحى من أجلكما بأكثر مما أضحى من أجل نفسى . ولكن أن أتظاهر بالسعادة وأنا شقية — آه ! من ذا الذى يستطيع أن يطالبنى بذلك ؟ »

ثم لاذتا بالصمت مرة أخرى . وأخذت إلينور تمشى وهى مستغرقة فى أفكارها من المدفأة إلى النافذة، ومن النافذة إلى المدفأة، دون أن تحس بالدفء من الأولى ، أوتشاهد بعض المناظر من الأخرى . وجلست مريان أسفل الفراش

متكئة برأسها على أحد أعمدته ثم تناولت خطاب ولبى مرة أخرى ، وصارت تقول بعد أن تبدى اشمئزازها لكل جملة :

« هذا كثير جدا ! آه ولبى ، ولبى . أيمكن أن يكون هذا خطابك ! قاس قاس — ما إلى براءتك من سبيل . إلينور ، ما إلى براءته من سبيل — وإذا كان أحد أبلغه نبأ عنى ، أما كان الأجدر به أن يتثبت منه قبل أن يصدقه ؟ أما كان الأجدر به أن يرجع إلى ، وأن يتيح لى الفرصة لأبرئ نفسى ؟ « وخصلة الشعر » (تكررها من الخطاب) « التى تكرمت بها على » — هذا ذنب لا يغتفر . ولبى ! أين كان قلبك حين كتبت هذه الكلمات ؟ آه ! ما أقساها وما أوقحها ! إلينور ! أيمكن التماس العذر له ؟ »

« كلا ! مريان ، لا يمكن إطلاقا . »

ومع ذلك فهذه المرأة — ومن يدرى ما صناعتها — كم لبثت تدبر هذه المكيدة وكيف دبرتها بإتقان ! من هى — ومن عساها تكون ؟ — التى سمعته يصفها بالشباب والجاذبية بين معارفه من النساء ؟ آه لا أحد ، لا أحد — لم يكن يحدثنى إلا عن نفسى . »

وأعقب ذلك الصمت ، ثم اعترى مريان اضطراب شديد ، وأنهت حديثها قائلة :

« إلينور ! لا بد أن أعود إلى بيتى . لا بد أن أذهب وأسرى عن ماما . ألا يمكن أن نسافر غداً ؟ »

« غداً ، يا مريان ! »

« نعم ، لماذا أبقى هنا ؟ لقد جئت هنا من أجل ولبى وحده — والآن من يهتم بى ؟ من يحبنى ؟ »

« من المستحيل أن نسافر غداً . إننا ندين لمسز جننجز بأ كثر مما تقضى به المجاملة . وأدنى ضروب المجاملة ألا نتعجل السفر على هذا النحو . »

« إذن فليكن بعد يوم أو يومين ، ولكن لا أستطيع أن أمكث هنا طويلا ، لا أستطيع أن أمكث هنا لأتلقى أسئلة هؤلاء الناس جميعا وملاحظاتهم: آل ميدلتون وآل بالمر — كيف أطيق رثاءهم لحالى : رثاء امرأة مثل ليدى ميدلتون آه ! ماذا يقول هو فى ذلك ! »

ونصحت لها إلينور أن ترقد مرة أخرى ، فرقدت لحظة ولكنها لم تشعر بالراحة على أية هيئة رقدت ، فصارت تتقلب مما اعتراها من الآلام الجسمية والنفسية ، وازدادت حالتها العصبية اضطرابا حتى لقيت إلينور عناء كبيراً فى حملها على الرقاد ، وخشيت أن يضطرها الأمر إلى طلب المساعدة ، ولكنها استطاعت أن تعطيها بعض قطرات من ماء اللاوندا فهدأت أعصابها ، وظلت ترقد فى الفراش منذ ذلك الوقت هادئة ساكنة الى أن عادت مسز جننجز .

الفصل الثلاثون

توجهت مسز جننجز إلى حجرتها بمجرد عودتها ، وفتحت الباب دون أن تنتظر الإذن بالدخول ، ودخلت وقد ارتسمت على وجهها أماراتَ القلق البالغ .

وقالت فى صوت ملىء بالرحمة والحنان لمريان التى أشاحت بوجهها دون أن تحاول الإجابة :

« كيف حالك يا عزيزتى ؟ »

« كيف حالها مس داشوود ؟ وارحمتاه لها ! إنها تبدو فى حالة سيئة — ولا عجب ، فالخبر صحيح ، سيتزوج قريبا جدا — إنه رجل تافه لا يصلح لشىء . أنا لا أطيق أن أراه . لقد أخبرتنى بذلك مسز تيلور منذ نصف ساعة ، وبلغها الخبر من إحدى صديقات مس جراى نفسها ، وإلا لما صدقته ، وكدت أهوى إلى الأرض عند ما سمعته ، وقلت : قصارى ما أقوله إذا صح هذا الخبر أنه أساء إلى فتاة من معارفى إساءة ممقوتة ، وأتمنى بكل جوارحى أن تعكر عليه زوجته صفو حياته وثقى أننى سأقول ذلك دائما . لم أر فى حياتى رجالا يتصرفون كذلك وإذا أتيح لى أن أقابله يوما ما فسأوجه إليه من اللوم ما لم يسمعه منذ كثير من الأيام . ولكن لك فى هذا عزاء يا عزيزتى مريان ، وهو أنه ليس الشاب الوحيد فى الحياة الجدير بك ، وأنت بما أوتيت من الجمال لن تعدمى كثيراً من المعجبين . وارحمتاه لها ! لا أريد أن أزعجها أكثر من ذلك لأنه يحسن بها أن تسكب دموعها مرة واحدة ، ثم تنتهى . ولحسن الحظ سيزورنا الليلة آل بارى وآل ساندرسون كما تعلمين وسيكون فى وجودهما ما يرفه عنها .

ثم انصرفت وخرجت من الحجرة على أطراف أصابعها ، وكأنها تخشى أن يزيد وقع أقدامها من آلام صديقتها الصغيرة .

ولشد مادهشت إلينور عندما قررت مريان أن تتناول معهما طعام الغداء ، ونصحتها إلينور نفسها ألا تتكلف نفسها هذا العناء ولكنها أبت ، وأصرت على النزول من حجرتها ، وقالت: إنها تتجلد ، فيقل اللغط حول ذلك الأمر . ولم تقل إلينور شيئاً لأنه سرها أن تتجلد مؤقتا لهذا السبب ، وإن لم تعتقد أنه فى وسعها أن تستمر فى الغداء حتى النهاية . وساعدتها إلينور فى ارتداء ملابسها وهى راقدة فى فراشها ثم رافقتها فى الذهاب إلى حجرة الطعام حينما دُعِيَتَا إليها .

ولما جلست إلى المائدة تناولت من الطعام وأظهرت من الهدوء أكثر مما توقعته أختها ، وإن بدت على وجهها أمارات الأسى . ولو أنها حاولت أن تتكلم أو شعرت بنصف ماأبدته مسز جننجز نحوها من ضروب الرعاية الصادرة بحسن نية وإن اقترنت بالحماقة ، لما استطاعت أن تحتفظ بهذا الهدوء ، ولكنها كانت شاردة الذهن ، فما نبست ببنت شفة ولا أحست بما يجرى حولها .

وقدرت إلينور ماأبدته مسز جننجز من عطف وبر نحو أختها، وإن كانت مظاهره تثير الألم فى أغلب الأحيان ، كما تثير الضحك فى بعض الأحيان . وكانت إلينور تقدم لها الشكر ، وترد لها المجاملات التى لاتستطيع أختها أن تردها بنفسها ، فقد رأت صديقتهما الطيبة أن مريان حزينة ، وشعرت أنه يجب عمل كل مامن شأنه أن يخفف من حزنها ، فأبدت لها من مظاهر الحب والتدليل ماتبديه الأم نحو طفلتها المحبوبة فى آخر يوم من إجازتها ، فخصتها بأحب مكان جانب المدفأة ، وأتحفتها بأطيب الأطعمة فى المنزل ، وحكت لها جميع أخبار اليوم لتدخل عليها

السرور . ولو أن إليفور لم تأنس فى وجه أختها عزوفاً عن اللهو والتسلية ، لما وسعها إلا أن تضحك من المحاولات التى بذلتها مسز جننجز لتُنْسِىَ أختَها مرارة الخيبة فى الحب ، وذلك بتقديم أنواع الحلوى والزيتون وتوفير التدفئة الطيبة . على أن مريان لم تطق البقاء طويلاً بعدما رأت من تكرار هذه المحاولات ، فنهضت فى الحال ، وأسرعت بالخروج من الحجرة ، وهى تتأفف وتشير إلى أختها ألا تتبعها .

فصاحت مسز جننجز بمجرد أن خرجت: « مسكينة ! ما أشد ما أشعر به من الأسى عندما أراها ! لو لم تخرج دون أن تشرب الكأس ! والكرز المجفف أيضاً ! رباه ! يبدو أنها لاتحب شيئاً . لو أنى أعرف شيئاً تحبه ، لبحثت عنه فى جميع أنحاء لندن . حقاً إن أغرب شىء رأيته أن يسىء إنسان إلى هذه الفتاة الجميلة مثل هذه الإساءة ! ولكن إذا وجدت فتاة تملك ثروة طائلة ، وفتاة لاتكاد تملك شيئاً فإن الرجال — رحماك اللهم ! — لايبالون بمثل هذه الأعمال ! »

« السيدة إذن — أظن أنك قلت إن اسمها مسز جراى — ذات ثروة طائلة ؟ »

« خمسون ألفاً من الجنيهات ياعزيزتى . هل رأيتها قط ؟ يقولون : إنها فتاة رشيقة أنيقة ، ولكنها ليست وسيمة . أنا أذكر جيداً عمتها بيدى هنشو ، فقد تزوجت رجلاً ذا ثروة طائلة ، ولكن أفراد الأسرة جميعاً من الأثرياء . خمسون ألفاً من الجنيهات ! ويجمع الكل على أن الدافع لهذا الزواج هو الحاجة لأنهم يقولون : إنه قد أفلس . ولا عجب ! فإنه يغدو ويروح بعربته وصياديه ! على أنه

لامعنى للحديث فى ذلك . بيد أنه حينما يأتى فتىً ، كائنا من كان ، ويغازل فتاة جميلة ويمنيها بالزواج فليس من حقه أن يتنصل من وعده ، لالسبب إلا أنه أضحى فقيراً ، ووجد فتاةً أغنى منها تبدى استعدادها للزواج منه . لماذا لايبيع فى هذه الحالة جياده ، ويؤجر بيته ، ويستغنى عن خدمه ، و يصلح من شأنه على الفور ؟ أؤكد لك أن مس مريان كانت تبدى استعدادها للانتظار حتى تصلح أحواله . ولـكن ذلك لا يجدى فى هذه الأيام لأن شباب العصر لايمكن أن يتخلى عن أىّ شىء يجلب له السرور واللذة .

« أتعرفين شيئاً عن أخلاق مس جراى ؟ أهى فتاة لطيفة ؟ »

« لم أسمع عنها أى سوء . والواقع أننى لم أسمع أحدا يذكرها فيما عدا مسز تيلور التى قالت هذا الصباح: إن مس ووكر أشارت ذات يوم فقالت: إنها تعتقد أن مستر ومسز إليسون لن يأسفا على زواج مس جراى ، لأنها هى ومسز إليسون لايتفقان أبدا . »

« ومن هما مستر ومسز إليسون ؟ »

« هما وليا أمرها ياعزيزتى . ولـكنها بلغت الآن سن الرشد ، ومن حقها أن تختار زوجها ونعم مااختارته ! — ثم سكتت هنيهة ، وقالت : « أخشى أن تـكون أختك قد ذهبت إلى حجرتها لتبـكى على حالها . هل من سبيل إلى مواساتها ؟ وارحمتاه لها! إنه لمن القسوة أن نتركها وحدها. ولـكن بعض الأصدقاء سيزوروننا بعد قليل ، وسيكون فى ذلك بعض التسلية لها . ماذا سنلعب ؟ أنا

أعرف أنها تكره لعبة الوست . ولكن هل هناك لعبة تحبها من الألعاب التى يشترك فيها عدد كبير من اللاعبين ؟ »

« سيدتى العزيزة : لاداعى إطلاقا لإظهار هذه الشفقة فإنى أعتقد أن مريان لن تبرح حجرتها هذا المساء ، وسأحملها إذا استطعت على التبكير بالنوم ، لأنى أعتقد أنها بحاجة إلى الراحة . »

« نعم ، أعتقد أن ذلك خير لها . فلتطلب ما تشاء من العشاء ثم تتوجه إلى الفراش . رباه ! لا عجب أن تظهر عليها أمارات الحزن والكآبة خلال هذا الأسبوع أو الأسبوعين الماضيين ، فقدظل هذا الموضوع يشغل بالها فيما أظن طول هذه المدة ثم جاء الخطاب الذى وصل اليوم لحسم الأمر ! وارحمتاه لها ! إننى أؤكد أنه لو كانت لدى فكرة عن هذا الموضوع لما اتخذت منه مادة للمزاح بأى حال من الأحوال . ولكن أنى لى — كما تعلمين — أن أحزر هذا الأمر ؟ لقد اعتقدت أنه ليس سوى خطاب غرامى عادى ، وأنت تعرفين أن الشبان يحبون أن يتندر الناس عليهم . رباه ! ما أشد ما سيعترى سير جون وبناتى من الهم ، عندما يعلمن بهذا الأمر ! ولو كنت تفطنت للأمر لزرتهن فى كندوى ستريت فى طريقى إلى المنزل وأخبرتهن الخبر ، ولكنى سأراهن غداً . »

« أعتقد أنه لاحاجة بك إلى تحذير مسز بالمر وسير جون من أن يذكرا اسم ولبى إطلاقا أو يشيرا أدنى إشارة إلى ماجرى فى حضور أختى ، وإنى أعتقد أن طيبة قلبهما سوف تشعرهما أنه من القسوة التظاهر بمعرفة أى شىء عن هذا الموضوع فى حضورها . وأنت ياسيدتى لست بحاجة لأن تعرفى أنه كلما قل الكلام فى هذا الأمر أمامى ، قل ما أشعر به من الحرج . »

«رباه ! نعم ، أعرف ذلك حقا . لاشك أن ذكر هذا الأمر أمامك يفزعك أما أختك فأؤكد لك أنى لن أذكر لها أية كلمة عنه . وقد رأيت أنى أمسكت عن الكلام طول وقت الغداء . ولن يتعرض سير جون ولابناتى لهذا الحديث لأنهن يحرصن على مراعاة شعور أختك ولا سيما إذا نبهتهن إلى الأمر وسأفعل ذلك يقينا ،وأنا شخصياً أعتقد أنه كلما قل الكلام فى مثل هذه الأمور كان خيراً وأدعى إلى زوال أثرها ونسيانها . وهل تعلمين أن الكلام فى مثل ذلك يعود بالخير ؟ »

« فى مثل هذا الأمر لا يمكن أن يعود الكلام إلا بالضرر ، وربما كان الضرر أشد منه فى كثير من الأمور المماثلة ، لأنه اكتنفته ملابسات تجعل من غير المناسب أن تلوكه الألسنة حرصاً على مصلحة كل من يعنيهم هذا الأمر . ويقتضينى الإنصاف أن أقول : إن مستر ولبى لم يفسخ خطبة قطعية مع أختى . »

« القانون ياعزيزتى ! لا تتظاهرى بالدفاع عنه . لاخطبة قطعية فى الواقع ! بعد أن طاف بها فى أرجاء قصر إلنهام هاوس وحددا الحجرات التى يقيمان بها فى المستقبل ! »

ولم تشأ إلينور أن تمادى فى الحديث أكثر من ذلك حرصاً على كرامة أختها ، وكانت ترجو ألا تدعوها الحاجة إلى ذلك حرصاً على سمعة ولبى ، لأنه على الرغم من أن مريان قد تخسر الشىء الكثير ، فإن ولبى لن يكسب إلا القليل من وراء الكشف عن حقائق الأمور .

وبعد أن لزم الجانبان الصمت قليلا عادت مسز جننجز فانطلقت تقول بخفتها المعهودة .

«حسناً ياعزيزتى ! ما أصدق المثل القائل رب ضارة نافعة ، لأن هذا الحادث سيكون فى صالح كولونيل براندون . إنه سيظفر بها فى النهاية . نعم سيظفر بها . اسمعى لى . سيتزوجان فى منتصف الصيف . سيكون حقًا خيراً لأختك من ولبى . ألفان من الجنيهات بدون ديون ولا ضرائب ماعدا الطفلة غير الشرعية ؛ نعم لقد أنسيتها ، ولـكن يمكن تهيئها خارج المنزل بمبلغ يسير ، ولـكن ماذا يهم هذا ؟ وأؤكد لك أن ديلافورد قصر جميل ، قصر قديم جميل مزود بوسائل الراحة ، تحيط به أسوار حديقة كبرى مغطاة بأجمل أشجار الفاكهة فى البلاد ، وما أجمل شجرة التوت الموجودة فى أحد الأركان ؟ رباه كم كنت أنا وشارلوت نأكل بشراهة أيام إقامتنا هناك ! ثم فيه برج حمام ، وبرك رائعة لتربية الأسماك ، وقناة جميلة المنظر .وجملة القول أنه يشتمل على كل ما يتمناه المرء . وهو إلى ذلك قريب من الـكنيسة ، ولا يبعد عن الطريق المكّس إلا ربع ميل ، ولذلك فهو لا يبعث على السآمة والملل ، لأنك إذا ذهبت وجلست فى ظل شجرة السدر الجبلى العتيقة خلف المنزل أمكنك أن تشاهدى جميع العربات التى تمر فى الطريق . ياله من قصر جميل ! جزار بالقرب منه فى القرية ، وبيت الراعى على مرمى حجر منه . وعندى أنه أجمل ألف مرة من بارتون بارك الذى يضطر أهله إلى إرسال الخدم ثلاثة أميال لإحضار اللحم ، وليس لهم جار أقرب إليهم من والدتك . نعم إننى سأشجع الـكولونيل على إتمام هذا الزواج فى أسرع وقت مستطاع . إن مسماراً كما تعلمين يدفع مسماراً إلى أسفل . لو استطعنا أن ننزع ولبى من رأسها !»

قالت إلينور : « وإذا لم نستطع ياسيدتى أن نفعل إلا ذلك كان خيراً لها

سواء تزوجت كولونيل براندون أو لم تتزوجه » ثم نهضت وتوجهت إلى مريان فوجدتها — كما كانت تتوقع — جالسة فى حجرتها مكبة فى صمت وألم على بقايا قليلة من نار كانت هى الضوء الوحيد فى الحجرة إلى أن دخلت إلينور .

وكانت الكلمة الوحيدة التى بدرت منها لأختها « يحسن بك أن تدعينى . »

فقالت إلينور « سأدعك إذا أويت إلى الفراش . » ولكنها أبت أولا بسبب العناد الوقتى الناشىء عن الألم المقرون بالقلق ، ولكن أختها ألحت عليها فأقنعتها — ولكن فى رفق — فأصاخت لنصحها ، ورأتها إلينور وهى ترقد برأسها الموجعة على الوسادة ، واطمأنت قبل أن تنصرف إلى أنها فى سبيلها إلى أن تنعم ببعض الراحة . »

ثم توجهت إلى حجرة الاستقبال ، وسرعان ما لحقت بها مسز جننجز وبيدها كأس نبيذ مملوء بشراب ما .

وقالت وهى تدخل الحجرة : « عزيزتى ! لقد تذكرت أن لدى بعض نبيذ كونستانتيا ، وهو من أطيب الأنبذة المعتقة مذاقا ، فجئت منه بكأس لأختك . وارحمتاه لزوجى ! ما كان أشد غرامه بهذا النبيذ ! وكان يقول كلما عاوده مس من عرق النسا المزمن : إنه ينفعه ما لا ينفعه أى دواء فى العالم . أرجو أن تعطيه أختك . »

فأجابت إلينور ، وهى تضحك ، لاختلاف علة أختها عن العلة التى وُصِف النبيذ لها : « ما أطيب قلبك يا سيدتى العزيزة ! لقد تركت مريان الآن فى الفراش ، وتوشك أن تكون قد نامت . وأعتقد أنه لا ينفعها كالراحة ، وسأشرب أنا النبيذ إذا سمحت لى بذلك . »

ورضيت مسز جننجز بهذا الحل الوسط ، وإن أبدت أسفها لتأخرها عن إحضار الكأس خمس دقائق . وشربت إلينور معظمه ، ولم يكن يهمها فى ذلك الوقت أن تجرب آثاره الطيبة فى شفاء عرق النسا ، ولكنها رأت أنه لا بأس من أن تجرب هى تأثيره فى شفاء القلب المجروح كما تجربه أختها . »

وحضر كولونيل براندون وهما يترشفان الشاى ، وأدركت إلينور من نظرته التى تفحص بها الحجرة بحثا عن مريان أنه لم يكن يتوقع أو يتمنى أن يراها هناك ، وبالاختصار أنه كان يعرف سبب غيابها . أما مسز جننجز فلم تخطر ببالها هذه الفكرة ، لأنها عبرت الحجرة عقب دخوله إلى مائدة الشاى التى جلست إلينور على رأسها ، وهمست « الكولونيل يبدو ساهم الوجه كعادته دائما . إنه لا يعرف عن الأمر شيئاً . أرجو أن تخبريه ياعزيزتى بما حدث . »

ولم يلبث أن سحب كرسيا ، وجلس بجوارها ، وسألها عن أختها بنظرة تنبىء عن اطلاعه على حقيقة الأمر .

فأجابت : « مريان ليست على ما يرام ، فقد ظلت متوعكة المزاج طوال اليوم ، وحملناها على التوجه إلى الفراش . »

فقال بتردد . « لعل إذن ما سمعته هذا الصباح قد يحمل من الحقيقة أكثر مما اعتقدت بادى الأمر . »

« ماذا سمعت ؟ »

« أن رجلاً لدى من الأسباب ما يحمل على الظن – بالاختصار – أن رجلا أعرف أنا أنه خطب فتاة – ولكن كيف أخبرك – إذا كنت تعرفين الأمر من

قبل — ومن المؤكد أنك تعرفينه — فأرجو إعفائى من الحديث . »

فتصنعت إلينور الهدوء وأجابت: « تعنى زواج مستر ولبى بمس جراى . نعم، نحن نعرف ذلك كله . ويبدو أن الأمور كلها تكشفت فى هذا اليوم . فقد برح الخفاء صباح هذا اليوم نفسه . ومستر ولبى رجل لا يُسبر غوره . أين سمعت الخبر ؟ »

« فى محل أحد الورّاقين فى بول مول حيث ذهبتُ إليه لبعض شأنى ، فرأيت سيدتين تنتظران عربتهما ، إحداهما تقص على الأخرى أنباء الزواج المرتقب بصوت غير خافت ، بحيث لم يتعذر على سماع الحديث كله . وتردد على سمعى اسم ولبى — جون ولبى — أكثر من مرة . فأثار ذلك انتباهى أولا ثم تأكد لى بصفة قاطعة، مما سمعته بعد ذلك ، أنه قد تم الاتفاق بصفة نهائية على الإجراءات الخاصة بزواجه بمس جراى — لم يعد الأمر سرا — بل إن الزواج سيتم فى غضون بضعة أسابيع ، مع ذكر الكثير عن تفاصيل الاستعدادات التى اتخذت للزواج ، وغيرها من الأمور . وأذكر أمراً واحداً بصفة خاصة لأنه أكد لى شخصية الرجل بصفة أكثر وضوحا ، وهو أنه متى تمت مراسم الزواج فسيتوجه الزوجان إلى كومب ما جنا — مقره فى سومر ستشاير . لشد ما دهشت ! ولكن يستحيل على أن أصف لك شعورى . وعلمت بعد البحث — لأنى مكثت فى المحل حتى انصرافهما — أن السيدة التى أفضت بهذا النبأ هى مسز اليسون ، وهى كما علمت ولية أمر مس جراى . »

« هذا صحيح . ولكن هل سمعت كذلك أن مس جراى تملك خمسين ألف جنيه ؟ ففى ذلك يمكن أن نجد — ان أمكن أن نجد — تفسيراً لهذا الحادث » .

« ربما كان الأمر كذلك . ولـكن ولىي يستطيع ـ أعتقد ذلك على الأقل ـ
وسكت هنيهة ثم أضاف بصوت ينم على الشك والارتياب « وأختك ـ كيف ـ »

« لقد تألمت أشد الألم ، وأرجو ألا يطول هذا الألم . لقد كانت محنة ،
إنها محنة قاسية إلى أقصى حد . وأعتقد أنها ظلت حتى أمس لا تشك فى حبه
لها قط ، وربما لا تشك فى ذلك حتى الآن . ولـكنى أنا أكاد أعتقد أنه لم يخلص
لها الحب قط . لقد كان رجلا مخادعا ! ويبدو لى أن مسلـكه فى بعض النواحى
ينم على قسوة القلب . »

فقال كولونيل براندون: « آه ! لقد أصبت كبد الصواب ! ولـكن أختك ـ
وأظنك قلت ذلك ـ لا ترى رأيك تماما . »

« أنت تعرف طبعها . وفى وسعك أن تعتقد أنها لا تزال تبرر مسلكه بشدة
ما استطاعت . »

فلم يحر جوابا ، وسرعان ما أعرضا بالضرورة عن الحديث فى الموضوع بعد
رفع مائدة الشاى ، والاستعداد للعب الورق . وكانت مسز جننجز تراقبهما
بسرور وهما يتحدثان ، وتتوقع أن يكون لما تفضى به مس داشوود أثره السريع
فى إدخال السرور على كولونيل براندون على نحو يليق برجل يشعر بعنفوان الشباب
والأمل والسعادة ، ولـكنها دهشت عند ما رأته ساهم الوجه شارد الفـكر طول
ذلك المساء أكثر من عادته .

الفصل الحادي والثلاثون

استيقظت مريان صباح غد بعد ليلة نعمت فيها بالكرى أكثر مما كان متوقعا، لتتجرع غصص الآلام التى أغمضت عليها عينيها فى الليلة البارحة.

وشجعتها إلينور بقدر ما استطاعت على التحدث عما تشعر به، فأخذتا تقلبان النظر فى الموضوع مرة بعد أخرى قبل تناول الفطور، وكانت إلينور تتحدث بما هو معهود عنها من ثبات الرأى والإخلاص فى النصح، ومريان بما هو معروف عنها من الاندفاع والتهور وتقلب الرأى؛ طوراً ترى أن ولبى سيء الحظ برىء مثلها، وطوراً ترى أنه لايمكن أن يكون بريئاً، فتفقد كل أسباب العزاء والسلوان. وتارة لايهمها الاختلاط بالناس جميعا، وتارة تجنح إلى اعتزالهم إلى الأبد، وتارة أخرى تقاوم هذه العزلة بكل قوة، على أنها كانت تثبت على أمر واحد، عندما يتطرق الأمر إلى جوهر الموضوع، ألا وهو تحاشى حضور مسز جننجز، والتزام الصمت المطبق عند ما تضطر إلى احتمال حضورها، فكان قلبها ينفر من أى مظهر من مظاهر الشفقة تبديه هذه السيدة لمواساتها فى أحزانها.

صاحت مريان: «كلا، كلا! لايمكن أن يكون ذلك. إنها عديمة الشعور. إن شفقتها ليست مشاركة وجدان، ودماثتها ليست ضربا من الحنان. كل ماتريده هو الثرثرة، وهى لاتحبنى الآن إلا لأنى أتيح لها فرصة الثرثرة.»

لم تكن إلينور بحاجة إلى ذلك لتتأكد من الإجحاف الذى تنساق إليه

أختها فى رأيها عن الغير بسبب رقتها وانفعالاتها ومغالاتها فى أهمية رقة العواطف ، ومزايا الخلق المهذب . ولم تكن مريان مع مواهبها الفائقة وأخلاقها الفاضلة تتصف بالاعتدال أو الصراحة ، شأنها فى ذلك شأن نصف بقية العالم إذا كان أكثر من نصفه من الأذكياء والفضلاء . وكانت تتوقع من الناس أن يعتنقوا آراءها ، و يشعروا بمشاعرها ، وتحكم على البواعث التى تدفعهم إلى أعمالهم بما لأفعالهم من أثر مباشر فى نفسها . ولذلك وقع حادث بينما كانت تجلس هى وأختها فى حجرتهما بعد تناول الفطور زادها إيمانا بقسوة قلب مسز جننجز ، لأنه اتفق أن أصبح هذا الحادث — بسبب ضعفها هى — سببا جديداً فى مضاعفة آلامها ، وأن الدافع إليه من جانب مسز جننجز هو حسن النية إلى أقصى حد .

دخلت عليهما مسز جننجز تمد يدها بخطاب تحمله ، ووجهها يعلوه الابتسام معتقدة أن هذا الخطاب سيجلب لها أسباب العزاء والسلوان فقالت :

« اسمعى يا عزيزتى ! لقد أتيت لك بشىء أعتقد أنه يسرك . فأرعتها مريان سمعها ، وصور لها الوهم لحظة أن الخطاب من ولبى ، وأنه يفيض رقة وندماً ، و يفسر لها ما حدث بعبارات مرضية مقنعة ، وأن ولبى سيحضر فى أعقاب هـذا الخطاب من فوره ، ويندفع إلى الحجرة جاثيا أمام قدميها ، مؤكدا لهـا ببلاغة عينيه ، ما يحمله الخطاب من تأكيدات . ولـكن الصرح الذى بناه الوهم فى لحظة هدم فى لحظة أخرى ، إذ تبين أن الخطاب بخط أمها ، ولم يثر هذا الخط قط من الامتعاض أكثر مما أثار فى ذلك الوقت ، وكان ما شعرت به من الألم حتى هذه اللحظة لا يعد شيئا مذكوراً بجانب مرارة الخيبة التى أعقبت ماشعرت به من نشوة تفوق لذة الأمل .

وما كان لأى لغة تسعف مريان فى أسعد لحظات بلاغتها أن تعبر عن قسوة مسز جننجز ، وكل ما استطاعت الآن تفعله هو أن توبخها بالدموع التى انهمرت من مقلتيها بغزارة ، على أن هذا التوبيخ لم يؤثر فى نفس مسز جننجز إطلاقا ، فانسحبت بعد أن عبرت عن إشفاقها بكلمات كثيرة ، وهى لا تزال تشير إلى الخطاب على أنه سبب من أسباب العزاء والسلوان . ولكنه لم يجنب لها كثيراً من العزاء بعد أن هدأت ثورتها وقرأته . وكان ولبى يملأ كل صفحة من صفحاته ، إذ كانت أمها لا تزال تعتقد أن خطبتها قائمة ، ولا تزال تعول كعهدها على وفائه . وكل ما فى الأمر أنها استجابت لرجاء إلينور ، فطلبت إلى مريان مزيداً من الصراحة معهما معا ، وكان الخطاب يفيض بعبارات الحنان لهما والحب لولبى ، والإيمان بسعادتها الزوجية المستقبلة إلى حد جعل مريان تبكى من الألم خلال الخطاب كله.

وعادت الآن فتلهفت بكل قواها على العودة إلى المنزل ، وصارت تحب أمها أكثر من أى وقت مضى ، تحبها أكثر بسبب فرط ثقتها الخاطئة فى ولبى ، وتلح إلحاحا شديداً فى السفر . ولم تستطع إلينور نفسها أن تقرر : أمن الخير لمريان أن تكون فى لندن ، أم فى بارتون ؟ فنصحت لأختها بالصبر حتى تتبين رغبة أمها وأخيراً ظفرت بموافقة أختها على الانتظار حتى تتعرف ذلك .

وتركتهما مسز جننجز ، وخرجت مبكرة أكثر من المعتاد لأنه لم يهدأ لها بال حتى يشاركها آل ميدلتون وبالمر فى أحزانها . ورفضت ما عرضته إلينور من مرافقتها رفضا باتاً ، فخرجت وحدها بقية ساعات الصباح . وجلست إلينور إلى المائدة وهى حزينة الفؤاد ، وهى تشعر بالألم الذى ستفضى به لأمها وترى كما هو ظاهر من خطاب مريان أنه لا أساس لهذا الألم ، وأخذت تكتب لأمها

خطاباً تقص فيه أنباء ماحدث ، وتسألها عما ينبغى عمله فى المستقبل فى حين دخلت مريان حجرة الاستقبال بعد انصراف مسز جننجز ، وظلت رابضة أمام النضد الذى تكتب عنده إلينور ، تراقب حركات قلمها ، وهى تشفق من صعوبة المهمة ، ولكنها تشفق أكثر من وقع هذا الخطاب فى نفس أمها .

وعلى هذا النحو بقيت الأختان حوالى ربع ساعة ، وإذا بمريان التى لم تحتمل أعصابها إذ ذاك سماع أى صوت مفاجىء تنهض قائمة عندما سمعت صوت طارق بالباب .

فصاحت إلينور : « من هذا ياترى ؟ وقد أتى أيضا مبكرا ! لقد ظننت أننا أصبحنا فى أمان . »

فدلفت مريان إلى النافذة .

وقالت وهى تتبرم : « إنه كولونيل براندون . إننا لن نخلص منه أبداً . »

« لن يدخل ، لأن مسز جننجز خارج المنزل . »

وعادت القهقرى إلى حجرتها قائلة : « لن أركن إلى ذلك . إن رجلا ليس لديه ما يشغل به وقته لن يتورع عن تضييع وقت غيره . »

وقد أثبت الواقع صدق حدسها ، وإن كان مبنيا على الظلم والخطأ ، إذ دخل كولونيل براندون بالفعل . ولكن إلينور لم تغفر لأختها استخفافها بقدره ، اعتقاداً منها أن سبب حضوره هو اهتمامه بأمر مريان الذى تجلى فى نظراته القلقة الحزينة ، وفى سؤاله عنها ، وإن كان هذا السؤال وجيزاً .

قال بعد أن حياها أولا : « قابلت مسز جننجز فى بوند ستريت ، فشجعتنى على الحضور ، وزادنى تشجيعاً أننى ظننت أنه يحتمل أن ألقاك مفردة ، وهوما

كنت أرغب فيه . وغرضى من الحضور ـ قصدى ـ قصدى الوحيد من الحضور أرجو ـ أعتقد أنه ـ أن أشارك فى المواساة — كلا ، لا أقول المواساة ـ المواساة فى الوقت الحاضر ـ ولكن أن أثلج فؤاد أختك ببرد اليقين ، اليقين الدائم إن حبى لها ولك ولأمك ـ هل تسمحين أن أبرهن على هذا الحب ، فأقص بعض الظروف والملابسات التى لاشىء سوى الحب المقرون بمحض الإخلاص لاشىء سوى الرغبة الصادقة فى أن يكون الانسان نافعا لغيره ـ أعتقد أننى محق و إن قضيت عدة ساعات فى إقناع نفسى بأنى على حق، أليس هناك من الأسباب ما يحمل على الخوف من أن أكون مخطئا ؟ » ثم سكت عن الكلام .

قالت إلينور: « إننى أفهم ماتقول. تريد أن تفضى لى بأخبار تلقى المزيد من الضوء على أخلاق ولبى . إن إفضاءك لى بها سيكون أكبر دليل على صداقتك لمريان ، ولك شكرى معجلا على كل نبأ تفضى به إلى فى هذا الصدد . أما شكر مريان فستظفر به على مر الزمن . أرجوك أرجوك أن تسمعنى ما لديك من أخبار .

« لك ذلك ، وموجز القول أننى عندما غادرت بارتون فى أكتوبر الماضى ـ ولكن ذلك لن يعطيك أية فكرة ـ يتعين على أن أرجع إلى الوراء قليلا . ستجدين يامس داشوود أننى محدث غير لبق ، فأنا لاأدرى من أين أبدأ، أعتقد أنه يجب أن أحدثك عن نفسى حديثا وجيزاً ، ولابد أن يكون حديثا وجيزا، وتنهد بشدة ثم قال « فى مثل هذا الموضوع لا أجد ما يغرى بالإسهاب . »

وسكت هنيهة ليتذكر ما يقول ثم استطرد بعد أن تنهد مرة أخرى :

« لعلك نسيت حديثا (فلا أظن أن هذا الحديث ترك فى ذهنك أى أثر)

حديثا جرى بيننا مساء يوم فى بارتون مساء يوم قامت فيه حفلة رقص ، وأشرت فيه إلى سيدة سبق لى التعرف إليها وهى تشبه أختك مو يان من بعض الوجوه. »

فأجابت إلينور : «الواقع أنى لم أنس هذا الحديث » فأشرق وجهه بالسرور لهذا التذكر وأضاف :

« إذا أنا لم أتأثر بنزوات الهوى فى سرد ذكرياتى الحبيبة ، قلت : إن وجه الشبه بينهما قوى جدا سواء من الناحية العقلية أو الجسمية : كلتاهما تمتاز بحرارة العاطفة ، وقوة الخيال والروح - كانت هذه السيدة من أقاربى الأدنين ، يتيمة منذ نعومة أظفارها، وفى ولاية أبى، وكنا متقاربين فى السن، وتوثقت بيننا عرى الصداقة والزمالة فى اللعب منذ الصغر . ولا أذكر وقتا لم أحب فيه إليزا . وعندما كبرت أحببتها حبا ربما يخيل إليك أنى لم أشعر به قط عندما تنظرين إلى ما أعانيه الآن من الكآبة والأسى . وأعتقد أنها كانت تحبنى حبا جما يضارع حب أختك لولبى وكان هذا الحب مقرونا بسوء الحظ ، وإن كان السبب مختلفا فى الحالين. ولما بلغت السابعة عشرة فقدتها إلى الأبد ، إذ تزوجت بأخى على غير رغبتها ، وكانت طائلة الثراء ،أما ضيعة أسرتنا فكانت مثقلة بالديون . وأخشى أن يكون هذا هو كل ما يمكن أن يقال عن سلوك رجل كان عمها وولى أمرها فى الوقت نفسه . لم يكن أخى جديرا بها بل لم يكن يحبها . وكنت أرجو أن تظل على حبى فى كل ملمة . وفعلا ظلت على ذلك فترة من الزمن . ولكن سوء حالها - لأنها لقيت معاملة قاسية - تغلب على قوة إرادتها . ومع أنها وعدتنى أنه ما من شىء - كيف أتخبط فى رواية قصتى ! إننى لم أخبرك قط كيف حدث هذا . كنت على وشك الفرار بها إلى إسكتلندا ، ولكن خادمة ابن عمى أفشت سرنا خيانة

أو غباوة ، فنفيت إلى منزل ناء لأحـــد أقاربى ، وحرمت هى من الحرية والاختلاط بالمجتمع والملاهى ، إلى أن تدخل أبى فى الأمر · وكنت أعول كثيراً على ما تعتصم به من صبر وجلد ، إذ كانت الضربة أليمة · ولـكن لو أن زواجها بأخى كان موفقا، لكان مرور بضعة أشهر — على الرغم من صغر سنى فى ذلك — كفيلا بأن يحملنى على قبول زواجها من أخى ، أو على الأقل لا أبـكى الآن على هذا الزواج · ولـكن الأمر لم يكن كذلك ، فلم يكن أخى يحبها ، وكانت ملذاته وشهواته على غير ما ينبغى أن يكون ، وأخذ يسومها سوء المعاملة منذ البداية ، وكان أثر ذلك فى نفس امرأة شابة مرحة غير مجربة مثل مسز براندون أمراً طبيعيا . صبرت أول الأمر على سوء حالها ، ولو أنها لم تعش حتى تقاسى هذه الأحزان التى تثيرها ذكرياتى الآن لكان خيراً ، ولـكن أكان عجبا أن تزل قدمها بسبب هذا الزواج الذى يدفع سلوكه المرأة إلى الخيانة ؟ وبدون أن يكون لها صديق ينصحها أو يردعها (إذ توفى أبى بعد زواجها ببضعـة شهور وكنت أنا مع كتيبتى فى جزر الهند الشرقية) ولو أننى بقيت فى انجلترا لربمـا — ولـكنى أردت أن أهيىء لهما أسباب السعادة بأن أرحل عنهما عدة سنوات،ولهذا الغرض بادلت زميلا بمكانى ، واستطرد يقول فى صوت شديد الاضطراب : « كانت الصدمة التى سببها هذا الزواج لى هينة ، بل لم تـكن شيئاً بالقياس إلى ماشعرت به عندما علمت بعد حوالى سنتين بطلاقها ، فـكان هذا هو الذى أورثنى هذه الكآبة ، بل جعلنى أذكر حتى الآن ما خالجنى من الألم ·»

ولم يستطع أن يقول أكثر من ذلك ثم نهض مسرعا وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا بضع دقائق ، ولم تستطع إلينور أن تتكلم لأنها تألمت لقصته ، وتألمت أكثر لألمه . وآنس هو ما اعتراها من الهم ، فأقبل عليها وتناول يدها

وشد عليها فقبلها باحترام ينم على الشكر ، واستطاع بعد بضع دقائق من التجلد المقرون بالصمت أن يواصل حديثه فى هدوء .

لم أعد إلى إنجلترا إلا بعد ما يقرب من انقضاء ثلاث سنوات على هذه الفترة الأليمة ، وكان أول همى عنـد وصولى هو البحث عنها بالطبع ، ولـكن البحث كان ضربا من العبث بقدر ما كان مثيراً للأسى فلم أستطع أن أقف هنا على خبر أكثر من خبر الرجل الذى أغراها أول مرة ، وكان هناك ، من الأسباب ما يحمل على الخوف من أنها فارقته لتنزلق إلى الدرك الأسفل وكانت نفقتها الشرعية لا تتكافأ مع ثروتها ، ولا تـكفل لها حياة هنيئة ، وعلمت من أخى أنهـا تنازلت عنها إلى شخص آخر ، وقال : إنه يظن ويظن ظناً قويا أن إسرافها وما ترتب عليه من وقوعها فى الضيق والشدة حملها على التنازل عن النفقة للحصول على الغوث السريع . على أننى استطعت أن أعثر بعد أن عدتُ إلى إنجلترا بستة شهور ، فقد كان لى خادم سابق نكبته الأيام فزُجَّ به فى السجن لدين عليه ، فحملنى حبى له على زيارته فى سجنه ، فوجدت فى هذا السجن نفسه أختى محبوسة لمثل هذا السبب . ورأيتها وقد تغيرت جداً وذبلت جداً — وشفَّها الألم من كل لون ، ولم أكد أصدق أن الشبح الحزين السقيم الماثل أمام ناظرى هو حطام الفتاة الفارهة اليافعة أغرمت بها فى يوم من الأيام . إنَّ ما كابدتُه عندما شاهدتُها على هذه الصورة — ولـكن ليس من حقى أن أجرح شعورك بأن أصف لك مارأيت ، لقد آلمت شعورك إلى حد يفوق الوصف . وكان أكبر عزاء لى أن رأيتها تعانى آخر مراحل السل كما كان واضحا — نعم لقد كان فى هذه الحال أكبر عزاء ، فلم يكن فى الحياة أى خير لها أكثر من أن أتيح لها فرصة الاستعداد للموت على نحو أفضل ، وهذ ما قد حدث ، إذ نقلتها إلى غرفة مريحة

وهيأت لها وسائل الخدمة والرعاية الواجبة ، وواظبت على زيارتها فى كل يوم من أيام حياتها ، وشهدت آخر لحظات أيامها .

ثم عاد فسكت ليسترد أنفاسه ، وعبرت إلينور عن مشاعرها بصوت ينم على الحزن والأسى لمصير صديقته المنكوبة .

وقال: « أرجو ألا تغضب أختك للشبه الذى تخيلته بينهاو بين قريبتى المسكينة المجللة بالعار . إن مصيرهما لا يمكن أن يكون واحدا . ولوأن الشمائل الحلوة التى فطرت عليها إحداهما حصنت بقوة الإرادة أو الزواج السعيد لكان من المحتمل أن تكون هى على الحال الذى ستعيشين حتى ترين عليه الأخرى . ولكن ما الهدف من ذكر ذلك كله ؟ يبدولى أننى آلمتك دون داع . آه مس داشوود إإن موضوعا كهذا ظل مطويا أربعة عشر عاما ، من الخطر أن يثيره الإنسان على الإطلاق ولكن سأستجمع شجاعتى وأوجز فى القول : لقد تركت فى كفالتى طفلتها الوحيدة ، فتاة صغيرة هى ثمرة خطئها ، وكان عمرها إذ ذاك حوالى ثلاث سنوات ، وكانت تحب هذه البنت ولاتفارقها قط . وكانت هذه الطفلة أمانة ثمينة فى يدى . وكان بودى أن أحافظ عليها بأدق معانى الكلمة بأن أشرف على تعليمها بنفسى ، لوأن ظروفى سمحت لى بذلك . ولكن لم تكن لى أسرة ولامنزل ، ولذلك ألحقت ليزا الصغيرة بالمدرسة ، وكنت أزورها ما استطعت ، وبعد وفاة أخى (حدث ذلك منذ حوالى خمسة أعوام وترتب عليه أن آلت إلى أملاك الأسرة) ظلت تتردد على فى ديلافورد . وكنت أقول: إنها قريبتى من بعيد . ولكنى أعلم أن الناس يعتقدون بوجه عام أنها أمس رحما بى . وقد مضت الآن ثلاث سنوات (وكانت قد بلغت الرابعة عشرة) منذ أن نقلتها من المدرسة لأعهد بها إلى امرأة فاضلة تقيم فى دورستشاير وترعى أربع

أو خمس بنات غيرها كلهن متقاربات السن . وكان لدى من الأسباب ما يحملنى على الرضا بحالها مدة سنتين . ولـكن حدث فى فبراير الماضى أى منذ سنة تقريباً أن اختفت فجأة ، فقد سمحت لها (جهلا منى كما اتضح فيما بعد) أن تذهب إلى مدينة باث مع إحدى صديقاتها الصغيرات التى كانت تقوم على رعاية أبيها المريض، وكنت أعرف أنه رجل فاضل ، وأحسن الظن بابنته أكثر مما تستحق لأنها تشبثت بأهداب الـكتمان فى طيش وعناد وأبت أن تقول لى شيئاً أو تدلنى عليها مع علمها بكل شىء . وكان أبوها رجلا حسن النية ، ولـكنه غير ذكى فلم يستطع فيما أعتقد أن يمدنى بأية معلومات لأنه كان حبيس البيت ، بينما كانت الفتاتان ترتعان فى المدينة وتمرحان كما تشاءان ، وحاول أن يقنعنى كما كان هو نفسه مقتنعا بأن بنته لا شأن لها بالأمر إطلاقا . و بالاختصار لم أستطع أن أقف على شىء إلا أنها اختفت . وفيما عدا ذلك بقى كل شىء متروكا للحدس والتخمين ثمانية شهور طوال . وفى وسعك أن تتصورى ما خالجنى من الظنون والمخاوف بل وما عانيت من الآلام أيضا . »

فصاحت إلينور : « يالله ! أيمكن أن يكون ــ أيمكن أن يكون ولبى ! »

واستطرد يقول: « وأول نبأ عنها عرفته من خطاب أرسلته إلى فى أكتوبر الماضى فى ديلافورد وتسلمته صباح اليوم الذى تقرر فيه أن نسافر جميعا إلى هويتويل. وكان هذا هو السبب فى مغادرتى بارتون على هـذا النحو الفاجىء ، وهو الأمر الذى بدا ــ بلا شك ــ غريبا لـكل إنسان ، وأعتقد أنه أساء إلى البعض . وأظن أن مستر ولبى قلما كان يتصور ــ حينما حدجنى بنظرة تنم على التأنيب لأنى لم أراع المجاملة فى مقاومة الجماعة ــ أننى دعيت لإنقاذ فتاة أسلمها هو إلى الفقر والشقاء . وماذا كان يجدى لو علم بذلك ؟ هل كان ذلك ينقص من بهجته

وسروره بابتسامات أختك ؟ كلا ! لقد فعل مالا يفعله أى إنسان فى قلبه ذرة من العطف والحنان . لقد ترك الفتاة التى جنى على شبابها ومستقبلها فى أشد حالات الكرب والضيق — دون مسكن لائق ، ودون معونة ، ودون أصدقاء ، ودون أن تعرف عنوانه . تركها ووعدها بالعودة فما عاد إليها ولا كتب لها ولا أنقذها .

فصاحت إلينور : « لاشىء أفظع من ذلك . »

« لقد بسطت لك أخلاقه . رجل مسرف مبذر بل أسوأ من ذلك والآن وقد عرفت كل ماعرفته أنا منذ عدة أسابيع ، تصورى ماذا يكون شعورى عندما أرى أختك تطارحه الغرام ، وعند أعلم أنها قررت أن تتزوجه . تصورى ماذا أشعر به نحوكن جميعا . وعندما جئت إليك فى الأسبوع الماضى ووجدتك وحدك جئت عاقداً العزم على معرفة الحقيقة ، وإن لم أقرر ما أفعل حينما أعرفها . لاشك أن مسلكى بدا غريبا لك فى ذلك الوقت ولكنك الآن تستطيعين أن تفهميه هل أسمح لأحد أن يخدعكن جميعاً — ولكن ماذا كان فى وسعى أن أفعل ؟ لم يكن لدى أمل فى أن ينجح تدخلى ، وأحياناً كان يخالجنى الظن بأن أختك ستصلح من شأنه بتأثيرها ونفوذها . ولكن الآن وبعد هذه المعاملة من يدرى ماذا كان يدبره لها ؟ ولكن مهما يكن ما دبره لها فعليها الآن وعليها فى المستقبل أن تحمد الله على حالها إذا قارنتها بحالة أليزا المسكينة ، وإذا نظرت إلى حالة البؤس والشقاء التى تعانيها هذه الفتاة المسكينة ، وإذا تصورت أن أليزا كانت تحبه حبا يعادل فى قوته حبها له ، وأن الندم سيظل يؤرق ضميرها طول حياتها . لا شك أن هذه المقارنة ستعود عليها بالفائدة فستجد أن ما تعانيه من الآلام ليس شيئا مذكوراً لأن هذه الآلام ليس مصدرها أنها اقترفت إثما أو ارتكبت عاراً بل على العكس ، إن كل صديق لا بد أن يزداد صداقة لها

إذا عرف سبب آلامها و إن ما شعر به أصدقاؤها من الهم والقلق لما اعتراها من الآلام وما شعروا به من الاحترام لها لصبرها على تلك الآلام من شأنه أن يزيد من محبة أصدقائها .

استعملى حكمتك مع ذلك فى الإفضاء إليها بما أخبرتك . إنك تعلمين حق العلم ما سيكون أثره فى نفسها . ولو أنى لم أعتقد من صميم قلبى اعتقاداً صادقاً أن ما قلته لك سيكون ذا فائدة لها ، وأنه سيخفف من أحزانها ، لما سمحت لنفسى أن أزعجك بأن أحكى لك قصة محنتى العائلية ، قصة قد يبدو منها أنى قصدت أن أرفع نفسى على حساب غيرى . »

فقدمت له إلينور أخلص الشكر على هذا الحديث ، وأكدت أنه سيعود بفائدة مادية على مريان .

وقالت : « إن أكبر ما آلمنى هو محاولتها تبرئة ولبى ، وهذا يغيظها أكثر مما يغيظها أشد الإيمان بسوء أخلاقه ، ولكنى الآن أعتقد أنها وإن تألمت فى البداية سرعان ما ستشعر براحة البال » واستطردت بعد أن أطرقت هنيهة قائلة : « هل رأيت ولبى منذ أن فارقته فى بارتون ؟ »

فأجاب متجهما : « نعم ، قابلته مرة واحدة . كان لقاء لا مفر منه . »

فدهشت إلينور للهجته ، وحملقت فيه قائلة باهتمام :

« عجبا ! هل قابلته لكى . . . . »

لم يكن فى وسعى أن أقابله لغير ذلك . لقد اعترفت لى إلبزا ، ولو على مضض باسم حبيبها . وعند ما عاد إلى لندن بعد عودتى إليها بأسبوعين تقابلنا بناء

على موعد سابق ، لـكي يدافع هو عن نفسه ، ولـكي أعاقبه أنا على سلوكه . وخرجنا من الاجتماع بدون جراح ولذلك لم يعلم أحد بنبأ هذا الاجتماع . »

وتنهدت إلينور لما تخيله من ضرورة هذا الاجتماع ، ولـكنها لم تشأ أن توجه إليه اللوم لعقد هذا الاجتماع باعتباره رجلا وجنديا . وقال كولونيل براندون بعد أن أطرق هنيهة: « هذا هو الشبه المحزن بين مصير أم و بنتها ! وهكذا اقصرت في أداء الأمانة ! »

« ألا تزال في لندن ؟ »

« كلا ! ما إن انتهت من الولادة ـ لأني وجدتها على وشك الوضع ـ حتى نقلتها هي وطفلها إلى الريف ، ولا تزال هناك للآن . »

وسرعان ما تذكر أن وجوده ربما يحول دون اجتماع إلينور بأختها فأنهى زيارته ، وتلقى منها خالص الشكر مرة أخرى ، وتركها وقلبها يفيض إشفاقا عليه وتقديراً له .

الفصل الثاني والثلاثون

لم تلبث مس داشوود أن أعادت تفاصيل هذا الحديث على مسامع أختها ولكنه لم يترك في نفسها من الأثر ما كانت إلينور ترجوه تماما ، ولا يرجع ذلك إلى أنها كانت تشك في صدق أي جزء منه ، فقد أصغت إليه بكل انتباه في ثبات وخضوع دون أن تبدى أية ملاحظة أو اعتراض ، ودون أن تحاول الدفاع عن ولبى ، إذ دات دموعها على شعورها باستحالة الدفاع عنه. ولكن إلينور لاحظت أن لوعة أختها لم تخف ، على الرغم من أن مسلكها أكد لها اقتناعها بجرمه ، وعلى الرغم من أنها كانت تنظر بعين الارتياح إلى أثر هذا الاقتناع الذي تجلى في أنها لم تعد تتحاشى مقابلة كولونيل براندون عند زيارته، كما تجلى في إقبالها على محادثته بمحض رغبتها مع إبداء شيء من الاحترام المقرون بالعطف ، وعلى الرغم من أنها لاحظت أن أختها لم تعد تثور بعنف كما كانت تفعل من قبل . صحيح أن حالتها النفسية قد هدأت ، ولكنه هدوء تغشاه الكآبة . وكانت مرارتها أشد أسفا على إفلاس ولبى من الأخلاق منها على قساوة قلبه ، فكان تغريره بمس وليامز وهجره لها ، والشقاء الذي حل بهذه الفتاة المسكينة ،والشك الذي ساورها هي بشأن ما كان يدبره لها في يوم من الأيام ، كل ذلك أرق فؤادها لدرجة أنها لم تطق أن تتحدث لأختها عما تشعر به وظلت تكتم أحزانها في صمت ، وبذلك سببت لأختها من الآلام أكثر مما لو كاشفتها بهذه الأحزان في كل لحظة وبكل صراحة .

وإذا أردنا أن نصف مشاعر مسز داشوود أو أقوالها عندما تسلمت خطاب إلينور وردت عليه ، لم يكن ذلك الوصف إلا تكراراً لمشاعر بنتيها وأقوالهما

السابقة ؛ خيبة أمل لاتكاد تقل إيلاما عن خيبة أمل مريان ، وسخط أشد من سخط إلينور . وسرعان ماوردت منها خطابات مبهمة متوالية ، تعبر فيها عن آلامها وأفكارها وتعرب عن قلقها على مريان ، وترجو أن تصبر على هذه المحنة ، ولابد أن تـكون محنة مريان عظيمة عندما تتحدث أمهـا عن الصبر ! ولابد أن يـكون مصدر هذه الأحزان التى تطلب أمها ألا تسترسل فيها مهينا أليما !

وقررت مسز داشوود ـ مضحية براحتها الشخصية ـ أنه من الخـير لمريان أن تظل فى الوقت الحاضر فى أى مكان آخر خـلاف بارتون لأن كل ماتراه فى بارتون يعيد إلى ذهنها ذكريات الماضى بأقوى صوره وأشدها إيلاما لها ؛ فيجعل صورة ولبى ماثلة أمام ناظريها دائما ، كما كانت تراه فى بارتون دائما . لذلك أشارت على كريمتيها ألا تختصرا مدة زيارتهما لمسز جننجز بأية حال من الأحوال وكان الجميع يتوقعون أن تطول هذه الزيارة خمسة أسابيع أو ستة على الأقل ، وإن كانت مدتها لم تتحدد قط بالضبط . وقالت أمها : إن كثيراً من الأعمال ، والمنـــاظر ، والأصدقاء مما لايتسنى وجوده فى بارتون لابد أن يـكون موفوراً فى لندن ، آملة أن يصرف ذلك مريان عن التفكير فى حالها أحياناً ، بل قديتيح لها بعض التسلية وإن كانت مريان أصبحت تمقت كلا الأمرين .

ورأت أمها أن وجودها فى لندن سيجعلها على الأقل بمأمن من رؤية ولبى كما تـكون بمأمن من رؤيته فى بارتون ، لأن كل من يسمين أنفسهن صديقاتها سيتجنبن الآن صحبته لامحالة ، فالقصد لايمكن أن يجمع بينهما ، والإهمال لايمكن أن يعرضهما للقاء مفاجىء ، والصدفة أبعد عن أن تجمع بينهما فى زحمة لندن منها فى عزلة بارتون حيث يحتمل أن تلتقى به حينما يقوم بزيارة إلنهام فى مناسبة زواجه ، ذلك الزواج الذى أصبحت مسز داشوود ترى أنه أمر مؤكد بعد أن كانت ترى أنه أمر محتمل .

على أنه كان لديها سبب آخر يحملها على الرغبة فى بقاء بنتيها فى لندن ، ذلك أنها تلقت خطابا من ابن زوجها يقول فيه : إنه سيكون هو وزوجته فى لندن قبل منتصف فبراير ، فرأت من المناسب أن تشاهدا أخاهما أحيانا .

وكانت مريان قد وعدت أن تعمل برأى أمها ، ولذلك أذعنت له دون معارضة على الرغم من اختلافه تماما عما كانت تريده وتتوقعه ، وعلى الرغم من شعورها بخطئه ، وقيامه على أسس غير صحيحة ؛ وأن أمها حين طالبت إليها إطالة إقامتها فى لندن حرمتها من الوسيلة الوحيدة التى تخفف من آلامها ألا وهى عطف أمها الشخصى ، وقضت عليها برؤية مجتمع ومناظر يحولان دون أن تذوق طعم الراحة لحظة واحدة .

ولكن مما جلب لها كثيراً من العزاء والسلوان علمها أن ما يعود عليها الضرر ، قد يعود على أختها بالنفع فى حين أن إلينور كانت تعزى نفسها — ظنا منها أنه لن يكون فى مقدورها أن تتحاشى رؤية إدوارد إطلاقا — بأنه إذا كانت إطالة إقامتها قد تتعارض مع سعادتها هى ، فقد تكون خيراً لمريان من العودة إلى ديفونشاير فى الحال .

ولم يخلُ حرصها على حماية أختها من ذكر ولبى من الفائدة ، وجنت مريان كل هذه الفائدة من حيث لا تشعر ، لأن مسز جننجز وسيرجون ومسز بالمر نفسها امتنعوا تماما عن ذكر اسمه أمامها . وكانت إلينور تود لو امتنعوا أيضا عن ذكره أمامها هى ، ولكن ذلك لم يكن ممكنا ، فاضطرت أن تستمع لهم وهم يصبون جام غضبهم عليه يوما بعد يوم .

ولم يكن سيرجون يستطيع أن يتصور أن يكون هذا ممكنا ، إذ كان لديه

دائماً من الأسباب ما يحمله على حسن الظن بولبى ! وكان يعتقد أنه رجل طيب القلب ! وأنه ليس فى إنجلترا أشجع منه فارساً . لقد كان هذا عملا لا يمكن تفسيره . وكان سيرجون يدعو عليه من صميم فؤاده ، ويقول: إنه لن يكلمه أبدا حيث وجده ! كلا ، ولو اجتمعا معا فى مكمن الصيد فى بارتون ، واضطر إلى الانتظار معه مدة ساعتين . يالله من وغد أثيم ! وكلب مخادع ! لقد كانت آخر مرة التقيا فيها هى المدة التى عرض عليه فيها جروا من جراء فولى . وهذه نهاية العهد بينهما !

وعبرت مسز بالمر عن غضبها كذلك بطريقتها الخاصة، فقالت : إنها صممت ألا تسعى إلى التعرف إليه ، وحمدت الله لأنها لم تتعرف إليه على الإطلاق ، وتمنت من سويداء قلبها لو أن كومب ماجنا لم تكن من قرى كليفلاند ، ولكن هذا لا يهم لأنها أبعد من أن تزار . و بلغ من بغضها له أنها صممت ألا تذكر اسمه مرة أخرى ، وأن تحدث كل إنسان عما رأت وتقول : إنه رجل عاطل لا يصلح لشىء .

أما البقية الباقية من عطف مسز جننجز فقد تجلت فى اعتزامها استقصاء كافة المعلومات التى يمكنها الحصول عليها فيما يتعلق بزواجه المقبل ، وإبلاغ ذلك إلى إلينور ، ووعدت أن تخبرها قريبا باسم صانع العربات الذى يعمل له العربة الجديدة ، والمصور الذى سيرسم صورته ، والمحل الذى يمكن فيه مشاهدة ملابس مس جراى .

وكان ما أبدته ليدى ميدلتون — فى هدوء وأدب — من عدم اهتمام بهذا الحادث ، مما روّح عن نفس إلينور — التى ضاقت بما أبداه غيرها من مظاهر

العطف الصاخبة ، وكان من أكبر أسباب العزاء لها أن ترى شخصاً واحداً من بين أصدقائهن لا يبدى شيئاً من الاهتمام ، أن ترى شخصاً واحداً لا يدفعه الفضول إلى السؤال عما حدث أو إبداء شيء من القلق على صحة أختها .

إن كل صفة من الصفات ترتفع أحيانا بسبب الملابسات الراهنة التى تحيط بها إلى أكثر من قيمتها الحقيقية ، لذلك كانت إلينور تضيق بالعزاء المصطنع وترى أن حسن الذوق أدعى إلى المواساة من طيبة القلب .

وكانت ليدى ميدلتون تعبر عن شعورها إزاء هذا الحادث مرة أو مرتين فى اليوم إذا خاض المتحدثون فيه كثيراً ، فتقول : « إنه فظيع حقا ! » وبهذا الحكم الدائم — وإن كان حكما رفيقاً — استطاعت أن تلقى الآنستين داشوود منذ البداية دون أن يظهر عليها أدنى انفعال ، ولكنها سرعان ما استطاعت أن تلقاهما دون أن تذكر أية كلمة عن الحادث . وبعد أن حافظت على كرامة جنسها وأعربت عن استنكارها لأخطاء الجنس الآخر ، رأت أنها فى سعة من القيام بواجبها نحو صديقاتها ، فقررت (وإن خالف ذلك رأى سيرجون) أن تترك بطاقتها لمسز ولبى متى تزوجت لأنها امرأة تجمع بين الأناقة والثروة .

ولم تكن مسز داشوود تضيق قط بأسئلة كولونيل براندون الدقيقة الخالية من التطفل ، وكان براندون قد ظفر بميزة البحث الدقيق فى مصاب أختها ، بما أبداه من غيرة صادقة فى العمل على تخفيفه ، ولذلك كانت إلينور تتحدث معه دائماً دون كلفة . وكان جزاؤه الأكبر على المجهود الأليم الذى بذله فى الإفضاء بما كابده من أحزان فى ماضيه ، وما يعانيه من المتاعب فى حاضره ، يتمثل فى نظرات مريان الحانية التى ترمقه بها أحياناً ، وفى رقة صوتها (وإن لم يحدثه

ذلك دائماً حينما تكون مكرهة أو تكره نفسها على الكلام معه ، وهذان الأمران أكدا له أن مجهوده أسفر عن زيادة حسن ظنها به ، وشجعا إلينور على الأمل فى زيادة حسن ظنها فى المستقبل . ولكن مسز جننجز لم تعرف شيئاً من كل ذلك ، ولم تعرف إلا أن الكولونيل لا يزال ساهم الوجه كعادته ، وأنها لم تستطع أن تحمله على طلب يدها أو تفويضها هى فى الأمر بالنيابة عنه ، ولذلك رأت بعد يومين أنهما لن يتزوجا إلا فى عيد الملاك ميخائيل بدلا من عيد ميلاد يوحنا المعمدان ، وأنه لن يتم الزواج قطعاً فى نهاية الأسبوع ، وقد دل حسن التفاهم بين الكونيل ومس داشوود ، على أنها هى التى سوف تظفر بشرف الحصول على شجرة التوت ، والقناة ، وشجرة السدر ، وفعلا أمسكت مسز جننجز بعض الوقت عن التفكير فى مستر فيرارز إطلاقاً .

وفى أوائل فبراير وفى غضون أسبوعين من تسلم خطاب ولبى قامت إلينور بتلك المهمة الأليمة ألا وهى إخبار أختها بزواجه ، وحرصت أن تبلغها الخبر بنفسها بمجرد علمها بانتهاء حفلة الزفاف ، لأنها لم ترد أن تتلقى مريان الخبر من الصحف العامة التى رأت مريان تتفحصها باهتمام صباح كل يوم .

وتلقت مريان الخبر بهدوء شامل ، ولم تعلق عليه ، ولم تذرف الدمع فى بداية الأمر ، ولكنها أخذت تجهش بالبكاء بعد قليل ، وظلت بقية اليوم فى حالة تدعو إلى الرثاء كحالها عندما توقعت هذا الحادث .

وغادر ولبى وزوجته لندن بمجرد زواجهما ، وأخذت إلينور ترجو الآن بعد أن أمنت أن ترى أحداً منهما ، أن تحمل أختها ــ التى لم تخرج من المنزل منذ أن تلقت الصدمة أول مرة ــ على أن تخرج مرة أخرى بالتدريج كما كانت تصنع من قبل .

وفى ذلك الوقت وصلت الآنستان ستيل مؤخراً إلى بيت ابن عمهما فى بارتلتز بلدنج بهلبورن ، وزارتا أقاربهما العظام فى كندوى وبركلى ستريت فرحبوا بهما بكل حفاوة .

ولم يأسف أحد لرؤيتهما سوى إلينور التى كانت تضيق دائماً برؤيتهما ، ولم تدر كيف ترد رداً كريماً على فرحة لوسى عندما وجدتها لاتزال فى لندن .

قالت لوسى : « كنت أشعر بخيبة الأمل لو لم أجد أنك لازلت فى لندن » وظلت تردد هذه العبارة مؤكدة كلمة « لازالت » ولكنى كنت أظن دائماً أنى سأشعر بخيبة الأمل . وكنت واثقة تقريباً — مع ذلك — أنك لن تبارحى لندن بعد قليل وإن كنت أخبرتنى فى بارتون — كما تعلمين — أنك لن تقيمى فيها أكثر من شهر ولكنى اعتقدت فى ذلك الحين أنك ستغيرين رأيك فى الغالب عندما يحين البحث فى هذا الشأن . ولا شك أنه كان من دواعى الأسف الشديد أن تغادرى لندن قبل أن يحضر أخوك وأختك والآن أعتقد أنه لا حاجة بك إلى الإسراع فى السفر . إننى فى غاية السرور لأنك لم تتمسكى برأيك . »

وكانت إلينور تفهم قصدها تماماً ، فاضطرت أن تعتصم بضبط النفس وتتظاهر بأنها لم تفهم قصدها .

قالت مسز جننجز : « وكيف سافرت ياعزيزتى ؟ »

فأجابت مس ستيل بابتهاج شديد : « أؤكد لك أننى لم أسافر فى العربة ، بل جئنا بأقصى سرعة . وكان يرافقنا شاب أنيق ، إذ كان الدكتور ديفيز يريد السفر إلى لندن ، فرأينا أن نركب معه فى مركبة بريد ، وعاملنا بكل رقة ولطف

ودفع عشرة شلنات أو اثنى عشر شلنا أكثر مما دفعنا . »

فصاحت مسز جننجز : « وافرحتاه ! جميل حقا ! أؤكد لكما أن الدكتور رجل أعزب . »

فقالت مس ستيل وهى تتكلف الابتسام : «هاقد صح ما توقعت ! كل إنسان يضحك منى بسبب هذا الدكتور ولا أدرى لماذا ؟ فبنات عمى يقلن إننى قمت بغزوة موفقة ، ولكنى أصرح أننى لم أفكر فيه ساعة واحدة . قالت بنت عمى منذ أيام قلائل ، عندما رأته يعبر الشارع إلى المنزل . « رباه ! ها قد جاء حبيبك يانانسى ! » فقلت : « حبيبى ، حقاً ! »

« إننى لا أدرى من تعنين : إن الدكتور ليس حبيبى . »

« نعم نعم ، هذا كلام جميل ، ولكن لا طائل وراءه ــ أنا أعرف أن الدكتور هو الرجل . »

فأجابت بنت عمها وهى تصطنع الجد : « كلا حقا ! وأنا أرجوك نفى هذا الخبر متى سمعت أحدا يتحدث به . »

فأكدت لها مسز جننجز على الفور أنها لن تتحدث عن ذلك ، فارتاحت مس ستيل لذلك كل الارتياح .

وعادت لوسى إلى الحديث بعد أن كفت عن إبداء بعض الغمزات :

« أظن أنك يامسز داشوود ستذهبين وتقيمين مع أخيك وأختك عندما يأتيان إلى لندن . »

« كلا ، لا أظن أننا نفعل ذلك . »

« أوه ! بلى . أعتقد أنك ستفعلين ذلك . »

ولم تشأ إلينور أن تجاريها فى الحديث بإبداء المعارضة .

« ماأعجب أن تستغنى مسز داشوود عنكما مثل هذا الوقت الطويل ! »

فاعترضت مسز جننجز : « الوقت الطويل ! كلا ! إن زيارتهما لم تبدأ إلا منذ قليل ! »

فلم تحر لوسى جوابا .

وقالت مس ستيل : « إننى آسفة لأنى لم أر أختك يامس داشوود . آسفة لأنها متوعكة المزاج ... » وكانت مريان بارحت الحجرة عند قدومهما .

« هذا شعور طيب جدا . إن أختى ستأسف أيضا لأنها لم تسعد برؤيتك إذ أصيبت بصداع شديد يمنعها من مقابلة الزائرين أو التحدث معهم . »

« يالله ! ياللأسف الشديد ! ولكن صديقاتها القديمات مثل لوسى ومثلى ! أظن أنه لاضير من أن ترانا ، وأعتقد أننا لن نقول كلمة . »

فرفضت إلينور هذا الاقتراح بأدب جم بحجة أن أختها ربما كانت راقدة فى الفراش أو مرتدية لباس النوم ، وبذلك لاتستطيع أن تحضر لمقابلتهما . »

فصاحت مس ستيل : « إذا كان هذا هو كل مافى الأمر ، كان خليقا بنا أن نذهب نحن ونراها . »

وأحست إلينور أن لاقبل لها بهذه الوقاحة ، ولكن لوسى كفتها مؤونة الرد ، فزجرت أختها زجراً شديداً كفكف من غلوائها كما حدث فى مناسبات أخرى سابقة ، وإن كان هذا الزجر لم يضف كثيراً من الجمال على أخلاق لوسى .

الفصل الثالث والثلاثون

أذعنت مريان لرجاء أختها بعد أن أبدت بعض المعارضة، فوافقت على الخروج معها ومع مسز جننجز صباح ذات يوم لمدة نصف ساعة، واشترطت عليهما بصراحة عدم القيام بأية زيارة، وأبت أن تفعل أكثر من مرافقتهما إلى محل جراى فى ساكفيل ستريت حيث أرادت إلينور أن تفاوض المحل فى استبدال بعض الجواهر القديمة لأمها.

وعندما وقفن بالباب، تذكرت مسز جننجز أن هناك سيدة فى الطرف الآخر فى الشارع ينبغى لها أن تزورها. ولما لم يكن لها أرب فى محل جراى، فقد رأت أن تزور هذه السيدة ريثما تقوم صاحبتها بقضاء حاجتها ثم تعود إليهما.

وعندما صعدت الآنستان داشوود السلم وجدتا كثيراً من الناس أمامهما فى قاعة المبيعات، حتى لم يكن هناك بائع يتفرغ لهما لقضاء طلبهما، فاضطرتا إلى الانتظار، وكل ما استطاعتا أن تفعلاه هو الجلوس فى نهاية نضد الصراف، وكان يبدو لهما أن هذا المكان يتيح لهما أسرع فرصة لقضاء مأربهما إذ كان الواقف هناك رجلا واحداً، وكانت إلينور تأمل أن يحدوه الأدب إلى إنجاز مهمته بسرعة، ولكن نظراته المهذبة، وذوقه الرقيق كانا يفوقان أدبه. وكان هذا الرجل يريد شراء علبة من خلال الإسنان لنفسه، و إلى أن انتهى خياله المبدع من تحديد حجم العلبة وشكلها وزركشتها مما استغرق مدة ربع ساعة، فحص خلالها كل علبة فى المحل، لم يكن لديه من الوقت ما يكفى للاهتمام بالسيدتين اللهم إلا ثلاث نظرات عريضة أو أربع حدجهما بها، مما حمل إلينور على الاعتقاد بأنه رجل تافه بحق، وإن كان يزدان ببزة جميلة من أحدث طراز.

وكفت سريان نفسها مئونة الشعور بالاحتقار والاستياء لهذه النظرات الوقحة التي حدجهما بها ، والغرور الذي بدا في طريقة إبداء رأيه في كل ما دق وجل من علب الخلال التي قُدمت إليه لفحصها ، إذ ظلت لاتحس بما يدور حولها لأنها استطاعت أن تحصر تفكيرها في دائرة نفسها ، وتجهل ما يدور حولها في محل جراي كما لو كانت في فراش نومها .

وأخيراً استقر رأيه على ما يشتريه ، وتحدد موعد تسليم العاج والذهب والدر . وبعد أن حدد آخر يوم يستطيع فيه أن يواصل الحياة بدون علبة الخلال لبس قفازيه بعناية وتؤدة ثم ألقى نظرة أخرى على الآنستين داشوود ، ولكنها نظرة تدل فيما يبدو على أنه يطالبهما بالإعجاب به بدلاً من أن تعبر عن إعجابه بهما ، وخرج يزْهَى بنفسه ، ويصطنع عدم الاهتمام بهما .

وأسرعت إلينور بعرض طلبها ، وإنها لتوشك أن تنتهي منه ، وإذا بها ترى رجلا آخر بجانبها ، فأدارت عينها إليه واعترتها بعض الدهشة حين رأت أنه أخوها .

وكان ماتجلى من حبهما وسرورهما في هذا اللقاء منظراً جديراً بالفخر في محل جراي ، والواقع أن جون داشوود كان أبعد من أن يأسف لرؤية أختيه مرة أخرى ، على العكس أبدى ارتياحه لهذا اللقاء ، وكانت أسئلته عن أمهما تنم على الاحترام والاهتمام

وعلمت إلينور أنه وصل هو وفاني إلى لندن منذ يومين .

قال : « كان بودي أن أزوركن بالأمس . ولكن ذلك كان مستحيلا لأننا اضطررنا أن نأخذ هاري ليشاهد الحيوانات المتوحشة في إكسترا كتشينج ، وقضينا بقية اليوم مع مسز فيرارز ، وسر هاري سروراً عظيماً بما شاهده . ونويت صباح

هذا اليوم أن أزوركن إذا أتيح لى من الوقت نصف ساعة ، ولكن الإنسان يواجه دائماً كثيراً من الأشغال حالما يأتى إلى لندن . لقد جئت هنا لأعمل خاتما لفانى ، ولكنى أعتقد أنه سيقسنى لى غدا أن أزور بركلى ستريت ، وأتعرف إلى صديقتك مسز جننجز ، وقد علمت أنها امرأة طائلة الثراء . وكذلك أرجو أن تعرفينى بآل ميدلتون ، ويسعدنى أن أظهر لهم كل احترام باعتبارهم أقارب زوجة أبى . لقد علمت أنهم نعم الجيران لكن فى الريف » .

« حقا إنهم نعم الجيران . إن اهتمامهم براحتنا ، وتوددهم إلينا أكثر مما أستطيع التعبير عنه . »

« الحق أننى فى غاية السرور لسماع ذلك . ولكن هذا ماينبغى أن يكون ، فهم قوم أثرياء ، وهم يمتون إليكن بصلة القربى ، وليس بغريب أن يظهروا لكن من ضروب المجاملة والحفاوة مايرفه عنكن ، ولذلك فأنتن تنعمن بالرفاهية والهناءة فى منزلكن الريفى الصغير ولا تردن شيئاً ! لقد نقل إلينا إدوارد وصفا رائعا للمنزل ، فقال : إنه منزل نموذجى فى نوعه ، وأنكن تنعمن بالإقامة فيه إلى حد لامزيد عليه . وقد شعرنا بارتياح عظيم لسماع هذا النبأ . »

وشعرت إلينور بشىء من الخجل من أخيها ، ولم تأسف لعدم استطاعتها الرد عليه ، إذ قدم خادم مسز جننجز فقال : إن سيدته تنتظرهما لدى الباب .

ورافقهما مستر داشوود فى النزول على الدرج ، وتعرف إلى مسز جننجز عند باب عربتها واستأذن فى الانصراف ، بعد أن ردد أمله فى أن يتسنى له زيارتهما فى الغد .

وقدم للزيارة فى الوقت المناسب ، وقال : إن زوجته تعتذر عن عدم الحضور

لارتباطهما مع أمها بمواعيد كثيرة بحيث لاتجد وقتا لزيارة أى مكان . على أن مسز جننجز أكدت له من فورها أن لاداعى للتمسك بالشكليات لأنهن كلهن أقارب أو مايشبه ذلك ، وأنها ستزور مسز جون داشوود قريبا وتصطحب معها أخواتها ليشاهدنها . وكان أسلوب معاملته لهما ينم على العطف ، وإن اقترن بالهدوء ، ومعاملته لمسز جننجز غاية فى الأدب . وعندما قدم كولونيل براندون بعده بقليل نظر إليه مستر داشوود نظرة استطلاع تنبىء بأن كل مايريده هو أن أن يعرف عنه أنه رجل غنى ، حتى يعامله بأدب واحترام كذلك .

وبعد أن مكث معهن نصف ساعة طلب إلى إلينور أن تمشى معه إلى كوندوى ستريت لتعرفه بسيرجون وليدى ميدلتون ، وكان الطقس رائعاً ، فوافقت بلا تردد . وما إن خرجا من المنزل حتى جاءت أسئلته تترى :

« من هو كولونيل براندون ؟ هل هو رجل غنى ؟ »

« نعم ، له أملاك كثيرة فى دورستشاير ... »

« إنى مسرور لسماع ذلك . يبدو أنه رجل مهذب ، وأعتقد يا إلينور أن فى وسعى أن أهنئك بأنك ستتبوئين منزلا كريما فى المستقبل . »

« أنا يا أخى ! ماذا تعنى ؟ »

« إنه يحبك . لقد راقبتهُ عن كثَب . وأنا مقتنع بهذا . ما مقدار ثروته ؟ »

« أعتقد أنها حوالى ألفين فى العام . »

« ألفان فى العام ! » ثم حاول أن يصطنع لهجة الكرم والسخاء الفياض فأضاف : « إلينور ! بودى لو كانت هذه الثروة ضعف ذلك حتى تنعمى بها . »

فأجابت إلينور : « حقاً إننى أصدقك ، ولكن كولونيل براندون ليست لديه أدنى رغبة فى الزواج بى . »

« أنت مخطئة يا إلينور ! أنت مخطئة جداً ! إن جهداً يسيراً من جهتك كفيل بأن يقع فى شباكك . ربما كان مترددا فى الوقت الحاضر ، فضآلة ثروتك قد تحمله على الإحجام ، وجميع أصدقائه قد يحذرونه من هذا الزواج ولكن بعض المجاملات والمُشَجعات اليسيرة التى تستطيع السيدات أن يقدمنها بسهولة كفيلة بتثبيت عزمه ، رغم أنفه . ولا أدرى سبباً يدعو إلى إحجامك عن محاولة اقتناصه . لا يتبادر إلىٰ ذهنك أنى أريد ن تـكونى أنت البادئة بحبه وخطب وده ـ بالاختصار أنت تعرفين أنه لا محل لشىء من هذا القبيل ـ فالاعتراضات عليه كثيرة لا يمكن تذليلها، ولديك من الحصافة والذكاء مايجعلك تفهمين ذلك. إن كولونيل براندون لابد أن يكون هو الرجل، ولن أتردد فى القيام بأية محاولة من جانبى لأحمله على الإعجاب بك وبأسرتك . إنه زواج سينال رضا الجميع حتما ، وبالاختصار هو أمر « وخفض من صوته إلى درجة الهمس » « سيلقى ترحيباً عظيما من جميع الأطراف » ولكنه استجمع نفسه وأضاف . «أريد أن أقول ـ إن جميع صديقاتك يحرصن جدّ الحرص على زواجك ، وبخاصـــة فانى التى أؤكد لك أنها تهتم بأمرك اهتماماً كبيراً جداً ، ثم أمها أيضاً ، مسز فيرارز وهى امرأة طيبة القلب . أؤكد لك أنه يسرها زواجك كثيراً . لقد قالت ذلك منذ أيام قلائل . » فلم ترد عليه إلينور .

واستطرد يقول : « قد يبدو عجيباً بل غريباً أن يتزوج أخو فانى وأختى فى وقت واحد ، ولكنه أمر ليس بعيد الاحتمال »

فقالت إلينور بقوة : « هل إدوارد فيرارز سيتزوج ؟ »

« لم يتقرر ذلك بالفعل ، ولكن يدور كلام فى ذلك . له أم طيبة جداً ، فمسز فيرارز ستقدم بكل سخاء على ترتيب ألف جنيه له فى العام إذا تم الزواج . واسم الزوجة الأنورابل مس مورتون ، وحيدة اللورد مورتون الراحل ، وهى تملك ثلاثين ألف جنيه - وهو زواج مرغوب فيه من الجانبين . ولا ريب عندى فى أنه سيتم فى الوقت المناسب . صحيح أنه كثير على الأم أن تهب ابنها ألف جنيه فى العام ، ولكن مسز فيرارز امرأة نبيلة الأخلاق . إليك مثلا آخر على سخائها : منذ أيام قلائل ، بمجرد قدومنا لندن ، أدركت أن نقودنا لا يمكن أن تكفينا فأعطت فانى أوراقاً مالية تبلغ قيمتها مائتى جنيه . وكان هذا منها صنيعا جميلا ، لأن الإقامة فى لندن تتطلب نفقات كثيرة . »

وأطرق هنيهة منتظراً أن تبدى موافقتها على قوله وعطفها عليه ، فاضطرت أن تقول :

« لاشك أن نفقاتك فى لندن والأقاليم كبيرة ، ولكن دخلك كبير ! »

« أو كذلك أنه ليس كبيراً كما يظن كثير من الناس . على أننى لا أقصد الشكوى . لاشك أن دخلى لا بأس به ، وأرجو أن يزيد فى المستقبل . إن أرض نورلاند كومون التى يجرى استصلاحها الآن تستنزف مواردى ، ثم إنى اشتريت

بعض الأرض فى غضون النصف الأخير من هذا العام وهى مزرعة « ايستكنجهام فارم » ولا بد أنك تذكرين هذه المزرعة التى كان جبسون الكبير يقيم فيها . وكنت شديد الرغبة فى تملكها من كل الوجوه لأنها تلاصق أملاكى ، ولذلك رأيت من الواجب شراءها ، ولم تطوع لى نفسى أن تقع هذه الأرض فى يد غيرى . ويجب على المرء أن يضحى بالمال فى سبيل مصلحته ولذلك كلفتنى مقداراً كبيراً من المال . »

« أ كثر مما تستحق فى ظنك ؟ »

« كلا ، أرجو ألا يكون الأمر كذلك ، إذ كان فى وسعى أن أبيعها فى اليوم التالى بأ كثر مما اشتريتها به . أما فيما يتعلق بثمن الشراء فربما كنت أكون سيء الحظ فى الواقع لأن السندات كان سعرها منخفضاً فى ذلك الوقت بحيث لو لم يكن الثمن المطلوب مودعا فى البنك لمنيت بخسارة كبيرة فى بيع سنداتى . »

ولم يسع إلينور أن تبتسم .

« وقد تكبدنا أيضا تفقات كبيرة لم يكن منها بد عندما جئنا إلى نورلاند أول مرة ، فوالدنا المحترم ، كما تعلمين جيدا ، أوصى لأمك بكل ما بقى فى نورلاند من أمتعة وأثاث ستاندهل (وكان هذا ذا قيمة كبيرة) وحاشانى أن أستشعر الندم على صنيعه هذا ، فمن حقه الذى لاشك فيه أن يتصرف فى أملاكه كما يشاء ، ولكن ترتب على ذلك أن اضطررنا إلى شراء مقدار كبير من البياضات والخزف الصينى ... إلخ لنعوض ما أخذ منا . ويمكنك أن تقدرى من هذا أننا

بعد أن تكبدنا كل هذه النفقات أبعد من أن نكون أغنياء ، وأن تقدرى كم كان لمكرمة مسز فيرارز من وقع جميل فى نفوسنا .»

قالت إلينور : « بالتأكيد ، وأرجو لك أن تعيش فى رغد بفضل كرمها وسخائها . »

فأجاب برصانة ووقار : « قد نعيش فى ذلك بعد سنة أو سنتين . على أن الأمر لايزال يتطلب الكثير من الجهد ، فلم يوضع أى حجر فى مكن فانى ، ولم نعمل سوى تصميم الحديقة . »

« وأين سيبنى المكن .؟ »

« على الأكمة الواقعة خلف البيت وقد اجتثت أشجار الجوز العتيقةلتفسح المكان له . سيكون منظره جميلا إذاشاهده الإنسان من كثير منأجزاءالحديقة . وستكون حديقة الأزهار منحدرة أمامه . وستكون حديقة رائعة . وقد استأصلنا جميع الأشواك القديمة التى نمت فى أجزاء متفرقة على جانب التل . »

وكظمت إلينور غيظها ، وعتبها عليه ، وحمدت الله لأن مريان لم تكن موجودة فتشاركها فى هذا الاستفزاز . و بعد أن قال مافيه الكفاية لإثبات فقر والتخلص من ضرورة شراء قرط لكل من أختيه فى زيارته التالية لمحل جراى بدت عليه مظاهر البهجة والسرور ، وأخذ يهنىء إلينور بصداقة مسز جننجز .

« يبدو أنها امرأة ذات ثروة طائلة ، فبيتها وأسلوب حياتها يدلان على دخل كبير . ولن تقف الفائدة التى عادت عليك من معرفتها عند الحد الذى

وصلت إليه حتى الآن ، بل ستعود عليك هذه المعرفة بالفائدة المادية فى النهاية .
من المحقق أن دعوتها لـكما إلى لندن ستعود عليك بفائدة كبرى ، كما أنها تدل
أصدق دلالة على حبها لك . وأكبر الظن أنها لن تنساك عند موتها فمن المؤكد
أن لها ثروة كبيرة ستتركها بعد موتها . »

« لاشىء على الإطلاق فيما أظن لأنها لاتملك سوى بائنة عقارية ستؤول
إلى أولادها بعد مماتها . »

« ولـكن لايمكن الإنسان أن يتصور أنها تنفق كل دخلها ، فقليل من
أهل الفطنة من يفعل ذلك ، وكل ماتدخره تستطيع هى التصرف فيه . »

« ألا تظن أن ترك ذلك لبناتها أقرب إلى الاحتمال من تركه لنا ؟ »

« إن بنتيها كلتيهما كل منهما متزوجة بزوج من الأثرياء ، وبذلك لا أستطيع
أن أرى ضرورة تدعوها إلى زيادة ثروتهما فى حين أنى أرى أن اهتماما تبديه من اهتمام
بك ، وبمعاملتها لك على هذا النحو ، قد جعلت لك حقاً فى رعايتها لك فى المستقبل ،
وهو أمر لا تستطيع امرأة ذات ضمير حى أن تغفله . ليس ثمت ما هو أكرم من
معاملتها لك ، ولا يمكن أن تقدم على ذلك دون أن تدرك الآمال التى تثيرها
هذه المعاملة فى النفوس . »

« ولـكنها لا تثير شيئا من الآمال فى نفس الذين يعنيهم الأمر كثيراً .
والواقع أنك ياأخى تغالى فى اهتمامك برفاهيتنا ورخائنا . »

فقال ، وهو يحاول أن يستجمع قواه : « إنى لأعجب لأن الناس لايملـكون

إلا القليل — القليل جدا . ولـكن يا عزيزتي إلينور ، ماذا أصاب مريان ؟ — إنها تبدو على غير ما يرام ، فقد تغير لونها ، ونحف جسمها . هل هي مريضة ؟ »

« صحتها متوعكة ، وهي تشكو من ضعف أعصابها منذ عدة أسابيع . »

« يؤسفني ذلك ! إن أي مرض يعتريها في هذه السن يذهب بنضارتها إلى الأبد . لقد تمتعت بهذه النضارة كأجمل ما رأيت من الفتيات الجميلات ، أمداً قصيراً ! لقد كانت في سبتمبر الماضي تضارع في جمالها أية فتاة جميلة . وكان في جمالها معنى يأسر قلوب الرجال . إنني أذكر أن فاني كانت تردد أنها ستتزوج قبلك ، وستتزوج زوجا خيراً من زوجك . ليس معنى ذلك أنها لا تحبك أنت كثيراً . ولـكن هكذا بدا لها . على أنها ستتبين أنها كانت مخطئة . وإني أشك أن تتزوج مريان الآن رجلاً تزيد ثروته على خمسمائة أو ستمائة جنيه في العام على الأكثر . ولأعدو الصواب إذا قلت إن حظك في الزواج سيكون خيراً من حظها . دورستشاير ! لا أعرف إلا القليل عن دورستشاير . ولـكن ياعزيزتي إلينور يسرني غاية السرور أن أعرف الـكثير عنها . وفي وسعي أن أؤكد أنني سأكون أنا وفاني في مقدمة من يهمهم زيارتك . »

وحاولت إلينور أن تقنعه أنه لا أمل في زواجها من كولونيل براندون ، ولـكن هذا الأمل كان يسره إلى حد لم يستطع معه أن يتخلى عنه ، وصمم على توثيق عرى المودة مع ذلك الرجل ، وتشجيع هذا الزواج بكل وسيلة ، وذلك أنه كان يشعر بوخز الضمير لأنه لم يسد جميلاً لأخواته ، فـكان حريصا على أن

يسدى لمن غيره الشىء الكثير . وكانت أسهل وسيلة للتكفير عن إهماله هى الزواج من كولونيل براندون .

وقد أسعدهم الحظ بوجود ليدى ميدلتون فى المنزل ، وحضور سيرجون قبل انتهاء زيارتهم ، وتبادل الجانبان الكثير من عبارات المجاملة ، وكان سير جون على استعداد لأن يحب كل إنسان ، فوصف مستر داشوود بأنه رجل دمث الأخلاق ، وإن لم يعرف الكثير من صفات الخيل . ورأت ليدى ميدلتون أن مظهره يدل على انتمائه إلى الطبقة الراقية فى المجتمع ، ولذلك فهو جدير بالتعرف إليه . وانصرف مستر داشوود وهو يبدى إعجابه بهما .

وقال عندما عاد مع أخته: سأحدث فانى حديثا ممتعا عما رأيت . ليدى ميدلتون امرأة غاية فى الظرف ! وأنا على ثقة من أن فانى يسرها أن تعرف مثل هذه السيدة . ومسز جننجز امرأة مؤدبة للغاية ، وإن لم تكن ظريفة كبنتها ، ولا داعى لأن تتحرج أختك من زيارتها ، والحق أنها ظلت تتحرج من زيارتها وهو أمر طبيعى لأن كل ما كنا نعرفه هو أن مسز جننجز أرملة رجل كسب ماله من طريق خسيس . ولذلك كانت فانى ومسز فيرارز تريان أن مسز جننجز وبناتها لسن أهلا لأن تختلط فانى بهن . ولكن فى وسعى الآن أن أحدثها عنهما حديثا مرضيا . »

الفصل الرابع والثلاثون

كانت مسز جون داشوود تثق كثيراً برأى زوجها ، فزارت فى اليوم التالى مسز جننجز و بنتيها ، ورأت أن ثقتها فى محلها ، إذ وجدت أن الأولى وهى المرأة التى تقيم عنـدها أختا زوجها ليست غير جديرة بالزيارة إطلاقا . أما ليدى ميدلتون فوجدتها من أظرف النساء فى العالم !

وسرت ليدى ميدلتون من مسز داشوود أيضا ، وكانت كلتاهما تتصف بلون من الأنانية المقرونة بقساوة القلب ، مما أدى إلى التجاذب بينهما . وكانت كل منهما تشارك الأخرى فى قلة المجاملة للناس وفى الافتقار إلى الذكاء والفهم.

على أن الأخلاق التى حببت مسز جون داشوود إلى ليدى ميدلتون ، لم ترق فى نظر مسز جننجز إذ رأت أنها ليست سوى امرأة متـكبرة ، لاتعرف المجاملة ، فقد قابلت أختَىْ زوجها مقابلة خالية من مظاهر الود ، ولم تتحدث إليهن بكلمة تقريبا ، وظلت صامتة سبع دقائق ونصف دقيقة على الأقل فى ربع الساعة الذى مكثته فى بركلى ستريت .

وكانت إلينور تتوق إلى أن تعرف — وإن لم تشأ أن تسأل — هل إدوارد فى لندن حينئذ . ولـكن فانى ما كانت لتذكر اسمه أمامها من تلقاء نفسها إلا بعد أن يتسنى لها أن تخبرها بأن زواجه من مس مورتون قد أصبح أمراً مقرراً ، أو أن يتحقق ظن زوجها فى كولونيل براندون ؛ لأنها كانت تعتقد أنهما لايزالان يحب بعضهما بعضا بحيث لايختلفان فى قول أو فعل فى جميع الأوقات .

على أن النبأ الذى أبت هى أن تفضى به جاء من جانب آخر إذ حضرت لوسى بعد قليل لتدعى أن إلينور ستأسف لعدم استطاعتها رؤية إدوارد على الرغم من قدومه إلى لندن مع مستر ومسز داشوود ، وهو لايجرؤ على الحضور إلى بارلتز بلدنج خشية اكتشاف أمره ، وهما لايستطيعان أن يفعلا شيئاً فى الوقت الحاضر سوى المراسلة ، على الرغم من أنه لايجوز التحدث بشأن اشتياق كل منهم للقاء الآخر .

وقد تأكدن بعد قليل من وجود إدوارد فى لندن إذ زارهن فى بركلى ستريت مرتين ، ووجدن أنه ترك بطاقته مرتين على المائدة ، عندما عدن من مواعيدهن الصباحية . وسرت إلينور بزيارته ولكنها سرت أكثر لأنها فاتها لقاؤه .

وسر آل داشوود سروراً كبيراً بلقاء آل ميدلتون إلى حد أنهما قرر دعوتهما إلى مأدبة غداء . وما إن تم التعارف بينهما حتى دعواهما إلى الغداء فى هارلى ستريت حيث استأجرا بيتا جميلا لمدة ثلاثة شهور . ووجها الدعوة أيض إلى أختيهما ومسز جننجز . وحرص جون داشوود على دعوة كولونيل براندوز فقبل هذه الدعوة الرقيقة الملحة بشىء من الدهشة ولكن مع كثير من السرور إذ كان يسره أن يكون دائما حيث تكون الآنستان داشوود . وكان لابد أن تقابلا مسز فيرارز ولكن إلينور لم تستطع أن تعرف هل سيحضر ابناها إلى المأدبة ، على أن توقع رؤيتها كان كافيا لأن يثير اهتمام إلينور بهذه المأدبة لأنها كانت أشد ما تكون رغبة فى لقاء أم إدوارد ، ومعرفة أحوالها ، على الرغم من أنها تستطيع أن تلقاها الآن دون أن تشعر بذلك الاهتمام الشديد

الذى كان يحتمل فيما مضى أن يكتنف هذا اللقاء ، ومن أنها تستطيع الآن أن تراها دون أن تبالى إطلاقا برأيها فيها .

وسرعان ما ازداد اهتمامها بهذه المأدبة على نحو يغلب فيه عنصر القوة على عنصر السرور ، عندما علمت بدعوة الآنستين ستيل إليها .

وكانت الآنستان ستيل قد تركتا أثراً حسناً فى نفس ليدى ميدلتون بما أبدتاه من ضروب الاهتمام بهما ، فدعتهما هى وسير جون إلى قضاء أسبوع أو أسبوعين فى كوندوى ستريت ، على الرغم من أن لوسى لم تكن ظريفة ، وأن أختها لم تكن رقيقة. وكان من حسن حظ الآنستين ستيل بصفة خاصة — بمجرد أن عرفت دعوة آل داشوود — أن تبدأ زيارتهما قبل المأدبة ببضعة أيام وربما كانت جدارتهما باهتمام مسز جون داشوود ، بوصفهما بنتى أخت الرجل الذى ربى أخاها ، لا تحملها كثيراً على دعوتهما إلى المأدبة ، ولكن الواجب كان يحتم عليها أن ترحب بهما بوصفهما ضيفتى ليدى ميدلتون . وقلما كانت لوسى قط أسعد منها عندما تلقت بطاقة مسز جون داشوود ، إذ كانت تتوق منذ زمن طويل إلى أن تعرف أفراد الأسرة شخصيا ، وتتعرف عن كثب على أخلاقهم والعقبات التى تقف فى سبيلها ، وأن تتاح لها الفرصة لكسب رضاهم .

وكان أثر ذلك فى إلينور مختلفاً ، إذ جزمت على الفور أن إدوارد الذى يقيم مع أمه لا بد أن أخته قد دعته مع أمه إلى المأدبة . وما أعجب أن تراه لأول مرة بعد كل ما حدث فى صحبة لوسى ! — لم تدر كيف تطيق ذلك .

وربما كانت هذه المخاوف لا تقوم على المنطق تماماً ولا على الحقيقة إطلاقا ولكن الذى خفف منها ، لم يكن هو رباطة الجأش التى اعتصمت بها ، بل هو

حسن نية لوسى التى اعتقدت أن إلينور ستشعر بخيبة أمل شديدة إذا أخبرتها أن إدوارد لن يحضر إلى هارلى ستريت يوم الثلاثاء ، بل لقد أملت أنها ستزداد ألماً حين أوهمتها أن الدافع لإدوارد على عـدم الحضور هو أنه يحبها حبـاً لا يستطيع إخفاءه حينما يجتمعان سوياً .

وجاء يوم الثلاثاء الخطير الذى تقرر فيه تقديم الفتاتين إلى هذه الحماة الرهيبة.

وقالت لوسى لإلينور ، وهما يصعدان الدرج سويا ، إذ وصل آل ميدلتون عقب مسز جننجز مباشرة بحيث تبعوا الخادم جميعا فى وقت واحد : « حنانيك عزيزتى مس داشوود ! لا أحد هنا إلاك يستطيع أن يعطف على ! إننى أحس أن قدمى ترتجفان من تحتى . رحماك اللهم ! إن هى إلا لحظة ثم أشاهد المرأة التى تتوقف عليها سعادتى ، التى ستكون حماتى . » —

وكان فى وســع إلينور أن تخفف عنها فى الحال ، فتقول : إن المرأة التى سيشاهدانها بعد قليل يحتمل أن تكون حماة مس مورتون لا حماتها هى ! ولـكنها أكدت لها — بدلا من ذلك — وبكل إخلاص ، أنها تشفق عليها ، وهو الأمر الذى أدهش لوسى كل الدهشة ، لأنها كانت تأمل على الأقل — مع مابها من ضجر وقلق — أن تشعل نار الغيرة فى قلب إلينور .

كانت مسز فيرارز امرأة قصيرة نحيفة ، معتـدلة القـامة إلى درجة تشعر بالفظاظة ، مهيبة المنظر إلى درجة العبوسة . وكان وجهها شاحباً ، وقسماته صغيرة ، خلوا من الجمال ، وخـلوا من التعبير . ولـكن جبينها كان متغضناً لحسن الحظ ، فأنقـذ وجهها من وصمة البلادة بأن أضفى عليه سمات الـكبرياء وخبث الطوية .

ولم تكن امرأة كثيرة الكلام بل كانت ألفاظها على قدر معانيها ، على نقيض ما يفعله الناس عامة. ولم تخص مسز داشوود بكلمة من الكلمات القليلة التى أفلتت من فمها بل حدجتها بنظرة تنم على أنها مصممة بقوة على بغضها مهما كانت الأحوال .

ولكن إلينور لم تشعر الآن بالاستياء لهذه المعاملة التى كان يمكن أن تؤلمها كثيراً منذ بضعة شهور، ولم يكن فى وسع مسز غيرارز أن تسىء إليها بهذا السلوك الآن — ولم يسعها إلا أن تضحك لاختلاف معاملتها للآنستين ستيل ، وهى المعاملة التى تعمدت بها أن تذل كبرياءها ، كما لم يسعها إلا أن تبتسم لما أبدته الأم وبنتها من رقة المعاملة نحو لوسى بالذات — لأنهما اختصتا لوسى بحسن المعاملة — وهى الفتاة التى لو عرفتا عنها ما تعرفه إلينور ، لكانتا أحرص الناس على إذلالها ، ولكنها حين ابتسمت لحسن المعاملة التى وضعت فى غير موضعها ، لم تفكر فى الغباء الدال على الدناءة الذى دفع إلى هذه المعاملة ، ولا فى ملاحظة ضروب المودة التى أبدتها الآنستان ستيل لاستدامة هذه المعاملة ، إلا وشعرت بالاحتقار التام للأربعة جميعاً .

وقد سرت لوسى غاية السرور لاختصاصها بشرف هذه المعاملة. وكان كل ما تريده مس ستيل حتى تشعر بغاية السرور أن يتندر عليها أحد بشأن الدكتور ديفيز .

كانت مأدبة الغداء مأدبة فخمة ، وكان عدد الخدم كبيراً ، وكل شىء يدل على حب ربة البيت للظهور ، وعلى مقدرة رب البيت فى مساعدتها على ذلك . وعلى الرغم من الإصلاحات والزيادات التى أجراها فى ضيعة نورلاند ، وعلى الرغم من أنه كان مضطراً يوما ما إلى بيعها بخسارة تبلغ بضعة آلاف من

الجنيهات ، لم يكن ثمت ما يدل على أى مظهر من مظاهر الفقر الذى حاول هو أن يستدل عليه من ذلك . لم يكن ثمت فقر من أى نوع كان اللهم إلا الفقر فى الحديث — ولكن الفقر فى ذلك كان كبيراً . لم يكن كثير مما قاله جون داشوود عن نفسه جديراً بالاستماع إليه ، وكان حظ زوجته من ذلك أقل من حظه . ولكنهما لم ينفردا بهذه الوصمة ، بل شاركهما فيها معظم الزائرين الذين أعوزهم حسن المحاضرة لاتصافهم بعيب من هذه العيوب : الافتقار إلى العقل سواء أكان كسبياً أم وهبياً — الافتقار إلى الظرف والكياسة — الافتقار إلى البشاشة والهشاشة — الافتقار إلى رقة الطباع .

ولما انتقلت السيدات بعد المأدبة إلى حجرة الاستقبال بدا هذا الفقر بشكل واضح لأن الرجال تناولوا الحديث فى موضوعات شتى متنوعة — فتحدثوا فى السياسة ، وتسييج الأراضى ، وترويض الجياد ، وهنا انتهى الأمر . ولكن موضوعاً واحداً شغل بال السيدات إلى أن حضرت القهوة — ألا وهو المقارنة بين طول هارى داشوود ، ووليم الابن الثانى لليدى ميدلتون ، وكان الولدان متقاربين فى السن .

ولو أن الولدين كانا هناك لأمكن البت فى الأمر بقياس طولهما على الفور ، ولم يحضر سوى هارى ، فقد كانت المقارنة بين طولهما قائمة على الحدس والتخمين من كلا الجانبين ، وكان من حق كل منهن أن تجزم برأيها وأن تردد هذا الرأى مراراً وتكراراً كلما حلا لها ذلك .

وكان موقفهن جميعاً على النحو الآتى :

سلمت كل من أم الولدين برأي الأخرى من باب المجاملة ، وإن كانت كل منهما تؤمن فى قرارة نفسها أن ابنها هو أطول الولدين .

أيدت كل من الجدتين بشدة رأى بنتها على نحو لايقل عنهما محاباة ، ولكن يزيد عليهما إخلاصا .

لم تكن لوسى على إرضاء أحداهما أقلّ منها حرصا على إرضاء الأخرى ، فرأت أن الولدين أطول كثيراً بالنسبة لسنهما ، ولم تر أدنى فرق بينهما إطلاقا . وأبدت مس ستيل رأيها بمهارة وبأسرع ما تستطيع فى صالح كل من الولدين .

وكانت إلينور قد أبدت رأيها ذات مرة فى صالح وليم ، فأغضبت مسز فيرارز ، وأغضبت فانى أكثر ، فلم تر ضرورة لتأكيد هذا الرأى مرة أخرى . ولما دعيت لإبداء رأيها أغضبتهن جميعاً بأن قالت : إنه لا رأى لها لأنها لم تفكر فى الأمر قط .

وكانت إلينور قبل انتقالها من نورلاند قد رسمت لزوجة أخيها صورتين بالألوان ، وثبتت الصورتين فى إطار وعلقتهما فى حجرة الاستقبال الحالية لتزيينها . وعندما دخل جون داشوود الحجرة وراء المدعوين ، وقع بصره على هاتين الصورتين فناولهما بطريقة تنطوى على الفضول إلى كولونيل براندون ليستثير إعجابه بهما .

قال : « هاتان الصورتان من صنع أختى الكبرى ! أعتقد أنك ستعجب بهما باعتبارك رجلا سليم الذوق . ولا أدرى هل سبق أن شاهدت إحدى صورها . ولكنها تعد على العموم ممن يجيدون فن الرسم . »

ولم يدّع كولونيل براندون أنه من أهل الخبرة ، ولكنه أبدى من الإعجاب

الشديد بالصورتين ما يبديه بأية صورة من عمل مس داشوود ، وتحركت غريزة حب الاستطلاع فى نفوس الآخرين بالطبع ، فأخذوا يتداولون الصورتين لفحصهما . ولم تكن مسز فيرارز تدرى أن الصورتين من عمل إلينور ، فطلبت بإلحاح أن تطلع عليهما ، فقدمتهما فانى لأمها بعد أن أعربت ليدى ميدلتون عن إعجابها بهما ، وتلطفت فأخبرت أمها فى الوقت نفسه أنهما من عمل مس داشوود .

فهمهمت مسز فيرارز وقالت : « جميلتان جدا » ثم أعادتهما إلى بنتها بدون أن تنظر إليهما على الإطلاق .

ويظهر أن فانى رأت سلوك أمها قد اتسم بالجفوة إذ قالت من فورها بعد أن تغير لونها قليلا :

« إنهما جميلتان جدا ياسيدتى ـ أليس كذلك ؟ » ولكنها عادت خشية أن تكون قد جاوزت حد المجاملة و بالغت فى عبارات التشجيع فأضافت فى الحال :

« ألا ترين ياسيدتى أن طريقتها فى التصوير تشبه إلى حد ما طريقة مس مورتون ؟ إنها ترسم أجمل الصور ! ما أجمل المنظر الطبيعى الذى رسمته آخر مرة ! »

« حقا إنه جميل ولكنها تجيد كل شيء . »

ولم تطق مريان ذلك ـ واشتد استياؤها من مسز فيرارز . وسرعان ما استفزها هذا الثناء غير المناسب على امرأة أخرى بقصد الغض من إلينور ، وإن لم يكن لديها أية فكرة عن القصد الرئيسى منه فقالت بحدة :

« هذا إعجاب كبير جداً ! أين مس مورتون منا ؟ من ذا الذى يعرفها أو يهتم بها ؟ إن إلينور هى التى نتكلم عنها ونفكر فيها . »

وبعد أن قالت ذلك أخذت الصورتين من يد زوجة أخيها لتبدى إعجابها بهما كما ينبغى أن يكون الإعجاب . وبدا الغضب الشديد على وجه مسز فيرارز ، ووقفت أشد ماتكون انتصابا ، وردت بهذا الكلام البذىء :

« مس مورتون هى ابنة اللورد مورتون ! »

وبدا الغضب على وجه فانى أيضا ، وامتلأ زوجها رعبا من جرأة أختـه . وتألمت إلينور لما أبدته أختها من الحمية والحدة أكثر مما تألمت للسبب الذى دفعها إلى ذلك . ولكن نظرات كولونيل براندون التى تركزت على مريان كانت تنطق بأنه لاحظ فى مريان أحب الصفات فيها ألا وهو القلب الودود الذى لايطيـق أدنى إهانة لأختها .

ولم تقف عاطفة مريان عند هذا الحد ، فقد خيل إليها أن مسلك مسز فيرارز الذى يتسم بالوقاحة والجفوة يخشى أن يسبب لأختها كثيراً من المتاعب والآلام التى أحس بها فؤادها الجريح إحساساً مقرونا بالفزع والهلع فاستفزتها سورة قوية من عاطفة الحب ، فانتقلت بعد هنيهة إلى كرسى أختها ، ولفت ذراعيها حول جيدها ، وألصقت وجنتها إلى وجنتها ، وقالت بصوت خافت ولكنه قوى :

«عزيزتى عزيزتى إلينور ! لاتأبهى لهن ! لاتسمحى لهن أن يسئن إليك.»

ولم تستطع أن تقول أكثر من ذلك ، إذ غلبها التأثر فأخفت وجهها فى كتف أختها ، وأجهشت بالبكاء — فاتجهت إليها جميـع الأنظار ، واهتم الـكل بالأمر . فنهض كولونيل براندون ، وذهب إليهما دون أن يدرى ماذا فعل — وأعطتها مسز جننجز أملاحها فى الحال وهى تقول بعبـارة تنطوى على الفهم : « آه ! عزيزتى المسكينة ! » وشعر سيرجون بالغضب الشديد على من كان السبب فى هذا الانهيار العصبى ، لدرجة أنه غير مكانه فى الحال وانتقل إلى مقعد مجاور للوسى ستيل وقص

عليها فى همس حديثاً قصيراً عن هذا الحدث المروع .

وما هى إلا بضع دقائق حتى أفاقت مريان لتضع حداً لهذه الضجة وتجالس بين بقية الحاضرين ، وإن ظل أثر هذا الحادث عالقاً بذهنها طول السهرة .

وقال أخوها الكولونيل براندون ، بصوت خافت بمجرد أن تمكن من استرعاء سمعه : « إنها لاتتمتع بصحة طيبة كأختها ـ فهى عصبية جدا وليست بنيتها قوية كبنية إلينور ، ولا بد للإنسان من التسليم بأن المرأة الجميلة التى فقدت محاسنها لابد أن تشعر بكثير من الألم . قد لا تتصور ذلك . ولكن مريان كانت رائعة الحسن منذ بضعة شهور ، مثل إلينور تماما ، ولكنك ترى الآن أن كل ذلك قد ذهب . »

الفصل الخامس والثلاثون

شقت إلينور غليلها برؤية مسز فيرارز ، ووجدت فيها كل ما من شأنه أن يجعل المزيد من الارتباط بين الأسرتين أمراً غير مرغوب فيه ، ورأت من كبريائها ودناءتها وكراهيتها المتأصلة لها ما يكفى لأن تفهم كافة العقبات التى كانت تعرقل خطبتها لإدوارد ، وتؤخر زواجها به ، لو كان متحرراً من سلطان أمـه ، ورأت منها ما يدعو إلى تقديم الشكر لها لأن عقبة كبرى عصمتها من تجشم كافة العقبات الأخرى من صنع مسز فيرارز ، عصمتها من أن تـكون تحت رحمة أهوائها ونزواتها ، أو تهتم باستجلاب رضاها : ورأت أنه ينبغى لها على الأقل ـ إذا لم يرقها زواج إدوارد بلوسى ـ أن تفرح بهذا الزواج فيما لو كانت لوسى أكثر رقة ولطفا .

وكانت تعجب من سرور لوسى بمـا تبديه لها مسز فيرارز من ضروب المجاملة كما تعجب حين يعميها الغرور والمصلحة الخاصة لدرجة تجعلها تتصور أن ماتظهره لها مسز فيرارز من ضروب الرعاية والاهتمام لا لشىء إلا أنها ليست إلينور ، إنمـا هو تحية لشخصها ـ أو تجعلها ترى بعض التشجيع فى حب مسز فيرارز الذى يرجع سببه الوحيد إلى جهلها بحقيقـة أمرها ولم يتضح ذلك من نظرات لوسى فى ذلك الوقت فحسب ، بل لقد صرحت به مرة أخرى صباح غد ، حين أقلتها ليدى ميدلتون ـ بناء على رغبتها الخاصة ـ إلى بركلى ستريت أملاً فى أن تتاح لها الفرصة لمقابلة إلينور على انفراد كى تعرب لها عن سرورها .

وقد أسعدها الحظ بسنوح هذه الفرصة ، إذ وردت رسالة من مسز بالمر عقب وصولها بقليل ، فاضطرت مسز جننجز إلى الخروج .

قالت لوسى بمجرد أن خلالها الجو: «صديقتى العزيزة! لقد جئت لكى أتحدث إليك عما أشعر به من السعادة. هل هناك ما هو أدعى للسرور من معاملة مسز فيرارز لى بالأمس؟ كم كانت بشوشاً! أنت تعلمين كم كنت أخشى لقاءها. ولكن ما إن تعرفت إليها حتى أبدت من البشاشة والهشاشة ماينطق بأنها أحبتنى. أليس كذلك؟ لقد رأيت كل شىء. ألم تدهشى له كل الدهشة؟.»

« حقاً لقد كانت مؤدبة معك جداً . »

« مؤدبة! ألم تلاحظى شيئاً إلا الأدب؟ لقد رأيت ما هو أكثر من ذلك رأيت من العطف ما لم يظفر به أحد غيرى! لا كبرياء، ولا غطرسة! ورأيت من زوجة أخيك مثل ذلك تماما – كل رقة و بشاشة! » .

وكانت إلينور تود أن تتحدث فى أمر آخر، ولكن لوسى ألحت عليها أن تعترف بأنها على حق فى سرورها، فاضطرت إلينور أن تسايرها .

قالت: « لا شك أنهما لو علمتا بأمر خطبتك لما كان أدعى إلى السرور من تلك المعاملة، أما والأمر بخلاف ذلك» فردت عليها لوسى فى الحال: «لقد خامرنى الظن بأنك ستقولين ذلك ولكن لاسبب إطلاقا يدعو مسز فيرارز إلى التظاهر بمحبتى إذا كانت لا تحبنى. وحبها لى هو كل شىء. لن تستطيعى أن تقنعينى بأنه لا داعى لسرورى. إننى واثقة أن كل شىء سينتهى بخير، وأنه لن تنشأ عقبات على الإطلاق تحول دون ما تعودت التفكير فيه. إن مسز فيرارز امرأة جذابة، وكذلك زوجة أخيك. كلتاهما امرأة رائعة حقاً! إنى أعجب! إذ لم أسمعك تقولين قط: ما ألطف مسز داشوود! . »

فلم تجب إلينور ولم تحاول الإجابة .

« هل أنت مريضة ، مس داشوود ؟ يظهر أنك متوعكة ـ إنك لاتتكلمين ظاهر أنك لست على ما يرام . »

« لم أتمتع قط بصحة طيبة كما أتمتع الآن . »

« إننى مسرورة من صميم فؤادى لسماع ذلك ، ولـكن الواقع أن مظهرك لا يدل على ذلك . إنه ليحزننى أن تكونى مريضة ، أنت كنت لى أكبر سلوة فى الدنيا ! الله يعلم ماذا كنت أفعل لولا صداقتك . »

وحاولت إلينور أن ترد عليها رداً مهذبا ، وإن خالجها الشك فى نجاح هذه المحاولة ، ولـكن يظهر أن ذلك أرضى لوسى لأنها أجابت على الفور :

« الواقع أننى مقتنعة تماما بمحبتك لى . وهذه المحبة هى أكبر سلوة لى بعد محبة إدوارد . وارحمتاه لإدوارد ! ولـكن ثمة أمر يبعث على الرضا والسرور ـ سيكون فى وسعنا أن نلتقى ، ونلتقى أكثر من مرة ، لأن ليدى ميدلتون معجبة بمسز داشوود ، ولذلك أعتقد أننا سنلتقى كثيراً فى هارلى ستريت وإدوارد يقضى نصف وقته مع أخته ـ وفضلا عن ذلك فليدى ميدلتون ومسز فيرارز سيتزاوران الآن . وقد تفضلت مسز فيرارز وزوجة أخيك فقالتا أكثر من مرة : إنه يسرهما أن ترياني . ما ألطفهما ! وأنا واثقة أنه لن يكون فى وسعك أن تبالغى كثيراً إذا أتيحت لك الفرصة يوما ما لتحدثى زوجة أخيك عن رأيى فيها » .

ولـكن إلينور أبت أن تشجعها على الأمل فى أنها ستخبر زوجة أخيها بذلك .

واستطردت لوسى تقول :

« إننى واثقة أنه لو كانت مسز فيرارز تكرهنى ، لما فاتنى أن ألاحظ ذلك فى وقته ، ولوأنها جاملتنى مجاملة شكلية مثلا دون أن تقول كلمة ، ثم لم تلق لى بالا بعد ذلك ، أو تنظر إلى نظرة لطيفة ــ وأنت تعرفين ماأقصده ــ لوأنى عوملت هذه المعاملة البغيضة ، لنفضت يدى يأساً من الأمر كله ، ولما استطعت احتماله ، لأنى أعلم أنها إذا كرهت إنسانا أسرفت فى كراهيته . »

وفتح الخادم الباب ، فحال بين إلينور وبين الإجابة على هذه الشماتة المهذبة ، وأعلن قدوم مستر فيرارز ، ودخل إدوارد فى الحال .

وكانت لحظة حرجة جدا ، كما بدا ذلك على وجوه الجميع . وأظهر الجميع من الغباء مالا مزيد عليه ، إذ وقف إدوارد متردداً بين الخروج من الحجرة ، والدخول فيها خطوة أخرى ، ووجدوا أنفسهم فى المأزق الحرج الذى كان كل منهم يحرص على تحاشيه أشد الحرص ، إذ لم يجتمعوا هم الثلاثة فحسب ، بل اجتمعوا دون أن يكون معهم رابع يلطف من حدة هذا الجرح . وأفاقت السيدتان أولا من غشية الموقف . ولم يكن من شأن لوسى أن تبدأ بالكلام ، بل كان يجب عليها أن تتظاهر بالكتمان ، لذلك لم يسعها إلا أن تنظر نظرة تفيض بالرقة والحنان ، وتحدثت إليه حديثا قصيراً ثم أمسكت عن الكلام .

ولكن إلينور احتفت بمقدمه أكثر من ذلك . وكانت تحرص على إظهار الحفاوة به ، من أجله ومن أجل نفسها ، فأقبلت بعد لحظة ملكت فيها جأشها على الترحيب به بنظرة ولهجة تكاد تخلو من التكلف وتتسم بالصراحة ، ثم تشجعت وتجلدت ، فبالغت فى الترحيب به . ولم يمنعها وجود لوسى ولا امتعاضها

لما ارتكبه من إساءة فى حقها من التعبير عن سرورها برؤيته وأسفها لو جودها خارج المنزل حينما زارها فى بركلى ستريت . ولم تمنعها نظرات لومى — وإن لاحظت أنها تراقبهما عن كثب — من إبداء مايستحقه بوصفه صديقا وقريبا من ضروب الرعاية والاهتمام .

وقد أدخل هذا الترحيب بعض الطمأنينة فى نفس إدوارد ، فتشجع على الجلوس ، ولكن الحرج الذى شعر به كان يفوق ماشعرت به السيدتان ، وكان فى الموقف ما يبرره ، وإن كان هذا الحرج نادراً فى أبناء جنسه ، لأن قلبه لم يعرف الاستهتار الذى اتصفت به لومى ، وضميره لم يشعر بالراحة التى شعر بها ضمير إلينور .

وتظاهرت لومى بالحشمة والرزانة ، وبدت وكأنها مصممة على عدم المشاركة فى إدخال السرور على غيرها ، فأبت أن تقول كلمة واحدة ، وتحملت إلينور عبء الكلام ، واضطرت أن تتطوع بالإدلاء لإدوارد بسائر المعلومات عن صحة والدتها وقدومهن إلى لندن .. إلخ ، مما كان ينبغى لإدوارد السؤال عنه بنفسه ولكنه أبى أن يفعل .

ولم تقف رباطة جأشها عند هذا الحد ، إذا لم تلبث أن استشعرت الشجاعة فصممت أن تتركهما على انفراد وتعللت بأنها ذاهبة لإحضار مريان وفعلت ذلك بألطف أسلوب ، إن تريثت بضع دقائق على منبسط الدرج بكل صبر وجلد قبل أن تذهب لأختها ، ولكن ما إن فعلت ذلك حتى انتهت فرحة إدوارد ، إذ دفع السرور مريان إلى الدخول فى الحال فى حجرة الاستقبال وكان سرورها

بلقائه كل شعور من مشاعرها ، قويا فى ذاته ، وقويا فى عبارته فصافحته بحرارة ، وبصوت يعبر عن محبة الأخت لأخيها .

صاحت : « عزيزى إدوارد ! هذه لحظة من لحظات السعادة العظيمة — إن هذه اللحظة تكاد تكفر عن كل شىء . »

وحاول إدوارد أن يرد التحية بمثلها ولكنه لم يجرؤ أن يعبر عن نصف مايشعر به أمام هؤلاء الشهود . ثم عدن فجلسن جميعا ، ولذن بالصمت دقيقة أو دقيقتين ، بينما كانت نظرات مريان تعبر عن أشد الحنان ، تارة تنظر إلى إدوارد وتارة إلى إلينور ، غير آسفة إلا لأن وجود لوسى البغيض يحد من فرحة كل منهما بلقاء الآخر . وكان إدوارد أول من تكلم فلاحظ تغير وجه مريان وقال : إنه يخشى أن يكون جو لندن لايناسبها .

فأجابت بحدة ، وإن اغرورقت عيناها بالدموع وهى تتكلم : « وى ! لا تفكر فىّ ! لاتفكر فى صحتى ! إلينور بصحة جيدة كما ترى . وهذا يكفى ! »

وزاد هـذا القول من حرج إدوارد وإلينور ، كما أنه لم يرض لوسى التى حدجت مريان بنظرة لاتنم على العطف .

وقال إدوارد ، الذى أراد أن يقول شيئا يتخلص به إلى موضوع آخر : « هل تحبين لندن ؟ »

« كلا ! على الإطلاق . لقد توقعت أن أرى فيها الكثير مما يسرنى ، ولكنى لم أجد شيئا . وإن رؤيتك ياإدوارد هى السلوة الوحيدة التى ظفرت بها فى لندن . والحمد لله ! فأنت كما كنت دائما ! »

ثم سكتت ، ولم يتــكلم أحد .

وقالت بعد قليل : « أعتقد ياإلينور أنه يجب علينا أن نستمين بإدوارد فى أن يرافقنا فى عودتنا إلى بارتون وأظن أننا سنسافر بعد أسبوع أو أسبوعين ، وأنا أعتقد أن إدوارد لن يحجم عن القيام بهذه المهمة . »

وتمتم إدوارد المسكين ببضع كلمات ، ولـكن أحداً لم يدر ماقال ، حتى هو نفسه . بيد أن مريان التى لاحظت ارتباكه واستطاعت أن تعزوه بسهولة إلى أى سبب يروق لها شعرت بالارتياح التام وسرعان ماتحدثت فى موضوع آخر .

« لقد قضينا يوماً بالأمس يا إدوارد فى هارلى ستريت ويالة من يوم ! يوماً عبوسا قمطريرا ! ولـكن لدىّ الـكثير مما أود أن أقوله لك فى هذا الموضوع ، ولايمكن أن أقوله الآن . »

وبهذا التصرف الحكيم أرجأت التحدث إليه فيما بدا من أقاربهما من فظاظة وامتعاضها من أمه بصفة خاصة إلى أن تتهيأ الفرصة للحديث على انفراد .

« ولـكن لماذا لم تكن هناك يا إدوارد ـ لماذا لم تحضر ؟ »

« كنت مرتبطا بموعد فى مكان آخر . »

« مرتبطا بموعد ! ولـكن كيف ترتبط بهذا الموعد فى الوقت الذى تقرر فيه التقاء مثل هؤلاء الأصدقاء ؟ »

فصاحت لوسى وهى تتوق للتشفى من مريان « أنت تعتقدين أن الشبان لايتمسكون بمواعيدهم قط إذا لم يميلوا إلى الوفاء بها تافهة كانت أم هامة . »

فاغتاظت إلينور ، ولـكن مريان بدت وكأنها لم تشعر بهذه الغمزة إطلاقاً إذ أجابت بهدوء :

« ليس الأمر في الواقع كذلك لأني أقول بلهجة الجد : إنني متأكدة أن ضمير إدوارد هو الذي منعه من الحضور إلى هـارلي ستريت وأعتقد حقـا أن له أرق ضمير في العالم ، وأشده حرصا على مراعاة أي موعد مهما كان تافها ، ومهما كان مخالفا لمصلحته أو رغبته ، وهو أشد الناس خوفا من إيلام الناس وإخلاف ظنهم وأبعد عن الأنانية من أي إنسان عرفته . إدوارد ! الأمر كما قلت ، وسأظل أقول ذلك . عجبا ! أتخجل أن تسمع ثناء الناس عليك ! إذن يجب ألا تـكون صديقا ، لأن من يقبل محبتي وتقديري يجب أن يقبل ثنائي الصريح . »

على أن طبيعة ثنائها في القضية الحالية ، لم يصادف هوى في نفوس ثلثي سامعيها ، ولم يبعث سروراً كبيراً في نفس إدوارد ، فلم يلبث أن قام لينصرف.

قالت مريان : « أتنصرف بمثل هذه السرعة ياعزيزي إدوارد ؟ إن هذا يجب ألا يكون . »

وانتحت به جانبا وهمست في أذنه أن لوسي لن تلبث أن تنصرف . ولكن حتى هذا التشجيع لم يحمله على البقاء بل أصر على الانصراف . وسرعان ما انصرفت لوسي وهي التي ما كانت لتنصرف لو استمرت زيارته ساعتين .

وقالت مريان عند انصرافها : « ماذا يحملها على تكرار الزيارة لنا ! إنها رأت أننا أردنا أن نخرج ! ما أشد ماسببته لإدوارد من الكدر ! »

« لماذا تقولين ذلك ؟ لقد كنا جميعاً صديقاته . وقد عرف لوسي قبل أن

يعرفنا . ومن الطبيعى أن يحب أن يراها كما يرانا نحن . »

فصوبت إليها مريان النظر وقالت : « أنت تعرفين يا إلينور أننى لا أطيق هذا النوع من الحديث . وإذا كنت لا تريدين بذلك إلا أن أناقض كلامك — وهو ما أظن أنك تريدينه — فإنه ينبغى لك أن تذكرى أننى آخر امرأة فى العالم تفعل ذلك . إننى أربأ بنفسى أن يخدعنى أحد حتى ينتزع منى أقوالا لا داعى لها فى واقع الأمر »

ثم غادرت الحجرة ، ولم تجرؤ إلينور أن تتبعها لتقول لها شيئاً ، لأنها سبق ان وعدت لوسى بكتمان أمرها ، فلم يكن فى وسعها أن تفضى لمريان بأية معلومات تقنعها ، ولم يكن بد من أن تذعن إلينور للأمر مهما كانت نتائج استمرار مريان فى خطئها أليمة . وكل ما كانت ترجوه ألا يعرضها إدوارد أو يعرض نفسه كثيراً للألم الناجم عن سماع حدة مريان الخاطئة ، ولا إلى تكرار شىء من الألم الذى صاحب لقاءهما الأخير — وكان لديها من الأسباب ما يحملها على توقع ذلك .

الفصل السادس والثلاثون

أعلنت الصحف فى العالم فى غضون أيام قلائل بعد ذلك الاجتماع أن السيدة زوجة السيد توماس بالمر المحترم قد وضعت بسلام ذكراً ووريثاً . وهو خبر يبعث السرور والارتياح فى نفوس جميع الأقارب الذين كانوا يعرفون الأمر، على الأقل.

وترتب على هذا الحادث الذى أسعد مسز جننجز كثيراً تغيير مؤقت فى تنظيم وقتها ، كما أثر فى مواعيد صديقتيها الصغيرتين . ذلك أنها أرادت أن تكون بجانب شارلوت ما أمكن فكانت تذهب إليها صباح كل يوم بمجرد أن ترتدى ملابسها ولا تعود إلا فى ساعة متأخرة من الليل ، كما كانت الآنستان داشوود تقضيان سحابة اليوم فى كندوى ستريت بناء على طلب آل ميدلتون . وكانتا تؤثران -حرصاً على راحتيهما- أن تبقيا طول فترة الصباح على الأقل فى منزل مسز جننجز ، ولكنهما لم تتمسكا بذلك ، لأنه كان يخالف رغبة الجميع . ولذلك كانتا تقضيان وقتهما مع ليدى ميدلتون والآنستين ستيل وكان هؤلاء لا يعلمن إلى صحبتهما كثيراً بقدر ما كن يطلبنها بصراحة .

وكان لديهما من وفور العقل والذكاء مالا يرغب الأولى فى صحبتهن ، وكانت الأخريان تنظران إليهما بعين الحسد ، لأنهما تطفلتا على أرضهما ، وشاركتاهما العطف الذى أرادتا أن تحتكراه لنفسيهما . وكانت ليدى ميدلتون لا تحب إلينور ومريان فى الواقع على الرغم من حسن معاملتها لهما ، ولا تعتقد أنهما تتصفان بالرقة واللطف لأنهما لم يتملقاها هى وأولادها ، بل تتهمهما بالميل إلى الهجاء لولعهما بالقراءة وربما دون أن تعرف تماما ماهو الهجاء . ولكن ذلك لا يهم لأنه كان

من الشائع أنه ضرب من اللوم والذم ، يمكن توجيهه إلى الناس بسهولة .

وكان وجودهما قيداً عليها هي ولوسى ، إذ حال دون كسل الأولى ، وعمل الأخرى ، فكانت ليدى ميدلتون تخجل من عدم قيامها بأى عمل أمامهما ، ولوسى تخشى أن تحتقراها لما تبديه من التملق الذى تفخر بالتفكير فيه أحيانا وبإظهاره أحيانا أخرى . وكانت مس ستيل هي أقل الثلاثة تبرما بوجودهما ، وإن كان فى مقدورهما أن ينالا رضاها التام عن ذلك . ولو أن إحداهما حدثتها عن قصة مريان وولبى حديثا شافيا وافيا لرأت فى ذلك عوضاً كافيا عن تضحيتها بأحسن مكان بجانب المدفأة عقب طعام الغداء ، وهى التضحية التى نشأت عن وجودهما، ولكنهما لم تعملا على إرضائها ، لأنه على الرغم من أنها أعربت لإلينور مراراً عن عطفها على مريان ، وعلى الرغم من أنها أنحت باللائمة على العشاق أمام مريان أكثر من مرة ، لم يكن لذلك أى أثر اللهم إلا نظرة تدل على عدم الاكتراث من جانب الأولى ، وعلى الامتعاض من جانب الأخرى . على أنه كان فى وسعهما أن يكسبا صداقتها بجهود أيسر من ذلك إلا وهو التندر عليها بشأن الدكتور ! ولكنهما قلما كانتا تميلان إلى إرضائها ، شأنهما فى ذلك شأن غيرهما إلى حد أنها قد تقضى اليوم كله — إذا تغدى سير جون خارج المنزل — دون أن تسمع نكتة واحدة عن هذا الموضوع اللهم إلا ما تتكرم به هى على نفسها .

على أن مسز جننجز لم تلاحظ إطلاقا هذا الحسد ولا هذا الاستياء ، حتى لقد كانت ترى أن اجتماع الفتيات معا من دواعى سرورهن ، وتهنىء بوجه عام صديقتيها الصغيرتين كل ليلة بنجاتهما من صحبة امرأة عجوز غبية طيلة هذ الوقت وكانت تلحق بهن أحيانا فى منزل سير جون ، وأحيانا فى منزلها هى . وأينما التقت بهما كانت تشعر بملء السرور والفخر ، وتعزو إلى عنايتها حسن حال

شارلوت ، وتصف حالتها وصفا دقيقا على الوجه الذى يرضى فضول مس ستيل وحدها . وكان لايزعجها سوى شىء واحد ، تدأب على الشكوى منه كل يوم ، ألا وهو تمسك مستر بالمر بالرأى الشائع بين أبناء جنسه ، الذى لايتفق مع عطف الأبوة ، وهو أن الأطفال كلهم سواء . ومع أنها كانت تلاحظ بجلاء فى مختلف الأوقات أكبر شبه بين هذا المولود وبين كل طفل من أقاربه من جهة أمه وأبيه، لم تجد سبيلا لإقناع أبيه بوجود هذا الشبه ، ولا سبيلا لحمله على الاعتقاد أنه لايشبه تماما أى طفل آخر من لداته ، ولا سبيلا لحمله على الاعتراف بهذه القضية البسيطة ، وهو أنه أجمل طفل فى العالم .

والآن أنتقل إلى قصة الكارثة التى نزلت بمسز جون داشوود فى ذلك الوقت ، وذلك أنه اتفق أن قدمت إحدى صديقاتها لزيارتها أثناء زيارة أختى زوجها لها بصحبة مسز جننجز فى هارلى ستريت لأول مرة ، وهـــو حادث فى حد ذاته لايحتمل فيما يظهر أن يجلب شيئاً من الضرر ، ولكن حينما يجمح الخيال بالناس إلى تكوين أحكام خاطئة عن سلوكنا ، والحكم عليه بظواهر الأمور البسيطة ، فلا شك أن سعادة الإنسان تصبح إلى حد ما تحت رحمة المصادفات دائما . وفى الحادث الراهن جمح الخيال بهذه السيدة حتى جاوز حد الحقيقة والاحتمال ، فحكمت بمجرد أن سمعت اسم الآنستين داشوود ،وعلمت بأنهما أختا مستر داشوود ، أنهما يقيمان فى هارلى ستريت ، وأدى بها هذا الفهم الخاطىء إلى أن أرسلت بعد يوم أو يومين بطاقات دعوة للآنستين ولأخيهما وزوجته لشهود حفلة موسيقية بمنزلها . وترتب على ذلك أن اضطرت مسز جون داشوود إلى أن تتجشم مشقة كبيرة الغاية ، ألا وهى إرسال عربتها للآنستين داشوود ، وأدهى من ذلك أن تتجشم مشقة التظاهر بحسن معاملتهما ، ومن يدرى أنهما قد لاتتوقعان

الخروج معها مرة أخرى ؟ صحيح أنها هى صاحبة الرأى فى خروجهما معا ولكن الأمر لن يقف عند هذا الحد ، لأن الناس إذا اعتادوا اتباع طريقة من السلوك يعلمون أنها خاطئة ، استاءوا إذا طلب إليهم أن يتبعوا طريقة أمثل .

ثم أعتادت مريان تدريجيا الخروج كل يوم بحيث أصبحت لاتبالى خرجت أو لم تخرج ، وكانت تستعد لكل موعد فى المساء بطريقة آلية وهادئة ، ولكن بدون أن تتوقع من هذا الموعد أية تسلية ، وبدون أن تدرى فى أغلب الأحيان أين تذهب إلا فى اللحظة الأخيرة .

وأصبحت لاتهتم أى اهتمام بملبسها ومظهرها بحيث لاتوليهما خلال فترة زينتها كلها نصف الاهتمام الذى تبديه مس ستيل خلال الدقائق الخمس الأولى من اجتماعهما معا ، وهى الفترة التى تنتهى فيها مريان من تلك الزينة .

وكانت مس ستيل لاترى شيئاً دون أن تسأل عنه ، فكانت ترى كل شىء وتسأل عن كل شىء ، ولا يهدأ لها بال حتى تعرف ثمن كل جزء من ملابس مريان . وكان فى وسعها أن تقدر عدد ملابس مريان تقديراً أصح من تقديرها هى نفسها . ولم تتخل عن الأمل فى أن تعرف ، قبل افتراقهما كم تنفق مريان على غسل ملابسها كل أسبوع ، وعلى نفسها فى كل عام . زد على ذلك أنها كانت تختم الوقاحة التى يتسم بها مثل هذا النوع من الأسئلة بعبارات الثناء التى يراد بها التلطيف من حدة هذه الوقاحة ، ولكن مريان كانت تعدها غاية الوقاحة ، إذ كانت بعد الأسئلة الدقيقة عن قيمة ملابس مريان وعلامتها التجارية ولون حذائها وتسريحة شعرها تؤكد لمريان بشرفها أنها تبدو غاية فى الأناقة وأنها ستغزو قلوب كثير من الرجال .

وبمثل هذه العبارات المشجعة خرجت مريان فى ذلك الوقت لتركب عربة أخيها . وركبتا فيها بعد خمس دقائق من وقوفها بالباب ، وهى دقة فى المحافظة على المواعيد لم ترق كثيرا فى نظر زوجة أخيهما التى سبقتهما إلى دار صاحبتها ، وهى تتوقع أن تتأخرا عن الحضور تأخيراً يضايقها أو يضايق السائق .

ولم يحدث فى السهرة ما هو جدير بالذكر ، فقد ضم الحفل – كأى حفل موسيقى آخر – عدداً كبيراً من الناس يتذوقون الموسيقى حقاً ، وعدداً أكبر لا يتذوقونها على الإطلاق . وكان العازفون أنفسهم فى تقديرهن وتقدير أصحابهن المقربين هم أوائل العازفين الخصوصيين فى إنجلترا كما جرت العادة .

ولما كانت إلينور لا تعرف الموسيقى ولا تدعى ذلك ، لم تتحرج من أن تصرف النظر عن البيان العظيم متى حلا لها ذلك ، بل إن القيثارة والكمان الجهير لم يستلفتا نظرها ، فأخذت تردد النظر كما تشاء فى أى شىء فى الحجرة . وفى أثناء هذه النظرات الشاردة وقع بصرها بين ثلة من الرجال على نفس الرجل الذى أعطى محاضرة عن علب الخلال فى محل جراى ، وسرعان ما رأت بعد ذلك أنه ينظر إليها ويتحدث مع أخيها بلا كلفة . وإنها لتهم بالاستفسار من أخيها عن اسمه وإذا بهما يدلفان إليها . فقدمه مستر داشوود إليها باسم مستر روبرت فيرارز .

فتحدث معها برقة وأدب وأحنى رأسه على شكل قوس بما يؤكد بوضوح يعادل وضوح العبارة أنه هو عين المذكور الذى سمعت لوسى تتحدث عنه . وما كان أسعدها لو كان حبها لإدوارد يعتمد على مزاياه الخاصة أقل من اعتماده على مزايا أقاربه الأدنين ! إذن لكانت انحناءة أخيه هى الضربة القاضية بعد كل الذى رأته من سوء طباع أمه وأخته . ولكنها إذ عجبت للاختلاف بين الرجلين لم يحملها

تفاهة أحدهما وغروره ،على الغض من فضل الآخر وتواضعه . وقد شرح لها روبرت نفسه سر اختلافهما في أثناء حديثه الذى استغرق ربع ساعة إذ تأسف فى حديثه عن أخيه على الحماقة التى حالت ـ فيما يعتقد ـ بين إدوارد والاختلاط بالعناصر الطيبة فى المجتمع ، وعزا ذلك بصراحة إلى كارثة التعليم الخاص أكثر مما عزاها إلى أى نقص طبيعى فى أخيه ، فى حين أنه هو نفسه استطاع أن يختلط بالمجتمع كأى انسان آخر ، وإن كان ذلك لا يرجع إلى مواهب طبيعية فائقة خاصة ، وإنما يرجع إلى أنه تلقى تعليمه فى مدرسة عامة .

وأضاف : « لعمرى إن الأمر لا يعدو أن يكون كذلك . وهكذا أقول لأمى كثيرا حينما تتأسف على هذا الأمر . أقول لها دائما : « لا تأسفى ياسيدتى العزيزة ! إن العلة لا يمكن علاجها الآن ، ولقد كان ذلك من صنع يديك . لماذا أذعنت لرأى عمى سير روبرت وعدلت عن رأيك ، فأرسلت إدوارد إلى مدرسة خاصة فى أحرج أوقات حياته ؟ او أنك أرسلته إلى وستمنستر كما أرسلتنى أنا بدلا من إلحاقه بمدرسة مستر برات لما حدث كل ذلك . » هذا هو رأيى فى الأمر دائما وأمى مقتنعة بخطئها تماما .

ولم تعارضه إلينور فى هذا الرأى لأنه مهما يكن تقديرها العام لمزايا المدارس العامة فإنه لم يسعها أن تنظر بعين الارتياح إلى إلحاق إدوارد بمدرسة مستر برات.

ثم قال بعد ذلك : « أظن أنك تقيمين فى ديفونشاير فى منزل ريفى بالقرب من دولش . »

فصححت له إلينور موقع المنزل ، وكان يرى بعض الغرابة فى أن يقيم أحد

فى ديفونشاير دون أن يقيم بالقرب من دولش ، على أنه أعرب عن استحسانه القلبى لنوع المنزل .

قال : « إننى شخصيا أحب المنازل الريفية حباجما ، فهى تهيىء للإنسان كثيراً من وسائل الترويح عن النفس ، وتمتاز بالكثير من الرشاقة . وأؤكد أنه لو كان لى بعض المال لاشتريت قطعة أرض صغيرة ، و بنيت عليها منزلا ريفيا على مسافة صغيرة من لندن حتى أستطيع أن استقل عربتى إليه فى أى وقت مع «شلة» من الأصدقاء ، وأتفيأ ظلال السعادة فى رحابه . وقد جاءنى صديقى لورد كورتلاند منذ بضعة أيام بقصد استشارتى ، وعرض على ثلاثة تصميمات مختلفة لمنزل بونومى وطلب إلى أن أختار أحسنها ، فما كان منى إلا أن ألقيتها جميعا فى النار ، وقلت له : لا تختر واحداً منها بل شيد منزلا ريفياً بأية وسيلة وأظن أنه سينتهى إلى هذا الرأى . »

« ويظن بعضهم أن المنزل الريفى تنقصه وسائل الراحة والرفاهية ، كما تنقصه السعة والرحابة . ولكن ذلك غير صحيح . لقد زرت فى الشهر الماضى منزل صديقى إليوت بالقرب من دارتفورد ، وأرادت ليدى إليوت أن تقيم حفلة راقصة فقالت : « كيف يمكن إقامة هذه الحفلة ؟ عزيزى مستر فيرارز ، خبرنى ماذا أفعل ؟ فليس فى هذا المنزل الريفى حجرة تتسع لعشرة أزواج ؟ وأين يمكن تقديم طعام العشاء ؟ » وبدا لى على الفور أنه لا عقبة فى الأمر إطلاقا ، فقلت: «عزيزتى ليدى إليوت ؛ لاتنزعجى ! قاعة الطعام تتسع لثمانية عشر زوجا بسهولة . وموائد الورق يمكن وضعها فى حجرة الاستقبال والمكتبة يمكن فتحها لتناول الشاى والمرطبات الأخرى . وطعام العشاء يمكن تناوله فى الصالون . »

فسرت ليدى إليوت بهذه الفكرة وتمت إقامة الحفلة على نحو ما اقترحت تماما

ومن ذلك ترين فى الواقع أنه إذا عرف الناس كيف يدبرون أمورهم تهيأت لهم أسباب الراحة سواء فى المنزل الريفى أو فى أكثر المنازل رحبا وسعة. »

فوافقت إلينور على كل ما قال لأنها لم تر أن كلامه يستحق تحية للمعارضة المنطقية.

وكان جون داشوود كأخته الكبرى لايهوى الموسيقى ، فانصرف ذهنه إلى التفكير فى أمر آخر ، خطرت له فكرة أفضى بها إلى امرأته لتوافق عليها عندما يعودان إلى المنزل. ذلك أن الظن الخاطىء الذى حمل مسز دينيسون على الاعتقاد بأن أختيه هما ضيفتان عليه أوحى إليه أنه يحسن به أن يدعوهما لينزلا عنده كذلك أثناء غياب مسز جننجز عن المنزل للوفاء بمواعيدها . وقال : إن نفقات ضيافتهما لن تكون كبيرة والمشقة لن تكون أكبر . وفضلا عن ذلك فإن هذه الدعوة ستكون لفتة كريمة يحدثه ضميره أنها ستحله إحلالا تاما من عهدة وعده لأبيه ، فما كان من فانى إلا أن ذعرت لهذا الاقتراح .

فقالت : « لا أدرى كيف يمكن تنفيذ هذا الاقتراح دون الإساءة إلى ليدى ميدلتون لأنهما تقضيان كل يوم معها ، وإلا فانه يسرنى غاية السرور . وأنت تعرف أننى على استعداد دائم لأن أوليهما كل رعاية فى مقدورى ، كما فعلت حين اصطحبتهما معى فى هذه السهرة . ولكنهما ضيفتان على ليدى ميدلتون وكيف أدعوهما إلى تركها ؟ »

ولم يقتنع زوجها بقوة معارضتها ، ولكنه أبدى خنوعاً شديداً « لقد قضتا بالفعل أسبوعا على هذا النحو فى كوندوى ستريت ، ولا يمكن أن تستاء ليدى ميدلتون من السماح لهما بزيارة أقاربهما مثل هذا العدد من الأيام . »

وسكتت فانى برهة ثم قالت بحدة :

« ياحبيبى ! أنا لا أتردد فى دعوتهما إذا كان ذلك فى مقدرى ، ولكنى نويت فى قرارة نفسى أن أدعو الآنستين ستيل لقضاء بضعة أيام معنا . إنهما آنستان مؤدبتان ورقيقتان وأظن أنهما جديرتان بالرعاية كما أحاط لها إدوارد برعايته . وأنت تعلم أنه فى وسعنا أن ندعو أختيك فى عام آخر . ولكن الآنستين ستيل قد لا تأتيان إلى لندن مرة أخرى وأنا واثقة أنك ستحبهما الواقع أنت تعلم أنك أحببتهما كثيراً من قبل . وكذلك والدتى تحبهما ، كما أن هارى يحبهما ! »

فاقتنع مستر داشوود بقولها ، ورأى ضرورة دعوة الآنستين ستيل فى الحال وارتاح ضميره بالعزم على دعوة أختيه فى عام آخر . ولكنه فى الوقت نفسه رأى فى مكر وخبث أن إرجاء الدعوة عاما آخر سيجعل هذه الدعوة لاضرورة لها إذ ستحضر إلينور إلى لندن كزوجة كولونيل براندون ومريان بصفتها زائرة لهما .

وفرحت فانى لتخلصها من دعوتهما ، وشعرت بالزهو والفخر لحضور بديهتها التى مكنتها من هذا التخلص فكتبت فى صباح الغد إلى لوسى تدعوها وأختها إلى زيارتها بضعة أيام فى هارلى ستريت بمجرد أن تسمح لهما ليدى ميدلتون بذلك وكان هذا كافيا لإدخال السرور على قلب لوسى وشعورها بالسعادة الحقة ، فقد بدا لها أن مسز داشوود تعمل لمصلحتها هى نفسها ، وأنها تشاطرها آمالها ، وتعمل على تحقيق أغراضها ! ولا ريب أن إتاحة مثل هذه الفرصة للاجتماع بإدوارد وأسرته هى قبل كل اعتبار أكبر شىء يخدم مصلحتها ، وأن مثل هذه الدعوة

هى أكبر باعث على سرورها ! لقد كانت هذه الدعوة منة يقصر دونها الشكر ، ولا يجوز التوانى عن استغلالها . وتبين لهما أن زيارتهما لليدى ميدلتون التى لم تجدد مدتها من قبل ستنتهى بعد يومين .

ولما اطلعت إلينور على بطاقة الدعوة بعد وصولها بعشر دقائق شاركت لوسى لأول مرة بعض ماتوقعته من آمال لأن مثل هذا المظهر من مظاهر العطف غير العادى الذى بدا بعد معرفة قصيرة الأمد ، يدل على أن مصدره أمر آخر غير مجرد الحقد على إلينور ، و يمكن أن يؤدى بفعل الزمن و بفضل ذلاقة اللسان إلى تحقيق كل ماتتمناه لوسى ، فقد استطاعت بالملق والرياء أن تطامن من كبرياء ليدى ميدلتون ، وأن تتغلغل إلى قلب مسز جون داشوود ، وهاتان النتيجتان تفتحان باب الأمل فى حدوث ما هو أعظم .

وانتقلت الآنستان ستيل إلى هارلى ستريت . وكان كل ما بلغ إلينور عن تأثيرهما هناك يقوى لديها احتمال ماتتوقعه من أمور فقد زارهما سيرجون أكثر من مرة وعاد يقص عليهما مالقيتاه من مظاهر الحب والعطف الرائعة . فلم تسر مسز جون داشوود قط سرورها بلقاء هاتين الفتاتين . وأعطت كل واحدة منهما مأبرة من صنع بعض المهاجرين ، ونادت لوسى باسمها الحقيقى ، ولم تدر كيف تطيق فراقهما يوما ما .

الفصل السابع والثلاثون

تحسنت صحة مسز بالمر بعد أسبوعين ، فرأت أمها أنه لم يعد ثمة داع لأن تنقطع إليها ، فعادت إلى منزلها بعد تلك المدة مكتفية بزيارتها مرة أو مرتين كل يوم ، وعادت إلى ممارسة ما اعتادته ، ووجدت الآنستين داشوود على استعداد كبير لمشاركتها من جديد في هذه العادات .

وفي صباح اليوم الثالث أو الرابع ، بعد أن عدن فاستقررن في بركلي ستريت على هذا النحو ، عادت مسز جننجز من زيارتها المعتادة ، وأسرعت بدخول حجرة الاستقبال حيث جلست إلينور بمفردها ، على نحو ينطوي على مغزى بحث أعدّ ذهن إلينور لسماع نبأ عجيب ، ولم تمهل إلينور إلا ريثما دارت بخلدها هذه الفكرة ، فقالت من فورها ماحقق ظنها :

« رباه ! عزيزتي مس داشوود ! هل سمعت الخبر ؟ »

« كلا ياسيدتي ! ما هو ؟ »

« خبر غريب جدا ! ولكني سأقصه عليك كله ـ عندما وصلت إلى منزل شارلوت ، وجدتها في حالة قلق شديد على الولد . اعتقدت أنه مريض جداً ـ يبكي و تململ وتناثرت على جلده البثور ، فنظرت إليه في الحال وقلت : « رباه ! عزيزتي ليس في الأمر سوى طفح جلدي . » وقالت الممرضة مثل ذلك . ولكن شارلوت أبت أن تقتنع . لذلك استدعينا مستر دنافان ، ولحسن الحظ كان آتيا لتوه من هارلي ستريت ، فدخل في الحال ، وما إن رأى الطفل حتى قال ماقلناه ،

وإن كل ما فى الأمر أنه يشكو من طفح جلدى ، وحينئذ اطمأن بال شارلوت . وفيما كان يهم بالخروج خطر ببالى — ولا أدرى كيف اتفق لى أن أفكر فى ذلك خطر ببالى أن أسأله : أهناك أخبار ؟ فتكلف الابتسام عند ذلك ، وتجهم وجهه ، وبدا عليه أنه يعرف نبأ ما ، وأخيراً همس فى أذنى قائلا : « خوفاً من أن يبلغ الآنستين اللتين تقيمان فى كنفك خبر سيء عن مرض زوجة أخيهما أظن أنه يحسن بى أن أقول : إننى أعتقد أنه لامبرر للخوف . وأرجو أن تتماثل مسز داشوود للشفاء . »

« وَىْ ! هل فانى مريضة ؟ »

« هذا ماقلته تماما ياسيدتى . » فقلت : « رباه ! هل مسز داشوود مريضة ؟ » ثم اتضح لى كل شيء . وخلاصة الأمر حسبما علمت أن مستر إدوارد فيرارز ، وهو عين الشاب الذى اعتدت أن أمزح معك فى شأنه (ومع ذلك يسرنى كثيراً — كما اتضح فى النهاية — أن الأمر لم تكن فيه قط أية ذرة من الحقيقة) أن مستر فيرارز — فيما يبدو — عقد خطبته منذ أكثر من عام على بنت عمى لوسى ! — وهذا نبأ لك خاصة ياعزيزتى ! — ولا يعلم مخلوق أى حرف عنه سوى نانسى ! — أكان يدور بخلدك أن هذا يمكن أن يحدث ؟ لاشيء يدعو إلى العجب فى أن يحب كل منهما الآخر ، ولكن أن يصل الأمر بينهما إلى هذا الحد دون أن يعلم به أحد ! إن هذا لأمر عجاب ! — لم يتفق لى قط أن رأيتهما معا وإلا لاكتشفت السر من فورى . ولكنهما تكتما الأمر خوفا من مسز فيرارز ، فلم تعلم عنه شيئاً لاهى ولا أخوك ولا زوجة أخيك — إلا فى صباح هذا اليوم إذ أفشت نانسى المسكينة السر كله ، وهى كما تعلمين إنسانة حسنة النية ، لا تلقى

القول على عواهنه . قالت فى نفسها : « رباه ! إنهن جميعا يحببن لوسى ، ومن المؤكد أنهن لن تقمن عقبات فى الأمر . » وعلى ذلك توجهت إلى زوجة أخيك التى كانت تجلس بمفردها ، وقلما خطر ببالها ماستحدثها به نانسى — لأنها قالت لأخيك منذ قليل — منذ خمس دقائق فقط — إنها تفكر فى تزويج إدوارد من بنات أحد اللوردات — نسيت اسمها . ولذلك فى وسعك أن تتصورى كم كانت الضربة أليمة لغرورها و كبريائها ! فتهاوت من فورها وتشنجت ، وهى تصرخ صراخا عاليا وصل إلى مسامع أخيك ، زهو جالس فى حجرة الزينة والملبس فى الطبقة السفلى ، يفكر فى كتابة خطاب لوكيله فى الريف ، فطار على الفور ، وحدثت ضجة هائلة ، إذ حضرت لوسى فى ذلك الوقت وقلما خطر ببالها ماحدث بالها من مسكينة! إنى أرثى لحالها . وأرى لزاما على أن أقول: إنها عوملت بقسوة لأن زوجة أخيك أوسعتها لوما وتعنيفا ، فغشى عليها فى الحال . أما نانسى فقد جثت على ركبتيها ، وأخذت تذرف الدمع السخين . وأما أخوك فأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهوبا ، وقال : إنه لايدرى ماذا يفعل . وقالت مسز : داشوود إنه يجب ألا تمكثا فى المنزل دقيقة واحدة ، واضطر أخوك أن يجثو على ركبتيه يرجوها أن تسمح لهما بالبقاء ريثما تحزمان ملابسهما . وحينئذ عادت فتشنجت ، فاعتراه الخوف واستدعى مستر دنافان ، فلما حضر وجد هذه الضجة فى البيت ، وكانت العربة واقفة بالباب لتقل بنتى عمى المسكينتين فرآهما تستقلان العربة ، وهو خارج من المنزل ، وقال : إن لوسى المسكينة لا تكاد تستطيع المشى ، ونانسى لا تقل عنها سوءا . إننى أصرح أنى ضقت ذرعا بزوجة أخيك ، وأرجو من صميم قلبى أن يتم هذا الزواج رغم أنفها . رباه ما أشد

ما يخالج إدوارد من القلق والانزعاج عند مايبلغه أن حبيبته عوملت بمثل هذا الازدراء! لأنهم يقولون : إنه يحبها حباً جما ،وحق له ذلك. فلا عجب إذا ثارت ثائرته ! ويرى مستر دنافان هذا الرأى . وقد جرى بينى وبينه حديث طويل فى هذا الشأن . وخير ما يمكن عمله هو أن يعود إلى هارلى ستريت حتى يتسنى استدعاؤه فى الحال حينما تعلم مسز فيرارز بالخبر لأنهم استدعوها بمجرد أن خرجت بنتا عمى من البيت ، وذلك لأن زوجة أخيك لا يخالجها شك أنها هى الأخرى ستتشنج ، وهو أمر محتمل فيما أعتقد ولكن لا أرثى لأى واحدة منهما . إننى لا أدرى لماذا تقوم كل هذه الضجة من أجل المال والعظمة ، فلا مبرر على الإطلاق يمنع من زواج إدوارد ولوسى ، لأنى أعتقد أن مسز فيرارز تستطيع أن تساعد ابنها ، وأن لوسى وإن لم تملك شيئا ؛ فهى تعرف كيف تدبر معيشتها على أحسن وجه . وأعتقد أن مسز فيررار لو رتبت له مبلغ خمسمائة جنيه فى العام ، لعاشت به لوسى فى سعة كما تعيش أى امرأة أخرى بثمانمائة جنيه .رباه ما أجمل أن يقيما فى منزل ريفى كمنزلكما أو أكبر قليلا ومعهما خادمتان وخادمان ! وأعتقد أن فى وسعى أن أساعدهما بخادمة لأن خادمتى بتى لها أخت لا تجد عملا ، وهى تصلح لخدمتهما تماما . »

وهنا انتهت مسز جننجز من حديثها . وإذا كان لدى إلينور من الوقت ما يسمح لها بأن تستجمع أفكارها فقد استطاعت أن ترد وتبدى من الملاحظات ما تقتضيه طبيعة الموضوع وسرت حين وجدت أن مسز جننجز لم تلاحظ عليها اهتماما غير عادى بالأمر ، وأنها (كما كانت ترجو أخيرا أن يكون الأمر عليه) لم تعد تتصور أن إلينور تحب إدوارد على الإطلاق ، وسرت قبل كل شيء لأنها استطاعت — فى غياب مريان — أن تتحدث عن الأمر دون حرج وأن تبدى رأيها كما

تعتقد ، وبدون محاباة فى تصرف كل من يعنيه الأمر .

ولم تستطع إلينور أن تجزم بالنتيجة التى ينتظر أن ينتهى الأمر إليها ، وإن حاولت جاهدة أن تطرد من ذهنها احتمال إنهائه بغير زواج إدوارد من لوسى . وكانت تتوق إلى سماع ما تقوله مسز فيرارز وما تفعله ، وإن لم تشك فى كنه هذا القول والفعل ، ولـكنها كانت أتوق إلى أن تعرف كيف يتصرف إدوارد فى الموقف ، وكانت ترثى لحاله كثيرا ، ولحال لوسى قليلا وقد تجشمت كثيرا من العناء لإكراه نفسها على هذا القليل ، أما بقية الزمرة فلم ترث لحالهن على الإطلاق.

وإذ كانت مسز جننجز لاتتحدث إلا فى هذا الموضوع ، فقد رأت إلينور ضرورة إعداد مريان لبحثه ومناقشته ، ولم تتردد فى تبصيرها بالأمر وإطلاعها على حقيقته ، وترويضها على سماعه من الغير دون أن تظهر الشعور بأى قلق على أختها أو أى استياء من إدوارد .

وكانت مهمة إلينور مهمة شاقة لأنها ستزيل ما كانت تعتقد أنه أكبر سلوة لأختها ، وتقص عليها من أنباء إدوارد ماتخشى أن يهدم حسن ظنها فيه إلى الأبد ، وتشعر مريان بخيبة الأمل مرة أخرى حين ترى وجه الشبه واضحا بين حالها وحال أختها ، وهو شبه يبدو فى نظرها قويا . ولـكن مهما كانت هذه المهمة بغيضة ، فلم يكن بد من القيام بها ، ولذلك بادرت إلينور إلى أدائها .

ولم ترغب كثيراً فى الإسهاب فى وصف شعورها ، أو المبالغة فى تصوير آلامها اللهم إلا مايسمح به ضبط النفس الذى تذرعت به منذ أن علمت لأول مرة بخطبة إدوارد ، من الإشارة إلى أمر فيه فائدة لمريان . وكانت روايتها لوقائع الحادث واضحة وبسيطة ، وهى وإن لم تخل من التأثر ، لم تقترن بالهلع أو الجزع

— بل كان ذلك من شأن مريان التى استمعت لهذا الحديث بكثير من الهلع وبكت بالدمع الهتون . وكان من عادة إلينور أن تعزى غيرها فى مصابها هى ، كما تعزيهم فى مصابهم فأخذت فى تعزية مريان بلا تردد ، فأكدت لها أنها تشعر بهدوء البال ، وتصدت لنفى كل تهمـة عن إدوارد اللهم إلا تهمة التهور .

ولـكن مريان ظلت بعض الوقت لا تصدق أيا من الأمرين ، فقد بدا لها أن إدوارد ما هو إلا وَلِى آخر ، واعترفت كما اعترفت إلينور أنها كانت تحبه أخلص الحب ، وهل يمـكن أن تـكون عاطفتها أقل من عاطفة أختها ؛ أما لوسى ستيل فـكانت تعدها فتاة بغيضة كل البغض ، لا يمكن أن تظفر إطلاقا بمحبة أى إنسان عاقل بحيث أبت أولا أن تصدق أن إدوارد سبق أن أحبها ثم أبت بعدُ أن تغفر له هذا الحب ، بل لقد أبت أن تعترف بأن هذا كان أمراً طبيعياً ، ولـكن إلينور تركتها لتقتنع بأن الأمر كذلك بالوسيلة الوحيدة للإقناع ألا وهى معرفة الطبائع البشرية على نحو أفضل .

ولم يتجاوز أول ما أفضت به إلينور لأختها نبأ الخطبة ومدتها، وحينئذ انفجرت مريان باكية ، فلم تستطع إلينور أن تواصل سرد الوقائع بانتظام وكل ما استطاعت أن تفعله خلال فترة من الوقت أن تخفف من آلامها وتهدىء من روعها، وتلطف من حدة استيائها . وكان أول سؤال من جانبها أدى إلى ذكر تفاصيل أخرى هو :

« متى علمت بهذا الأمر ؟ هل كتب لك ؟ »

« لقد عرفته منذ أربعة شهور خلت . أسرّت لى لوسى نبأ خطبتها حينما قدمت فى نوفمبر الماضى إلى بارتون أول مرة . »

وعندما سمعت مريان هذه الكلمات أعربت عيناها عن الدهشه التى لم تستطع شفتاها أن تعبر عنها ثم صاحت بعد أن أطرقت هنيهة وهى فى عجب :

« أربعة أشهر ! هل عرفت هذا منذ أربعة أشهر ؟ »

فأكدت لها إلينور ذلك .

« عجبا ! أكان هذا السر يجثم على قلبك ، وأنت تواسيننى فى آلامى — وأنا أعنفك لأنى أراك سعيدة ! » .

« لم يكن من اللائق أن تعرفى حينئذ أنى على نقيض ذلك . »

فصاحت مريان : « أربعة أشهر ! وتظهرين مثل هذا الهدوء ! — مثل هذا الابتهاج ! — كيف احتملت هذا ؟ » —

« لشعورى بأنى أؤدى واجبى — وعدى للوسى أرغمنى على الكتمان . كان واجبى نحوها يقتضينى أن أتجنب أية إشارة إلى الحقيقة . وكان واجبى نحو أسرتى وأصدقائى يقتضينى ألا أبعث فى نفوسهم قلقاً على لا أستطيع أن أقنعهم بأسبابه . »

فذهلت مريان كثيراً .

وأضافت إلينور : « كثيراً ما أردت أن أطلعك وأطلع والدتى على حقيقة الأمر . وحاولت ذلك مرة أو مرتين . ولكن ما كنت لأستطيع أن أقنعكما دون أن أخون الأمانة . »

« أربعة أشهر ! ومع ذلك كنت تحبينه ! »

« نعم ، ولـكنى لم أحبه هو وحده ، فقد كنت أحب أن أواسى غيرى وذلك كان يسرنى ألا أفضى لهم بما يؤلمنى . والآن أستطيع أن أفكر فى الأمر وأتحدث فيه دون أن يخالجنى كثير من الألم . لم أرد أن تتألمى من أجلى ، وأؤكد لك أننى لم أعد أشعر بألم محسوس ، فلى عزاء فى كثير من الأمور . إننى أشعر أننى لم أجلب على نفسى بسبب تهورى ما أصابنى من خيبة الأمل . وقد احتملت هذه الخيبة بصبر جميل دون أن أحدث بها إنسانا . إننى أبرىء إدوارد من وصمة سوء التصرف ، وأتمنى له السعادة وأنا واثقة أنه سيظل يؤدى واجبه حتى يصبح سعيداً فى النهاية على الرغم مما قد يشعر به الآن من بعض الندم والأسف .ولوسى لا ينقصها العقل ، وهذا هو الأساس الذى يقوم عليه كل خير . وعلى الرغم يامريان مما يبدو من جمال الفكرة القائلة بالزواج الواحد الدائم وكل ما يمكن أن يقال عن توقف سعادة المرء على شخص بعينه فليس المقصود — ليس من المناسب — ليس من الممكن — أن يكون الأمر كذلك . إن إدوارد سيتزوج لوسى . سيتزوج امرأة تفوق فى جمال شخصها ورجاحة عقلها نصف بنات جنسها ، وسينسى بفعل الزمن وإلف العادة أنه سبق أن رأى امرأة تفوقها عقلا وجمالا . »

قالت مريان : « إذا كان هذا هو أسلوب تفكيرك ، إذا كنت ترين أنه « لكل شىء إذا فارقته عوض »[(١)] فليس للمرء أن يعجب لما تتصفين به من

---

(١) هذا هو الشطر الأول من أحد الأبيات الشعرية المشهورة وهو يؤدى معنى النص الانجليزى . والبيت كله هو .

لكل شىء إذا فارقته عوض   وليس لله إن فارقت من عوض

قوة العزيمة ورباطة الجأش – وفى وسعى الآن أن أدرك أنك تتصفين بهاتين الخصلتين . »

« إننى أفهم قصدك . أنت لا تعتقدين أننى شعرت بالكثير من الألم قط لقد ظل هذا الأمر سراً يجثم على فؤادى أربعة أشهر دون أن أكون فى حل من الإفضاء به إلى أى مخلوق ، وأنا أعلم أنه سيحزنك أنت ووالدتى أشد الحزن إذا أخبرتكما به ، ومع ذلك لا أستطيع أن أهيىء له ذهنكما على الأقل — لقد أبلغت هذا الأمر — لقد أبلغت به كرها — إلى حدما — من نفس المرأة التى حطمت خطبتها السابقة كل آمالى ، وأخبرتنى به — كما اعتقدت — بلهجة الشماتة ، ولذلك اضطررت أن أنفى ظنون هذه المرأة بأن أتظاهر بعدم الاكتراث فى الوقت الذى كنت فيه أشعر بأعظم الاهتمام . ولم يحدث ذلك مرة واحدة . لقد كانت تضطرنى مراراً وتكراراً إلى سماع ما يخالجها من آمال وأفراح . لقد عرفت أنى افترقت عن إدوارد إلى الأبد، دون أن أسمع أية واقعة من شأنها أن تقلل من رغبتى فى الزواج به ، فلم أسمع شيئاً يثبت أنه رجل غير فاضل ، أو أنه أصبح لا يهتم بى . واضطررت أن احتمل جفوة أخته ، ووقاحة أمه ، وتحملت عذاب الحب دون أن أتمتع بثمراته . وكان كل ذلك يحدث فى وقت تعلمين جيداً أننى لم أكن أقاسى فيه آلامى وحدها . وإذا كان فى وسعك أن تعتقدى أننى أستطيع أن أشعر بالألم يوما ما ، ففى وسعك أن تعتقدى حقا أننى قد شعرت به الآن . إن رباطة الجأش التى استطعت بها أن أتحدث فى الأمر الآن ، والعزاء الذى سرنى الاعتراف به كانا ثمرة التجلد الدائب الأليم ، — لم ينشآ من تلقاء نفسيهما — ولم

يحدثانى ليخففا من آلامى فى البداية — كلا يامريان — وإلا فمن المحتمل أننى لو لم أتعهد بالكتمان ، لما منعنى شىء — حتى واجبى نحو أعز أصدقائى — من أن أظهر صراحة حزنى وآلامى .

فخشعت مريان وذلت —

وصاحت : «عجبا ! إلينور ! لقد جعلتنى أمقت نفسى إلى الأبد . ماكان أقسانى عليك ! أنت التى كنت أكبر سلوتى ، التى واسيتنى فى آلامى وأحزانى ، التى كنت تتظاهرين بأنك لا تتألمين إلا من أجلى ! أهذا هو عرفانى بالجميل ؟ أهذا هو جزاؤك عندى ؟ أن ألحى عليك باللائمة لأنك كنت تهيبين بى أن أتجلد .»

وأقبلت على أختها بعدهذا الاعتراف تغمرها بأحر القبلات والأحضان . ولم تجد إلينور عناء فى أن تنتزع من مريان فى هذه الحالة النفسية التى انتابتها الآن أى وعد تشاء ، فتعهدت لها ـ بناء على طلبها ـ ألا تتحدث لأى إنسان عن هذا الموضوع بمايدل أدنى دلالة على أى شعور بالمرارة ، وأن تقابل لوسى دون أن تظهر لها أقل كراهية ، وتقابل إدوارد نفسه ـ إذا جمعتهما الصدفة ـ دون أى إقلال من مظاهر المودة التى اعتادت أن تقابله بها . وقد أبدت مريان تساهلا عظيما فى تقديم هذه الوعود ولكنها كانت تشعر أنها حيث أساءت فليس بكثير أن تقدم أية ترضية تطلب منها .

وبرت مريان بما وعدت به من مراعاة الحكمة والروية إلى درجة تدعو إلى الإعجاب ، فأصغت لكل ما أرادت مسز جننجز أن تقوله عن الموضوع دون أن

يبدو على وجهها أى مظهر من مظاهر التأثر ، ولم تخالفها فى أى قول من أقوالها ، وسمعتها إلينور تقول ثلاث مرات « نعم ، ياسيدتى » — واستمعت إلى ثنائها على لوسى دون أن تبدى حراكا اللهم إلا الانتقال من كرسى إلى آخر . ولما تحدثت مسز جننجز عن محبة إدوارد ، لم يسبب لها هذا الحديث سوى تقلص فى حلقها — وكان هذا التقدم الذى أحرزته مريان نحو التمسك بأهداب الشجاعة مما جعل إلينور تشعر بأن فى مقدورها هى أن تقوى على كل شىء .

وجاء صباح الغد بتجربة أخرى فى هذا الباب ، إذ قدم أخوها زائرا وهو متجهم الوجه ليحدثهما عن الحادث الجلل ويقص عليهما أنباء زوجته .

وما إن جلس حتى قال بلهجة الجد والوقار : « أظن أنكما سمعتما عن نبأ الحادثه المفزع الذى وقع تحت سقف بيتنا بالأمس .

فنظرتا إليه نظرة تنم على الموافقة ، وكانت اللحظة رهيبة لا تسمح بالكلام .

واستطرد يقول : « إن « سلفتكما » قاست آلاما مروعة ، وكذلك مسز فيرارز — وبالاختصار كان المشهد حافلاً بالآلام الكثيرة — ولكنى أرجو أن تنقشع الغمة دون أن يصاب أحد منا بسوء وارحمتاه لفانى ! لقد تشنجت طوال أمس ولكن لن أزعجكما كثيراً . فدنافان يقول : إنه ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف الشديد ، فبنيتها قوية ، وعزيمتها تستطيع التغلب على أى شىء .

لقد تحملت الأمر كله بصبر جميل ! وقالت : إنها لن تحسن الظن بعد اليوم بأى إنسان . ولا عجب فى ذلك بعد أن خدعت على هذا النحو ! فقوبلت بالجحود بعد الذى أسدته من حسن الصنيع ، وأظهرته من كبير الثقة . لقد دعت

هاتين الفتاتين إلى منزلها بدافع من طيبة قلبها ، لا لسبب إلا لأنها كانت تعتقد أنهما تستحقان بعض الرعاية والاهتمام ، وأنهما فتاتان بريئتان مؤدبتان ، تأمل أن تأنس بصحبتهما . وإلا فقد كنا نتمنى كثيراً أنا وهى أن ندعوك أنت ومريان لتكونا معنا أثناء زيارة صديقتنا الكريمة لكريمتها . والآن تأملا كيف كان جزاؤنا ! لقد قالت فانى بلهجتها الودية : « كنت أتمنى من صميم فؤادى أن أدعو أختيك بدلا منهما . »

وهنا توقف عن الكلام ليتلقى الشكر منهما ثم أردف : « ليس فى وسعى أن أصف ما شعرت به مسز فيرارز من الألم حينما أبلغتها فانى الخبر أول مرة . هل كان يتبادر إلى الذهن فى الوقت الذى دفعتها فيه أصدق مشاعر الحب إلى التفكير فى تزويجه فتاة ذات حسب ونسب أن يكون قد عقد خطبته سرا على فتاة أخرى طول هذه المدة! إن مثل هذه الفكرة ما كانت لتخطر ببالها قط وإذا خطر ببالها أن يخطب أية امرأة أخرى ، فلا تكون من هذا الطراز. وقالت: « لو أنه خطب الفتاة ياها لما شعرت بشىء من القلق . » والواقع أنها كانت فى محنة . على أننا تشاورنا فيما يجب عمله ، وأخيراً استقر الرأى على استدعاء إدوارد فحضر ، ولكن يؤسفنى أن أروى ما حدث بعد ذلك . فكل ماقالته مسز فيرارز لحمله على إنهاء هذه الخطبة ، معززا بحججى وتوسلات فانى لم يُجْدِ نفعا ، فقد ضرب عرض الحائط بالواجب والمحبة وكل شىء . لم أكن أظن أن إدوارد عنيد إلى هذا الحد ، قاس إلى هذا الحد. وقد شرحت له أمه المعاملة السخية التى تنوى معاملته بها إذا تزوج مس مورتون ، وأخبرته أنها سوف تهب له ضيعة نور فولك ، وهى ضيعة معفاة من ضريبة الأراضى تدر إيراداً يبلغ ألف جنيه فى العام ، بل لقد عرضت عليه

أن ترفع هذا المبلغ إلى ألف ومئتي جنيه إذا ساءت الأمور . وأوضحت له أنه إذا عارض هذا الاقتراح ، وأصر على هذا الزواج الوضيع فإن مصيره إلى الفقر المدقع ، وقالت : إن الألفي جنيه التي يملكها ستكون هي كل مايملك وأنها لن تراه بعد اليوم ، وستمتنع عن تقديم أدنى مساعدة له بحيث إذا فكر في ممارسة أية مهنة بقصد تحسين دخله فإنها ستبذل كل ما في وسعها للحيلولة دون نجاحه فيها . »

وهنا اعترت مريان نوبة من الغيظ والحنق ، فصفقت بيديها وصاحت : « رحماك اللهم ! أيمكن أن يحدث هذا ؟ »

فأجاب أخوها : « من حقك يا مريان أن تعجبي للعناد الذي يقف في وجه حجج كهذه . إن تعجبك أمر طبيعي جداً . »

وهمت مريان بالرد عليه ، ولكنها تذكرت وعدها، فأمسكت عن الكلام.

واستطرد : «على أن كل ماقالته أمه ذهب سدى ، فلم يتكلم إدوارد إلا قليلا. ولكن ما قاله قاله بلهجة الحزم والعزم وما من شيء أمكن أن يحمله على فسخ الخطبة ، بل أصر عليها مهما كلفه الأمر . »

وصاحت مسز جننجز بإخلاص وصراحة ولم تطق الصمت أكثر من ذلك فقالت : « إذن فقد سلك مسلك الرجل الشريف . معذرة يامستر داشوود إذا قلت : إنه لو فعل غير ذلك لكان في رأيي نذلا وضيعاً . إن الأمر يعنيني قليلا كما يعنيك لأن لوسي بنت عمي . وأعتقد أنه ما من فتاة في العالم هي خير منها ، ولا فتاة هي أجدر منها بزوج صالح . »

فأبدى جون داشوود دهشته الكبيرة ولكنه كان رجلا هادئاً لا يميل إلى

الاستفزاز ولا يرغب قط فى الإساءة إلى أحد ولا سيما إذا كان ثريا . ولذلك أجاب بدون امتعاض :

« إننى لا أريد بأية حال أن أتحدث بازدراء عن أى أحد من أقاربك ياسيدتى وأؤكد أن مس ستيل فتاة جليلة القدر . ولكنك تعلمين أن الزواج فى القضية الحالية يعد أمراً مستحيلا . وعقدها خطبة سرية على شاب فى رعاية خالها ، هو ابن امرأة طائلة الثراء كمسز فيرارز ، ربما لا يخلو من الغرابة إطلاقا . وجملة القول أننى لا أريد أن أعيب سلوك أى شخص تحبينه يامسز جننجز . إننا جميعاً نتمنى لها كل السعادة . وقد كان سلوك مسز فيرارز خلال الأمر كله هو السلوك الذى تنتهجه كل أم حية الضمير طيبة القلب فى ظروف مماثلة . لقد كان سلوكا ينطوى على الإباء والكرم . ولقد رسم إدوارد مصيره وأخشى أن يكون مصيراً سيئاً . »

وتنهدت مريان معربة عن مثل هذه المخاوف وتمزقت نياط قلب إلينور حزنا على إدوارد وهو يواجه وعيد أمه بسبب امرأة لا تصلح له .

وقالت مسز جننجز : « نعم ياسيدى ، وكيف انتهى الأمر ؟ . »

« يؤسفنى ياسيدتى أن أقول : إنه انتهى بقطيعة محزنة إلى أقصى حد – فقد حرم إدوارد من رؤية أمه إلى الأبد وغادر المنزل بالأمس ولكن لا أدرى أين ذهب وهل لا يزال فى لندن لأننا بالطبع لا نستطيع أن نقوم بشىء من التحرى . »

« ياله من فتى مسكين ! وماذا سيحل به ؟ »

« ماذا ياسيدتى ! إنه لأمر محزن . رجل وُلد لينعم بمثل هذه الثروة ! لا أستطيع أن أتصور موقفا أدعى إلى الرثاء من موقفه . فائدة ألفى جنيه – – كيف

يتسنى لإنسان أن يعيش بها! وإذا أضيف إلى ذلك أنه كان فى وسعه — لولا حماقته — أن يتسلم فى غضون ثلاثة أشهر ألفين ونصف ألف من الجنيهات كل عام (لأن مس مورتون تملك ثلاثين ألف جنيه) فلا يسعنى أن أتصور ماهو أسوأ من حالته. يجب علينا جميعاً أن نرثى لحاله وبخاصة لأنه ليس فى مقدورنا أن نساعده إطلاقاً. »

فصاحت مسز جننجز: «ياله من شاب مسكين. إننى أرحب بأن ينام ويأكل فى منزلى. ولو أننى رأيته لقلت له ذلك، إذ ليس من اللائق أن يعيش الآن على نفقته فى حانة أو غرفة بالإيجار. »

فشكرتها إلينور بقلبها لما أظهرته فى العطف على إدوارد وإن لم تتمالك من الابتسام لنوع هذا العطف.

قال جون داشوود: «لو أنه أحسن إلى نفسه كما أراد جميع أصدقائه أن يحسنوا إليه، لكان الآن فى الوضع الذى يليق بمقامه، ولما احتاج إلى شىء. ولكن الواقع أن أحداً لا يستطيع أن يمد إليه يد المساعدة. وهناك إجراء يتخذ ضده الآن — ومن المؤكد أنه سيكون أسوأ من أى إجراء آخر، وهو أن أمه قررت — وهذا أمر طبيعى جداً — أن تهب الضيعة لروبرت فى الحال بشروط مناسبة، وهى الضيعة التى كان يمكن أن تكون نصيب إدوارد. لقد تركتها صباح اليوم مع محاميها لبحث هذا الموضوع. »

قالت مسز جننجز: «حسن! وهذا هو انتقامها! لكل امرىء فيما يحاول مذهب. ولكن لا أظن أن مذهبى هو أن أوفر لأحد أولادى سعة العيش لأن ولداً آخر خالفنى! »

وقامت مريان وتمشت فى الحجرة .

واستطرد جون : « هل من شىء هو أغيظ لقلب الرجل من أن يرى أخاه الأصغر يحوز الضيعة التى كان يمكن أن تكون ملكا له ؟ مسكين إدوارد ! إنى أرثى له حقا ! . »

ثم أنهى زيارته بعد دقائق قليلة قضاها فى مثل هذا الحديث ، وانصرف بعد أن أكد لأختيه مراراً أنه لاضرر يخشى من توعك فانى وأنه لاداعى لقلقهما عليها . وخرجت السيدات الثلاث من هذه المقابلة وهن متفقات فى شعورهن إزاء هذا الأمر فيما يتعلق — على الأقل — بمسلك مسز فيرارز ، وآل داشوود، وإدوارد

وأعربت مريان عن سخطها بمجرد مغادرته الحجرة . ولما كان سخطها قد جعل التحفظ من جانب إلينور مستحيلا ، ولاضرورة له من جانب مسز جننجز ، فقد اشتركن جميعا فى نقد الجماعة نقداً حامى الوطيس .

الفصل الثامن والثلاثون

تحمست مسز جننجز فى ثنائها على مسلك إدوارد ، ولـكن إلينور ومريان وحدهما هما اللتان كانتا تفهمان هذا المسلك على حقيقته ، وتعرفان أنه لم يكن لدى إدوارد كثير من المبررات التى تغريه بمخالفة أمه ، ولا عزاء له عن فقدان أصدقائه وثروته سوى شعوره بأنه لم يعد الصواب فى تصرفاته . وكانت إلينور تفخر باستقامته ، ومريان تغفر له كل سيئاته أسفاً على ماحل به من عقاب . ولـكن لا واحدة منهما كانت تحب الإسهاب فى هذا الموضوع على الرغم من عودة الثقة بينهما إلى وضعها الصحيح ، بعد أن برح الخفاء وأصبح الأمر معروفاً للجميع ، فـكانت إلينور تتحاشى التحدث فى الموضوع من حيث المبدأ ، لأن ذلك من شأنه أن يثبت فى ذهنها بصورة أقوى — عن طريق تأ كيدات مريان الحماسية القطعية — الاعتقاد باستمرار محبة إدوارد لها ، وهو ما كانت تميل إلى إزالته من ذهنها . وكانت مريان تخونها الشجاعة وهى تحاول التحدث فى موضوع تخرج منه دائما وهى أشد ما تـكون سخطا على نفسها ، بسبب ما يتمخض عنه بالضرورة من المقارنة بين مسلـكها ومسلك إلينور .

وقد شعرت مريان بأثر هذه المقارنة شعوراً قويا ، ولـكن هذا الأثر لم يكن هو حثها على التجلد فى الوقت الراهن ، بل هو الشعور المستمر بوخز الضمير وشدة الندم على أنها لم تتجلد من قبل ، وهكذا لم ينتج عن هذه المقارنة سوى عذاب الندم دون الأمل فى تحسن حالتها إذ ضعفت روحها المعنوية إلى حد

اعتقدت معه أن التجلد فى الوقت الراهن ضرب من المستحيل ، ولذلك لم تؤد هذه المقارنة إلا إلى تثبيط همتها أكثر من ذى قبل .

ولم تبلغهن بعد يوم أو يومين أنباء جديدة عن سير الأمور فى هارلى ستريت أو بارلتز بلاديج . ولكن مسز جننجز صممت منذ بداية الأمر على زيارة بنتى عمها بأسرع ما تستطيع بقصد المواساة واستقصاء الأخبار على الرغم من وقوفها على كثير من الأخبار عن الحادث بحيث كان يحتمل أن تجد الكثير من العمل فى نشرها على نطاق أوسع ولم يمنعها من أداء هذه الزيارة فى أثناء هذه المدة سوى كثرة الزوار بدرجة أكبر من المعتاد .

وقد وافق اليوم الثالث الذى أعقب علمهن بتفاصيل الحادث يوماً من أيام الآحاد كان الطقس فيه جميلا رائعا ، فأغرى كثيراً من الناس بالخروج إلى حدائق كنسنجتون ، على الرغم من أن ذلك الوقت لم يتجاوز الأسبوع الثانى من شهر مارس . وكانت مسز جننجز وإلينور من بين من خرجوا . ولكن مريان كانت تعلم أن ولبى وزوجته عادا إلى لندن ، وتخشى دائما أن تلتقى بهما ، فآثرت البقاء بالمنزل ، على المجازفة بالخروج إلى أحد الأماكن العامة .

وانضمت إليهما إحدى صديقات مسز جننجز الحميمات ، عقب دخولهما الحدائق ولم تأسف إلينور لبقائها معهما ، واستئثارها بحديث مسز جننجز كله لأن ذلك أتاح لها الفرصة للتأمل الهادىء . ولم تر ولبى وزوجته ولا إدوارد ، وظلت بعض الوقت لا ترى أى شخص آخر ممن يهمها لقاؤه بطريق الصدفة السعيدة أو غير السعيدة، وأخيراً وجدت أمامها — مع شىء من الدهشة — مس ستيل التى أعربت

عن ارتياحها الشديد إلى لقائهما ، وإن بدا عليها شيء من الخجل . وعندما لقيت بعض التشجيع من مسز جننجز التي شملتها بعطفها الخاص تركت صديقاتها فترة قصيرة لتنضم إليهما وسرعان ماهمست في أذن إلينور :

« استق منها الأخبار كلها يا عزيزتي . ستخبرك بكل شيء إذا سألتها . ها أنت ذي ترين أنني لا أستطيع أن أترك مسز كلارك . »

على أن إفضاءها بأي نبأ دون سؤال كان أدعى إلى إرضاء فضول مسز جننجز ، وإلينور أيضا ، لأنه ما كان يمكن معرفة شيء بدون ذلك .

قالت مس ستيل ، وقد تأبطت ذراعها بلا كلفة، « إنني مسرورة بلقائك لأنني كنت أشد ما أكون شوقا إلى رؤيتك . » ثم خفضت صوتها وقالت : « أظن أن مسز جننجز قد سمعت كل شيء عن الأمر . هل هي غاضبة ؟ »

« غير غاضبة منك على الإطلاق . »

« هذا خبر سار . وليدي ميدلتون ، هل هي غاضبة ؟ »

« لا أظن أنه من الممكن أن تكون غاضبة ؟ »

« إنني في غاية السرور بذلك . رحماك اللهم ! لقد نعمت بذلك السرور كثيراً . لم أر لوسي في حياتي تشعر بمثل هذا الغضب قط . لقد أقسمت أولا ألا تزين لي قبعة جديدة ، ولا أن تعمل لي شيئاً آخر ما دامت حية .. ولكن قلبها صفا الآن وعدنا صديقتين كما كنا . انظري ! لقد صنعت هذا القوس لقبعتي

وزينته بالريش فى الليلة الماضية . وأرى أنك ستضحكين منى أيضا : ولكن مالى لا ألبس أشرطة وردية اللون ؟ لا يهمنى أن يكون هو اللون الذى يفضله الدكتور . وأؤكد لك أننى ما كنت لأعرف أنه يفضل هذا اللون على جميع الألوان لولا أننى علمت ذلك منه بطريق الصدفة . وقد تندر على بنات عمى بسبب ذلك ! وأنا لا أدرى أين أتجه بعينى فى حضورهن . »

ورأت أنها استطردت إلى موضوع لا تستطيع إلينور أن تتحدث فيه ، ولذلك سرعان ما رأت من المناسب أن تعود إلى الموضوع الأول .

وقالت بلهجة الانتصار : « نعم ! مس داشوود ! للناس أن يقولوا مايشاءون حول تصريح مستر فيرارز بأنه لن يتزوج لوسى ، لأنه ليس من شأنى أن أحدثك بذلك . ومن العار أن تذيع هذه الإشاعات الخبيثة بين الناس . وأنت تعلمين أنه مهما يكن رأى لوسى فيه ، فليس من شأن غيرها أن يجزموا به . »

قالت إلينور : « أؤكد لك أننى لم أسمع قط إشارة إلى موضوع من هذا القبيل . »

« عجبا ! ألم تسمعى ؟ ولكنى أعرف جيدا أنه قد قيل ذلك ، وعلى لسان أكثر من واحدة لأن مس جُدْ باى أخبرت مس سبارك أنه مامن إنسان لديه مسكة من عقل يمكن أن يتصور أن يعدل مستر فيرارز عن امرأة مثل مس مورتون تبلغ ثروتها ثلاثين ألف جنيه إلى الزواج بلوسى ستيل التى لا تملك شروى نقير . وسمعت ذلك من مس سبارك نفسها . وعلاوة على هاتين سمعت ابن عمى

وتشارد نفسه يقول : إنه إذا تم هذا الزواج فسيكون مصير إدوارد هو الطرد .
وإذ لم يتردد علينا إدوارد طوال ثلاثة أيام ، لم أستطع أن أجزم بشيء . وأعتقد أن لوسى قطعت الأمل من الأمر كله ، لأننا غادرنا منزل أخيك يوم الأربعاء ، ولم نر له أثراً يوم الخميس والجمعة والسبت ، ولم ندر ماذا حدث له . وفكرت لوسى ذات مرة أن تكتب إليه ، ولكنها عادت ، فعزفت عن ذلك . على أنه جاءنا صباح اليوم عندما عدنا من الكنيسة ، وحينئذ اتضح كل شيء : كيف استدعى يوم الأربعاء إلى هارلى ستريت وكيف تحدث إليه أمه وجميع أهله ، وكيف صرح أمامهم جميعا أنه لا يحب أحداً سوى لوسى ، ولن يتزوج امرأة غير لوسى ، وكيف أنه انزعج لما حدث . وما إن خرج من بيت والدته حتى امتطى جواده ، وسافر إلى مكان مافى الريف ، وكيف أقام فى حانة طوال يومى الخميس والجمعة لكى ينسى ماحدث . وقال : إنه بعد أن قلب النظر فى الأمر بدا له ، وقد أصبح الآن معدماً خالى الوفاض ، أنه من القسوة أن يقيدها بالخطبة لأن ذلك يعود عليها بالضرر لا محالة ، إذ لا يملك شيئاً سوى ألفين من الجنيهات ، ولا أمل لديه فى الحصول على مال آخر ، وإذا تقرر أن يصبح كاهنا ــ كما كان ينوى — فلن يحصل إلا على وظيفة نائب خورى ، وكيف يتسنى لهما أن يعيشا بدخل هذه الوظيفة ؟ ــ وقال : إنه لا يطيق أن يرى نفسه عاجزاً عن أن يعمل لها شيئا أفضل ولذلك التمس منها أن تضع حدا للأمر فى الحال إذا كان لديها أدنى رغبة فى ذلك وأن تتركه وشأنه . سمعته يقول ذلك بكل صراحة يتصورها المرء . وإذا كان قد تحدث عن فسخ الخطبة ، فلحرصه على مصلحتها ، لا لمصلحته هو . إننى أقسم أنه لم تخرج من فمه كلمة تشعر بأنه مَلَّ صحبتها أو أنه يرغب فى الزواج من مس

مورتون ، أو أى شىء من هذا القبيل . ولـكنى أؤكد أن لوسى لن تصغى لأى حديث من هذا النوع . لذلك قالت له من فورها (مع كثير من عبارات الغزل ، أنت تعلمين ، وكل ذلك — أوه ، وى ! تعلمين أنه ليس فى وسعى أن أردد مثل هذه الأشياء . . .) — قالت له على الفور : إنه ليس لديها بأية حال من الأحوال أدنى رغبة فى فسخ الخطبة لأنها تستطيع أن تعيش بالقليل ، ومهما قل ما لديه ، فإنها ستشعر بكثير من السرور إذا أعطاها كله أو بعضه . وعندئذ سر إدوارد غاية السرور ، وتحدث بعض الوقت عما يجب عليهما عمله ، فاتفقا أن يكرس نفسه من فوره ، وأن يرجئا الزواج حتى يحصـل على وظيفة كهنوتية . وعندما وصل الحديث إلى هذا الحد ، لم أستطع أن أسمع المزيد منه ، لأن بنت عمى نادتنى من أسفل لتقول لى : إن مسز رتشاردسون قد وصلت فى عربتها وستأخذ إحدانا إلى حدائق كنسنجتون . لذلك اضطررت أن أدخل الحجرة ، وأقطع عليهما الحديث ، لأسأل لوسى هل تحب أن تذهب . ولكنها لم تشأ أن تترك إدوارد ، فصعدت الدرج ، ولبست جوربين من حرير وخرجت مع آل رتشاردسون . »

قالت إلينور : « لا أفهم ماذا تعنين بقولك : إنك قطعت عليهما الحديث . لقد كنتم جميعاً فى نفس الحجرة ، ألم تكونى معهما ؟ .. »

« كلا ! لم نكن . عجباً ! مس داشوود ، أتظنين أن الناس يتغزلون على مرأى من أحد ؟ واخجلتاه ! لابد أنك تعلمين أكثر من ذلك (تضحك بتكلف) كلا كلا ! لقد كانا يغلقان عليهما باب حجرة الاستقبال ، وإنما سمعت ما سمعت باستراق السمع لدى الباب . »

فصاحت إلينور : « كيف ! أكنت ترددين على سمعى ما لم تسمعيه إلا باستراق السمع لدى الباب ؟ إننى آسفة لأنى لم أعرف ذلك من قبل ، ولو عرفته لما سمحت لك أن تقصى على تفاصيل حديث ما كان ينبغى لك أن تعرفيه. كيف تتصرفين مع أختك على هذا النحو غير اللائق ؟ »

« أوه ! عجباً ! لا جناح عليّ فى ذلك . كل مافعلته أنى وقفت لدى الباب ، واستمعت ما استطعت . وأنا أعتقد أن لوسى كانت تفعل معى مثل ذلك ، لأنها لم تتحرج من الاختفاء فى مقصورة أو خلف لوح المصطلى بقصد سماع ما أقوله حينما كنت أتناجى مع مارثا شارب منذ سنة أو سنتين . »

وحاولت إلينور أن تتحدث فى حديث آخر ، ولكن مس ستيل لم تستطع أن تصبر نفسها أكثر من دقيقتين عن التحدث فى الموضوع الذى يشغل بالها .

قالت : « يقول إدوارد إنه سيتوجه إلى أكسفورد قريباً ، ولكنه الآن يقيم بمنزل رقم — فى بول مول . يالأمه من امرأة خبيثة الطوية . أليس كذلك ؟ وما كان أقسى أخاك وزوجته ! على أننى لن أقدح فيهما أمامك فالحق يقال إنهما أقلانا إلى منزلنا فى عربتهما ، وهو أكثر مما كنت أتوقعه . وكان أكبر ما أخشاه أنا شخصياً أن تطلب زوجة أخيك علب الخياطة التى أهدتها لنا قبل ذلك بيوم أو يومين ، ولكنها لم تشر إليها بكلمة ، وقد حرصت على إخفاء علبتى عن الأنظار . ويقول إدوارد إنه سيذهب إلى أكسفورد لبعض شأنه ، وسيمكث بها فترة من الزمن ، ثم يرسم قسا بعد ذلك ، بمجرد عثوره على أحد الأساقفة . ولا أدرى أية وظيفة كنسية سيحصل عليها ! — رحماك اللهم !

(تضحك مستهزئة وهى تتكلم) ليت شعرى ماذا سيقوله أقار . عندما يبلغهم ذلك ! سيقولون يجب أن أ كتب للدكتور حتى يتوسط لإدوارد فى الحصول على أبرشيته الجديدة . أنا أعرف أنهم سيقولون ذلك . ولكنى لن أفعل شيئا من هذا القبيل إطلاقا . سأقول لهم من فورى : « عجبا ! كيف تفكرون فى مثل هذا الأمر ؟ أنا أكتب للدكتور — حقاً !

فقالت إلينور : « على كل حال ، مما يريح البال ، أن يستعد المرء لأسوأ الاحتمالات . لقد أعددت الجواب على سؤالهم . »

وهمت مس ستيل بالرد عليها فى هذا الموضوع نفسه ، ولكن صديقاتها أقبلن ، فاضطرت أن تخوض فى حديث آخر .

« عجبا ! هاقد أقبل آل رتشاردسون . كنت أود أن أقول لك أشياء كثيرة . ولكن لا أستطيع أن أتخلف عنهما أكثر من ذلك . أؤكد لك أنهما على جانب كبير من الظرف واللطف ، فمستر رتشاردسون رجل طائل الثراء ، ولهما عربة . لم تتح لى فرصة التحدث معمسز جننجز فى الأمر بنفسى ، ولكنى أرجو أن تخبريها أننى جد سعيدة لأنها غير غاضبة علينا ، وأن تخبرى ليدى ميدلتون بمثل ذلك . وإذا اتفق أن خرجت مع أختك لبعض شأنكما ، ورغبت مسز جننجز فيمن يؤنس وحدتها ، فسيكون من دواعى سرورنا أن نزورها ونمكث معها أطول وقت تشاء . وأظن أن ليدى ميدلتون لن تدعونا لزيارتها هذه المرة . وداعاً ! إننى آسفة لأنى لم أرمس مريان . تحياتى إليها . عجبا ! لماذا لا ترتدين ثوبك المصنوع من الموسلين المرقش ! ربما خشيت أن يكون ممزقا ! »

وهكذا ودعتني بهذه الكلمات ، لأنها لم تلبث بعد ذلك إلا ريثما حيت مسز جننجز تحية الوداع قبل أن تطابها مسز رتشاردسون . وخرجت إلينور من هذا الحديث بمعلومات تصلح مادة غزيرة للتفكير فترة من الزمن ، وإن كانت هذه المعلومات لا تزيد كثيراً عما توقعته ورتبته فى ذهنها من قبل ، فقد عرفت أن لوسى وإدوارد قد عقدا العزم على الزواج ، وأن موعد عقده لايزال غير معروف بصفة قاطعة كما فهمت من قبل ، وأن كل شيء يتوقف — كما توقعت تماما — على الوظيفة الكنسية التى لايبدو الآن أدنى أمل فى حصوله عليها .

وما إن عادتا إلى العربة ، حتى تاقت مسز جننجز إلى معرفة الخبر . ولكن إلينور أرادت أن تذيع أقل ما يمكن من الأخبار التى أمكن الحصول عليها قبل كل شيء بطريقة غير شريفة ، فاقتصرت على تكرار بعض الوقائع البسيطة التى أيقنت أن لوسى تحب إذاعتها تعزيزاً لمركزها ، فكان استمرار الخطبة والوسائل التى تقرر اتخاذها للوصول بها إلى نهايتها المحتومة هو كل ما أفضت به.

وهذا حمل مسز جننجز على إبداء الملاحظة الطبيعية الآتية :

« ينتظر حتى يحصل على وظيفة كنسية ! نعم ، نحن نعلم كيف ينتهى ذلك ، — إنهما سينتظران اثنى عشر شهراً . وبعد أن يجدا أنه لا فائدة من البحث ، سيضطران إلى قبول وظيفة نائب خورى التى يبلغ إيرادها خمسين جنيها فى العام بالإضافة إلى فائدة الألفى جنيه التى يملكها ، وما عسى أن يقدم لهما مستر ستيل ومستر برات من نزر يسير — ثم إنهما سينجبان طفلا كل عام . كان الله فى عونهما ! ما أشد الفقر الذى سيحل بهما ! يجب أن أفكر فيما يمكن أن أساهم به فى تأثيث منزلهما . خادمتان وخادمان فى الواقع ! كما قلت منذ أيام — كلا ،

كلا ! يجب أن يستخدما فتاة قوية تستطيع النهوض بكافة الأعمال المنزلية — وأخت بتى لايمكن أن تصلح لهما الآن . »

فى صباح الغد ورد لإلينور خطاب من لوسى من فئة البنسين . ونصه كما يلى :

بارتلتز بلدنج — مارس .

أرجو يا عزيزتى مس داشوود أن تتجاوزى عن اجترائى عليك فى كتابة هذا الخطاب . ولـكنى أعلم أن صداقتك لى ستحملك على السرور بسماع قصتى وقصة عزيزى إدوارد ، بعد كل المتاعب التى لاقيناها أخيراً . ولذلك فإنى لن أعتذر مرة أخرى بل أمضى فأقول : الحمد لله ! فنحن على الرغم مما قاسيناه من آلام مروعة ، نتمتع بصحة طيبة ، وننعم بالسعادة كما يجب أن ننعم بها فى ظل الحب الذى يـكنه كل منا لقرينه . لقد قاسينا محنا عظيمة ، ولاقينا أذى كثيراً ، ولـكننا مع ذلك نشعر فى الوقت نفسه بالشكر والامتنان لـكثير من الأصدقاء — ولستِ أنتِ أقل هؤلاء شأناً — الذين سأظل دائماً أنا وإدوارد الذى أنبأته بذلك — نذكر مع الشكر ما أبدوه من عطف عظيم . وأنا على يقين أنه يسرك — كما يسر عزيزتى مسز جننجز — أن تعلمى أننى قضيت ساعتين سعيدتين معه بعد ظهر أمس ، إذ أبى أن يوافق على افتراقى عنه على الرغم من أننى — استجابة لنداء الواجب — ألححتُ عليه فى ذلك مراعاة للحكمة ، وأبديت رغبتى فى الفراق على الفور إذا وافق على ذلك ، ولـكنه قال : إن هذا لن يكون أبداً ، وإنه لايأبه لغضب أمه مادام يتمتع بحبى له . إن طريق المستقبل ليس مشرقاً أمامنا بلا ريب ، ولـكن يجب علينا أن ننتظر ونأمل خيراً ، فإدوارد سيرسم قساً عما قريب . وإذا أتيح لك فى أى وقت أن تزكيه لدى أى شخص يمكن أن يمنحه

وظيفة كنيسية فأنا واثقة أنك لن تنسينا ، وكذلك أعتقد أن مسز جننجز ستثنى علينا لدى سيرجون أومستر بالمر ، أوأى صديق فى وسعه أن يساعدنا . إن آن المسكينة ملومة كثيراً على مافعلت ، ولكنها فعلت ذلك بحسن نية ، ولذلك فأنا لا أقول شيئاً . وأرجو ألا تجد مسز جننجز عناء كبيراً فى زيارتنا متى عن لها أن تمر بمنزلنا صباح أى يوم . وستكون هذه الزيارة فضلا عظيما ، وسيفخر أقاربى بالتعرف إليها والآن يجدر بى أن أختم خطابى ، وأرجو أن تبلغيها أسمى شكرى واحترامى هى وسيرجون وليدى ميدلتون والأطفال الأعزاء متى سنحت لك الفرصة للقائهم ، ومحبتى لمس مريان .

وأنا ... الخ ... الخ ..

وما إن انتهت إلينور من قراءته حتى نفذت مارأت أنه القصد الحقيقى من كتابته فناولته مسز جننجز التى قرأته بصوت جهير مع كثير من التعقيب الذى ينم على الارتياح والثناء .

حقا جميل جداً ! — ما أجمل أسلوبها فى الكتابة ! — نعم كان من اللائق تماما أن تفسخ الخطبة إذا أراد . هذا ما يليق بلوسى تماما . مسكينة هى ! بودى لو استطعت أن أحصل له على وظيفة كنسية ! لاحظى أنها تسمينى مسز جننجز العزيزة . إنها من أطيب الفتيات قلباً — لعمرى إنه لخطاب جميل. هذه الجملة صيغت فى عبارة جميلة . نعم نعم ، سأتوجه إلى زيارتها حقا . ما ألطف أن تفكر فى كل إنسان ! أشكرك ياعزيزتى لإطلاعى على هذا الخطاب . إنه من أجمل مارأيت من الخطابات فى حياتى . وهو يشهد بحصافة اللب و رقة القلب .

الفصل التاسع والثلاثون

قضت الآنستان داشوود أكثر من شهرين فى لندن حتى الآن ، وأخذت مريان تزداد لهفة على الرحيل كل يوم ، واشتاقت إلى هواء الريف وحريته وهدوئه وخيل إليها أنه إذا كان ثم مكان تنعم فيه براحة البال فهو بارتون . ولم تكن إلينور أقل من أختها شوقا إلى الرحيل ، وكل مافى الأمر أنها لم ترغب فيه على الفور ، لشعورها بما تنطوى عليه هذه الرحلة الطويلة من مشاق أبت مريان أن تعترف بها ، على أنها أخذت تفكر فى السفر بصورة جدية ، فأعربت بالفعل عن هذه الرغبة لمضيفتها الكريمة التى عارضت فيها بكل ما أوتيت من بلاغة الحب والود ، ثم اقترحت فكرة رأتها إلينور أدعى إلى القبول من غيرها ، وإن كان من شأنها أن ترجىء سفرهما بضعة أسابيع أخرى ، ذلك أنه تقرر أن يسافر آل بالمر إلى كليفلاند فى نهاية مارس لقضاء إجازة عيد الفصح ، فأرسلت شارلوت إلى مسز جننجز دعوة ملحة بالسفر معهم . ولم تكن هذه الدعوة كافية فى حد ذاتها لحمل مس داشوود على السفر معهم ، فتقدم بها مستر بالمر بنفسه بكل أدب ، وعززها ما طرأ على سلوكه نحوها من تحسن عظيم منذ أن عرف أن أختها تعانى لوعة الأسى ، فحملها ذلك على قبول الدعوة بكل سرور .

على أنها حينما أخبرت مريان بما فعلت ، كان أول رد لها لا يبعث على السرور .

قالت بلهجة تنم على القلق الشديد : « كليفلاند ! كلا ، لا يمكن أن أذهب إلى كليفلاند » —

فأجابت إلينور برفق : « أنت تنسين أن موقعها ليس ... ليست فى جوار .. »

« ولكنها فى سمر ستشاير — لا يمكن أن أذهب إلى سمر ستشاير — هناك ، حيث كنت أتطلع إلى الذهاب . . . كلا يا إلينور ! لا تنتظرى منى أن أذهب إليها . »

ولم تشأ إلينور أن تتجادل معها فى وجوب نسيان هذه المشاعر — و إنما حاولت أن تزيل أثرها من نفسها بإثارة مشاعر أخرى — فصورت الأمر على أنه وسيلة لتحديد موعد عودتهما إلى أمهما العزيزة التى كانت هى تتوق إلى رؤيتها كثيراً ، على نحو أفضل وأدعى إلى الراحة من أية وسيلة أخرى ، وربما بدون تأخير كبير ، ذلك أن المسافة من كليفلاند التى تبعد عن برستول بضعة أميال إلى بارتون ، لا تتجاوز يوماً واحدا ، و إن كان السفر يستغرق اليوم بطوله ، ثم إن خادمة والدتهما يسهل أن تأتى إليهما لترافقهما فى طريق العودة ؛ و إذا لم يكن من المحتمل أن تزيد مدة إقامتهما فى كليفلاند على أسبوع ، فمن الممكن أن تعودا إلى منزلها بعد ثلاثة أسابيع أو تزيد قليلا . ولما كانت مريان تحب أمها محبة صادقة ، فقد كان من المؤكد أن تتغلب دون كبير عناء على المخاوف الوهمية التى أعربت عنها .

كانت مسز جننجز أبعد من أن تمل صحبة ضيفتيها فألحت عليهما أن تعودا معها من كليفلاند ، فشكرتها إلينور على هذه المجاملة ، ولم تغير من عزمها على السفر ، ثم إن أمهما أبلغتهما موافقتها على السفر ، فأعدتا له العدة بأسرع ما يمكن . وأخذت مريان تتنفس الصعداء ، وتحصى الساعات التى تفصلها عن بارتون .

وقالت مسز جننجز للكولونيل عندما زارهن لأول مرة بعد أن تقرر

مفارقتهما لها : « آه ! كولونيل ، لا أدرى ما سأفعل أنا وأنت بدون الآنستين داشوود ؛ لأنهما عقدتا النية على السفر إلى أهلهما بعد انتهاء زيارتهما لآل بالمر . كم سنشعر بالوحشة بعد عودتي ! — رباه ! سنجلس معا ويتثاءب كل منا في وجه الآخر في خمول وكسل كما تفعل القطط . »

ربما كانت مسز جننجز تأمل بهذا التصوير الحى لما سيشعران به من الملل والضجر أن تستحثه على التقدم بالعرض الذى يمكن أن يهيىء له مخرجا من هذا الملل — وإذا كانت تأمل كذلك ، فقد وجدت بعد قليل من الأسباب القوية ما يحمل على الاعتقاد بتحقيق هذا الأمل . وذلك أنه عندما انتقلت إلينور إلى النافذة لتقيس على وجه السرعة أبعاد إحدى الصور التى أرادت أن ترسمها لصديقتها سار براندون وراءها إلى النافذة وهو يرمقها بنظرة ذات مغزى ، وتحدث معها عدة دقائق . ولم يفتها أن تلاحظ أن إلينور قد تغير وجهها ، واعتراها الاضطراب وبلغ من اهتمامها بحديثه أنها لم تستطع أن تواصل عملها ، على الرغم من أنها (أى مسز جننجز) كانت أنبل من أن تصغى لحديثهما حتى لقد غيرت مقعدها حتى لا تسمعه ، إلى مقعد بالقرب من البيان الذى كانت مريان تعزف عليه . ومما قوى أملها أيضا أنه فى الفترة التى انتقلت فيها مريان من درس إلى آخر طرقت أذنها لا محالة بعض كلمات للكولونيل يبدو أنه يعتذر فيها عن سوء حالة بيته ، وهذا قطع الشك باليقين . وعجبت فى الواقع لاعتقاده أنه من الضرورى أن يعتذر عن ذلك ، ولكنها رأت أن هذا مما تقضى به آداب المجاملة . ولم تستطع أن تتبين رد إلينور عليه ، ولكنها استنتجت من حركة شفتيها أنها لا ترى فى ذلك مانعا قويا — وأثنت عليها مسز جننجز فى نفسها لهذه الصراحة . ثم أخذا يتحدثان بضع دقائق بدون أن تلقط من حديثهما حرفا ، وإذا بمريان

تتوقف عن العزف مرة أخرى لحسن حظها ، فتسمع هذه الكلمات من حديث الـكولونيل الهادىء :

« أخشى ألا يتم هذا الأمر عاجلا . »

فدهشت وذعرت لهذا الـكلام الذى لا يعبر عن الحب وأوشكت أن تصيح : « رباه ! ماذا يعوق الأمر ؟ » ولـكنها كبحت جماح نفسها ، فاكتفت بهذه العبارة الصامتة :

« هذا غريب جدا ! لا حاجة به حقا أن ينتظر حتى يهرم . »

على أن هذا الإرجاء والتسويف من جانب الـكولونيل لم يسبب فيما يبدو أدنى غضب أو ألم لصاحبته الحسناء ، لأنه عندما فرغا من الحديث بعد قليل ، وراح كل منهما فى طريقه ، سمعت مسز جننجز — بكل وضوح — إلينور وهى تقول بصوت يدل على إحساسها بما تقول :

« سأعد نفسى دائما مدينة لك بالشكر والامتنان . »

وسرت مسز جننجز بما أعربت عنه من الشكر ، ولـكنها لم تعجب إلا لأنها — بعد سماع هذه الجملة — رأت الـكولونيل يستأذن من فوره بكل برود وبدون أن يرد عليها ! ولم تكن تظن أن صديقها العجوز يبدى مثل هذا الفتور نحو خطيبته .

والواقع أن الحديث الذى دار بينهما كان مؤداه مايلى :

قال بلهجة تشف عن الأسى : « لقد بلغنى نبأ المعاملة الجائرة التى لقيها صديقك

مستر فيرارز من أسرته وأنها ـ إذا صح ما بلغنى ـ نبذته نبذاً تاماً لتمسكه بخطبة فتاة أهل للزواج منه . فهل ما بلغنى صحيح ؟ هل الأمر كذلك ؟»

فأخبرته إلينور أنه صحيح .

فأجاب بلهجة تدل على العطف الشديد : « إن القسوة ، القسوة الجائرة التى تدعو إلى التفريق أو محاولة التفريق بين خطيبين شابين أحب أحدهما الآخر زمنا طويلا لهى قسوة مروعة . إن مسز فيرارز لا تدرى مغبة عملها ، وما تسوق ابنها إليه . لقد رأيت مستر فيرارز مرتين أو ثلاث مرات فى هارلى ستريت ، وأعجبت به كثيراً . وهوشاب لا يستطيع الإنسان أن يوثق معه عرى المودة فى فترة قصيرة ، ولكن عرفت عنه مايكفى لأن أتمنى له الخير ، حباً فيه وبوصفه صديقا لك . ولا أزال أتمنى له المزيد من الخير . لقد علمت أنه يريد الانخراط فى سلك الكهنوت . فهل تتكرمين بأن تخبريه أن أبرشيه ديلافورد التى خلت الآن كما علمت من بريد اليوم هى له إذا رآها جديرة بالقبول . ولكنى كنت أود أن يكون إيراد هذه الأبرشية كبيراً نظراً لظروفه السيئة فى الوقت الراهن ، ومن اللغو أن نمارى فى هذا الأمر . وهى وظيفة نائب خورى ولكنها وظيفة صغيرة . وأعتقد أن القسيس السابق لم يظفر منها بأكثر من مائة جنيه فى العام . صحيح أن هذا المبلغ قابل للزيادة ، ولكنى أخشى ألا يزيد إلى الحد الذى يتيح له دخلا كبيراً . على أنه إذا قبلها ، فإنى سأشعر بسرور كبير حين أقدمها له . أرجو أن تؤكدى له ذلك . »

ولم تكن دهشة إلينور لهذا التكليف تزيد على دهشتها فيما لو عرض

عليها الـكولونيل يده ، فالوظيفة التي كانت ترى منذ يومين اثنين أنه لا أمل لإدوارد في الحصول عليها أتيحت له الآن لتمكينه من الزواج . وكانت هي دون غيرها التي وقع عليها الاختيار لإسباغ هذه الوظيفة على إدوارد ! وبلغ بها التأثر حدا جعل مسز جننجز تعزوه إلى سبب يختلف كثيراً عن سببه الحقيقي . ولـكن مهما شاب هذا التأثر من مشاعر الـكدر والنفور فإنها أعربت بحرارة عن تأثرها وتقديرها للـكرم الفياض ، وشكرها للود الصادق اللذين دفعا كولونيل براندون إلى هذا العمل ، فشكرته من صميم فؤادها على ذلك وأثنت على أخلاق إدوارد وطباعه بما هو أهله ، ووعدت بأداء المهمة بكل سرور إذا كان يرغب حقيقة في إسناد هذه المهمة السارة إلى غيره ، لـكن لم يسعها في الوقت نفسه إلا أن تقول إنه لا أحد أقدر منه هو على أدائها، وإنها بالاختصار مهمة تود لو أعفاها منها لأنها لا تريد أن تجرح شعور إدوارد بتقبل المنّة منها ، ولـكن كولونيل براندون رفض القيام بهذه المهمة لنفس السبب الذي أبدته هي من مراعاة شعور إدوارد ، وأعرب عن شديد رغبته في قيامها هي بهذه المهمة ، فلم تشأ أن تبدي أية معارضة لسبب ما . وكانت تعتقد أن إدوارد لا يزال في لندن ولحسن الحظ سبق لها أن سمعت عنوانه من مس ستيل، ولذلك استطاعت أن تتعهد بإبلاغه الأمر في بحر يوم . وبعد أن تقرر ذلك أخذ كولونيل براندون يتحدث عن مزية ظفره بمثل هذا الجار اللطيف الجدير بالاحترام . وعندئذ ذكر مع الأسف أن المنزل صغير ومتواضع — وهو عيب لم تهتم به إلينور كثيراً — كما ظنت مسز جننجز — ولا سيما فيما يتعلق بحجمه على الأقل .

فقالت : « لا أستطيع أن أتصور أن صغر المنزل قد يسبب أية مضايقة لهما لأنه سيكون متناسبا مع عدد الأسرة ودخلها . »

ودهش كولونيل براندون لهذا القول ، لأنه يدل على أنها ترى أن زواج مستر فيرارز نتيجة مؤكدة لهذه الوظيفة الدينية ، إذ لم يكن يرى من الممكن أن تغل ابرشية ديلافورد إيراداً يتيح لأى إنسان يمارس أسلوب حياته أن يتزوج به ، وصرح بهذا الرأى أيضا فقال :

« هذه الأبرشية الصغيرة لا يمكن أن تؤدى إلى أكثر من أن يحيا حياة طيبة كأعزب ، ولا يمكن أن تمكنه من الزواج . إننى آسف لأن أقول إن مساعدتى له تقف عند هذا الحد ، واهتمامى بأمره لا يتجاوز هذا القدر . ولكن إذا حدث ما ليس فى الحسبان ، وأمكننى أن أسدى إليه خدمة أكبر ، وجب أن أفكر فى شأنه تفكيراً يختلف كثيراً عما أراه الآن اللهم إلا إذا لم أكن مستعداً لخدمته حينذاك استعدادى لخدمته بإخلاص فى الحاضر . إن ما أسديه الآن من خدمة لا يبدو فى نظرى شيئاً مذكوراً على الإطلاق ، لأنه ليس سوى خطوة قصيرة نحو هدفه الأساسى الوحيد وهو السعادة . أما الزواج فيجب أن يعلم أنه لا يزال أملا بعيداً ، إذ أننى أخشى على الأقل ألا يتم قريباً . »

هذه هى الجملة التى جرحت بحق مشاعر مسز جننجز الرقيقة عندما أساءت فهمها ، ولكن بعد أن قصت عليها إلينور حقيقة ماجرى بينها وبين كولونيل براندون وهما واقفان لدى النافذة ، أعربت له عند الوداع عن شكرها شكراً ربما لا يقل بوجه عام فى حرارته وعبارته عن الشكر الذى كانت تعرب عنه فيما لو عرض عليها الزواج .

الفصل الأربعون

قالت مسز جننجز وهى تبتسم على نحو يدل على الفطنة الثاقبة ، بمجرد أن خرج الرجل :

« مس داشوود ! لا أطلب منك أن تقصى على ما قاله الكولونيل لك ، لأنى استطعت أن أتلقف من كلماته مايكفى لفهم مقصده ، على الرغم من أننى أقسم لك بشرفى أننى اجتهدت أن أكون بعيدة عن مسامعكما . وأؤكد لك أننى لم أسر قط كما سررت بهذا الحديث . وأتمنى من صميم قلبى أن تكونى مسرورة به . »

فقالت إلينور : « أشكر لك ياسيدتى . إنه لأمر يسرنى كثيراً . وأنا أقدر كل التقدير ما أسداه كولونيل براندون من حسن الصنيع . كثير من الناس يأبون أن يفعلوا مثل مافعل . قليل منهم من يحمل مثل هذا القلب الرحيم . مادهشت قط أكثر من دهشتى الآن . »

« رباه ! عزيزتى ، إنك متواضعة جداً . أما أنا فلم أشعر بأدنى دهشة ، لأنه بدا لى فى الأيام الأخيرة أنه مامن شىء هو أكثر احتمالا من ذلك . »

« لقد حكمت بذلك لما تعلمين عن الكولونيل من حب الخير والمعروف ولكن ماكنت تتوقعين على الأقل أن الفرصة ستسنح بمثل هذه السرعة . »

فرددت مسز جننجز : « الفرصة ! عجبا ! إن الرجل متى عقد العزم ،

فسرعان مايجد الفرصة على نحو ما . حسن ياعزيزتى ، أتمنى لك السرور دوما . وإذا كان فى العالم زوجان سعيـــدان فأنا أعتقد أننى لن ألبث أن أعرف أين أبحث عنهما . »

قالت إلينور بابتسامة خفيفة : « تعنين أنك ستذهبين وراءها إلى ديلافورد . »

« نعم ! ياعزيزتى . هذا ما سأفعله حقا . أما فيما يتعلق بسوء حالة المنزل فأنا لاأدرى ماذا يريد الكولونيل ! إنه منزل طيب كأحسن منزل رأيته . »

« قال إنه لايقبل الترميم . »

« حسن ، ومن المسئول عن ذلك ؟ لمـــاذا لايرممه ؟ من سواه يجب أن يفعل ذلك؟ »

وقطع عليهما الخادم الحديث إذ دخل ليقول إن العربة لدى الباب فقالت مسز جننجز وهى تهم بالخروج :

« معذرة ياعزيزتى . أنا مضطرة الآن إلى الخروج قبل أن أفرغ من نصف حديثى . ولكن فى وسعنا أن نفرغ منه فى المساء لأننا سنكون وحدنا . ولاأطلب إليك أن ترافقينى لأنى أعتقد أن الأمر يشغل بالك بحيث لاترغبين فى مرافقتى ، وفضلا عن ذلك فأنت تتوقين بلاشك إلى إخبار أختك بكل شىء . »

وكانت مريان قد غادرت الحجرة قبل بدء حديثهما .

« حقاً ياسيدتى . سأطلع مريان عليه ، ولكن لن أذكره فى الوقت الحاضر لأى إنسان آخر . »

فقالت مسز جننجز بشىء من الامتعاض : « وى ! جميل جداً كأنك لاتريدين أن أخبر لوسى به ، فأنا أنوى الذهاب إلى هلبوزن اليوم . »

« كلا ياسيدتى ولا للوسى ، من فضلك . إن الانتظار يوماً واحداً لن يضر كثيراً . وأعتقد أنه ينبغى عدم ذكره لأى إنسان حتى أكتب لإدوارد . وسأكتب إليه من فورى . فمن المهم ألا نتوانى فى إبلاغ الأمر إليه ، لأنه سيكون مضطراً بالطبع إلى اتخاذ كثير من الإجراءات الخاصة برسامته . »

وقد سبب هذا الكلام لمسز جننجز كثيراً من الحيرة والارتباك فى البداية إذ لم تستطع أن تفهم فى الحال فيم العجلة فى الكتابة لمستر فيرارز حول الأمر ولكنها بعد أن فكرت بضع دقائق خطرت لها هذه الفكرة الموفقة فصاحت :

« وى ! وى ! قد فهمت مرادك . إن مستر فيرارز هو الزوج المرتقب . حسن ! خير البر عاجله . نعم حقا يجب أن يتم تكريسه فى الحال . إننى مسرورة لاتفاقكما على التعجيل بالأمر . ولكن ألا ترين ياعزيزتى أن ذلك يخالف المألوف ؟ أما كان يجب أن يكتب إليه الكولونيل نفسه ؟ حقا إنه هو الخليق بذلك . »

ولم تفهم إلينور الشطر الأول من كلام مسز جننجز ، ولم تره جديراًبالسؤال عنه . ولذلك اكتفت بالإجابة عن الشطر الأخير .

إن كولونيل براندون رجل رقيق الشعور ، فأراد أن يكلف شخصاً غيره بإبلاغ نواياه إلى إدوارد . »

« كأنه كلفك أنت أداء هذه المهمة . عجباً ! هذا ضرب غريب من رقة الإحساس ! على أنى لن أزعجك (إذ رأتها تهم بالكتابة) أنت أدرى بمصلحتك . وداعا ياعزيزتى ! ماسمعت بشىء سرنى أكثر من ذلك منذ أن وضعت شارلوت مولودها . »

ثم خرجت ولكنها عادت بعد لحظة .

« لقد خطرت ببالى الآن أخت بيتى ، يا عزيزتى . يسرنى كثيراً أن تكون فى خدمة ربة بيت طيبة كهذه . ولكنى لاأستطيع أن أجزم هل تصلح أن تكون وصيفة لسيدة . هى خادمة بيت ممتازة ، ماهرة فى شغل الإبرة . ومع ذلك أرجو أن تفكرى فى الأمر على هينتك . »

فأجابت إلينور : « بالتأكيد ياسيدتى » دون أن تسمع كثيراً مما قالته ، وهى أحرص على أن تخلو بنفسها منها على أن تكون ربة البيت المشار إليها .

وكان أكبر مايشغل بالها الآن هو كيف تبدأ الخطاب — كيف تعبر عن أفكارها فى خطابها لإدوارد . إن ظروفهما الخاصة جعلت من الصعب العسير ما كان يمكن أن يكون أسهل شىء فى العالم على أى شخص آخر ، ولكنها كانت تخشى على السواء أن تقول أكثر أو أقل مما يقتضيه المقام . وجلست

وهى تتروى فى الأمر فوق الورق والقلم فى يدها ، و إذا بإدوارد يدخل عليها فيقطع عليها سلسلة التفكير .

وكان إدوارد قد قابل مسز جننجز لدى الباب ، وهى تتجه إلى العربة بينما كان قادما ليترك بطاقته مودعا ثم اعتذرت له عن عدم عودتها معه ، واضطرته إلى الدخول حين أخبرته أن مس داشوود فى الطبقة العليا وأنها تريد التحدث إليه فى موضوع خاص .

وكانت إلينور منذ لحظة تحدث نفسها فى غمرة حيرتها أنه إذا كان من الصعب أن تعبر عن أفكارها فى خطاب تعبيراً صحيحا فمن الأفضل على الأقل أن تبلغه الخبر شفهيا ، و إذا به يدخل عليها ، فيرغمها على إبداء أعظم مظاهر التجلد ورباطة الجأش . وقد اعتراها كثير من الدهشة والارتباك عندما حضر على هذا النحو المفاجىء ، إذ لم يسبق لها أن رأته منذ أن شاع نبأ خطبته ، لامنذ أن عرف هو أنها علمت بهذا النبأ ـ وهذا بالإضافة إلى شعورها بما كانت تفكر فيه ، وما أرادت أن تحدثه به — جعلها تشعر بكثير من الحرج بضع دقائق . وكان هو يشعر بالهم والأسى أيضا فجلسا معا فى حالة يكتنفها الحرج الشديد ، فلم يستطع أن يذكر هل اعتذر لها عن تطفله عليها بالدخول فى الحجرة ولكنه رأى أن يأخذ بالأحوط فقدم لها اعتذاره بعبارة لائقة عندما استطاع أن يتكلم بعد أن أخذ كرسياً وجلس عليه .

قال: « أخبرتنى مسز جننجز أنك تريدين أن تتحدثى معه ، أو على الأقل هذا مافهمته منها — و إلا لما تطفلت عليك على هذا النحو ، ولكن كنت سأشعر بغاية الأسف إذا غادرت لندن دون أن أراك وأختك ، ولاسيما أنه يحتمل كثيراً

أن أغيب حينا من الزمن ، ولايحتمل أن أسعد قريبا بلقائك مرة أخرى .
سأذهب إلى إكسفورد غداً . »

وعادت إلينور فملكت جأشها ، وصممت على نسيان ماتخشاه كثيراً ، بأسرع ما يمكن وقالت : « على أنه ما كان لك أن تسافر دون أن تتلقى تمنياتنا الطيبة حتى ولو عجزنا عن تقديمهاشخصياً . ولقد صدقت مسز جننجز فيما قالت ، فلدى نبأ هام أود الإفضاء به إليك ، وكنت على وشك أن أخبرك به عن طريق الكتابة . لقد كلفت أداء مهمة تبعث فى نفسى أعظم الرضا (وتنفست أسرع من المعتاد وهى تتكلم) فقد رغب إلى كولونيل براندون الذى كان هنا منذعشر دقائق أن أبلغك بأنه يسره كثيراً بعد أن علم أنك تنوى الانخراط فى سلك الكهنوت ـ أن يعرض عليك أبرشية ديلافورد التى خلت الآن ، وكان يتمنى لو أن هذه الأبرشية تغل إيرادا أكبر . اسمح لى أن أهنئك بهذا الصديق المحترم العاقل وكنت أتمنى مثله لو كانت هذه الوظيفة الكنسية أكبر إيرادا — تغل الآن حوالى مئتى جنيه فى العام ـ وكانت بحيث تمكنك من أن ـ إذ ليست إلا وسيلة مؤقتة لتيسير أسباب الحياة لك — تمكنك بالاختصار من أن تحقق ماتتمناه من السعادة . »

وليس فى وسع أحد أن يعبر عما شعر به إدوارد ، لأنه هو نفسه عجز عن التعبير عن مشاعره ، فقد نظر بعين ملؤها الدهشة التى لم يكن بد من أن يثيرها فى نفسه مثل هذا النبأ المفاجىء الذى لم يخطر على باله . ولكنه اكتفى بهاتين الكلمتين :

« كولونيل براندون . »

واستطردت إلينور بعد أن ملكت جأشها ، إذ انتهى بعض ما كانت تخشاه « كولونيل براندون يريد أن يكون ذلك دليلا على قلقة لما حدث أخيراً — للموقف القاسي الذي وضعك فيه تصرف أهلك الجائر — وهو قلق أؤكد لك أن مريان وإياى وجميع أصدقائك يشعرون به — وأن يكون أيضاً دليلا على تقديره العظيم لأخلاقك العامة ، وإعجابه الخاص بمسلكك في في الموقف الراهن . »

« كولونيل براندون يعطيني أبرشية ! أهذا معقول ؟ »

« إن قسوة أهلك جعلتك تدهش لأن وجدت الصداقة عند غيرهم . »

فأجاب فجأة : « كلا، لم أدهش لأني وجدتها فيك أنت ، فأنا لا أستطيع أن أجهل أنني مدين بذلك كله لك ، لفضلك — إنني أشعر بذلك . وبودى لو استطعت أن أعبر عن شعوري ، ولكنك تعرفين جيداً أني لست بخطيب. »

« إنك مخطىء جداً . أؤكد لك أنك مدين بذلك كله — كله تقريباً على الأقل — إلى فضائلك الشخصية ، وتقدير كولونيل براندون لهذه الفضائل . وليس لي يد في ذلك ، بل لم أكن أدرى أن الأبرشية خالية إلى أن فهمت قصده ولا خطر ببالي قط أن لديه أبرشية يمكن أن يهبها لأحد . فهو كصديق لي ، وصديق لأسرتي ربما يسره — الواقع أني أعرف أنه يسره كثيراً أن يهب هذه الأبرشية . ولكني أؤكد لك أنك لاتدين بشيء إلى وساطتي . »

ولكن حب الحقيقة أجبرها على الاعتراف بأن لها نصيباً ضئيلا في الأمر.

ولكنها كانت تكره فى الوقت نفسه أن تتظاهر بأنها أسدت إلى إدوارد معروفاً ومن هنا اعترفت بشىء من التردد ، مما قوى فى نفسه الشبهة التى دارت بخلده أخيراً . وجلس هنيهة وهو مستغرق فى التفكير بعد أن سكتت إلينور عن الكلام ، وأخيراً قال بعد لأى :

« يبدو أن كولونيل براندون رجل على جانب كبير من الفضل والاحترام. لقد سمعت الناس دائما يتحدثون عن اتصافه بهذه الخلال ، وأنا أعلم أن أخاك يكن له أعظم التقدير . لا شك أنه رجل عاقل . وهو فى أخلاقه مثال الرجل المهذب الكامل . »

فأجابت إلينور : « أعتقد أنك ستجده — عندما تزداد معرفة به — يتحلى بكل ماسمعت من الصفات . وبما أنكما ستكونان جارين متقاربين (لأنى علمت أن الأبرشية قريبة من قصره) فمن المهم جداً أن يكون متحليا بكل ذلك . »

فلم يجب إدوارد بشىء ، ولكنها حينما أدارت وجهها ، نظر إليها فى جد ينبىء عن عدم ابتهاجه ، وكأنه يريد أن يقول إنه قد يتمنى فى المستقبل أن تكون المسافة بين الأبرشية والقصر أكبر من ذلك .

وسرعان ماقال وهو ينهض من كرسيه: « أظن أن كولونيل براندون يقيم فى شارع سنت جيمس . »

فأخبرته إلينور برقم المنزل .

« يجب أن أسرع إذن لأقدم له الشكر الذى أبيت أن أقدمه لك ، لأؤكد له أنه جعلنى رجلا سعيداً جداً — سعيداً للغاية . »

ولم تحاول إلينور أن تمنعه من الخروج ، وافترقا وهى تؤكد له من جانبها

تمنياتها الطيبة الدائمة لسعادته فى جميع صروف الحوادث التى تلم به ، وهو يحاول من جانبه أن يرد على تمنياتها الطيبة بمثلها أكثر مما يقدر على التعبير عنها .

وحدثت إلينور نفسها بعد أن أغلقت الباب وراءه : « عندما أراه ثانية سأراه زوجا للوسى . »

وبهذا التوقع السار جلست لتعيد النظر فى الماضى، وتستحضر كلمات إدوارد ، وتحاول أن تفهم جميع مشاعره ، وتتأمل بالطبع فى مشاعرها هى بشىء من عدم الرضا .

ولما عادت مسز جننجز إلى المنزل ، كان السر الهام الذى تعرفه — على الرغم من أنها عادت من زيارة قوم لم ترهم من قبل ، وتود أن تقول الكثير عما عرفته عنهم — يشغل بالها أكثر مما سواه بحيث عادت إلى ذكره بمجرد أن حضرت إلينور :

صاحت قائلة : « خبرينى ياعزيزتى . لقد أرسلت إليك الرجل . ألم أفعل صواباً ؟ وأظن أنك لم تجدى عناء كبيراً — لم تجدى أنه لا يرغب كثيراً فى قبول طلب الزواج . »

كلا ياسيدتى . إن هذا لم يكن أمراً قوى الاحتمال . »

« حسن ، ومتى يستعد لذلك ؟ إذ يبدو أن كل شىء يتوقف على هذا . »

قالت إلينور : « فى الحق أنى لا أعرف عن هذه الإجراءات الشكلية إلا قليلا بحيث لا أستطيع الحدس بشأن الزمن أو الاستعداد اللازم . ولكنى أعتقد أن رسامته ستتم فى غضون شهرين أو ثلاثة . »

صاحت مسز جننجز : « شهران أو ثلاثة ! رباه ! عزيزتى ، كيف تتحدثين عن هذا بهذا الهدوء ؟ هل فى وسع الـكولونيل أن ينتظر شهرين أو ثلاثة ! رحماك اللهم ! إن صبرى يكاد ينفد ! ومهما سر الإنسان لإسداء بعض الجميل لإدوارد المسكين ، فإنه لا يجدر بالـكولونيل الانتظار شهرين أو ثلاثة من أجله . من حقه أن يبحث عن آخر يحل محله ، تمت رسامته من قبل . »

فقالت إلينور : « سيدتى العزيزة ماذا تفكرين فيه ؛ عجبا إن هدف كولونيل براندون الوحيد هو أن يسدى خدمة لمستر فيرارز . »

« بارك الله فيك يا عزيزتى ! لعلك لا تقصدين أن تقنعينى بأن الـكولونيل إنما يتزوجك من أجل إعطاء عشرة جنيهات لمستر فيرارز . » .

لم يـكن من الممكن أن يستمر الخداع بعد ذلك ، فتم إيضاح الأمر فى الحال وسرت كل منها بذلك سروراً كبيراً إلى حين ؛ دون أن يقلل ذلك من شعورهما بالسعادة ؛ لأن مسز جننجز استبدلت سروراً بسرور دون أن تفقد الأمل فى الأول .

وقالت مسز جننجز ، بعد أن هدأت ثورة الدهشة والارتياح التى اعترتها فى البداية : « نعم ، نعم ، دار الـكاهن صغيرة فعلا ، ومن المحتمل جداً ألا تـكون قابلة للترميم ، ولـكن مما يدعو إلى السخرية حقا أن أسمع رجلا يعتذر — كما ظننت — من أجل بيت أعلم أنا أنه يشتمل على خمس غرفات للجلوس فى الدور الأرضى ، ويتسع كما قالت لى مدبرة المنزل لخمسة عشر سريرا ! - ويعتذر أيضاً

لك أنتِ التى تعودت الإقامة فى بارتون كوتيج ! ولــكن ياعزيزتى يجب أن نحث الــكولونيل على إصلاح البيت وتوفير وسائل الراحة لهما قبل أن تذهب لوسى إليه .

« ولــكن الــكولونيل لايرى إطلاقاً أن دخل الأبرشية يسمح لهمــا بالزواج . »

« إن الــكولونيل رجل أبله ياعزيزتى ! الأن دخله ألفا جنيه فى العام يظن أنه لايستطيع أى إنسان آخر أن يتزوج بأقل منه . صدقينى أنه إذا كان فى الأجل بقية فسأزور أبرشية ديلافورد فى عيد القديس ميخائيل . ولن أذهب إليها مالم تــكن لوسى فيها . »

وكانت إلينور توافقها تماما على رأيها بشأن احتمال عدم انتظارهما لأكثر من ذلك الموعد .

الفصل الحادى والأربعون

بعد أن قدم إدوارد شكره لكولونيل براندون توجه إلى لوسى وهو يشعر بالسعادة ، وكان الشعور بهذه السعادة يغمره عندما وصل إلى بارتلتز بلدنج لدرجة أنها أكدت لمسز جننجز عندما زارتها فى الغد مرة أخرى لتقدم لها تهانيها ، أنها لم تره مبتهجا قط كما رأته فى ذلك اليوم .

ولم يكن ثمة شك فى شعورها بالسعادة والسرور ، وشاركت مسز جننجز من صميم فؤادها فى توقعها أن يستقر بهما المقام فى أبرشية ديلافورد قبل عيد القديس ميخائيل . ولم تحجم فى الوقت نفسه عن أن تعزو إلى إلينور من الفضل ما يعزوه إدوارد إليها ، حتى تحدثت عن صداقتها لهما بأخلص عبارات الشكر ولم تتردد فى الاعتراف بامتنانها لها ، وقالت بصراحة إنها لن تدهش لأى مجهود تبذله مس داشوود لصالحهما سواء فى الحاضر أو المستقبل ، لاعتقادها أنها تبذل قصارى جهدها فى سبيل من تقدرهم فى الواقع . أما فيما يتعلق بكولونيل براندون فلم تبد استعدادها فحسب ، لأن تعبده بوصفه قديسا ، بل أبدت حرصها الشديد أيضا على وجوب معاملته كذلك فى جميع الشئون الدنيوية ، وحرصها على ضرورة زيادة عشوره إلى الحد الأقصى ، وصممت فى سرها على الانتفاع فى ديلافورد ما استطاعت بخدمه ، وعربته ، و بقره ، ودواجنه .

وكان قد مضى الآن أكثر من أسبوع منذ أن زارهن جون داشوود فى بركلى ستريت ، ونظراً لأنهن لم يبدين أى اهتمام بمرض زوجته منذ ذلك الوقت

إلا مرة واحدة سألن فيها عن صحتها شفهيا ، فقد رأت إلينور من الواجب أن تزورها . على أن هذا الواجب لم يكن يتعارض مع رغبتها فحسب بل إنه لم يلق أى تشجيع من إحدى صاحبتها ؛ فمريان لم تكتف برفض الزيارة رفضا باتا بل ألحت على أختها ألا تقوم بها إطلاقا ، ومسز جننجز التى كانت تضع دائما عربتها فى خدمة إلينور ، كرهت مسز جون داشوود كراهية شديدة لدرجة أن تلهفها على رؤيتها بعد إذاعة النبأ الأخير ، ورغبتها الشديدة فى إهانتها بالوقوف إلى جانب إدوارد ، لم يحملاها على مرافقة إلينور . وكانت النتيجة أن خرجت إلينور بمفردها لأداء الزيارة التى لم يكن أحد فى الواقع أقل منها رغبة فى أدائها والمجازفة بمحادثة امرأة لم يكن لدى أحد من الأسباب مايحمله على كرهها أكثر مما لدى إلينور .

وقيل لها : إن مسز داشوود غير موجودة ، ولكن زوجها خرج بطريق الصدفة ، قبل أن يتسنى للعربة أن تنصرف من المنزل ، فأعرب عن عظيم سروره بلقاء إلينور ، وأخبرها أنه كان يهم منذ لحظة بزيارة بركلى ستريت ، ثم دعاها إلى الدخول مؤكدا لها أن فانى ستسر برؤيتها .

وصعدا الدرج ، ودخلا حجرة الاستقبال — ولم يكن فيها أحد .

وقال : أظن أن فانى فى حجرتها . سأذهب إليها حالا ، لأنى واثق أنه لن يكون لديها أدنى مانع من رؤيتك أنت ، حاشاها من ذلك . والآن بصفة

خاصة لا يمكن أن يكون . على أنها كانت تحبك أنت ومريان دائما . لماذا أبت مريان أن تحضر ؟ . »

والتمست لها إلينور ماوسعها من الأعذار .

فأجاب : « إننى غير آسف لأنى رأيتك ، فأنا أحب أن أقول لك الشيء الكثير . هذه الأبرشية الخاصة بكولونيل براندون — أصحيح هذا ؟ هل وهبها لإدوارد حقا ؟ لقد سمعت ذلك أمس بمحض الصدفة ، وهممت بزيارتك لأعرف المزيد عن هذا الأمر » .

« صحيح تمـــاما ، لقد وهب كولونيل براندون أبرشية ديلافورد لإدوارد . »

« صحيح ! إنه لأمر يدعو إلى الدهشة ! لا قرابة ! لاصلة بينهما ! وفى الوقت الذى تجلب فيه الأبرشيات مثل هذا الإيراد ! كم يبلغ قدره ؟

. « حوالى مائتى جنيه فى العام » .

« جميل جداً ؟ إننى أؤكد أنه كان فى وسعه أن يحصل على ألف وأربعمائة جنيه فى مقابل تعيين أحد الأشخاص فى أبرشية تغل مثل هذا الربع ، مكان القسيس الأخير إذا كان هذا القسيس قد طعن فى السن وأصبح مريضا بحيث يحتمل أن يتخلى عن هذه الوظيفة قريبا . ولماذا لم يقرر هذا الأمر قبل موت هذا الشخص ؟ لقد فات الآن فى الوقع أوان بيعها ، ولكن عجباً لرجل عاقل مثل كولونيل براندون ! إنى أعجب كيف لا يتبصر فى العواقب فى أمر عادى طبيعى كهذا الأمر ! نعم أعتقد أن كل إنسان لا يخـلو من

التناقض . على أنى أظن — بعد إمعان النظر — أن الأمر يحتمل أن يكون هكذا؛ أن يتقلد إدوارد الأبرشية حتى يــكبر الشخص الذى باع له الــكولونيل الوظيفة بالفعل — نعم ، نعم — ثقى أن هذه هى الحقيقة » .

ولــكن إلينور نفت ذلك بلهجة قاطعة ، وأفهمته أنها كانت هى الواسطة فى إبلاغ العرض من الــكولونيل إلى إدوارد ، ولذلك فهى تفهم الشروط التى تم بها ، فاضطر أن يذعن لقولها .

فصاح قائلاً ، بعد أن سمع ماقالته : « إن الأمر فى الواقع يدعو إلى الدهشة . وما الدافع الذى حدا بالــكولونيل إلى ذلك ؟ »

« أمر بسيط جدا ، هو خدمة مستر فيرارز » .

« جميل ، جميل ! مهما يــكن كولونيل براندون ، فإن إدوارد رجل حسن الحظ جدا ! أرجو مع ذلك ألا تذكرى الأمر لفانى لأنها لاتحب أن تلوكه الألسنة كثيراً ، على الرغم من أنى تلطفت فى إبلاغها إياه واحتملت سماعه بصبر وجلد » .

وهنا لم تجد إلينور مندوحة عن القول بأنها تعتقد أن فانى لن يسوءها أن يظفر أخوها بثروة ، مادامت هذه الثروة لاتنتقص من مالها هى أو مال ابنها .

فأضاف ، وقد خفض صوته إلى الحد الذى يتناسب مع أهمية الموضوع : « مسز فيرارز لاتعلم شيئاً عن هذا الموضوع فى الوقت الراهن. وأعتقد أنه يحسن كتمانه

عنها أطول مدة ممكنة . وعندما يتم الزواج ، فإننى أخشى أنها لابد أن تقف على حقيقة الأمر » .

ولكن ماالداعى إلى اتخاذ مثل هذه الحيطة ؟ إذا لم يكن من المحتمل أن تشعر مسز فيرارز بأدنى ارتياح حين تعلم أن ابنها لديه من المال مايكفيه — لأن ذلك أمر مستحيل — فلماذا يظن — بعد مسلكها الأخير — أنها تشعر نحوه بأى شىء على الإطلاق؟ لقد قطعت كل صلة بابنها ، ونبذته إلى الأبد ، وحملت كل من لها نفوذ لديه على نبذه كذلك . ومن المؤكد أنه بعد أن فعلت ذلك لايمكن لأحد أن يتصور أنها تحزن أو تفرح من أجله — لايمكن أن تهتم بأى شىء يصيبه — ولن يصل بها الضعف إلى الحد الذى تنبذ فيه راحة الابن ، ثم تحتفظ بقلق الأم » ؟

فقال : « آه ! إلينور . إن تفكيرك منطقى جدا ، ولكنه مبنى على الجهل بالطبيعة البشرية . ثقى أنه عندما يتم زواج إدوارد ، غير الموفق فإن أمه ستنسى أبداً أن إدوارد ابنها » .

« إننى لأدهش لما تقول . فأنا أعتقد أنها ستكون قد نسيت ذلك تقريباً عندما يتم هذا الزواج » .

« إنك تظلمينها كثيراً ، فإن مسز فيرارز من أكثر الأمهات فى العالم حبا لأبنائها » .

فسكتت إلينور .

وقال مستر داشوود بعد أن سكت فترة قصيرة :

« نحن نفكر الآن فى زواج روبرت من مس مورتو » .

وابتسمت إلينور للهجة الرزينة القاطعة التى تكلم بها أخوها وأجابت فى هدوء :

« أظن أن هذه السيدة ليس لها خيار فى الأمر » .

« خيار ! ماذا تعنين » ؟

« أعنى فقط أننى فهمت من لهجة كلامك أنه سواء على مس مورتون أتزوجت إدوارد أم روبرت » .

« حقا ، لايمكن أن يكون ثمة فرق ، لأن روبرت يعتبر الآن هو الابن الأكبر من كافة الوجوه . وفيما عدا ذلك كلاهما شاب لطيف مقبول . ولا أعلم أن أحدهما يفوق الآخر » .

فلم ترد إلينور على ذلك ، ثم سكت سيرجون كذلك برهة قصيرة . وأنهى تفكيره على النحو الآتى :

تناول يدها برفق وتكلم فى همس رهيب قائلا : « شيء واحد فى وسعى أن أؤكد يا أختى العزيزة ، أؤكده لأنى أعلم أنه لابد أن يسرك . لدى من الأسباب مايحملنى على الاعتقاد — الواقع أننى علمت ذلك من أوثق المصادر ، وإلا لما رددته ، لأنه لوكان بخلاف ذلك لكان من أكبر الخطأ أن أقول عنه حرفا — ولكنى استقيته من أوثق المصادر — ليس معنى ذلك أننى سمعته على وجه الدقة من مسز فيرارز ولكن بنتها تحدثت عنه ومنها علمته —

وفحواه بايجاز أنه مهما يكن من اعتراض على زواج — زواج معين — أنت تفهمين قصدى — فإن هذا الزواج كان أحب إليها بكثير — وما كان ليسبب لها نصف ماسببه هذا الزواج من ألم وكدر . لقد سررت بالغ السرور حين سمعت مسز فيرارز تنظر إليه هذه النظرة — وهو كما تعلمين أمر يسرنا جميعا . قالت : « لو أن هذا الزواج تم لما كان ثمت وجه للمقارنة — على الأقل بعد أخف الضررين ويسرها أن توافق عليه الآن باعتباره ليس أسوأ من غيره » . ولكن ذلك كله مستحيل — لايمكن التفكير فيه أو ذكره — فأنت تعلمين أن الزواج — لايمكن أن يتم أبدا — كل ذلك قد مضى وانقضى ولكنى رأيت أن أذكر لك ذلك لأنى عرفت أنه يسرك لامحالة ، ولا يحزنك ياعزيزتى إلينور . فلاشك أنك ستوفقين إلى الزواج من رجل صالح ، وربما كان خيرا منه إذا نظرنا إلى جميع الاعتبارات . هل اجتمعت بكولونيل براندون أخيراً ؟ »

وكان ماسمعته إلينور يكفى لأن يثير أعصابها ويشغل فؤادها إن لم يرض غرورها ويزيد من كبريائها . ولذلك سرت كثيراً عندما دخل مستر روبرت فيرارز إذ أعفاها من الرد على أخيها وسماع المزيد منه ، وتذكر جون داشوود بعد حديث استغرق بضع دقائق أن فانى لم تعلم بوجود أخته ، فغادر الحجرة ليبحث عنها ، وترك إلينور لتزداد معرفة بروبرت الذى عزز رأيها السيىء فى لبه وقلبه باستهتاره المرح وغروره ، وزهوه بما غمرته به أمه — بغير حق — من حب وكرم للإضرار بأخيه المنبوذ ، وهو أمر ظفر به بسبب إسرافه وانغماسه فى اللذات واستقامة أخيه .

ولم تكد تمض دقيقتان على جلوسهما معا حتى أخذ يتحدث عن إدوارد ، لأنه هو أيضا سمع عن الأبرشية ، وطلب مزيداً من المعلومات عن الموضوع ، فرددت إلينور على مسامعه ماذكرته لجون من تفاصيل . وكان أثرها فى نفس روبرت لايقل عنه فى نفس جون ، وإن اختلف كثيراً ، فقد أغرق فى الضحك عندما علم أن أدوارد سيكون قسيسا وسيقيم فى منزل صغير بالإبرشية ، ولم يرما هو أدعى إلى السخرية من تخيل إدوارد وهو يتلو الصلوات فى حلة كهنوتية ويعلن قصد الزواج بين جون سميث ومارى براون .

وبينما كانت إلينور تنتظر انتهاء هذه الحماقة ، وهى صامتة ساهمة الوجه لاتبدى حراكا لم يسعها إلا أن ترمقه بنظرة ملؤها الاحتقار ، ولكنها كانت نظرة سديدة لأنها فرجت من همومها دون أن يفهم هو منها شيئاً . بيد أنه ارعوى عن السخرية إلى الحكمة بإحساسه المرهف لابأى توبيخ منها .

وأخيراً قال، بعد أن كف عن الضحك المصطنع الذى أطال فترة المرح فى تلك اللحظة: « فى وسعنا أن نعد الأمر مجرد نكتة ، ولعمرى إنه لمن أخطر الأمور. مسكين أدوارد ! لقد أفلس إلى الأبد . إننى أرثى له كثيراً — لأنى أعرف أنه إنسان طيب القلب سليم الطوية ربما لايقل فى ذلك عن أى إنسان آخر فى العالم. يجب ألا تحكمى عليه يامس داشوود من تلك المعرفة البسيطة — مسكين إدوارد إن أخلاقه ليست بالتأكيد أرضى الأخلاق — ولكننا جميعا لم نوهب ملكات ولاقوى واحدة — ولا طريقة واحدة فى الحديث — وا أسفاه عليه ! حينما أراه يعيش بين زمرة الغرباء ! — لاشك أنه أمر يدعو إلى الرثاء ! — ولكنى أقسم أنه من أطيب الناس قلبا فى هذه المملكة ، وأصرح بل أؤكد لك أننى لم

أصعق فى حياتى كما صعقت عندما علمت بهذا الأمر — لم أستطع أن أصدقه — كانت أمى أول من أخبرنى به ورأيت أن الواجب يدعونى إلى التصرف بحزم وعزم فقلت لها فى الحال : « سيدتى العزيزة ! لا أدرى ماذا تريدين أن تفعلى فى هذا الموقف . أما أنا فأرى لزاماً على أن أقول : إن أدوارد إذا تزوج هذه الفتاة فلن أراه بعداليوم مرة أخرى . » هذا ماقلته من فورى . لقد صعقت إلى أقصى حد بحق ! مسكين إدوارد ! لقد جنى على نفسه تماما وحرم نفسه من كل مجتمع كريم ! ولكنى — كما قلت لأمى على الفور — لا أشعر بأدنى دهشة لهذا الأمر فقد كنت أتوقعه دائما بسبب نوع التعليم الذى تلقاه . لقد كادت أمى يجن جنونها .

« هل رأيت السيدة قط ؟ »

« نعم ، ذات مرة ، بينما كانت تقيم فى هذا المنزل حضرت على غير انتظار ومكثت عشر دقائق وعرفت عنها الكثير ، فهى مجرد فتاة ريفية خرقاء مجردة من الأناقة والرشاقة ، تكاد تخلو من الجمال . إننى أذكرها جيداً ، وهى من ذلك الطراز من الفتيات الذى يستهوى إدوارد المسكين . وقد اقترحت فى الحال حينما قصت على أمى الخبر أن أتحدث إليه بنفسى وأصرفه عن الزواج ، ولكن الأوان كان قد فات حينئذ ، فلم يكن فى وسعى أن أعمل أى شىء ، إذ لم أعلم بالأمر منذ البداية لسوء الحظ ، ولم أعلم به إلا بعد أن حدثت القطيعة ، ولم يكن من شأنى حينئذ أن أتدخل كما تعلمين . ولو أنى علمت به قبل ذلك ببضع ساعات لكان من المحتمل كثيرا أن أهتدى إلى حل كان من المؤكد أن أقنع ادوارد بحجج أقوى كأن أقول له : « تدبر يا أخى العزيز ما أنت فاعل . أنت مقبل على زواج يجلب العار والشنار ، زواج تستنكره أسرتك بالإجماع . » وبالاختصار لايسعنى إلا أن أقول : إننا ما كنا لنعدم وسيلة لإقناعه .

ولكن لقد فات الأوان الآن . لابد أن يموت جوعا كما تعلمين . هذا أمر لاريب فيه ، يموت جوعا بلا شك . »

وما أن انتهى من هذه الكلمة التى قالها بهدوء كبير حتى دخلت مسزجون داشوود ، فوضعت حدا للكلام فى هذا الموضوع . ومع أنها لم تتحدث عن هذا الأمر قط إلى أحد من غير أهلها ، فقد استطاعت إلينورأن ترى تأثيره فى نفسها، تأثيراً يتجلى فى الاضطراب الذى بدا على وجهها عند دخولها ، وفى محاولة التودد إليها، بل لقد زادت على ذلك إلى حد أنها أعربت عن قلقها لما بلغها عن مغادرة إلينور ومريان للندن عما قريب ، لأنها كانت ترجو أن تقابلهما مرة أخرى ، ورأى — فى ذلك — زوجها الذى رافقها عند دخولها الحجرة،وأصغى إلى كلامها بشغف ، أعظم مظاهر الحب واللطف .

وكانت نهاية اللقاء بين الأخ وأخته في لندن ، زيارة أخرى قصيرة قامت بها إلينور إلى هارلى ستريت تلقت في أثنائها تهانيء أخيها بسفرها هى وأختها نحو بارتون ، دون أن تتكبدا شيئاً من نفقات السفر حتى الآن ، وتهانيه لها باقتفاء كولونيل براندون أثرها بعد يوم أو يومين . وكان كل ما ينبيء باحتمال أى لقاء بينهما في الريف هو دعوة فاترة من فانى لزيارة نورلاند كلما مرت إلينور بها في طريقها - وهو أمر يعد أبعد الأشياء احتمالاً - وتأكيداً حاراً من أخيها ، و إن لم يكن بصفة علنية - بأنه سيزورها في ديلافورد وشيكا .

ومما يبعث على التسلية أنها لاحظت أن جميع أصدقائها مصممون على إرسالها إلى ديلافورد ، وهى آخر مكان كانت في ذلك الوقت تفكر في زيارته أو ترغب في الإقامة فيه . فكان أخوها ومسز جننجز يعدان هذا المكان منزلها المستقبل ، بل إن لوسى دعتها بإلحاح عند الوداع إلى زيارتها فيها .

وفى أوائل شهر أبريل وفى ساعة مبكرة من النهار ، سافر أهل « هانوفر سكوير » و « بركلى ستريت » من منازلهم ، والتقوا على الطريق بناء على موعد سابق ، واتفقوا حرصا على راحة شارلوت وابنها أن تستغرق الرحلة أكثر من يومين وأن يسرع مستر بالمر بالسفر مع كولونيل براندون بحيث يلحقان بهم في كليفلاند عقب وصولهم بقليل .

وعلى الرغم من أن مريان لم تنعم براحة البال في لندن إلا ساعات قليلة ،

وعلى الرغم من أنها ظلت تتوق كثيراً إلى مغادرتها ، فإنها حين أزفت ساعة الرحيل لم تستطع — دون أن تشعر بلوعة الأسى — أن تودع البيت الذى نعمت فيه المرة الأخيرة بما علقته على ولى من آمال ، وما أولته من ثقة ، وهما الأمران اللذان ذهبا الآن هباء منثوراً إلى الأبد ، كما أنها لم تستطع — دون أن تذرف ماء الشئون — أن تفارق المكان الذى أقام فيه ولى ، وهو مشغول بمواعيده الجديدة ومشروعاته الجديدة .

وكانت إلينور أكثر منه ارتياحا عند ساعة الفراق لم يكن لديها ما يشغل ذهنها . ولم تخلف وراءها مخلوقا تأسف لحظة واحدة على فراقه إلى لأبد ، بل كانت تشعر بالسرور لأنها تخلصت من نقمة صداقة لوسى وتحمد الله لأنها خرجت بأختها من لندن ، دون أن ترى ولى منذ زواجه ، وكانت تأمل أن تسترد أختها راحة البال ، وأن تنعم هى بالمزيد منها بعد شهور قلائل تقضيانها فى بارتون .

وقد تمت الرحلة بسلام ، فوصلوا فى اليوم الثانى إلى مقاطعة سمرست التى كانت ماريان تراها تارة محبوبة ، وتارة محرمة . ووصلوا إلى كليفلاند فى صباح اليوم الثالث .

وكانت كليفلاند داراً فسيحة مبنية على الطراز الحديث تقع فى مروج منحدرة . ولم يكن بها حديقة ، ولكن فناءها كان واسعا إلى حد لا بأس به . وكانت الأشجار تتخللها كأى دار أخرى تضارعها فى الأهمية ، وفيها ممشى من الشجيرات المتقاربة ، وطريق مفروش بالحصباء يلتف حول مزرعة ، ويؤدى إلى واجهة الدار . وكانت المروج تتخللها الأشجار ، والدار ذاتها تكتنفها

أشجار الشربين والإجاص والسنط التى يتخللها شجر الحور ، فتحجب مرافق الدار وملحقاتها .

ودخلت مريان الدار بقلب يفيض بالتأثر لعلمها أنها تبعد عن بارتون ثمانين ميلا فقط لاثلاثين ميلا من كومب ماجنا ، ثم خرجت منها قبل أن تقضى بين جدرانها خمس دقائق ، بينما شغل الآخرون بمساعدة شارلوت على تسليم ابنها لمديرة المنزل ، وتسللت من خلال الشجيرات المتعرجة التى أخذت تلبس حلة الجمال فى ذلك الوقت وتمد فروعها إلى مسافة بعيدة ، وجالت بعينها من المعبد الإغريقى ، فى رقعة فسيحة من الإقليم إلى الجنوب الشرقى ، ثم استقر بصرها على حافة التلال البعيدة التى تتراءى فى الأفق ، وخيل إليها أنها تستطيع مشاهدة كومب ماجنا من قمم هذه التلال .

وفى مثل هذه اللحظات التى عانت فيها لوعة الأسى ، فرحت — وهى تذرف دموع الألم — لوجودها فى كليفلاند . وعندما عادت إلى المنزل من طريق آخر ، وهى تشعر بنعمة الحرية فى الريف — حرية المتجول من مكان إلى آخر فى عزلة طليقة ترفه عن النفس ، قررت أن تقضى معظم ساعات النهار فى التمتع بهذه الجولات المنفردة طوال إقامتها مع آل بالمر .

وعادت فى الوقت المناسب لتلحق ، بالأخريات وهم يغادرون المنزل للقيام بجولة لتفقد المبانى الملحقة به ، وقضين بقية ساعات الصباح فى تفقد حديقة المطبخ ، وفحص الأزهار المتهدلة على جدرانها ، والاستماع إلى حسرات البستانى على الآفات الزراعية — وفى تفقد بيت النبات حيث ضحكت شارلوت لتلف

نباتاتها المحبوبة بسبب الإهمال فى وقايتها من المؤثرات الجوية ، وطول مدة الصقيع الذى أدى إلى وقف نموها ــ وفى تفقد حظيرة الدواجن حيث وجدت ألوانا جديدة من التسلية فيما أعربت عنه الحلابة من خيبة الأمل بسبب هجر الدجاج لأكنانها ، وسرقة الثعالب لها وسرعة تنقص فراخها الصغيرة .

وكان الطقس فى الصباح جميلا وجافا ، ولم تقدر مريان فى الخطة التى وضعتها للتنزه خارج المنزل أن الطقس سيطرأ عليه أى تغيير خلال إقامتها فى كليفلاند ، ولذلك دهشت كثيراً عندما حال المطر الغزير المتواصل دون خروجها بعد الغداء . وكانت تأمل أن تقوم بجولة وقت الغسق إلى المعبد الإغريقى وربما فى المنطقة كلها ، ولو كان الجو فى المساء بارداً أو رطباً فحسب ، لما منعها ذلك من هذه الجولة ولكنها رأت أن المطر الغزير المتصل لا يهيىء الجو الجاف اللطيف الذى يصلح للنزهة .

وكن زمرة قليلة العدد فمرت الساعات فى هدوء . وكانت مسز بالمر تحمل ابنها ومسز جننجز ، شغل السجاد ، وتحدثن عمن خلفن وراءهن من الأصدقاء ، ونظمن مواعيد ليدى ميدلتون وتساءلن عن يستطيع مستر بالمر وكولونيل براندون أن يتجاوزوا فى سفرهما ريدنج فى تلك الليلة؟ واشتركت إلينور فى الحديث ، وإن كان لا يعنيها كثيراً . ولكن مريان التى كانت تعرف ببراعة كيف تتلمس طريقها إلى المكتبة فى كل بيت تحل فيه ــ مهما بلغ من تجنب الأسرة لاستعمالها بوجه عام ــ لم تلبث أن أخذت كتاباً لتقرأه .

ولم تدخر مسز بالمر جهداً فى إظهار ما أمكن من الود والبشاشة حتى تشعرهن بحسن الحفاوة وكان ما أظهرته من الصراحة والودة يكفر عن ضعف

ذا كرتها وقلة ظرفها وكياستها مما حال كثيراً دون مراعاتها أصول المجاملة . وكانت رقة قلبها ، التي تزينها ملاحة وجهها ، تأسر القلوب . وكانت حماقتها — مع وسع إلينورلا تدعو إلى الاشمئزاز ، لأنها لم تكن مقرونة بالغرور . وكان فى ظهورها — أن تغفر لها كل عيوبها لولا ضحكتها .

ووصل الرجلان فى الغد بعد موعد الغداء بكثير ، فزادا من عدد الجماعة وسرورهم ، كما ساعد حضورهما على تنوع الحديث الذى خفض هطول المطر طول الصباح من أصواتهم فيه .

ولم تر إلينور — مستر بالمر إلا قليلا ، وفى خلال هذه الفترة القصيرة أتيح لها أن تلاحظ تغيرا كثيراً فى حديثه معها ومع أختها بحيث لم تدر ما ذا ينتظر أن يكون سلوكه مع أسرته . بيد أنها وجدته مثل الرجل المهذب فى معاملته لجميع زواره ولا يبدى الفظاظة لزوجته وأمها إلا أحيانا ، كما وجدت لديه الاستعداد للطف المعاشرة ، وكل مايمنعه من إظهار ذلك على الدوام ، هو شعوره بأنه أرفع مقاما من الناس عموما ، وشعوره — وبلاريب — بأنه أرفع مقاما من مسز جننجز وشارلوت . أما فيما عدا ذلك من الأخلاق والعادات ، فلم تلاحظ إلينور عليه شيئاً يخالف المألوف فى بنى جنسه وفى مثل سنه . كان يتأنق فى طعامه ، ولا يراعى الدقة فى مواعيده ، ويحب ابنه وإن تظاهر باحتقاره ، ويزجى وقته صباح كل يوم فى لعب البليارود ، وهو ما كان ينبغى أن يقضيه فى العمل . على أنها أحبته بوجه عام ، أكثر مما توقعت ، ولا تأسف فى قراره نفسها على أنها لم تستطع أن تحبه أكثر من ذلك — لا تأسف أن يحملها تأنقه فى الطعام وأنانيته وغروره على

الشعور بالرضا والارتياح عندما تتذكر ما يتصف به إدوارد من سماحة الطبع والزهد والحياء .

وقد حدثها كولونيل براندون ــ الذى سافر إلى دورستشاير أخيراً ــ عن بعض شئونه . وكان كولونيل براندون يعدها صديقة مستر فيرارز المنزهة عن الغرض ، كما يعدها أمينة سره هو فى الوقت نفسه ، فتحدث إليها كثيراً عن أبرشية ديلافورد ووصف لها عيوبها ، وأخبرها بماينوى أن يعمله لإزالتها . وكان تصرفه معها فى هذا وفى كل شأن آخر ، وسروره بلقائها بعد غيبة لم تتجاوز عشرة أيام ، وإقباله على التحدث معها ، واحترامه لرأيها ، مما يبرر اقتناع مسز جننجز بحبه لها ، وربما كان هذا يكفى لأن تلاحظ هى هذا الحب لولا أنها كانت لاتزال حتى هذه اللحظة تعتقد كما اعتقدت منذ البداية أن مريان هى محبوبته الحقيقية . ولكن الواقع أن هذه الفكرة ماكانت لتدور بخلدها لولا أن مسز جننجز هى التى أوحتها ، ولم يسعها ألا تلاحظ أنها هى أدق الاثنتين ملاحظة ، إذ كانت ترقب نظرات عينيه ، بينما مسز جننجز لاتفكر إلا فى سلوكه . وفى حين أن هذه السيدة فاتها أن تلاحظ مايبديه من نظرات القلق لما شعرت به مريان فى رأسها وحلقها من بوادر نزلة برد شديدة ، لأنه لم يعبر عن هذا القلق بالكلام ، استطاعت هى أن تلاحظ فى هذه النظرات مايشعر به المحب من ذعر واشفاق لامبرر لهما .

وكانت مريان قد قامت بنزهة ممتعة وقت الغسق فى مساء اليوم الثالث والرابع من وجودها هناك لاعلى الطريق الجاف المفروش بالحصباء بين الأشجار فحسب ، بل فى جميع أماكن النزهة ، ولا سيما فى أجزائها المتطرفة التى كانت

مقفرة أكثر من الأجزاء الأخرى ، والتي كانت حافلة بأقدم الأشجار وأطول الأعشاب ، وأكثرها مللا ، فأدى ذلك — بالإضافة إلى ما ارتكبته من حماقة أعظم وهو الجلوس فى حذائها وجواربها المبتلة — إلى إصابتها بزكام شديد أثار قلق الجميع . كما أثار اهتمامها بسبب ما أحدثه من مضاعفات ، مع أنها ظلت يوما أو يومين تستهين به وتنكره . فأنهالت عليها الوصفات الطبية من كل جانب ، ورفضتها جميعا كما هى العادة . ومع أنها كانت تشعر بالكآبة والحمى ووجع الأطراف وتشكو من السعال والتهاب الحلق ، فقد كان إخلادها إلى الراحة التامة ليلة واحدة هو السبيل لشفائها . وقد استطاعت إلينور بصعوبة أن تقنعها عند ما أوت إلى الفراش أن تتناول دواء أو اثنين من أبسط الأدوية .

الفصل الثالث والأربعون

استيقظت مريان صباح غد فى موعدها المعتاد وأجابت على كل استفسار بأنها أحسن حالا ، وحاولت أن تثبت ذلك بأنها كما فى أعمالها المعتادة . ولكن يوماً تقضيه جالسة وهى ترتعش أمام المدفأة ، وبيدها كتاب لا تستطيع قراءته أو ترقد عَلَى الأريكة وهى متعبة واهنة القوى ، لايدل كثيراً على تحسن صحتها وعندما بكرت بالنوم أخيراً بعد أن ازدادت توعكا لم يسع كولونيل براندون إلا أن يدهش لرباطة جأش أختها التى كانت تثق كريان بفائدة النوم وتأثيره ، ولا تشعر بأدنى خوف مع أنها كانت تلازم مريان وتمرضها طوال اليوم رغم أنفها وتكرهها على تناول الأدوية أثناء الليل .

ولكنها قضت ليلة عانت فيها آلام الأرق والحمى ، فأخلفت ظنهما . وعندما اعترفت مريان بعجزها عن السهر بعد إذ أصرت على هجر الرقاد وعادت بمحض إرادتها إلى الفراش ، بادرت إلينور إلى الأخذ بنصيحة مسز جننجز التى أشارت باستدعاء طبيب آل بالمر .

فحضر وفحص المريضة ، وطمأن مس داشوود بأن أختها ستبل من مرضها بعد بضعة أيام إلا أنه عندما صرح بأنها تحمل أعراض الحمى العفنة ، وتلفظ بكلمة « العدوى » ذعرت مسز بالمر ، وخشيت على ابنها فى الحال . وكانت مسز جننجز تميل منذ البداية إلى الاعتقاد بأن مرض مريان أخطر مما تظن إلينور ، فلما سمعت كلام مستر هاريس بداخلها القلق ، وأيدت شارلوت فى خوفها

وحذرها ، فرأت وجوب انتقالها فى الحال هى وابنها من البيت . ولم يعارض مستر بالمر فيما أبدته زوجه من قلق ولجاجة ، وإن رأى أن مخاوفها ضرب من الهراء ، فاستقر الرأى على رحيلها من البيت ، فغادرته بعد قدوم مستر هاريس بساعة ، مع ابنها الرضيع وممرضته إلى منزل أحد أقارب مستر بالمر على الجانب الآخر من باث وعدزوجها — بناء على إلحاحها — أن يلحق بها بعد يوم أو يومين ، وألحت على أمها أن ترافقها أيضا . ولـكن مسز جننجز أظهرت من العطف والبر ماضاعف من حب إلينور لها ، فأعلنت عزمها على عدم الانتقال من البيت مادامت مريان مريضة ، وأنها ستحاول أن تعوضها عن حنان الأم التى أخذتها هى منها . وكانت إلينور تجد فى مسز جننجز خير معين لها فى كل مناسبة ، وتأنس منها الرغبة فى مشاركتها فى كل متاعبها ، كما كانت تفيد من خبرتها فى التمريض .

ولم يعد فى وسع مريان المسكينة أن ترجو الشفاء فى غدها ، لما كانت تشعر به من ضعف ووهن يرجعان إلى طبيعية المرض الذى أصابها أو من ألم يسرى فى جميع أعضائها . وحينما فـكرت فيما كان يأتى به الغد لولا هذا المرض المنكود اشتد عليها المرض ، إذ كان من المقرر أن يبدأ سفرهما إلى منزلهما فى ذلك اليوم ، وأن تفاجئا أمهما فى صباح الغد يرافقهما خادم مسز جننجز طول الطريق . وكانت الـكلمات القليلة التى تفوهت بها تفيض بالأسف على هذا التأخير الذى لا مفر منه ، وإن حاولت إلينور أن تشجعها وتوهمها — كما تعتقد حينئذ بالفعل — أن هذا التأخير لن يطول أمره كثيراً .

وجاء الغد دون أن يطرأ تغير يذكر على حالة المريضة . والواقع أنها لم تكن

أحسن حالا ، كما أنها لم تبد أسوأ حالا على الرغم من أنه لم يطرأ على صحتها أى تغيير . ثم قل الآن عدد أصحابهما لأن كولونيل براندون أقنع أخيراً مستر بالمر بضرورة زيارة زوجته وفاء بوعد لها ، على الرغم من عدم رغبته فى ذلك ورجع ذلك إلى شفقته وكرم أخلاقه كما يرجع إلى كراهته أن يظهر بمظهر الخائف من زوجته . وبينما كان يتهيأ للخروج بدأ كولونيل براندون يلح فى الانصراف هو أيضا . ولكن مسز جننجز تدخلت وأبدت من مظاهر العطف والبر مايبعث على الرضا ، لأنها رأت أن انصراف الكولونيل فى الوقت الذى تشعر فيه محبوبته بالقلق على أختها ، معناه حرمانهما معا من أسباب العزاء والسلوان ، فأخبرته من فورها أنها لا تستغنى عن إقامته فى كليفلاند لأنها تريد أن يلعب معها لعبة الاثنين والثلاثين فى المساء أثناء قيام مس داشوود بمرافقة أختها فى الطبقة العليا ألخ وناشدته البقاء بإلحاح ، فلم يعد فى وسعه ـ وقد أيقن أنه باستجابته لطلبها إنما يستجيب لأحب الأمانى إلى قلبه ـ أن يتظاهر بالرفض لاسيما وأن مسز جننجز لقيت تأييداً قويا من مستر بالمر الذى شعر بالارتياح لأنه سيترك وراءه رجلا يستطيع أن يمد اشوود بالمساعدة أو المشورة عند الضرورة .

وبالطبع أخفيت كل هذه الأمور عن مريان ، فلم تعلم أنها هى السبب فى إخراج أهل كليفلاند من دارهم بعد قدومهم بنحو سبعة أيام ، ولم تدهش قط لعدم رؤية مستر بالمر ولا اهتمت برؤيتها قط ، ولذلك لم تسأل عنها .

ومر يومان على رحيل مستر بالمر ، واستمرت حال مريان على ماهى عليه مع تغيير طفيف ، وكان مستر هاريس الذى عاد كل يوم لايزال يأمل فى الشفاء العاجل ، وتفاءلت مس داشوود كذلك ، ولكن غيرها لم يشعر بمثل هـذا

التفاؤل ، إذ أصرت مسز جننجز على اعتقادها بأن مريان لن تشفى من هذا المرض ، ولم يجد كولونيل براندون الذى أصغى إلى مخاوف مسز جننجز مندوحة عن مشار كتها فى ذلك ، وحاول أن يزيل من نفسه هذه المخاوف التى وضعها الطبيب بأنها ضرب من الهراء . ولكنه كان يجنح إلى التشاؤم فى الساعات الكثيرة التى يخلو فيها إلى نفسه كل يوم . ولم يستطع أن يطرد من ذهنه الاعتقاد بأنه لن يرى مريان بعد اليوم .

على أنه فى صباح اليوم الثالث تبددت مخاوف الاثنين أو كادت ، إذ صرح مستر هاريس عند وصوله أن المريضة تماثلت للشفاء ، فقد قوى نبضها ، وظهر عليها أعراض التحسن أكثر مما يظهر فى الزيارة السابقة ، فبدا السرور على وجه مريان التى أيد الطبيب تفاؤلها ، وفرحت لأنها أعربت فى الخطابات التى أرسلتها لوالدتها عن رأيها هى لا عن رأى صديقتها فهونت من المرض الذى أخرهما فى كليفلاند ، وحددت بالتقريب الموعد الذى يتسنى فيه لمريان أن تقوم بالسفر .

ولكن نهاية اليوم لم تكن سعيدة كبدايته ، فقد عاود المرض مريان فى المساء ، فاشتد بها الكرب والقلق والتعب أكثر من ذى قبل ، غير أن أختها ظلت متفائلة ، ولم تعز هذا التغير إلا إلى التعب الذى حل بها عندما جلست حتى يتم إعداد فراشها ، وحرصت على إعطائها الأدوية المنعشة التى وصفها الطبيب ، وخالجها الارتياح عندما رأتها تستغرق أخيراً فى النوم الذى توقعت أن يعود عليها بأعظم فائدة . وظلت مريان نائمة مدة طويلة وإن لم يكن نومها هادئاً كما تمنت إلينور . وحرصت هذه على ملاحظة أثره بنفسها ، فجلست معها خلال نومها كله ولم تعلم مسز جننجز بأى تغيير فى حالة المريضة ، فبكرت بالنوم على

غير عادتها . وكانت خادمتها - وهى من كبار الممرضات - تستجم فى حجرة مديرة المنزل ، فبقيت إلينور وحدها مع مريان .

وازدادت هذه اضطرابا وانزعاجا فى رقادها ، وكانت أختها تلاحظ بعين ساهرة تقلبها المستمر على الفراش ، وتأوهاتها المتكررة التى تخرج من شفتيها ، فهمت بإيقاظها من ذلك الرقاد الأليم ، وإذا بمريان تستيقظ فجأة على صوت فى البيت ، فنهضت مسرعة ، وصاحت فى هياج المحموم :

« هل حضرت ماما ؟ »

فأجابت أختها وهى تكتم فزعها ، وتساعد مريان على الرقاد مرة أخرى : « ولكن أرجو أن تحضر هنا بعد قليل . فالطريق طويل كما تعلمين من هنا إلى بارتون » .

وصاحت مريان بنفس اللهجة السريعة : « لن أراها أبداً إذا ذهبت إلى لندن » .

ورأت إلينور وقد اعتراها الفزع أن أختها ليست فى حالتها الطبيعية ، فأقبلت على جس نبضها ، وهى تحاول أن تهدىء من روعها . فلاحظت أنه أكثر هبوطا ، وأشد سرعة مما كان عليه من قبل ! وظلت مريان تهذى باسم أمها فاستحوذ الفزع على إلينور ، وصممت أن تستدعى مستر هاريس فى الحال ، وتبعث رسولا إلى بارتون لإحضار أمها . وخطر لها مباشرة بعد أن صممت على ذلك أن تستشير كولونيل براندون فى أمثل طريقة لتنفيذ الأمر الأخير . وما أن استدعت

الخادمة لتجلس مكانها بجانب أختها،حتى أسرعت بالنزول إلى حجرة الاستقبال وكانت تعلم أنه يظل فيها عادة إلى ما بعد الساعات التى نزلت فيها وقتئذ .

لم يكن الوقت يسمح بالتردد ، فبسطت له مخاوفها ومشاكلها من فورها . أما مخاوفها فلم يكن لديه من الشجاعة أو الثقة ما يمكنه من إزالتها — بل اكتفى بأن أصغى إليها فى جزع وصمت . ولكنه استطاع أن يحل مشاكلها إذ أبدى من الاستعداد ما يقتضيه المقام ، ويتفق مع الخدمة التى سبق له أن فكر فى أدائها ، فاقترح أن يكون هو الرسول الذى يأتى بمسز داشوود ، ولم تبد إلينور أية معارضة إلا وذللها بسهولة ، فشكرته بإيجاز ولكن بحرارة . وبينما ذهب هو ليبعث خادمه برسالة عاجلة إلى مستر هاريس ، ويأمره بإحضار الجياد فى الحال ، أخذت هى تدبج بضعة سطور لأمها .

كم فاض قلبها بعرفان الجميل لما أبداه صديق كالكولونيل براندون من المواساة فى تلك اللحظة ! — لما أبداه مثل هذا الرفيق لأمها — رفيق يسددها برأيه ، ويخفف من آلامها برافقته ، ويهدىء من روعها بصداقته ! — ولا شك أن صحبته وأخلاقه ومساعدته كفيلة بالتخفيف من وقع استدعائها بقدر ما يمكن تخفيفه من هذه الصدمة .

وكيفما كان شعوره فى ذلك الوقت ، فقد حزم أمره ، وهو رابط الجأش ، وأعد العدة للسفر بأقصى سرعة ، وحدد بالضبط موعد عودته ، ولم يضيع دقيقة واحدة فى توان أو تأخر أيا كان نوعه ، فقد وصلت الجياد حتى قبل الموعد للنتظر ، وأسرع إلى العربة بعد أن اكتفى بأن شد على يدها ورمقها بنظرة تنم على الجد ،

وتمتم ببضع كلمات فى صوت خافت جداً بحيث لاتسمعه الأذن . وكانت الساعة حينئذ نحو الثانية عشرة . ثم عادت هى إلى حجرة أختها لتنتظر وصول الطبيب ، وتسهر على راحتها بقية الليل . وكانت ليلة ليلاء لـكل منهما ، فقد مرت الساعات تترى ، ومريان يؤرقها الألم ، وينتابها الهذيان ، وإلينور تساورها أقسى مشاعر القلق ، وذلك قبل أن يحضر مستر هاريس ، واستحوذ عليها الفزع حتى أنساها كل ماشعرت به قبل من أمن وطمأنينة . وزادتها الخادمة التى سهرت معها — إذ لم تشأ أن تستدعى مسز جننجز — كربا وعذابا حين ذكرت المخاوف التى تساور سيدتها دائماً .

وظلت مريان تهذى فى فترات متقطعة باسم أمها ، وكلما ذكرته بعث الألم فى قلب إلينور المسكينة التى لامت نفسها لاستهانتها بأمر المرض خلال هذه الأيام العديدة ، وتألمت لأنها لم تبادر إلى تخفيف وطأته ، ولـكنها رأت أن كل وسيلة لتخفيفه قد لاتجدى فى الحال ، وأن كل علاج قد تأخر عن وقته كثيراً ، وخيل إليها أن أمها المسكينة ستصل بعد فوات الأوان ، لترى بنتها العزيزة وقد انتهى أجلها ، أو ذهب عقلها .

وهمت باستدعاء مستر هاريس مرة أخرى ، أو استدعاء غيره إذا لم يستطع الحضور ، وإذا به يحضر ، ولـكنه لم يحضر إلا بعد الساعة الخامسة . على أن رأيه كفر عن تأخيره لأنه مع اعترافه بطروء تغيير مفاجىء وسيء على حالة المريضة ، لم يشأ أن يبالغ فى شدة الخطر ، وأكد أنه سيعطيها دواء جديداً يخفف من حدة المرض بلهجة تنم على الثقة التى سرت إلى نفس إلينور ، ولـكن بدرجة

أقل . ووعد بأنه سيعودها مرة أخرى فى غضون ثلاث ساعات أو أربع ، وترك المريضة وأختها القلقة ، وهما أكثر طمأنينة مما وجدها .

وسمعت مسز جننجز فى الصباح عما جرى ، وأعربت عن قلقها الشديد ، ولومها الكثير لعدم استدعائها لمساعدتهما وعاودتها حينئذ مخاوفها السابقة التى جد الآن من الأسباب مايضاعف منها بحيث لم تدع لديها مجالاً للشك فى النتيجة . ومع أنها حاولت أن تواسى إلينور ، فإن اعتقادها بخطورة حالة أختها ، لم يطوع لها أن تقدم لها سلوة الأمل . والواقع أنها كانت حزينة الفؤاد ، بل أن أى إنسان أقل منها اهتماماً بأمر مريان كان لابد أن يشعر بالقلق والهم ،حين يرى فتاة جميلة كمريان تتعرض للهزال السريع والموت المبكر . وكانت مريان جديرة بعطف مسز جننجز وحزنها لأسباب أخرى ، فقد ظلت تعيش فى كنفها ثلاثة أشهر ، ولاتزال تستظل بظل رعايتها ، وصار معروفاً أنها كسيرة القلب ، حزينة الفؤاد منذ زمن . وكانت مسز جننجز — إذا فكرت فى أن منزلة مريان من أمها ربما تضارع منزلة شارلوت منها — تشعر بإخلاص بما تشعر به أمهما من آلام . .

وحضر مستر هاريس فى الموعد المحدد لزيارته الثانية — ولكنه أعرب عن خيبة أمله ، لأن الدواء الأخير لم يأت بالنتيجة المرجوة . لقد فشلت أدويته ، ولم تخف الحمى . وظلت مريان مستغرقة فى سبات عميق ، وكانت أكثر هدوءاً . أما إلينور فلم تكن كذلك ، بل سرعان ماشعرت بكل ما أعرب عنه من الخوف بل بأكثر منه ، واقترحت استدعاء طبيب آخر ولكنه لم ير داعياً لذلك ، وقال : إن لديه أدوية أخرى يكاد يثق بنجاحها وثوقه من نجاح الدواء

الأخير ، وختم زيارته بتأكيدات مشجعة ولكنها وصلت إلى أذن مس داشوود دون أن تصل إلى قلبها . وكانت تشعر بالهدوء والسكينة ، إلا عندما تفكر في أمها ، ولكنها كادت تفقد الأمل . وظلت على تلك الحال حتى الظهيرة لا تكاد تتحرك من فراش أختها ، وصور الأحزان والأصدقاء الذين يتجرعون غصص الآلام تتوارد على ذهنها واحدة تلو الأخرى ، وتألمت غاية الألم لحديث مسز جننجز التي لم تتحرج من أن تعزو شدة هذا المرض وخطره إلى الوعكة السابقة التي استمرت عدة أسابيع والتي نجمت عما أصابها من خيبة الأمل . وكانت إلينور مقتنعة بصواب هذا الرأي ، فزادها ذلك ألماً على ألم .

على أنها أخذت وقت الظهيرة - ولكن مع شيء من الحذر - في الخوف من حدوث شيء من خيبة الأمل ، الذي عقد لسانها برهة من الزمن عن الكلام حتى مع صديقتها - أخذت تتخيل بل تأمل أن ترى تحسنا بسيطا في نبض أختها - لقد انتظرت ولاحظت ، وفحصت النبض مرة بعد أخرى - وأخيراً أقدمت على الإفضاء بما خالجها من الأمل ، وهي تشعر باضطراب تعذر عليها إخفاؤه تحت ستر الهدوء الظاهري أكثر مما تعذر عليها إخفاء آلامها السابقة . ومع أن مسز جننجز اعترفت عند فحصها بحدوث انتعاش وقتي فإنها نصحت لصديقتها ألا تأمل في استمراره . وأخذت إلينور تستظهر كل نصيحة تدعو إلى سوء الظن ، وتحدث نفسها أيضا بالعدول عن الأمل . ولكن لقد فات أوان اليأس ، بعد إذ أشرق نور الأمل وأحست أنه يرفرف بجناحيه ، فانحنت على أختها لتلاحظ - ولم تدر ماذا تلاحظ - ومرت نصف ساعة ، وظهرت عليها أمارات التحسن ، وبدت علامات أخرى تؤكد ذلك . لقد ظهرت أمارات التحسن في تنفسها

وبشرتها وشفتيها ، ونظرت إليها مريان نظرة تدل على أنها استعادت رشدها ، ونن دلت على الضعف والوهن . وهنا انتاب إلينور القلق والأمل على حد سواء ولم يهدأ بالها لحظة واحدة حتى قدم مستر هاريس فى الساعة الرابعة ، فأكد لها شفاء أختها على نحو يفوق ما كان منتظراً ، وهنأها بشفائها ، فأحست بالثقة ، وشعرت ببرد الراحة ، وسكبت دموع الفرح .

تحسنت صحة مريان بدرجة محسوسة من كل الوجوه ، وصرح الطبيب أنها تجاوزت منطقة الخطر تماماً . ويظهر أن مسز جننجز اكتفت بالتبرير الجزئى لتشاؤمها الذى تجلى فى الفزع الذى استولى عليهما أخيراً ، فسمحت لنفسها بتصديق قوله وسلمت — وهى تشعر بفرحة غير مصطنعة ، وسرور لامواربة فيه — باحتمال شفائها شفاء تاما .

ولم تستطع إلينور أن تظهر البشاشة والمرح . كان سرورها يتسم بطابع يختلف عن ذلك ، كما أدى إلى شىء آخر خلاف المرح . نعم إن استعادة مريان لحياتها وصحتها وأصدقائها وأمها الحنون أثلج فؤادها وجعله يفيض بالشكر ، ولكنه لم يؤد إلى المظاهر الخارجية للسرور — لا كلام ولا ابتسام . كان الارتياح يغمر قلبها ، صامتاً قوياً .

وظلت بجانب أختها طول الأصيل إلا فى فترات قليلة ، تهدىء روعها ، وتجيب على كل سؤال عن صحتها الضعيفة ، وتقدم كل مساعدة ، وترقب كل نظرة وكل نفس . وكان يخشى أن تحدث لها نكسة فى وقت ما ، فتذكر إلينور بالقلق مرة أخرى ولكن إلينور أسكتت صوت الشك عندما رأت — بعد

الفحص الدقيق المتكرر استمرار علامات التحسن ، ورأت مريان فى الساعة السادسة ، وهى تستغرق فى نوم هادىء متواصل يبدو مريحا فى ظاهر الأمر .

وأزف حينئذ موعد عودة كولونيل براندون ، وكانت تعتقد أن أمها ستصل فى الساعة العاشرة أو بعدها بقليل على الأكثر لتستريح من عناء القلق الذى يساورها الآن وهى فى طريقها إليهما ، ويساور الكولونيل أيضا ! ربما كان لا يقل عنها جدارة بالرثاء ! أواه ! ما أبطأ سير الزمن الذى لا يزال يحجبهما عن معرفة الحقيقة !

وفى الساعة السابعة تركت مريان تنعم بلذة الكرى ، ولحقت بمسز جننجز فى حجرة الاستقبال ، لتتناول معها الشاى . وكانت مخاوفها قد منعتها من تناول الكثير من الفطور ، والنكسة المفاجئة من تناول الكثير من الغداء . ولذلك رحبت بتناول الشاى بعد أن شعرت بالسرور ، ورغبت إليها مسز جننجز فى نهايته أن تنعم ببعض الراحة قبل قدوم أمها وتسمح لها بأن تنوب عنها فى ملازمة مريان ، ولكن إلينور لم تشعر بشىء من التعب ، ولا بميل إلى النوم فى تلك اللحظة ، وكانت ترى أن الواجب يحتم عليها ألا تفارق أختها لحظة واحدة . لذلك رافقتها مسز جننجز وصعدت معها الدرج إلى حجرة أختها المريضة لتطمئن بنفسها على استمرار تحسنها ، وتركتها مرة أخرى لترعى أختها وتسترسل فى أفكارها ، وعادت إلى حجرتها لتكتب بعض الخطابات ، وتنام .

وكانت ليلة باردة عاصفة زأرت فيها الرياح حول البيت ، وتساقط المطر على نوافذه ، ولكن إلينور لم تأبه لذلك ، لأن السعادة كانت تغمرها فى قرارة

نفسها . ونامت مريان أثناء العاصفة كلها ، أما المسافران فكان القدر يدخر لهما مفاجأة سارة تعوضهما عما لقياه من وعثاء السفر .

ودقت الساعة الثامنة . ولو أنها دقت العاشرة لما كان ثمة شك فى سماع إلينور لصوت العربة وهى تقترب من المنزل ، وقوى فى نفسها الاعتقاد بوصولها على الرغم من أن قدومها فى تلك اللحظة يعد فى حكم المستحيل لدرجة أنها انتقلت إلى غرفة الزينة المجاورة ، وفتحت مصراع النافذة لتقف على حقيقة الأمر . فرأت من فورها أن أذنيها لم تخدعاها ، إذ رأت مصابيح العربة الساطعة على مدى البصر ، واستطاعت أن تتبين فى ضوئها الخافت أن العربة يجرها أربعة جياد ، وهذا فضلا عن دلالته على شدة الذعر الذى استحوذ على أمها المسكينة ، يفسر هذه السرعة غير المنتظرة .

ولم يسبق لإلينور قط أن وجدت من العسير الاحتفاظ بالهدوء ورباطة الجأش ، كما وجدت فى تلك اللحظة ، إذ كان من المستحيل أن تحتفظ بالهدوء مع علمها بما لابد أن تشعر به أمها عند وقوف العربة بالباب مع علمها بشكها وخوفها —وربما يأسها ! وبما تريد هى أن تحدث به أمها ! كل ذلك لابد أن يقال ويقال بسرعة ، ولذلك لم تلبث إلا ريثما جاءت خادمة مسز جننجز لتلازم مريان وأسرعت بالنزول .

وكانت الجلبة التى قامت فى دهليز الدار عند مامرت بإحدى الردهات الداخلية تؤكد أنهما قد دخلا البيت ، فاندفعت نحو حجرة الاستقبال— ودخلتها وإذا بها لا ترى إلا ولبى .

وتراجعت إلينور مذعورة ، وبدا عليها الفزع لرؤيته ، واستجابت لأول خاطر دار بخلدها بأن استدارت من فورها لتغادر الحجرة ، ووضعت يدها على مغلاق الباب ، وإذا به يتقدم مسرعا ويمنعها من إغلاق الحجرة ويقول بصوت أقرب إلى الأمر منه إلى الرجاء :

« مس داشوود ؟ نصف ساعة ــ عشر دقائق ــ أرجوك أن تنتظرى . »

فأجابت بحزم : « لا ياسيدى . لن أنتظر . لا شأن لك معى . أظن الخدم نسوا أن يخبروك أن مستر بالمر ليس بالدار . »

فصاح بحدة : « لو أنهم أخبرونى أن مستر بالمر وجميع أقاربه ذهبوا إلى الشيطان، لما منعنى ذلك من الدخول . إن شأنى معك أنت ، أنت وحدك . »

فقالت ، وهى فى غاية الدهشة : « معى أنا ! هيا ياسيدى ! أسرع ــ وإذا أمكنك ــ طامن من حدتك . »

« اجلسى ، وسأمتثل للأمرين . »

فترددت ولم تدر ماذا تصنع . وخطر ببالها احتمال وصول كولونيل براندون ولقائه هنا . ولكن لقد وعدت بالاستماع له وكانت رغبتها فى استطلاع أخباره لاتقل عن رغبتها فى التمسك بشرف وعدها . وبعد أن فكرت فى الأمر هنيهة رأت أن الحكمة تقضى بالسرعة ، وأن استجابتها له خير كفيل بها ، فمشت فى

صمت صوب المائدة وجلست. وجلس هو على المقعد المقابل . ومرت نصف دقيقة دون أن يتفوه أحدهما بكلمة واحدة .

قالت إلينور بصبر نافــد : « أسرع ياسيدى . أرجوك ليس لدى وقت أضيعه . »

وكان يجلس فى حالة تأمل عميق ، ويبدو عليه أنه لم يسمعها .

وقال فجأة بعد لحظة : « أختك تجاوزت منطقة الخطر . لقد بلغنى ذلك من الخادم . الحمد لله ! ولـكن أصحيح ذلك ؟ أصحيح ذلك حقا ؟ »

فلم تشأ إلينور أن تتــكلم ، فأعاد السؤال بلهجة أشد :

« ناشدتك الله أن تخبرينى هل تجاوزت منطقة الخطر أم لا ؟ » .

« نرجو أن تــكون قد تجاوزتها » .

ونهض واقفا وأخذ يمشى فى الحجرة .

« لو أننى علمت ذلك منذ نصف ساعة — ولـكن حيث أننى هنا » — وقال وهو يتكلف البشاشة عند ماعاد إلى مقعده : « ماذا يعنى ذلك؟ مرة واحدة يامس داشوود — ربما تكون المرة الأخيرة — لنبتهج معا — إننى فى حالة نفسية طيبة تسمح لى بالابتهاج والمرح — خبرينى بصراحة » تحمر وجنتاه احمرارا شديداً « ماذا تعتقدين فى أ كثر . أخبيث أنا أم أبله ؟ »

فنظرت إليه إلينور أشد ماتــكون دهشة . وتبادر إلى ذهنها أنه لابد أن

يــكون ثملاً . إن غرابة هذه الزيارة وهذه الأخلاق لايمكن تفسيرها بغير ذلك وبهذه الفكرة التى انطبعت فى ذهنها وقفت من فورها وقالت :

«مستر ولبى ؟ أنصح لك الآن أن تعود إلى كومب . ليس لدى وقت أضيعه معك أكثر من ذلك . مهما يكن لك من شأن معى فأرجو أن تتذكره جيدا وتشرحه لى غدا . »

فأجاب بابتسامة معبرة وصوت فى غاية الهدوء : « نعم ، حق ماتقولين . إننى ثمل ، فقد شربت كأسا من البيرة مع بعض اللحم البقرى البارد فى « مالبرو » فشوش ذهنى » .

فصاحت إلينور ، وقد زادت حيرة فــــلم تدر ماذا يريد وقالت : « فى مالبرو ! »

« نعم ـــ غادرت لندن فى الساعة الثامنة من صباح اليوم ، ولم أغادر العربة إلا مدة عشر دقائق فقط منذ ذلك ، تناولت خلالهـــــا بلغة من الزاد » .

ولاحظت إلينور ثبات لهجته وذكاء نظرته أثناء كلامه فاقتنعت أن الشراب لم يسقه إلى كليفلاند بصرف النظر عن أية حماقة أخرى لاتغتفر ربما ساقه إليها فقالت بعد أن أطرقت هنيهة :

« مستر ولبى ! ينبغى لك أن تشعر وأنا أشعر يقينا ـــ أنه بعد كل ماحدث

أن مجيئك هنا على هذا النحو ، وحديثك معى ، يحتاج إلى عذر خاص — فماذا تعنى بالمجىء إلى هنا ؟ »

فقال بلهجة قوية تنسم بالجد : « أعنى أن أجعلك — إذا استطعت — تبغضيننى بغضاً يقل درجة واحدة عما تبغضيننى الآن . أريد أن أقدم تفسيراً لما حدث ، وأن أفتح قلبى لك كله ، وأن أقنعك بأننى وإن كنت دائماً أحمق غبيا ، لم أكن دائماً وغداً لئيما ، وبذلك أظفر بما يشبه العفو من مر — من أختك . »

« أهذا هو السبب الحقيقى لمجيئك ؟ »

« لعمرى إنه لكذلك . » هكذا أجاب بحرارة أعادت إلى ذهنها صورة ولبى الذى عرفته من قبل بعجره وبجره . وجعلتها تظن فيه الإخلاص على كره منها .

« إذا كان هذا كل شىء ، فنى وسعك أن تطمئن بالفعل — لأن مريان تسامحك — لقد سامحتك منذ زمن . »

فصاح بنفس اللهجة الحماسية : « هل سامحتنى ! إذن لقد سامحتنى قبل أن ينبغى لها ذلك ، ولكنها ستسامحنى مرة أخرى . ولأسباب أقرب إلى العقل . والآن هل تسمحين لى ؟ »

حنت رأسها موافقة .

قال بعد فترة ترقب من جانبها ، وتفكير من جانبه : « لا أدرى كيف علات مسلكى نحو أختك أو أى دافع شيطانى عزوته إلى . ومن المحتمل أنك ستجدين من العسير أن تظنى بى خيرا ، ولكن الأمر يستحق النظر ، وستسمعين كل شيء : عندما تعرفت لأول مرة إلى أسرتكن ، لم يكن لى من قصد أو غرض من هذه المعرفة ، إلا أن أقضى وقتى فى لذة ومتعة أثناء الفترة التى أضطر فيها إلى البقاء فى ديفو نشاير — فى لذة ومتعة أكبر مما تعودت من قبل . ولم يسعنى إلا أن أبدى إعجابى حينما رأيت شخص أختك المحبوب ، وشمائلها الحلوة . وكان مسلكها نحوى منذ البداية يكاد يتسم بـ . عندما أفكر فى هذا المسلك وفيما كانت تتحلى به أدهش أن يكون قلبى قد من جلد الصخر بحيث لا يتأثر به وصرت لا أكترث بسعادتها ، ولا أفكر إلا فى لهوى ولذتى ، والاسترسال وراء العواطف التى اعتدت الاسترسال وراءها دائما ، وحاولت جهد طاقتى أن أحبب إليها دون أن أقصد أن أبادلها حبا بحب »

وعندما وصل إلى هذا الحد نظرت إليه مس داشوود نظرة ملؤها الاحتقار والغضب وقاطعته قائلة :

« لا فائدة يامستر ولبى من مواصلة الحديث ، ولا داعى من جانبى للإصغاء إليه . إن مثل هذه البداية لا تشجع على الاستمرار فيه . فلا تؤلمنى بالاستماع إلى المزيد من هذا الموضوع . »

فأجاب : « إننى مصر على أن تسمعيه كله . لم تكن ثروتى كبيرة قط ، وكنت دائما مسرفاً ، أختلط بقوم دخلهم أكبر من دخلى . ومنذ أن بلغت سن الرشد

أو حتى قبل هذه السن وديونى ـ كما أعتقد ـ تزداد سنة بعد أخرى . ومع أنه كان من المقدر أن وفاة بنت عمى ستتيح لى حرية التصرف ، فإن هذه الوفاة لم تكن أمراً مؤكداً ، كما أنه كان يحتمل أن يمتد بها الأجل فترة أطول ، فاتجهت نيتى فترة من الزمن إلى تدعيم مركزى المالى بالزواج من امرأة ذات مال . ولذلك لم يخطر على بالى أن أقترن بأختك . وكان مسلكى فى ذلك يتسم بالخسة والأنانية والقسوة ، إذ كنت أحاول أن أظفر بحبها دون أن أفكر فى مبادلتها حباً بحب ، وهو مسلك جدير بكل استنكار واحتقار حتى منك أنت يامس داشوود — ولكن شيئاً واحداً يمكن أن يقال فى معرض الدفاع عن نفسى حتى فى هذا الأمر الفظيع ، وهو الغرور المقرون بالأنانية . ذلك أننى لم أعرف مدى الضرر الذى انتويته ، لأنى لم أعرف حينئذ ما هو الحب . ولكن هل أتيح لى قط أن أعرف الحب ؟ الحق أن هذا الأمر فيه شك ، لأنه لو كان أتيح لى أن أعرف الحب حقاً ، أكان فى وسعى أن أضحى بعواطفى على مذبح الغرور أو الطمع ؟ بل أكثر من ذلك : أكان فى وسعى أن أضحى بحبها ؟ — ولكنى فعلت ذلك . ولكى أتجنب الفقر النسبى الذى كانت محبتها وعشرتها ستجنبانى كل ويلاته . فقدت — بسعيى وراء الغنى — كل ما يمكن أن يجعل هذا الفقر نعمة وبركة » .

فقالت إلينور ، وقد هدأ روعها قليلا : « إذن كنت تعتقد فى وقت ما أنك تحبها ؟ » .

« هل كان فى وسعى أن أقاوم هذه المحاسن الجذابة ، وأن أثبت أمام هذه

الشمائل الرقيقة ؟ هل على وجه الأرض إنسان كان فى وسعه أن يفعل ذلك ! نعم ، لقد شغفت بها حباً شيئاً فشيئاً من حيث لا أشعر ، وكانت أسعد أوقات حياتى هى الساعات التى أقضيها معها ، وكنت أشعر أن مقاصدى شريفةوعواطفى بريئة على أننى حتى فى ذلك الوقت الذى صحت فيه نيتى على عقد الخطبة ، عدت — بطريقة غير لائقة إطلاقا — إلى إرجائها من يوم إلى يوم كراهةأن أقدم على الخطبة وظروفى المالية شديدة الارتباك . ولكنى لن أجادل هنا ، ولن أتوقف حتى ينسنى لىأن تتحدثى عن السخف — بل هوما أسوأ من السخف — سخف التردد فى خطبة امرأة ارتبطت معها بكلمة الشرف . وقد برهنت الحوادث على أننى كنت غبيا ما كراً أسعى جاهداً إلى كل ما من شأنه أن يجلب على الاحتقار والشقاء إلى الأبد . على أنى عقدت العزم أخيراً وصممت بمجرد أن أخلو بها أن أبرر ما كنت أحبوها به من صنوف الرعاية والعطف وأؤكد لها علانية تلك المحبة التى حرصت على إظهارها لها . ولكن فى فترة — فترة الساعات القليلة التى انقضت قبل أن تتاح لى فرصة التحدث معها على انفراد — حدث أمر — أمر مؤسف حطم عزيمتى ، وحطم معها كل هناءتى وسعادتى . حدثأن بعضهم أفشىسرى — وهنا تلعثموأطرق برأسه إلى الأرض — فقد علمت مسز سميث بطريقة ما — وأظن أنها علمت عن طريق أحد الأشخاص الذين يمتون لى بصلة القربى من بعيد ، ممن لهم مصلحة فى حرمانى من عطفها — علمت بأمر — بالصـــداقة الوثيقة » — وأضاف « ولكن لاحاجة بى إلى المزيد من البيان » وتوردت وجنتاه ، وحدجها بنظرة تنم على التساؤل

« بالصداقة الوثيقة التى تربطنى بكن — ولعلك سمعت القصة كلها منذ زمن طويل » .

فأجابت إلينور وقد توردت وجنتاها أيضا ، وامتنعت مرة أخرى من إظهار العطف عليه : « لقد سمعت القصة كلها ، وأعترف أنى لا أستطيع أن أفهم الطريقة التى تبرر بها أى جزء من الجريمة التى ارتكبتها فى هذا العمل للروع » .

فصاح ولبى : « تذكرى من استقيت منه النبأ . هل يمكن أن يكون خاليا من الغرض ؟ إننى أعترف أنه كان ينبغى أن أحترم مركزها وأخلاقها . ولا أريد أن أبرر موقفى . ولكن أريد فى الوقت نفسه أن أسمح لك بأن تظنى أنه ليس لدى ما يمكن أن أقوله — وأن تظنى أنها بريئة لأنها مجنى عليها ، وأنها قديسة لأنى رجل داعر . وإذا كانت شهواتها العارمة ، وعقليتها الضعيفة — على أنى لا أريد أن أتصدى للدفاع عن نفسى ، فقد كانت جديرة بمعاملة أفضل لقاء محبتها لى . وكثيراً ما أنحيت باللائمة على نفسى وأنا أتذكر حنانها الذى حملنى فترة قصيرة من الزمن على أن أبادلها إياه ويا ليت — يا ليت ذلك لم يكن . ولكنى أسأت إلى غيرها أيضا . أسأت إلى امرأة كانت تحبنى (هل لى أن أقول ذلك ؟) حبا لا يقل عن حبها لى ، وعقلها — وى ! ما أسمى قدره !

« على الرغم من أنى لا أحب البحث فى هذا الموضوع ، أرى لزاما على أنه أقول إن استهتارك لا ينهض عذراً لإهمالك الناس لها . ولا تعتقد أن أى ضعف ، أو أى عيب طبيعى فى عقلها ينهض عذراً للقسوة البالغة التى عاملتها بها . لابد

أنك عرفت أنها كانت تقاسى مرارة الفاقة والحاجة ، وأنت فى ديفونشاير تنغمس فى ملذاتك ، وتجرى وراء مشروعات جديدة ، وتنعم دائما بالسرور والحبور .

فأجاب بحماسة : « لعمرى إننى لم أعلم ذلك . لم أذكر أنه فاتنى أن أعطيها عنوانى ، ولوكان لديها مسكة من عقل لعرفت كيف تهتدى إليه » .

« وماذا قالت مسز سميث ياسيدى ؟ »

« اتهمتنى بالجريمة فى الحال . وفى وسعك أن تدرك مدى ارتباكى وحيرتى وكانت طهارة ذيلها ، وحرصها على التقاليد ، وجهلها بأحوال الناس كل ذلك كان ضدى . ولم أستطع أن أنكر الأمر نفسه ، وكل سعى للتخفيف منه كان ضربا من العبث ، لأنها كانت تميل من قبل — كما أعتقد — للشك فى تمسكى بأهداب الفضيلة بوجه عام . وفضلاً عن ذلك كانت تشعر بالاستياء لقلة اهتمامى بها ، وضآلة الوقت الذى خصصته لها فى زيارتى الحالية . وصفوة القول أن الأمر انتهى بالقطيعة التامة . وكان فى وسعى أن أنقذ نفسى بوسيلة واحدة ، فقد عرضت على — وهى فى علياء الفضيلة ، يالها من امرأة فاضلة ! — أن تعفو عما سلف بشرط أن أتزوج إليزا وما كنت لأقبل ذلك — فحرمتنى رسميا من عطفها ، وطردتنى من بيتها . وقضيت الليلة التى أعقبت هذا الحادث — كان من المقرر أن أذهب فى صباح الغد — وأنا أتدبر ما يجب عمله فى المستقبل . كان النضال عظيما — ولكنه انتهى بسرعة . كان حبى لمريان وإيمانى التام بحبها لى — كل ذلك لم يوازن الخوف من الفقر ،

ولم يتغلب على تلك الفكرة الخاطئة ـ ضرورة الحصول على المال ـ التى كنت أميل إليها بطبعى ، والتى زادنى إيمانا بها كثرة نفقاتى الاجتماعية . وكان لدى من الأسباب مايحملنى على الوثوق من موافقة زوجتى الحالية إذا شئت أن أتحدث معها فى ذلك، واقتنعت بأن لم يبق أمامى ماتقضى به الحكمة سوى سلوك هذا السبيل. على أن مشهداً ثقيلا على النفس كان ينتظرنى قبل مغادرة ديفونشاير كنت مرتبطا بالغداء معكن فى ذلك اليوم نفسه . ولذلك لم يكن بد من تقديم بعض العذر لإخلافى هذا الموعد . وأطلت التفكير كثيراً حول كتابة هذا الاعتذار أو تقديمه بنفسى . وكنت أوجس خيفة من لقاء مريان بل كنت أشك فى تمسكى بقرارى إذا لقيتها . على أنى كنت فى ذلك أبخس من قدر شهامتى كما دلت الحوادث ، لأنى ذهبت إليها ولقيتها ورأيت أنها حزينة ، وتركتها حزينة ، وتركتها وأناأرجو ألا أراها مرة أخرى بعد اليوم » .

فقالت إلينور بلهجة التأنيب: « لماذا زرتها يامستر ولبى ؟ كان الخطاب يفى بالغرض . لماذا كانت الزيارة ضرورية ؟ » .

« كانت ضرورية لإرضاء كبريائى . لم أطق أن أغادر الريف على نحو قد يؤدى بك أو ببقية الجيران إلى معرفة أى شيء مما دار بين مسز سميث و بينى — فصممت على زيارة المنزل الريفى فى طريقى إلى هونيتون على أن رؤية أختك كانت أمراً مفزعاً فى واقع الأمر . ومما زاد الطين بلة أنى وجدتها وحدها ، ولا أدرى أين خرجتن جميعا . وكنت قد تركتها مساء اليوم السابق فقط وأنا

مصمم فى قرارة نفسى على سلوك جادة الحق ! وكانت بضع ساعات كفيلة بعقد خطبتى لها إلى الأبد. وإنى لأذكر كم كنت سعيدا ومرحا حينما مشيت من المنزل الريفى إلى النهام ، راضيا عن نفسى ، راضيا عن كل إنسان ! ولكن فى هذه المقابلة التى كانت آخر العهد بالمودة بيننا ، تقدمت إليها وأنا شاعر بما ارتكبته من إثم شعوراً يكاد ينزع منى ثوب الرياء . وإن أنس لا أنس — حينما أخبرتها باضطرارى إلى مغادرة ديفونشاير فى الحال ما أبدت من أسف وحزن وحسرة ، مع ماأبدته من احتفاظها بالثقة فى والإيمـان بى ! آه ياإلهى ! كم كنت وغداً قاسى القلب ! » .

ولاذ الاثنان بالصمت بضع دقائق . وكانت إلينور أول من تكلم .

« هل وعدتها بأنك ستعود قريبا ؟ »

فأجاب بصبر نافد : « لاأدرى ماقلته لها ، ولـكنه بلا ريب أقل مما ينبغى بحق الماضى ، وأكبر الظن أنه أكثر مما يبرره المستقبل . ولا أستطيع أن أذكره . ثم جاءت والدتك العزيزة لتذيقنى مزيداً من العذاب بمـا غمرتنى به من عطف وثقة . حمداً لله ! لقد عذبتنى بالفعل ، وفاض قلبى بالأسى . مس داشوود ! ليس فى وسعك أن تتصورى ما أشعر به من العزاء حينما أستعيد ذكرى هذا الأسى . وإنى لأحقد على نفسى لمـا أبديته من الحماقة والنذالة حقداً يجعلنى أشعر الآن بنشوة الانتصار والسرور عندما أتذكر جميع الآلام الماضية التى قاسيتها بسبب هذه الحماقة ثم سافرت ، وخلفت ورائى كل ماأحب ، وذهبت إلى قوم خيرمايقال

فيهم أنى لا أحفل بلقائهم . وكانت رحلتى إلى لندن ـ وأنا أسافر بجيادى ، ولذلك كان السفر مملاً ـ لا رفيق أتحدث معه ـ كانت تأملاتى تبعث على البهجة والسرور ـ إذا نظرت أمامى بدا كل شىء مغريا وجذابا ! وإذا نظرت خلفى إلى بارتون بدا فى الصورة مايلطف حدة آلامى ! كانت رحلة موفقة .

وسكت .

وقالت إلينور التى تعجلت انصرافه ، وإن رثت لحاله : « وهذا كل شىء ياسيدى ؟ »

« كل شىء ! ـ كلا ـ هل نسيت ماحدث فى لندن ؟ هذا الخطاب الشائن ، هل أطلعتك عليه ؟ »

« نعم ، رأيت كل الخطابات التى دارت بينكما . »

« عند ماوافانى أول خطاب منها (إذ وصلنى فى الحال لأنى كنت فى لندن طول ذلك الوقت) كان شعورى كما يقولون ـ تقصر دونه العبارة ، وبعبارة أكثر بساطة ـ ربما أبسط من أن تثير أى انفعال ـ إننى شعرت بالألم .
كل سطر وكل لفظ ـ إذا جاز لى استعمال الاستعارة المبتذلة التى كانت كاتبتها العزيزة تعافها لو كانت الآن بيننا ـ كانا بمثابة خنجر مصوب إلى قلبى . وعندما علمت أن مريان وصلت إلى لندن وقع على هذا النبأ ـ باللغة نفسها ـ وقع الصاعقة . صواعق وخناجر ! ما أشد ما كان يمكن أن توجهه إلى من اللوم ! ـ ذوقها وآراؤها ـ أعتقد أننى أعرفهما أكثر مما أعرف ذوقى وآرائى ـ إنها أحب إلى . »

وعادت إلينور التى انتابت قلبها عدة تغييرات فى خلال هذا الحديث

الغريب — فرقت له ولكنها رأت من واجبها أن تمنع محدثها من الاسترسال فى مثل هذه الأفكار الأخيرة .

« ليس هذا من الصواب يامستر ولبى . تذكر أنك متزوج · لاتقص على إلا ما يحدثك ضميرك أنه ينبغى لى سماعه . » .

« إن خطاب مريان الذى أكدت فيه أنها لاتزال تحبنى فى الأيام الخالية، وأنها على الرغم من الأسابيع العديدة ، العديدة التى فرقت بيننا ، لا تزال ثابتة على عهد المودة كما كانت فى أى وقت مضى ، كما لا تزال على ثقة تامة من أننى ثابت على عهد المودة كذلك — إن هذا الخطاب أيقظ فى نفسى شعور الندم ، كل الندم . أقول أيقظ لأن الزمن ، ولندن ؛ والعمل واللهو ، كل ذلك هدأ من هذا الشعور بعض الشيء ، وصيرنى نذلا قاسى القلب ، أوهم نفسى أننى نسيتها وأتخيل أنها هى أيضا لابد قد نسيتنى ؛ وأحدث نفسى بأن حبنا القديم لغو وهراء ، وأهز كتفى دلالة على أنه كذلك ، وأسكت كل صوت من أصوات الملام أو الشك بأن أقول فى سرى من وقت لآخر : « سأسر من أعماق فؤادى حينما أسمع أنها تزوجت رجلا طيبا . » ولكن هذا الخطاب جعلنى أزداد معرفة بنفسى . شعرت أنها أحب إلى قلبى من أية امرأة فى العالم ، وأننى عاملتها على نحو شائن . ولكن الاتفاق كان قدتم منذ قريب بينى وبين مس جراى على كل شيء . وكان التقهقر مستحيلا . كل ما اضطررت أن أفعله هو أن أتحاشى رؤيتكما معا ، فلم أرسل رداً إلى مريان قاصداً بذلك أن أحمى نفسى من أن أراها بعد ذلك ، بل لقد صممت فترة من الزمن على عدم زيارة بركلى ستريت — ولكن أخيراً رأيت من الحكمة أن أتظاهر بأننى صديق عادى لاغير — فراقبتكن حتى خرجتن من المنزل بسلام فى صباح يوم من الأيام وتركت بطاقتى .

« راقبتنا حتى خرجنا من المنزل ! »

« هكذا كان . وقد تدهشين لأن تعرفي كم راقبتكن ، وكم أوشكت أن ألتقي بكن . وقد دخلت أكثر من دكان لأتحاشى رؤيتكن ، والعربة تمر بي. وإذ كنت أنزل بيوند ستريت لم يكد يمر يوم لاألمح فيه واحدة منكن ، وما كان لشيء أن يحول بيني وبينكن هذه المدة الطويلة لولا المراقبة الدائمة من جانبي ، والرغبة القوية المستمرة في تحاشي رؤيتكن . وتحاشيت الاتصال بآل ميدلتون بقدر الإمكان كما تحاشيت الاتصال بأي إنسان يحتمل أن يعرفني ويعرفكن ، على أني التقيت مصادفة بسيرجون دون أن أعلم بوجودهم في لندن ، وأعتقد أن ذلك كان في أول يوم وصل فيه إلى لندن ، واليوم التالي لزيارتي لمنزل مسز جننجز ، فدعاني سيرجون لحفل راقص يقيمه في منزله في المساء . ولو أنه لم يخبرني أنك وأختك ستشهدان هذا الحفل ليغريني بحضوره لكان من المؤكد جدا أن ألبي دعوته ، لكي أشعر بالثقة والطمأنينة وأنا بجانبه . وفي صباح الغد تلقيت خطابا وجيزاً من مريان ، يفيض أيضا بالحب والصراحة والبراءة والثقة ـ أي كل مايجعل سلوكي ممقوتاً أشد المقت . ولم أستطع أن أرد عليه ، وحاولت ولكني لم أوفق إلى إنشاء جملة واحدة . ولكني أعتقد أني ظللت أفكر فيها كل لحظة في ذلك اليوم. وإذا كان في وسعك أن ترثي لحالي يامس داشوود ، فارثي لحالي حينئذ ، فقد كنت مضطراً ، وأختك تشغل رأسي وقلبي ، أن أقوم بدور المحب السعيد مع امرأة أخرى ! وكانت هذه الأسابيع الثلاثة أو الأربعة أسوأ مامر بي . وأخيراً — ولا حاجة بي لأن أقول ذلك ـ وقع بصرك علي . وما أحلى منظري في ذلك الوقت ! ما أشد ماعانيته من الآلام في ذلك المساء ! مريان ـ في جمال الملائكة ـ

تناديني — من جانب — بأعذب النغم ! أواه ! ربي ! وهي تمد يدها إلى وتطلب مني تفسيراً بهاتين العينين الساحرتين اللتين ثبتتهما في وجهي باهتمام ظاهر ! وصوفيا — من جانب آخر — تشعر بالغيرة كالشيطان وتنظر إلينا نظرة ... لاداعي للكلام ، فقد انتهى كل شيء . يالها من ليلة ! لقد هربت منكن جميعاً بأسرع ما استطعت ، ولكنني لم أستطع أن أهرب قبل أن أرى وجه مريان الجميل شاحباً شحوب الموت . كانت تلك آخر ، آخر نظرة نظرتها إلى — آخر منظر بدت لي فيه، ويا له من منظر مروع! ومع ذلك فإني عندما ظننت أنها تحتضر اليوم كان من أسباب العزاء لي أن أتصور أنني أعرف تماما المنظر الذي تبدو به لمن يرونها آخر مرة في هذه الدنيا . كانت أمامي ، وأمامي دائماً عندما سافرت ، في نظرتها ومنظرها . »

واستغرق الاثنان في التفكير لحظة قصيرة وكان ولبي أول من أفاق فقال :

« اسمحي لي أن أسرع ، وأنصرف . أختك قد تماثلت للشفاء ، وتجاوزت مرحلة الخطر بلاشك . »

« نحن على ثقة من ذلك . »

« وأمك المسكينة أيضا ! — تهيم حباً بمريان . »

ولكن الخطاب يامستر ولبي — خطابك أنت ، هل لديك ماتقوله عنه ؟ »

نعم ، نعم ، هذا بالذات . أنت تعلمين أن أختك كتبت لي مرة أخرى غداة اليوم التالي ذاته. ورأيت ماقالت. كنت أتناول الفطور في منزل آل إليسون،

وجيء لي بالخطاب مع أشياء أخرى من مسكني . واتفق أن لمحته صوفيا قبل أن ألمحه أنا — وأثار حجمه وأناقة ورقة وجمال خطه شبهتها في الحال . وكانت قد بلغتها إشاعة مبهمة بأني أحب فتاة في ديفو نشاير ، ثم كان ماجرى على مرأى منها في مساء اليوم السابق مما دلها على هذه الفتاة وأثار في نفسها الغيرة أكثر من ذي قبل ، فاصطنعت دور المرأة اللعوب الذي يستهوي المحب فيمن يحبها ، ففضت الخطاب من فورها ، وقرأت مافيه . ولقيت جزاء حماقتها وطيشها ، إذ قرأت فيه ماساءها . وكان في وسعي أن أحتمل حزنها ولكن لم يكن بد من تهدئة غيرتها — وحقدها . وبالاختصار ما رأيك في أسلوب زوجتي في كتابة الرسائل ؟ رقيق — دقيق — نسائي حقا — ألم يكن كذلك ؟»

« زوجتك ! لقد كان الخطاب بخطك أنت . »

« نعم ، ولكن ليس لي من فضل فيه إلا أني نسخت — في ذلة وخنوع — تلك الجمل التي يخجلني أني وقعت عليها باسمي . أما الأصل ، فلها فيه الفضل — أفكارها الموفقة ، وأسلوبها الرقيق . وماذا كان في وسعي أن أفعل ؟ لقد كنا قد عقدنا خطبتنا ، وأعددنا العدة لكل شيء ، وحددنا موعدالزفاف تقريبا — ولكني أتكلم كالأحمق . الاستعداد ! الموعد ! أقول الحق : كنت محتاجاً لمالها . وفي موقف كموقفي لم يكن بد من اتخاذأي إجراء يحول دون القطيعة ، وأخيراًماذا كانت تهم أية لغة أصوغ بها خطابي ، بالنسبة لأخلاقي في نظر مريان وصديقاتها . كان لا بد أن يكون لهذا الخطاب غاية واحدة وهو أن أبين أنني محتال دنيء ، ولم يكن يهم أكان ذلك بأسلوب رقيق أوفظ . قلت في نفسي : لقد نزلت من أعينهن إلى الأبد ، وحرمت من صحبتهن إلى الأبد ، وقد اعتقدن بالفعل أنني

شخص لاخلاق له . وكل ما سيفعله هذا الخطاب هو أنه سيجعلهن يعتقدن أننى رجل منافق متلون . هذه هى الأفكار التى دارت بخلدى عندما نسخت — فى حالة من الاستهتار واليأس ـ كلمات زوجتى ، وتخليت عن آثار مريان الأخيرة . كانت خطاباتها الثلاثة لسوء الحظ فى محفظتى،و إلالأنكرت وجودها وادخرتها إلى الأبد — فاضطررت إلى إبرازها ولم أستطع حتى أن أقبلها . وخصلة الشعر ـ هذه أيضا كنت أحملها معى فى محفظتى ففتشت « المدام » عنها بكل غل وحقد ـ الخصلة العزيزة ـ جميع ، كل الذكريات ، نزعتها منى ومزقتها .

فقالت إلينور بصوت يشف ـ على كره منها ـ عن الشعور بالعطف : « إنك مخطىء جدا يامستر ولبى ، وملوم جدا . لاينبغى لك أن تتكلم بهذه اللهجة سواء عن مسز ولبى أو عن أختى . لقد اخترت زوجتك بنفسك ، ولم يجبرك عليها أحد ، ومن حق زوجتك عليك أن تعاملها بأدب واحترام على الأقل . ولابدأنها تحبك وإلا لما تزوجتك . ومعاملتك لها بالجفوة أو الازدراء لايكفر عما ارتكبته فى حق مريان ؛ ولا أعتقد أنه يرضى ضميرك . »

فتنهد تنهداً عميقاً وقال : « لا تحدثينى عن زوجتى ـ فهى لا تستحق عطفك . هى تعلم أننى لم أكن أحمل لها أية ذرة من الحب حينما تزوجتها . نعم ، قد تزوجنا وقدمنا إلى كومبماجنا لننعم بالسعادة ، ثم عدنا إلى لندن لنعيش فى مرح وحبور . والآن هل ترثين لحالى يامس داشوود ؟ أو أننى قلت ذلك عبثا ؟ هل أصبحت فى نظرك ـ ولو درجة واحدة ـ أقل إجراماً مما كنت من قبل ؟ إننى لم أكن سيىء النية دائما . هل شرحت لك عذرى فى بعض ذنوبى ؟ »

« نعم ، لقد أزلت أثر البعض ـ القليل منها ـ وبرهنت على أنك ـ بوجه

عام — لست ملوما بقدر ما كنت أعتقد ، وبرهنت على أن قلبك أقل خبثا — أقل خبثا بكثير . ولكن لا أدرى — الشقاء الذى سببته — لا أدرى هل يمكن أن يكون ما هو أسوأ منه . »

« هل تسمحين بأن تعيدى على مسامع أختك بعد شفائها ما قلته لك ؟ وأرجو أن تخفف من ذنبى قليلا لديها أيضاً كافعلت معى . لقد قلت لى : إنها سامحتنى . وإنى لآمل أنها إذا ازدادت فهما لما يكنه قلبى لها ، ولما أشعر به الآن نحوها ، جادت على بالعفو من تلقاء نفسها ، عفوا طبيعياً رقيقاً متواضعا . خبريها عن حزنى وندمى — قولى لها : إن قلبى لم يتحول عن حبها قط ، وقولى لها — إذا شئت — إنها فى هذه اللحظة أحب إلى مما كانت فى أى وقت مضى . »

« سأحدثها بكل ما أراه ضروريا لما يمكن أن يسمى نسبيـــا بأنه تبرير لتصرفك . ولكنك لم تحدثنى عن السبب الخاص الذى دفعك إلى المجىء الآن ولا كيف سمعت عن مرضها . »

« فى الليلة الماضية ، وفى غرفة انتظار درورى لين التقيت مصادفة بسير جون ميدلتون فكلمنى — عندما عرفنى — لأول مرة خلال هذين الشهرين ، بالدهشة أو الاستياء لمقاطعته إياى عقب زواجى . ولكنه عندما رآنى لم يتمالك هذا الرجل الطيب المخلص الغبى الذى يمتلىء قلبه حنقا على ، ويهتم بأمر أختك — أن يخبرنى بما يعلم أنه لابد أن يحزننى كثيراً — وربما لم يكن يعتقد أن ذلك سوف يحزننى . فقال لى بصراحة كعادته : إن مريان تحتضر بسبب إصابتها بالحمى العفنة فى

فى كليفلاند — وأنه تلقى فى الصباح خطابا من مسز جننجز يقول: إنها على وشك الموت وقد هرب آل بالمر من المنزل خوفا الخ — فاستحوذ على الفزع والهلع إلى حد لم أستطع معه أن أتظاهر بالتجلد حتى أمام سيرجون الخالى من الفطنة — فرق قلبه لى عند مارأى تألمى . وذهبت من نفسه الموجدة على . حتى إنه عندما فارقنى صافحنى بيده . وذكرنى بما سبق أن وعدته به من إهدائه جرو كلب من كلاب الصيد . وكان ماشعرت به عندما سمعت أنها تحتضر — وتحتضر أيضا وهى تعتقد أننى أنذل مخلوق على وجه الأرض، وتضمر لى الازدراء والبغضاء فى لحظاتها الأخيرة — ومن يدرى لعل أحداً نسب لى مقاصد خبيثة — كنت واثقا أن شخصا واحدا سيقول عنى إننى أستطيع أن أفعل أى شىء — كان ماشعرت به أمراً مفزعاً ! — وسرعان ماصح عزمى . وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم ركبت عربتى . والآن لقد عرفت كل شىء » .

فلم تحر إلينور جوابا . إذ كانت تفكر وهى صامتة فيما يجلبه الغنى المبكر . وما يترتب عليه من بطالة ولهو وترف من أضرار فادحة على عقل الرجل وأخلاقه وسعادته — الرجل الذى يجمع إلى جميع المزايا الشخصية والمواهب العقلية طباعاً فطرت على الصراحة والإخلاص . وسجايا تمتاز بالرقة والوداد . لقد علمته الحياة الإسراف والغرور . وهاتان الخصلتان علمتاه قسوة القلب والأنانية . وفى الوقت الذى ساقه الغرور إلى الانتصار الأثيم على حساب شخص آخر ، ورطه الغرور فى حب حقيقى اضطره الإسراف — أو وليدته على الأقل وهى الحاجة — إلى التضحية به . وكل عيب من هذه العيوب جلب عليه الضرر كما جلب عليه العتاب . إذ أصبح الحب الذى نبذه ظاهريا مخالفا بذلك مقتضيات الشرف

والعاطفة والصداحة يسيطر على فكره، بعد إذ أصبح جائزا شرعا ،وأصبح الزواج الذى من أجله جلب الشقاء — دون رادع من ضمير — على أختها ينذر بأن يجلب عليه هو من الشقاء ماهو أشد وأقسى . ثم أفاقت من هذه الأفكار التى استغرقت فيها بضع دقائق حين نهض ولبى الذى استغرق هو أيضاً فى أفكار لاتقل عن أفكارها إيلاما ، وهم بالانصراف وقال :

« لافائدة من البقاء هنا يجب أن أنصرف الآن . »

« هل ستعود إلى لندن ؟ »

« كلا — إلى كومب ماجنا . فلدى بعض الأشغال هناك ، ومنها إلى لندن بعد يوم أو يومين .. وداعا . »

ومديده ولم ترفض أن تمد يدها إليه — فشد عليها بعطف وتأثر .

وقال وقد ترك يدها ، واستند إلى سجاف المصطلى كأنما قد نسى أنه يريد الانصراف : « هل تحسنين الظن بى الآن أكثر مما كنت ؟ »

فأكدت إلينيور له ذلك — وقالت : إنها عفت عنه ، ورثت له وتمنت الخير — بل أبدت اهتمامها بسعادته — وزودته ببعض النصائح الرقيقة التى يرجى أن تؤدى إلى هذه السعادة ولم يكن جوابه مشجعا إلى حد كبير .

قال : « فيما يتعلق بذلك ، أرى لزاما على أن التزم نهج الاستقامة فى الحياة . أما السعادة المنزلية فهى ضرب من المستحيل على أنه إذا جاز لى أن أعتقد أنك وأختك ستهتمان بمصيرى وأفعالى ،فقد يكون ذلك وسيلة لالتزامى جادة الحذر أوعلى الأقل سيكون أمراً جديراً بأن أعيش من أجله . لقد فقدت مريان إلى الأبد حقا ! لوأتيح لى أن أصبح طليقا مرة أخرى !

فوبخته إلينور ومنعته من الكلام .

فأجاب : « وداعا مرة أخرى . سأنصرف الآن وأعيش فى خوف من حادث آخر » .

« ماذا تعنى » !

« زواج أختك . »

« أنت مخطىء جدا . لن تفقدها أبداً أكثر مما تفقدها الآن » .

« ولكن رجلاً آخر سيظفر بها ، وإذا قضت الأقدار أن يكون هذا الشخص هو أبغض الناس إلى ، ولكنى لن أبقى حتى أفقد عطفك بأن أفهمك أننى أقل الناس رغبة فى العفو عمن جنيت عليه أعظم الجناية . وداعاً — بارك الله فيك » !

وما أن قال هذه الكلمات حتى خرج من الحجرة .

الفصل الخامس والأربعون

انتابت إلينور بعد انصرافه بفترة من الوقت ، بل بعد أن تلاشى صوت عربته طائفة شتى من الأفكار شغلت بها حتى عن التفكير فى أختها ، وكانت هذه الأفكار تختلف فى ذاتها اختلافا كبيراً ولكنها تمخضت عن نتيجة واحدة هى الشعور بالأسى .

فقد أثار ولبى الذى كانت منذ ساعة واحدة تمقته باعتباره أتفه إنسان على وجه الأرض ، أثار فى نفسها ـ على الرغم من عيوبه وأخطائه ـ شيئا من العطف والأسى على آلامه التى جلبتها هذه العيوب عليه ، جعلها تشعر نحوه بعد أن افترق الآن عن أسرتها إلى الأبد بشىء من الحنان والأسف يتناسبان ـ كما اعترفت هى فى قرارة نفسها ـ مع رغبته لامع مايستحقه . وكانت تشعر أن الأثر الحسن الذى تركه ولبى فى نفسها يرجع إلى أمور ينبغى ألا يقام لها وزن فى نظر العقل ، وهى شخصيته الجذابة بدرجة غير عادية، ولهجته الصريحة المحبوبة المرحة مما لايعد مزية فى الرجال ، ثم المحبة الشديدة التى لايزال يكنها لمريان ، مما لايجوز له أن يتمادى فيه . ولكنها شعرت أنه سيمر وقت طويل ، طويل جدا ،قبل أن يضعف هذا الأثر فى نفسها .

ولما عادت أخيراً إلى مريان المستغرقة فى نومها وجدتها قد استيقظت لتوها وأن النوم الطويل اللذيذ قد أنعشها كما كانت تأمل ،وكان قلب إلينور منعما بشتى الأفكار والانفعالات ، فالماضى والحاضر والمستقبل وزيارة ولبى ، وسلامة مريان ووصول والدتها المنتظر ، كل ذلك أثار فى نفسها موجة من الاضطراب والقلق

حجبت مظاهر التعب ، وكل ما كانت تخشاه أن تتبين أختها ماتجيش به نفسها على أن ذلك الخوف لم يخالجها إلا قليلا ،لأنه بعد نصف ساعة من انصراف ولي سمعت صوت عربة أخرى ، فنزلت وأسرعت إلى القاعة فى الحال لتريح أمها من الشعور بالقلق الرهيب الذى لا مبرر له لحظة واحدة ، ووصلت إلى الباب الخارجى فى الوقت المناسب لتستقبل أمها وتسندها وهى تدخل الدار .

ولما اقتربت مسز داشوود من المنزل استحوذ عليها الرعب . حتى لقد غلب عليها الظن أن مريان قد انتهت ، فاحتبس صوتها دون السؤال عنها بل دون أن تحيى إلينور ،ولكن إلينور لم تنتظر السؤال ولا التحية بل زفت إلى أمها البشرى فى الحال فتلقتها أمها بحماستها المعتادة ، واستحوذ عليها السرور بقدر ما استحوذ عليها الخوف من قبل ، وسارت إلى حجرة الاستقبال تستند إلى ذراع بنتها وصديقها . وهناك ذرفت دموع الفرح ولكنها ظلت عاجزة عن الكلام وأوسعت إلينور لثماً وتقبيلا ، وكانت تتحول عنها بين الفينة والفينة لتشد على يد كولونيل براندون ، وتنظر إليه نظرة تعبر عن الشكر وعرفان الجميل والاعتقاد بأنه يشاركها السرور الذى غمرها فى تلك اللحظة . على أنه كان يشاركها هذا السرور فى صمت أشد من صمتها هى .

وعندما تكشفت عن مسز داشوود روعة الموقف كان أول مارغبت فيه هو رؤية مريان ، وما هى إلا دقيقتان حتى حضرت بنتها المحبوبة التى زادت محبتها فى قلب أمها بسبب غيابها وحزنها ومرضها، وكان لا يحد من سرور إلينور — عندما رأت فرحة كل منهما باللقاء — إلا خوفها من أن تحول هذه الفرحة دون أن تنعم مريان بالمزيد من المنام. ولكن مسز داشوود كانت تبدى الهدوء ، بل الحكمة حينما تكون

صحة إحدى بناتها فى خطر . وكانت مريان تشعر بالارتياح لقرب أمها منها — وتشعر بأنها أضعف من أن تجاذبها أطراف الحديث ، فاستجابت إلى ما طلبته الممرضات من التزام الصمت والهدوء . وألحت مسز داشوود فى أن تسهر عليها طول الليل ، وذهبت إلينور إلى الفراش استجابة لرجاء أمها ، ولكن انفعالاتها النفسية حالت دون الراحة التى استوجبتها الليلة التى أرقها فيها السهر ، والساعات العديدة التى انتابها فيها أشد القلق ، فكانت ذكرى ولبى لا تبرح فؤادها ، ولبى المسكين كما شاءت أن تسميه الآن . لقد كانت لا تتمنى شيئاً فى العالم إلا أن تسمع دفاعه عن نفسه ،والآن أخذت تلوم نفسها تارة ، وتبرئها تارة أخرى لأنها قست فى الحكم عليه من قبل ، ولكن وعدها بأن تخبر أختها بذلك كان يؤرقها دائما ، وتخشى الوفاء به ، وتخشى أثره فى مريان ، وتشك فى شعورها بالسعادة مع زوج آخر إذا سمعت هذا التفسير ، وتمنت برهة من الزمن لو كان ولبى أرمل ثم تذكرت كولونيل براندون ، فأنحت على نفسها باللائمة وشعرت أنه أولى من غريمه بأختها لما قاسى من الآلام وما أظهره من الوفاء أكثر منه ، وتمنت أى شىء آخر غير وفاة مسز ولبى .

ومما خفف من صدمة الرسالة التى حملها كولونيل براندون إلى بارتون أن مسز داشوود كانت تشعر بالخوف قبل وصوله ، فقد استبد بها القلق على مريان إلى حد صممت معه على السفر إلى كليفلاند فى ذلك اليوم نفسه دون انتظار أى نبأ آخر ، واتخذت الأهبة للسفر قبل وصوله ،حتى لقد كانت تنتظر وصول آل كارى بين لحظة وأخرى ليأخذوا مرجريت معهم ، إذ لم ترغب أن تأخذها معها خوفا من العدوى .

وظلت صحة مريان تتحسن كل يوم ، وكانت البهجة التى تجلت فى نظرات مسز داشوود وحالتها النفسية ، تدل على أنها من أسعد الناس فى العالم كما صرحت مراراً . ولم يكن فى وسع إلينور أن تسمع هذا التصريح وترى دلائله دون أن تتساءل أحيانا : هل خطر إدوارد على بال أمها ؟ ولكن مسز داشوود كانت مطمئنة بفضل اعتدال اللهجة التى روت بها إلينور ما أصيبت به من خيبة الأمل، بحيث لم تفكر إلا فيما يزيد من نشوة الفرح التى غمرتها فى ذلك الوقت ، فقد عادت إليها الآن مريان سالمة من الخطر الذى تردت فيه بسبب ما ارتكبته من خطأ — كما أخذت تشعر الآن — بتشجيع مريان على حبها المشئوم لولبى . وكان هناك سبب آخر لم يخطر على بال إلينور — يدعوها إلى السرور بشفاء مريان ولكنها أفضت به إليها على النحو الآتى بمجرد أن سنحت الفرصة لتتحدث معها على انفراد :

« أخيراً أصبحنا على انفراد . لا تعلمين حتى الآن ياعزيزتى إلينور ما أشعر به من السعادة . كولونيل براندون يحب مريان . لقد أخبرنى بذلك هو نفسه . »

فأصغت إليها بكل جوارحها ، وانتابها الشعور بالسرور تارة ، والألم تارة أخرى ، والدهشة تارة ، وعدم الدهشة تارة أخرى .

« أنت لا تشبهيننى أبدا ياعزيزتى إلينور ، و إلا فإنى أعجب لهدوئك الآن. لو أنى جلست لأتمنى أى خير يمكن أن ينال أسرتى ، لكان أحب ما أتمناه أن يتزوج كولونيل براندون إحدى بناتى ، وأعتقد أن مريان ستكون أسعد زوجة معه . »

ولم تكن إلينور تود كثيراً أن تسأل أمها عن الأسباب التى تحملها على هذا الاعتقاد ، لاقتناعها بأنها لن تستطيع أن تبدى سببا قائما على أى اعتبار منزه عن الغرض من حيث سنهما أو أخلاقهما أو عاطفتهما ، وأنها تهيم فى بيداء الخيال فى أى موضوع يهمها . ولذلك آثرت ألا تسألها ، وأن تضرب عن الموضوع صفحا بابتسامة .

« لقد فتح قلبه كله لى بالأمس أثناء السفر . وجاء ذلك فجأة و بغير قصد . فأنا — كما تعلمين جيدا — لم أفكر إلا فى الحديث عن ابنتى — وهو لم يخف ألمه ، فرأيته يعادل ألمى . وربما رأى هو أن الصداقة المحضة — كما هى عادة الناس الآن — لا تكفى مبرراً لمثل هذا العطف الصادق — أو لم ير ذلك على الإطلاق فيما أظن — واستسلم لعاطفته التى لا تقاوم ، فصارحنى بحبه الشديد لمريان حبا رقيقاً دائما . لقد أحبها ياعزيزتى إلينور منذ أول لحظة رآها فيها . »

ولكن إلينور لاحظت هنـــا — لا لغة كولونيل براندون ولا أقواله — وإنما المحسنات الطبيعية التى يزين بها خيال أمها الخصيب ، كما يشاء ، كل شىء يسرها .

« حبه لها لايقاس بما شعر به ولبى ، أو ادعى أنه شعر به ، حب أشد حرارة بقدر ما هو أشد إخلاصا وثباتا — سميه ماشئت — حب ظل قائما طوال الفترة التى علم فيها بحب مريان المشئوم لذلك الفتى الحقير ! — حب لا يعرف الأنانية — ولا يشجع أى أمل ! — كان يسرها أن يراها سعيدة مع أى شخص سواه — ياله

من رجل نبيل ! ــ ما أعظم صراحته ، وما أعظم إخلاصه ! ــ لا يمكن أن ينخدع الإنسان فيه . »

قالت إلينور : « إن أخلاق كولونيل براندون كرجل ممتاز أمر ثابت لا شك فيه . »

فقالت أمها بلهجة الجد : « أنا أعرف ذلك وإلا فانى ، بعد هذا النذير ، آخر من يميل إلى تشجيع مثل هذا الحب بله الفرح به . ولكن مجيئه إلى بمثل هذا النشاط والمبادرة إلى إظهار الصداقة يكفى للدلالة على أنه رجل من أفاضل القوم. »

قالت إلينور : « ولكن أخلاقه لا ترتكز على عمل واحد من أعمال المعروف ما كان ليحدوه إليه إلا حبه لمريان ، ولو كان مجرداً من الوازع الإنسانى . وقد عرفه آل ميدلتون معرفة وثيقة منذ زمن طويل ، وكلاهما يحبه ويحترمه على السواء وأنا وإن عرفته أخيراً أعرف عنه الشيء الكثير ، ولذلك فأنا أقدره وأجله كثيراً بحيث إذا أمكن أن تكون مريان سعيدة معه ، لم أتردد فى أن أشارككِ الاعتقاد بأن هذا الزواج سيكون أكبر نعمة لنا فى الدنيا . ماذا أجبته ؟ هل شجعت فيه الأمل ؟ . »

« عجبا يا حبيبتى ! لم يكن فى وسعى أن أحدثه ، أو أحدث نفسى عن الأمل فقد كان يحتمل فى تلك اللحظة أن تكون مريان فى النزع الأخير . ولكنه لم يطلب أملا ولا تشجيعا . وكل ما فى الأمر أنه أفضى بسره من تلقاء نفسه ، وتحدث حديثا لم يستطع أن يكتم فيه عواطفه إلى صديقة تخفف من آلامه ــ وليس رجاء لأم . ومع ذلك قلت له بعد فترة من الوقت ــ لأن القلق كان متسلطة

على ذهنى فى بادىء الأمر ـ أنها إذا عاشت ـ وأنا واثقة من ذلك ـ فإن أكبر مايسعدنى هو تشجيع زواجهما . ومنذ أن وصلنا ، ومنذ أن شعرنا ببرد الطمأنينة كررت لك ذلك بعبارة أوفى وشجعته بقدر إمكانى ، وقلت له : إن الزمن ـ والزمن القصير جدا ـ سيصنع كل شىء . إن قلب مريان لا يصح أن يظل معلقا برجل مثل ولبى ـ وإن فضائله كفيلة بأن تمكنه من الظفر بها قريبا . »

« ولكن أرى من حالة الكولونيل النفسية أنك لم تجعليه متفائلا مثلك » .

« كلا ، إنه يرى أن حب مريان لولبى تمكن من قلبها بحيث يتعذر زواله قبل زمن طويل . وحتى بفرض أن قلبها خلا من حبه مرة أخرى فهو يشعر بالخجل والحياء بحيث لا يعتقد أنها تستطيع أن تحبه مع وجود هذا التباين فى السن والطباع بينهما . ولكن أرى أنه مخطىء فى ذلك فزيادة سنه على سنها يعد ميزة ، لأن ذلك من شأنه أن يرسى أخلاقه ومبادئه على دعائم ثابتة ، وطباعه كما أعتقد هى عين الطباع التى تسعد أختك . وشخصيته وأخلاقه أيضا كلها مزايا تعزز مركزه . إن حبى لا يعميني فهو ليس وسيم الطلعة كولبى . ولكن فى قسمات وجهه مايسر العين أكثر لقد كنت أرى دائما — إذا تذكرت ـ فى نظرات ولبى مالا يسرنى أحيانا »

ولكن إلينور لم تتذكر ذلك بيد أن أمها استطردت دون أن تنتظر موافقتها :

« وأخلاقه ـ أخلاق الكولونيل لا تسرنى أكثر مما تسرنى أخلاق ولبى فحسب ، ولكن أعرف جيدا أنها من الطراز الذى يستهوى أختك مريان كثيراً . فرقة أخلاقه ، وصدق مجاملته لغيره وبساطته ومروءته أكثر اتفاقا مع طباعها الحقيقية من مرح ولبى ، وهو المرح الذى يصطنعه غالبا . وأنا أؤكد أنه لو ثبت أن ولبى رجل محبوب حقيقة ـ كما ثبت عكس ذلك تماما ـ لما شعرت مريان بالسعادة معه قط كما ستشعر مع كولونيل براندون . »

وسكتت — ولم توافقها بنتها تماما — ولكنها لم تسمع عدم موافقتها ، ولذلك لم تظهر استياءها .

وأضافت مسز داشوود : « وفى ديلافورد ؛ ستكون على مسافة قريبة منى حتى ولو بقيت فى بارتون . وأكبر الظن — لأنى سمعت أنها قرية كبيرة — لن نعدم أن نجد منزلاً صغيراً أو منزلا ريفيا بالقرب منها يصلح لنا كمنزلنا الحالى . »

مسكينة إلينور ! هاهو ذا مشروع جديد لنقلها إلى ديلافورد ! — ولكنها كانت صعبة المراس .

« ثروته أيضا ؟ لأنك تعلمين أن كل إنسان يهتم بذلك فى زمننا ، وأعتقد أنها ثروة طيبة وإن كنت لا أعرف قدرها ، ولا أرغب فى معرفته » .

وهنا دخل عليهما شخص ثالث ، فقطع عليهما الحديث . وانسحبت إلينور تقلب النظر فى الأمر على انفراد ، وتتمنى التوفيق لصاحبها ، وترثى لحال ولبى فى الوقت نفسه .

الفصل السادس والأربعون

على الرغم من أن مرض مريان من شأنه أن يضعف المريض فإنه لم يدم طويلا بحيث يجعل الشفاء بطيئاً . وقد اطرد هذا الشفاء بخطاً حثيثة بفضل شبابها وقوتها الطبيعية ، ووجود أمها بجانبها ، حتى لقد استطاعت فى غضون أربعة أيام من وصول هذه الأخيرة أن تنتقل إلى غرفة الزينة الخاصة بمسز بالمر . ولما انتقلت إليها — بناء على طلبها الخاص — تاقت إلى لقاء كولونيل براندون لتعبر له عن شكرها لإحضار أمها ، فدعى إلى زيارتها .

وكان التأثر الذى بدا عليه عندما دخل الحجرة ، وشاهد نظراتها المتغيرة ، وصافح يدها الشاحبة التى مدتها إليه من فورها ، قويا إلى حد ظنت معه إلينور أنه صادر عن فرط محبته لمريان ، أو شدة الخجل من معرفة غيره لذلك الحب . وسرعان ما تبينت فى عينه الحزينة ، ووجهه المتغير — وهو ينظر إلى أختها احتمال تذكره لما مر به من الأحداث الأليمة حين رأى الشبه الذى سبق أن صرح به واضحاً بين مريان وليزا — ذلك الشبه الذى ازداد الآن قوة عندما رأى عينها الغائرة ، وبشرتها الشاحبة ورقدتها الدالة على الضعف وشكرها الحار على المنة التى أسداها إليها .

ولم يكن ما لاحظته مسز داشوود أقل مما لاحظته بنتها ولكن أثره فى نفسها كان يختلف عنه فى إلينور اختلافا كبيراً ، ولذلك كانت النتيجة مختلفة

اختلافاً كبيراً كذلك ، فلم تر فى سلوك الكولونيل إلا ما ينشأ عن أبسط الإحساسات وأوضحها ، ولكنها رأت فى أفعال مريان وأقوالها معنى أكثر من مجرد الشكر .

وبعد يوم أو يومين أخذت مريان تزداد قوة بصورة واضحة كل اثنتى عشرة ساعة ، وأخذت مسز داشوود ، مدفوعة برغبتها الخاصة ، ورغبة بناتها وتتحدث عن العودة إلى بارتون . وكانت خطة صديقيها تتوقف على خطتها هى فسز جننجز لم تستطع مغادرة كليفلاند أثناء إقامة آل دشوود فيها ، كما أن كولونيل براندون استجاب لرجائهن جميعاً فى أن يعتبر إقامته فى كفيلاند أمراً محتوما إن لم يكن ضروريا . وقبلت مسز داشوود بناء على طلبه وطلب مسز جننجز أن تستقل عربته فى العودة حرصا على راحة بنتها العليلة ، ووعد الكولونيل بكل سرور أن يفتدى العربة بزيارة لهن فى منزلهن الريفى فى غضون بضعة أسابيع ، وذلك بناء على دعوة كل من مسز داشوود ، ومسز جننجز التى دفعت طيبة قلبها مسز داشوود لأن تبدى لغيرها من الود وكرم الضيافة ، ماتبديه هى نفسها .

وجاء يوم الفراق والرحيل ، فودعت مسز جننجز وداعا حاراً طويلا مقرونا بالشكر الصادق والاحترام البالغ ، والتمنيات الطيبة جزاء وفاقا لما أبدته نحوها من ضروب الرعاية الماضية ، كما ودعت كولونيل براندون وداعا مقرونا بصادق الود ، ثم سارت إلى العربة يساعدها براندون الذى حرص على أن تشغل هى نصفها على الأقل وأعقبتها إلينور ومسز داشوود . وبقى الآخران وحدهما ليتحدثا عن السفر ، ويشعرا بالكآبة والملل ، إلى أن دعيت مسز جننجز إلى عربتها لتتسلى

بحديث وصيفتها عن فراق صديقتيها الصغيرتين . ولم يلبث كولونيل براندون أن سار وحده إلى ديلافورد .

وسار آل داشوود فى طريقهن يومين تحملت فيهما مريان وعناء السفر دون عناء كبير . وقد أحاطتها رفيقتاها اليقظتان بأكبر مظاهر الحب والرعاية حتى توفر لها أسباب الراحة ، وتجلى أثر ذلك فى شعورها بالراحة الجسمية والهدوء النفسى ، وسرت إلينور بصفة خاصة لملاحظة هذا الأمر الأخير لأنها وقد رأت أختها تعانى لوعة الألم أسبوعا بعد أسبوع ، وتكابد من الكرب والغم ما لا تجد من نفسها الجرأة على الإفضاء به ، ولا الصبر على كتمانه ، أخذت تنظر الآن بعين السرور — الذى لا يشاركها فيه أحد سواه — إلى ما بدا عليها من مظاهر الهدوء النفسى ، والذى وإن نشأ فيما تعتقد عن التفكير العميق ، فإنه لا بد أن يؤدى فى النهاية إلى الرضا السرور .

وعندما اقتربن من بارتون بالفعل ، وتراءت لهن مناظر يثير كل حقل وكل شجرة فيها ذكرى أليمة لاذت بالصمت والتفكير ، ثم أشاحت عنهما بوجهها ، وجلست ترنو إلى الحقول من خلال النافذة ولكن إلينور لم تعجب لذلك ، ولم تلمها عليه . وعندما رأتها تبكى وهى تساعدها فى النزول من العربة ، لم تر فى ذلك إلا انفعالا طبيعيا جدا لا يثير إلا العطف والرثاء . وإذا نظرنا إلى أنه انفعال دعت إليه الظروف كان جديراً بالثناء . وكانت تصرفاتها فيما تلا ذلك تشعر بأنها عادت إلى صوابها ، لأنه ما إن دخلن حجرة الجلوس المعتادة حتى أخذت مريان تجول بعينيها حولها فى نظرات ثابتة ، وكأنها مصممة على أن تعود نفسها فى الحال رؤية كل شىء يمكن أن يذكرها بولبى ، ولم تتكلم إلا قليلا . ولكن كل جملة كانت

تنم على البهجة والسرور . وكانت ترسل أحيانا بعض الزفرات ولكنها قلما كانت ترسل زفرة دون أن تكفر عنها بابتسامة . وبعد أن تناولت طعام الغذاء أرادت أن تعزف على البيان ، فأقبلت عليه ، ولكن الأغنية التى وقعت عليها عينها كانت مسرحية غنائية أحضرها ولي، وتشتمل على بعض ثنائياتهما المحبوبة ، وتحمل على غلافها الخارجى اسمها مكتوبا بخط يده . ولكنها لم تعجبها فهزت رأسها وألقتها جانباً . وبعد أن مرت بأصابعها على مفاتيح البيان مدة دقيقة شكت من أصابعها ، وأغلقت البيان مرة أخرى ولكنها أكدت وهى تغلقه أنها ستعزف عليه كثيراً فى المستقبل .

وفى صباح الغد لم يحدث أى نقص فى هذه الأعراض المشجعة بل على العكس شعرت بالقوة الجسمية والنفسية لما تمتعت به من الراحة ، فظهر السرور فى نظراتها وكلامها، وأخذت تتوقع بسرور عودة مرجريت ثم تتحدث عن اجتماع شمل الأسرة مرة أخرى والقيام بنزهاتهن وأعمالهن المشتركة فى جو من البهجة والسرور ، وتعد ذلك السعادة الوحيدة التى يجدر بالمرء أن يتمناها .

قالت : « عندما يتحسن الجو ، وأسترد قوتى ، سنقوم كل يوم بنزهات طويلة معا سنمشى إلى المزرعة الموجودة فى نهاية المروج ، ونرى حال الأطفال فيها . وسنسير إلى مزارع سيرجون الجديدة فى بارتون — كروس ، وأرض آبى ، وسنزور مراراً آثار بريورى القديمة ونحاول أن نصل إلى الأساس الذى قيل لنا إنها وصلت إليه فيما مضى . وأنا أعلم أننا سنشعر بالسعادة وأننا سنقضى الصيف فى سعادة . وأريد ألا أتأخر فى الاستيقاظ عن الساعة السادسة أبدا ، وسأقسم كل لحظة من وقت الاستيقاظ إلى وقت الغداء بين الموسيقى والقراءة . لقد رسمت

خطتى وصممت ألا أشرع فى أى منهج من مناهج الدراسة الجادة . لقد قرأت جميع الكتب الموجودة فى مكتبتنا بحيث لن ألجأ إليها إلا لمجرد الترويح عن النفس. وهناك كثير من الكتب الجديرة بالقراءة فى البارك ، وهناك كتب أخرى أحدث إنتاجا أستطيع أن أستعيرها من كولونيل براندون. وإذا قرأت ست ساعات يومياً فسأحصل فى خلال سنة قدراً كبيراً من المعلومات أشعر الآن أننى بحاجة إليها .

أكبرت إلينور فيها هذه الفكرة السامية، ولكنها ابتسمت حين رأت الخيال القوى الذى أفضى بها إلى الكسل والتراخى وجعلها تسترسل فى الحزن والتبرم ، يعود فينشط الآن للمبالغة فى مشروع يهدف إلى تثقيف العقل وضبط النفس . على أن ابتسامتها سرعان ما تحولت إلى تنهد حينما تذكرت أنها لم تف بوعدها لولبى حتى الآن،وخشيت أن يؤدى ما تفضى به إلى بلبلة ذهن مريان ،ويقضى ـ ولو مؤقتا على الأقل ـ على ذلك الأمل الجميل الذى تطمح إليه ، وهو أن تشغل وقتها بعمل نافع تشعر فيه براحة البال .ولذلك قررت ـ رغبة منها فى إرجاء ساعة السوء ـ أن تنتظر حتى تتحسن صحة أختها.ولكنها لم تعقد هذا العزم إلا لتنقضه .

قضت مريان يومين أو ثلاثة بالمنزل قبل أن يتحسن الطقس بدرجة تسمح لمريضة مثلها بالخروج. وأخيراً جاء صباح لطيف يغرى بتحقيق رغبتها ، ويبعث الطمأنينة فى نفس أمها ، فرخصت لمريان بالخروج متكئة على ذراع إلينور والمشى إلى الحد الذى لا تشعر معه بالتعب فى الدرب الموجود أمام المنزل .

وخرجت الأختان تمشيان بالسرعة التى يتطلبها ضعف مريان فى رياضة لم تمارسها حتى أصيبت بمرضها الأخير . ولم تكادا تتجاوزان المنزل بالقدر الذى

يسمح برؤية التل رؤية كاملة – التل المشهور الموجود خلف المنزل – حتى توقفت مريان عن السير ، ووجهت نظرها إليه وقالت فى هدوء :

« هناك ، هناك تماما » مشيرة بإحدى يديها « على تلك الربوة العالية ، هناك سقطت ، وهناك رأيت ولى لأول مرة . »

وخشع صوتها مع هذه الكلمة ولكنها أفاقت فى الحال وأردفت :

إنى مسرورة لأن أجد أنه فى وسعى أن أنظر إلى هذه البقعة دون أن أتألم كثيرا هل ستتحدث فى هذا الموضوع يوما ما يا إلينور ؟ قالت ذلك بلهجة التردد : « أو سيكون ذلك ضربا من الخطأ ؟ أرجو أن أستطيع التحدث عنه الآن ، كما ينبغى أن أفعل . »

وطلبت إليها إلينور فى حنان ورقة أن تكون صريحة .

قالت مريان : « أما الأسف ، فأنا غير آسفة عليه . لا أريد أن أتحدث إليك عما شعرت به نحوه ، وإنما عما أشعر به الآن – الآن ، إذا أمكن أن يرتاح بالى فى نقطة واحدة – إذا جاز لى أن أعتقد أنه لم يكن دائما يمثل دوراً ، ولم يخدعنى دائمًا – ولكن أهم من ذلك إذا استطعت أن أتأكد أنه لم يكن قط خبيثاً جدا كما صورت لى الهواجس أحيانا ، منذ أن عرفت قصة تلك الفتاة المنكودة الطالع » .

ثم سكتت ، وتذكرت إلينور كلماتها بسرور عندما أجابت :

« تعتقدين أنك ستشعرين براحة البـــال إذا استطعت أن تتأكدى من ذلك . »

« نعم ، إن راحة بالى فى ذلك ـــ لا لأنه من المفزع أن أتهم شخصاً كان له فى نفسى ماكان من المنزلة بمثل هذه النوايا ، ولـكن ماذا يقول الناس عنى أنا إذا اتهمته بذلك ؟ لاشىء فى مثل موقفى إلا ما يقال عن امرأة أحبت ، وتنكبت فى حبها جادة الحذر بشكل فاضح . »

قالت أختها : « وكيف إذن تعللين سلوكه ؟ »

« أميل إلى الظن ـــ أوه ! كم يسعدنى أن أعلن أنه ليس إلا شخصا هوائيـا متقلبا ، متقلبا جدا ، جدا .

فلم تزد إلينور شيئاً ولـكنها تساءلت فى سرها : أيحسن أن تبدأ قصتها فوراً أم ترجئها حتى تقوى صحة مريان ؟ ثم سارتا بضع دقائق فى صمت .

وقالت مريان أخيراً وهى تتأوه : « لاأتمنى له من الخير كثيراً جـــدا عندما أتمنى أن يعانى من الأفـكار المؤلمة مثل ما أعانى . إنه سيقاسى منهـا ما يـكفيه . »

« هل تقارنين سلوكك بسلوكه ؟ »

« إننى أقارنه بما كان ينبغى أن يكون عليه . أقارنه بسلوكك أنت . »

« لقد كان ثمت تشابه يسير بين موقفينا . »

يوجد تشابه بينهما أكثر مما يوجد بين سلوكينا . لا يحملنك الكرم ياأعز الناس عندى أن تدافعى عما ترين أنه جدير بالاستنكار والاستهجان. لقد ساعدنى مرضى على التفكير — أتاح لى من الفراغ والهدوء مايسمح لى بالتفكير الجدى. استطعت تماما أن أفكر قبل أن أتماثل للشفاء بوقت طويل. فكرت فى الماضى فلم أر فى مسلكى منذ أن عرفناه فى الخريف الماضى سوى سلسلة من الحماقات ارتكبتها فى حق نفسى ، والقسوة فى حق غيرى . رأيت أن عواطفى مهدت الطريق لآلامى ، وأن عدم صبرى عليها كاد يقودنى إلى القبر . إننى أعرف جيدا أنى جلبت على نفسى المرض بإهمالى صحتى إهمالا ، شعرت حتى فى ذلك الوقت بأنه ضرب من الإثم . لو أنى مت ، لكان ذلك انتحارا . لم أعرف ماتعرضت له من خطر حتى زال الخطر ولكنى أعجب لشفائى معا لمشاعر التى أثارتها أفكارى — أعجب لأن حرصى على الحياة — على أن يكون لدى فسحة من الأجل حتى أكفر عن سيئاتى فى جنب الله وفى حقك ، لم يقتلنى فى الحال . لو أنى مت ، — كم كان موتى يورثك من الشقاء ، أنت ياممرضتى ، ياصديقتى ، يا أختى ! أنت ، يامن قاسيت أنانيتى ونكدى فى الأيام الأخيرة يامن ذقت ما يفيض به قلبى من التذمر والتأفف . كيف كنت أعيش فى ذاكرتك ! وأمى أيضا ! كيف كنت تستطيعين مواساتها ! لا أستطيع أن أعبر عن شدة مقتى

لنفسى ! كلما نظرت إلى الماضى رأيت واجبا أهملته ، وعيبا تماديت فيه . و يبدو لى أنى أسأت إلى كل إنسان . فالعطف ، العطف الدائم الذى غمرتنى به مسز جننجز جزيتها عليه بالاحتقار ونكران الجميل . وآل ميدلتون وآل بالمروستيل، بل كل من تعرفت إليه ، كل هؤلاء عاملتهم بالقحة وقلة الإنصاف ، عاملتهم بقلب قاس، يتنكر لفضلهم ، وطبع شرس يثور على عطفهم — وجون ، وفانى على قلة ما يستحقان — عاملتهما دون ما يستحقان — أما أنت فقد أسأت إليك أكثر مما أسأت للجميع بل أكثر من أمى . وأنا ولا أحد إلا أنا يعرف قلبك وما ينطوى عليه من الأحزان . ومع ذلك فماذا كان أثر ذلك فى ؟ لم يثر فى نفسى شيئا من العطف يمكن أن يعود بالفائدة عليك أو على نفسى . كان لى فيك أسوة حسنة ماثلة أمامى ، ولكن ماذا أخذت منها ؟ هل زاد اهتمامى بك و براحتك ؟ هل اقتديت بك فى صبرك واحتمالك أو خففت من أعبائك بالمشاركة فى واجبات المجاملة أو الشكر التى نهضت بها وحدك حتى الآن ؟ كلا ! لقد أعرضت عن القيام بأى عمل يقتضيه الواجب أو الصداقة سواء أكنت أعلم أنك حزينة أم كنت أعتقد أنك مسرورة . ولم أر أن أحداً يتجرع غصص الأحزان إلا إياى ، غير آسفة إلا على ذلك القلب الذى هجرنى وأساء إلى ، وتركتك — أنت التى صرحت لك بأنى أحبك حبا لاحد له — تتجرعين مرارة الحزن من أجلى .

وهنا انقطع سيل اللوم الذى أنحت به على نفسها ، فبادرت إلينور إلى تهدئتها فأثنت عليها من فورها — وإن منعها الصدق من تملقها — وأيدتها فيما قالته ، على النحو الجديد بصراحتها وتوبتها ، فشدت مريان على يدها وقالت :

« أنت طيبة جدا ، وسيبرهن المستقبل على صدق قولى . لقد وضعت خطتى

وإذا استطعت أن أتمسك بها فسأسيطر على عواطفى ، وأهذب طباعى ، فلاتكون مصدراً لإزعاج غيرى ولا لتعذيب نفسى . وسأعيش من الآن لأسرتى فحسب . ستكونين أنت وأمى ومرجريت من الآن كل شىء لى فى هذا العالم . وسأقسم حبى كله بينكن . ولن يغرينى شىء مرة أخرى بأن أتحول عنكن وعن بيتى . وإذا اختلطت بأحد غيركن فلكى أبين للناس أن نفسى تواضعت ، وأن قلبى قدصلح ، وأنه أصبح فى وسعى أن أراعى أصول المجاملة — وهى واجبات الحياة الصغيرة ، وأعامل الناس برفق وحلم . أما ولبى فإنى إذا قلت إننى سأنساه قريبا ، أو سأنساه إلى الأبد كان ذلك ضربا من اللغو . ومهما تغيرت ظروفى وآرائى فلن أنسى ذكراه ولكن التمسك بأهداب الدين والعقل والعمل الدائب كفيل بنسيان هذه الذكرى .

ثم سكتت وأضافت بصوت خافت : « لو أنى عرفت مايكنه قلبه لارتاح بالى » .

وسمعت إلينور ذلك ، وكانت إلينور تفكر حتى ذلك الوقت فيما إذا كان يحسن أن تفضى بقصتها لأختها فى الحال دون أن تشعر على الإطلاق أنها اقتربت من البت فى الأمر أكثر مما كانت فى البداية ، ولكنها رأت أنه إذا كان التفكير لايؤدى إلى البت فى الأمر ، فإن العزيمة كفيلة بذلك ، وسرعان ماوجدت نفسها تدخل فى الموضوع .

فأخذت تقص الخبر على أختها — كما كانت ترجو — بمهارة وحذق ، ومهدت لحديثها بأن أوصت أختها المتلهفة بالحذر ، وسردت بإيجاز وأمانة النقاط الرئيسية التى بنى عليها ولبى دفاعه الأخير ، وقدرت توبته ، ولطفت من الأقوال

التى أكد فيها محبته لمريان فى الوقت الحاضر ، ولم تنبس مريان ببنت شفة ، بل ارتجفت وثبتت عينها على الأرض ، واستحال لون شفتيها أكثر شحوباً مما خلفه المرض . وانبعث من قلبها ألف سؤال ولكنها لم تجرؤ أن تفصح عن سؤال واحد ، وكانت تستمع إلى كل كلمة بكل جوارحها ، وتشد دون أن تشعر — على يد أختها ، والدموع تغمر وجنتيها .

وخشيت إلينور أن يكون التعب قد حل بها ، فعادت بها إلى المنزل ، ولم تتحدث — إلى أن وصلتا إلى باب المنزل — إلا عن ولبى ومادار بينهما من حديث ـ وهى تحزر بسهولة مايعتمل فى نفس أختها من حب الاستطلاع ، وإن لم تسمح لنفسها بأى سؤال يدل على ذلك ـ وكانت تراعى الدقة فى سرد تفصيلات كلامه ونظراته ، حيث يؤمن جانب الدقة . وما إن دخلا المنزل حتى افترقت مريان من أختها ، وصعدت الدرج بعد أن قبلت أختها قبلة الشكر مع التفوه بهاتين الكلمتين خلال دموعها « أخبرى ماما » ولم تشأ إلينور أن تعكر على مريان صفو العزلة التى كان لها ما يبررها ، فدخلت حجرة الجلوس لتنفيذ وصية مريان عند افتراقهما ، وهى تقدر باهتمام ماستسفر عنه وتعتزم إثارة الموضوع من جديد إذا لم تثره مريان .

الفصل السابع والأربعون

لم تسمع مسز داشوود دفاع محبوبها السابق ، دون أن تبدى تأثرها ، ففرحت لبراءته من بعض مانسب إليه من الإثم ، وأبدت أسفها عليه ، وتمنت له السعادة . ولكن لم يكن ثمة من سبيل لأن تشعر نحوه بمثل ماكانت تشعر به فيما مضى . ولم يكن ثمة من سبيل لأن يعود إلى مريان متمتعا بالثقة الكاملة ـ طاهر الذيل نقيا من الدنس . وماكان لشيء أن يمحو من ذهنها ذكرى الآلام التى كابدتها من جرائه ، أو يزيل أثر مسلكه الأثيم نحو إليزا ، وما كان لشيء أن يعيد إليه مكانته السابقة فى نفسها ، ولا أن يضر بمصلحة كولونيل براندون .

ولو أن مسز داشوود سمعت كبنتها قصة ولبى منه هو نفسه ـ لو أنها شاهدت حزنه وألمه ـ وتأثرت بنظراته ولهجة حديثه ، لكان من المحتمل أن يزداد عطفها عليه ، ولكن إلينور لم تستطع ولم ترغب أن تثير فى غيرها بالسرد التفصيلى ، ما أثاره حديث ولبى فى نفسها من مشاعر فى بداية الأمر . ذلك أن تفكيرها زاد من رصانة رأيها وحملها على إحسان الظن بولبى . لذلك أرادت أن تقتصر على ذكر الحقائق المجردة ، وتكشف عن الوقائع التى ترجع فى الحقيقة إلى أخلاقه دون أى تزويق من العطف أو الحنان ، من شأنه أن يضلل الأذهان .

وعندما اجتمع شملهن جميعا فى المساء ، أخذت مريان تتحدث عنه من تلقاء نفسها مرة أخرى . وكانت أفكارها القلقة المضطربة التى استغرقت فيها بعض الوقت من قبل وهى جالسة ، وتورد وجنتيها وهى تتكلم ، وتهدج صوتها ـ

تدل بوضوح على أن هذا الحديث كلفها بعض الجهد .

قالت : « أحب أن أؤكد لكما أننى أنظر الآن إلى كل شىء ، على نحو ما ترغبان فيه » .

وهمت مسز داشوود أن تقاطعها فى الحال بحنان يهدئ الأعصاب ، لولا أن إلينور أشارت إليها فلزمت الصمت ، وكانت إلينور تريد بالفعل أن تسمع رأى أختها النزيه . واستطردت مريان تقول بتؤدة :

« سرنى كثيراً ما أخبرتنى به إلينور صباح اليوم . لقد سمعت الآن تماما ما أردت أن أسمعه . » ثم تلاشى صوتها بضع دقائق ، ولكنها أفاقت من غشيتها فأضافت بلهجة أهدأ من ذى قبل : « أنا أشعر الآن بالارتياح التام ، ولا أريد أى تغيير فى حياتى . ولم يكن من الممكن أن أشعر بأية ثقة فيه أو تقدير له . وما من شىء كان يمكن أن يزيل ذلك من نفسى . »

فصاحت أمها : « أعرف ذلك — أعرف ذلك · سعيدة مع رجل فاجر ! مع رجل أساء إلى أعز صديق وخير إنسان ؟ كلا ! — عزيزتى مريان لم تؤت قلبا يمكن أن يشعر بالسعادة مع مثل هذا الرجل ! فضميرها وضميرها الحساس كان سيشعر بكل ما كان ينبغى أن يشعر به زوجها » .

وتنهدت مريان ورددت : « لا أريد أى تغيير فى حياتى » .

وقالت إلينور : « إنك تنظرين إلى الأمر كما يجب أن ينظر إليه تماما أى إنسان طيب القلب سليم العقل . وربما رأيت كما أرى أنا ـ لا فى هذا الأمر فحسب

بل فى أمور أخرى كثيرة ـ من الأسباب مايحملك على الاعتقاد بأن زواجك كان سيورطك لامحالة فى متاعب وآلام لايخفف منها إلا قليل من الحب من جانبه ، وإن كان هذا القليل محل شك كبير . فمن المؤكد أنك لوكنت تزوجته لذقت مرارة الفقر على مر الأيام ، فمن المسلم به أنه رجل مسرف باعترافه هو نفسه ، وكل تصرفاته تنبىء بأنه لايفقه معنى لكلمة إنكار الذات . ومن المؤكد أن مطالبه ـ بالإضافة إلى قلة خبرتك ـ التى تستنزف دخلاً ضئيلاً ـ وضئيلاً جداً كانت ستجلب عليك ضروبا من الفاقة والعوز ، يضاعف من ألمها أنك لم تجربيها ولم تخطر ببالك من قبل، وأنا أعلم أن شعورك بالكرامة والأمانة كان سيدفعك حين تشعرين بسوء حالك إلى الاقتصاد بقدر مافى وسعك . وربما سمح هولك بذلك طالما كنت تقتصدين من متعك ، ولكن إذا جاوزت ذلك النطاق ـ ومهما راعيت من اقتصاد فهل يكفى ذلك لصد تيار الخراب الذى بدأ قبل زواجك ؟ وحاولت أن تقتصدى من متعه ولذاته هو ـ مهما يكن ذلك فى حدود الاعتدال ألا يخشى أن تحمليه على النفور منك ، والندم على الزواج الذى ألقى به فى هذه المآزق ، بدلاً من أن تحملى رجلاً أنانيا كهـــذا على الموافقة عـــلى هذا الاقتصاد ؟ »

فارتعشت شفتا مريان ورددت كلمة « أنانى » بلهجة معناها «هل تعتقدين حقا أنه رجل أنانى؟» فأجابت إلينور : « إن جميع تصرفاته من البداية إلى النهاية قامت على الأنانية . فالأنانية هى جملته يلهو بحبك ، وهى التى دفعته حينا أحب غيرك إلى تأجيل الاعتراف بهذا الحب ، ثم هى التى حملته أخيراً على الهروب من بارتون . لقد كان رائده فى كل ذلك هو متعته الخاصة .

« هذا صحيح . لم تكن سعادتى قط هى هدفه . »

واستطردت إلينور : « إنه يندم الآن على مافعل . ولماذا يندم عليه ؟ لأنه وجد أنه لم يحقق غرضه . لم يحقق له السعادة . فظروفه المالية غير مرتبكة الآن ولا يعانى شيئاً من ذلك ولكنه يرى أنه تزوج امرأة أقل منك أنسا ولطفا . ولكن هل يفهم من ذلك أنه لو كان تزوجك لكان سعيداً ؟ إن المتاعب كانت ستختلف، كان سيقاسى المتاعب المالية التى لايقاسيها الآن لأنها قد زالت . كان سيتزوج امرأة لايشكو من طباعها وأخلاقها ، ولكنه كان سيشكو دائما من الحاجة والفاقة . وربما لم يلبث أن يرى أن المزايا العديدة لامتلاك ضيعة خالية من الديون والحصول على دخل طيب ألزم بكثير ، حتى للسعادة المنزلية ، من امرأة لاتمتاز إلا بكرم الأخلاق . »

قالت مريان : « لاريب لدى فى ذلك . ولست أندم على شىء — على شىء إلا حماقتى . »

فقالت مسز داشوود : « بل قولى حماقة أمى ياابنتى . لاريب أنها مسئولة . »

ولم تشأ مريان أن تسمح لأمها بالاسترسال فى ذلك . وارتاحت إليغور لشعور كل منهما بخطئها ، فأرادت أن تتجنب أى حديث فى الماضى من شأنه أن يؤلم أختها ، فتابعت الكلام فى الموضوع الأول ، واستطردت من فورها :

« أعتقد أن هناك ملاحظة واحدة يمكن استخلاصها من القصة كلها — وهى أن مشاكل ولبى قد نشأت كلها من الجريمة الأولى التى ارتكبها فى حق

الفضيلة ، وهى مسلكه إزاء إليزا ـ وليامز . لقد كانت هذه الجريمة هى مصدر كل جريمة صغرى ومصدر متاعبه الحالية كلها . »

فتأثرت مريان لهذه الملاحظة كل التأثر وأبدت موافقتها عليها . وحملت هذه الملاحظة أمها على تعداد مزايا كولونيل براندون والأضرار التى لحقت به ، بلهجة حماسية يمليها الغرض والصداقة معا . ولكن بنتها لم يبد عليها أنها سمعت كثيراً مما قالته .

ورأت إلينور كما توقعت — أن مريان لم تزدد قوة فى اليومين التاليين أو الأيام الثلاثة التالية ، كما حدث من قبل . ولكنها اعتقدت أن الزمن كفيل بتحسين صحتها طالما ظلت قوية العزيمة ، وحاولت أن تبدو مستبشرة الوجه ناعمة البال . »

وعادت مرجريت فاجتمع شمل الأسرة مرة ثانية ، واستقر أفرادها فى المنزل الريفى فى هدوء . وإذا لم يواصلن دراساتهن المعتادة بنشاط كما فعلن عند قدومهن إلى بارتون أول مرة ، فقد اعتزمن مواصلتها بنشاط فى المستقبل .

وتاقت إلينور إلى معرفة بعض الأخبار عن إدوارد . ولم تكن قد سمعت عنه شيئاً ، منذ مغادرتها لندن ، أو عرفت شيئاً جديدا عن خططه ، أو خبراً مؤكدا عن مسكنه الحالى . وقد تبادلت بعض الخطابات مع أخيها على أثر مرض مريان ، ووردت الجملة الآتية ، فى أول خطاب أرسله جون : « لا نعرف شيئاً عن صاحبنا إدوارد المسكين ، ولا يمكن تحرى الأخبار فى هذا الموضوع المحظور ، ولكن المفهوم أنه لا يزال فى أكسفورد . » وهذا هو كل الخبر الذى عرفته عن إدوارد عن طريق المكاتبة ، لأنه لم يرد أى ذكر لاسمه فى الخطابات التالية . على أنه لم يقدر لها ان تجهل أخباره زمنا طويلاً .

فقد أرسلن الخادم صباح ذات يوم إلى أ كستر فى مهمة خاصة . و بينما كان يقوم بالخدمة أمام المائدة ، وأجاب على أسئلة سيدته بشأن مهمته ، أفضى بما يلى من تلقاء نفسه :

« أظن أنك تعرفين ياسيدتى أن مستر فيرارز قد تزوج . »

ففزعت مسز داشوود فزعا شديداً ، وصوبت نظرها إلى إلينور ، فرأتها شاحبة الوجه ، فارتمت فى مقعدها مغشيا عليها .

ونظرت مسز داشوود من فورها فى الاتجاه نفسه ، وهى تجيب عن سؤال الخادم ، فذعرت حين نظرت إلى وجه إلينور وعرفت كم يعتمل فى نفسها من لواعج الأسى . ولم تدر بعد لحظة ، وقد ساءها حال مريان — أى البنتين أولى برعايتها .

وفهم الخادم أن مس مريان أصيبت بمرض ، ففطن إلى استدعاء إحدى الخادمات ، فحملتها بمساعدة مسز داشوود إلى الحجرة الأخرى ، وأفاقت مريان من غشيتها حينئذ ، فتركتها أمها فى رعاية مرجريت والخادمة ، وعادت إلى إلينور التى لم تزل مشدوهة ، ولكنها استعادت رشدها وصوتها بحيث شرعت فى سؤال توماس عن مصدر الخبر ، ولكن مسز داشوود تولت عنها عبء الأسئلة كلها ، وبذلك استفادت إلينور معرفة الخبر ، دون أن تبذل مجهوداً فى السؤال عنه .

« من أخبرك ياتوماس أن مستر فيرارز قد تزوج؟ »

« رأيت مستر فيرارز بنفسى صباح اليوم فى أ كستر ، كما رأيت امرأته مس

سقيل . كانا واقفين فى عربة لدى باب « نزل لندن الجديد » عندما ذهبت إلى المنزل لأوصل رسالة من سالى المقيمة فى البارك إلى أخيها ، وهو من سعاة البريد واتفق أن رفعت بصرى عندما مررت بالعربة ، فوقع على مس سقيل الصغرى فرفعت قبعتى ، فعرفتنى ونادتنى وسألت عنك ياسيدتى وعن الآنسات الصغيرات ، ولاسيما مس مريان وأمرتنى أن أبلغك أجمل تحياتها وتحيات مستر فيرارز وأسفهما لأنه لم تتح لهما الفرصة لزيارتك ، إذ يزمعان السفر على عجل لقضاء بعض الوقت ولكنهما عندما يعودان فسيأتيان لزورك .

« ولكن هل أخبرتك ياتوماس أنها تزوجت ؟ »

« نعم ياسيدتى . لقد ابتسمت ، وقالت : إنها غيرت اسمها منذ أن قدمت إلى هذه الجهة . وكانت دائماً فتاة بشوشا صريحة مؤدبة . ولذلك تبسطت معها وتمنيت لها السرور . »

« هل كان مستر فيرارز فى العربة معها ؟ »

« نعم ياسيدتى رأيته فيها مستندا إليها بظهره ، ولكنه لم يرفع بصره . ولم يكن رجلاً يحسن الحديث قط .

واستطاعت إلينور أن تفسر بقلبها السبب فى أنه لم يجلس إلى الأمام . وربما ذهبت مسز داشوود إلى هذا التفسير نفسه . »

« ألم يكن فى العربة شخص آخر ؟ »

« كلا ياسيدتى ، لم يكن فيها سواهما . »

« هل تعرف من أين قدما ؟ »

« قدما من لندن مباشرة كما أخبرتنى مس لوسى — مسز فيرارز . »

«وهل هما مسافران جهة الغرب ؟»

« نعم ياسيدتى . ولكنهما لن يقيما هناك زمنا طويلاً ، بل سيعودان قريبا وحينئذ يأتيان هنا . »

ثم نظرت مسز داشوود إلى ابنتها ؛ ولكن إلينور كانت تعرف أنهما لن يأتيا ، ورأت أصبع لوسى فى الرسالة كلها ، وكانت واثقة أن إدوارد لن يقترب منهن قط . وأخبرت أمها فى صوت خافت أنه يحتمل أن يذهبا إلى مستر برات بالقرب من بليموث .

و بدا أن خبر توماس قد انتهى ، ولكن إلينور كانت ترغب فى المزيد كما يبدو .

« هل ودعتهما عند سفرهما قبل حضورك ؟ »

كلا ياسيدتى . كانت الجياد خارجة لتوها . ولكنى لم أمكث أكثر من ذلك لأنى خشيت أن أتأخر . »

«هل كانت مسز فيرارز تبدو فى صحة جيدة ؟»

« نعم ياسيدتى . لقد قالت لى: إن صحتها على مايرام . وفى نظرى أنها كانت دائماً ـ فتاة جميلة جدا ـ وبدا أنها فى غاية السرور » .

ولم تستطع مسز داشوود أن تفكر فى أى سؤال آخر . ثم لم تلبث أن أمرت توماس بالانصراف كما أمرت برفع المائدة بعد أن لم تصبح إليهما حاجة على السواء ، فقد أرسلت مريان تقول : إنها لن تتناول المزيد من الطعام ، وكذلك عرفت عنه مسز داشوود وإلينور ، ومن حق مرجريت أن تعد نفسها سعيدة الحظ لأنها لم تضطر قبل ذلك إلى العزوف عن طعام الغداء إذا لم تعان من القلق ماعانته أختاها أخيراً ، ولم يحدث لها مايحملها على العزوف عن الطعام أكثر من مرة كما حدث لأختها .

وجىء بالفاكهة والنبيذ وجلست مسز داشوود وإلينور على انفراد ، ولاذت كل منهما بالصمت والتفكير فترة طويلة وخشيت مسز داشوود أن تنبس بكلمة ، ولم تجسر أن تقدم أى عزاء لإلينور ، ثم تبينت حينئذ أنها أخطأت حين صدقت وصف إلينور لحالها ، وفهمت أن إلينور، روت لها قصتها مخففة فى ذلك الحين حتى لاتزداد حزنا على حزن ، إذ كانت مسز داشوود حزينة على مريان حينئذ ، وتبينت أنها انخدعت بما أبدته ابنتها من حرص على رعاية شعورها ، فاعتقد أن الحب الذى كانت تفهمه جيداً فيما مضى هو فى الواقع أقل مما كانت تعتقدأو أقل مما هو عليه كما ثبت الآن ،وخشيت أن تكون باعتقادها هذا قد أساءت إلى إلينور ، واستهانت بها بل قست عليها ، كما خشيت أن تكون محنة مريان — لأنها محنة ثابتة ماثلة أمام عينها — قد استأثرت بحنانها ، وأنستها أنه ربما كان لها فى إلينور بنت تقاسى من الآلام ماتكاد تقاسيه مريان ، ولكن من المحقق أنها تقاسيه على نحو أقل استفزازاً للنفس ، وأكثر صبرا وجلداً .

أدركت إلينور الآن الفرق بين توقع حادث مؤلم ، مهما تصور المرء أنه محقق الوقوع ، و بين الحقيقة نفسها . وتبينت الآن أنها كانت تتوقع دائماً — على كره منها — أن شيئاً ما سيحدث ليمنع زواج إدوارد من لوسى ، طالما بقى هو أعزب ، وأنه قد يحدث مايهيىء أسباب السعادة للجميع ، كأن يقرر إدوارد العدول عن هذا الزواج ، أو يتوسط لديه بعض الأصدقاء ، أو ينتظر هو سنوح فرصة أفضل لإعداد منزل الزوجية . ولـكن إدوارد تزوج الآن بالفعل ، فأقبلت على قلبها تعنفه لما خامره من الأمل الذى ضاعف من إيلام الخبر .

وقد اعتراها شىء من الدهشة فى بادىء الأمر لإسراعه بالزواج قبل أن ينخرط فى سلك الـكهنوت (كما كانت تتصور) وبالتالى قبل أن يظفر بالأبرشية ولـكنها سرعان مارأت أنه من المحتمل أن تـكون لوسى — ببعد نظرها وحرصها على التعجيل بالنظرية — قد تقاضت عن كل شىء إلا خطر التأجيل ، فتزوجا فى لندن وأسرعا بالسفر إلى منزل خالها . ترى ماذا كان شعور إدوارد عندما رأى نفسه على مسيرة أربعة أميال من بارتون ، وعندما رأى خادم أمها ، وعندما سمع رسالة لوسى !

وظنت أنهما سيستقران قريباً فى ديلافورد — المكان الذى تحالف كثير من الأسباب لتحملها على الاهتمام به — المكان الذى تتمنى أن تراه ، ولـكنها ترغب فى تجنبه .

وتصورتهما فى منزل الأبرشية بعد لحظة ، فرأت فى لوسى المدبرة البارعة

النشيطة التى تجمع فى وقت واحد بين الرغبة فى المظهر الأنيق ، والرغبة فى الاقتصاد الشديد ، وتخجل من أن تتهم بنصف ما تراعيه من ضروب الاقتصاد ، وتبتغى مصلحتها فى كل فكرة ، فتخطب ود كولونيل براندون ومسز جننجز ، وكل صديق ثرى . أما إدوارد فلم تدر ماذا تتصوره ، ولا ماتتمنى أن تتصوره — سعيد أو غير سعيد — ولم يسرها شىء — فأعرضت عن التفكير فى تصويره .

وأخذت إلينور تمنى نفسها بأن أحد أقاربهن فى لندن سيوافيهن بالخبر ، ويقدم لهن معلومات أوفى ، ولكن مر يوم فى إثر يوم ، ولم يرد خطاب ولا خبر ، فأخذت تنحى باللائمة على كل صديق غائب ، وإن لم تقطع بأنه يستحق اللوم ، وتتهمه بعدم الاهتمام أو الكسل .

وسألت أمها : « متى تكتبين لكولونيل براندون يا أماه ؟ » وكان هذا السؤال منبعثا من لهفتها على سماع شىء جديد .

« كتبت له ياحبيبتى فى الأسبوع الماضى ، وآمل أن أراه لا أن أتلقى منه خطابا مرة أخرى . لقد ألححت عليه فى الحضور إلينا . ولن أدهش إذا زارنا اليوم أو غداً أو أى يوم آخر » .

وكان هذا يعد خبراً جديداً وأملا جديراً بالتطلع إليه ، لأن كولونيل براندون سيحمل معه لامحالة بعض الأنباء .

وما أن جزمت بذلك حتى لاح لها شبح رجل يمتطى جوادا ، فاتجه نظرها إلى النافذة . ووقف الرجل عند الباب . كان رجلا ، كان هو كولونيل براندون نفسه . الآن ستسمع منه المزيد ، فارتعدت لما توقعت سماعه . ولكن لم يكن هو

كولونيل براندون ـ لاهيئته ـ ولاطوله . لوجاز لها أن تقول شيئاً ، لقالت إنه إدوارد . أعادت النظر . لقد ترجل لتوه . لقد صدق ظنّها ـ فقد كان هو إدوارد . ابتعدت عن النافذة وجلست « لقد جاء من منزل مستر برات بقصد زيارتنا ، فلأُ نّدرع برباطة الجأش ، فلأَ ضبط النفس » .

ورأت بعد لحظة أن أمها ومريان شعرتا بخطأ ظنهما ، ولاحظت أنه قد امتقع لونهما ، وأنهما ينظران إليها وتتهامسان ببعض العبارات ، وودت لو استطاعت أن تتكلم ، وأن تفهمهما أنها ترجو ألا يظهر فى سلوكهما نحوه ، ما يشعر بالفتور أو الاستخفاف ، ولكنها لم تستطع أن تنبس ببنت شفة ، واضطرت أن تترك كلا منهما تتصرف بحسب مايتراءى لها .

ولم يرتفع صوت بالكلام ، بل انتظر الجميع حضور الزائر ، وسمعن وقع قدميه على الطريق المفروش بالحصباء ،وما هى إلا لحظة حتى كان فى الدهليز ، و بعد لحظة كان أمامهن .

ولم يكن وجهه عند دخول الحجرة ينم على شدة السرور حتى بلقاء إلينور . كان وجهه شاحباً من الاضطراب ، وبدا عليه وكأنه يتوجس خيفة من سوء الاستقبال ، و يشعر أنه لايستحق استقبالا كريماً . ولكن مسز داشوود استقبله بنظرة تدل على السرور المصطنع ، ومدت يدها إليه ، ورحبت به ، وذلك نزولا ـ كما اعتقدت ـ على رغبة بنتها ، لأنها اعتزمت فى قرارة نفسها حينئذ أن تسترشد برأيها فى كل شىء .

فتغير لونه ، وتمتم بجواب غير مفهوم ، وتحركت شفتا إلينور مع شفتى أمها .

وعندما انتهت لحظة الاستقبال تمنيت لو كانت صافحته هي أيضاً . ولكن الأوان كان قد فات . وبوجه يريد أن يكون طلقا جلست مرة أخرى ، وتحدثت عن الطقس .

واحتجبت مريان بقدر الإمكان عن الأنظار لتخفي ألمها . وكانت مرجريت تفهم بعض القضية لا كلها فرأت من الواجب أن تلتزم الوقار ، فجلست بعيداً عنه بقدر الإمكان ، والتزمت الصمت الشديد .

ولما فرغت إلينور من إبداء سرورها بجفاف الجو في هذا الفصل حدث صمت رهيب ، ووضعت مسز داشوود نهاية لهذا الصمت ، لأنها شعرت أنه يجب عليها أن تعرب عن رجائها أن يكون قد ترك مسز فيرارز في صحة طيبة .

فأجاب بالايجاب بلهجة سريعة .

ثم ساد الصمت مرة أخرى .

واعتزمت إلينور أن تحاول الكلام ، وإن خشيت أن يرتفع رنين صوتها فقالت :

« هل مسز فيرارز في لونجستيبل ؟ »

فأجاب بلهجة الدهشة « في لونجستيبل ! كلا ، إن أمي في لندن » .

فقالت إلينور : وقد رفعت بعض الشغل من المائدة : « أريد أن أسأل عن مسز إدوارد فيرارز » .

ولم تجرؤ أن ترفع بصرها ، ولكن كلا من أمها ومريان سلطتا نظرهما عليه فتغير لونه وبدا عليه الارتباك ونظر نظرة للرتاب وقال بعد تردد :

« لعلك تريدينى — تريدين مسز — مسز روبرت فيرارز » .

فرددت مريان وأمهـــا بلهجة تنم على أعظم دهشة « مسز روبرت فيرارز » !

ومع أن إلينور لم تستطع الكلام فإن عينيها انعقدتا عليه بنفس الدهشة واللهفة . فنهض من مقعده ، وسار إلى النافذة ، والظاهر أنه لم يدر ماذا يفعل وتناول مقصا موضوعا عليها وبينما أتلف القص وغلافه بأن مزق الأخير إرباً وهو يتكلم ، قال بلهجة سريعة :

« لعلك لاتعلمين — ربما لم تسمعى أن أخى تزوج أخيراً — الصغرى — مس لوسى ستيل » .

وردد الجميع كلماته بدهشة يقصر دونها الوصف ماعدا إلينور التى جلست وقد حنت رأسها على الشغل فى حالة من الاضطراب جعلتهـــا لاتدرى أين هى .

قال : « نعم ، تزوجا فى الأسبوع الماضى ، وهما الآن فى دولش » .

ولم تستطع إلينور الجلوس أكثر من ذلك . وكادت تجرى من الحجرة ، وما أن أغلقت الباب حتى بكت من الفرح الذى ظنت بادىء الرأى أنه لن

ينقطع أبداً . ورآها إدوارد الذى كان حتى الآن ينظر فى كل مكان إلا إليها ، تسرع بالخروج ، وربما رأى ـ أو سمع ـ بكاءها لأنه لم يلبث أن استغرق فى طوفان فى أحلام اليقظة لم تستطع كلمات مسز داشوود أن تقطعها ، لاهى ولا أسئلتها ولا حديثها الودى . وأخيراً ـ وبدون أن يتفوه بكلمة — غادر الحجرة ، وســـار صوب القرية — تاركا إياهن فى أعظم دهشة وحيرة لمثل هذا التغير العجيب المفاجىء الذى طرأ على موقفه ـــ حيرة لم يجدن سبيلا للتقليل منها إلا بالحدس والتخمين .

الفصل التاسع والأربعون

كان من المحقق أن إدوارد أصبح طليقاً ، على الرغم من أن أفراد الأسرة جميعاً لم يستطعن فى الظاهر تعليل ذلك . وكان من السهل أن يعرف الجميع الغرض الذى يستخدم فيه هذه الحرية ، لأنه بعد أن عرف مزايا الخطبة الطائشة التى عقدها بدون موافقة أمه منذ أكثر من أربع سنوات كان أقل ما ينتظر منه فى حالة فشل هذه الخطبة أن يعقد خطبة أخرى من فوره .

والواقع أن مهمته فى بارتون كانت مهمة بسيطة . لم تكن إلا ليسأل إلينور أن تتزوجه . وإذا علم أنه لم يكن عديم الخبرة فى هذا الأمر فربما كان من الغريب أن يشعر بالحرج أو الارتباك كما حدث فى الحالة الراهنة ، وأن يكون فى حاجة إلى التشجيع والهواء النقى .

على أنه لا حاجة بنا إلى ذكر كيف أقدم على هذا القرار ومتى سنحت له الفرصة لتنفيذه ، ولا بأى لهجة أعرب عن قصده ، ولا كيف تم استقباله .

وكل ما يمكن أن يقال هو هذا : عندما جلسن جميعاً إلى المائدة فى الساعة الرابعة بعد وصوله بنحو ثلاث ساعات ظفر بزوجته ، وحصل على موافقة أمها . ولم يعرب عن حبه بلهجة تدل على نشوة الطرب فحسب ، بل لقد كان فى نظر العقل والحقيقة واحداً من أسعد الناس . والواقع أنه كان يشعر بسرور غير عادى إذ كان يشعر بأكثر من نشوة الانتصار العادى التى يشعر بها من ظفر برضاء محبوبته ، وهو الأمر الذى أنعم قلبه بالسرور ، ورفع من روحه المعنوية . لقد

فسخت الخطبة دون أن يشعر بشيء من وخز الضمير ، وتحرر من الأغلال التي كانت علة شقائه ، من امرأة نفر قلبه منها منذ زمن طويل ، وسما في الحال إلى كنف أخرى يشعر في ظلها بالطمأنينة التي لاشك أن كاد يقطع الأمل منها بمجرد أن تاقت نفسه إليها . وتجلى هذا التغيير بجلاء على وجهه الذي تألق بالبشر والسرور على نحو لم يشهده أصدقاؤه من قبل .

ثم فتح قلبه لإلينور واعترف بكل عيوبه وأخطائه ، وتحدث عن محبته الصبيانية للوسي بالوقار الفلسفي الذي يليق بسن الرابعة والعشرين .

قال : « كان حبا طائشا باطلاً من جانبي ، نشأ عن جهلي بأحوال الدنيا — وعن البطالة . ولو أن أمي أتاحت لي مهنة تشغل وقتي عندما بلغت الثامنة عشرة وخرجت من كنف مستر برات لما حدث هذا قط فيما أظن ، بل فيما أعتقد ، لأنه على الرغم من أني غادرت لونجستيبل وأنا أشعر بحب جارف لابنة أخته حسبما كنت أعتقد حينئذ ، فإنه لو كان لي مهنة أو عمل يشغل وقتي ، ويبعدني بضعة شهور ، لنسيت هذا الحب عاجلاً ، ولا سيما إذا اختلطت بالناس وهو أمر لم يكن منه بد في تلك الحالة . ولكن بدلاً من أن يكون لي عمل أزاوله — بدلا من أن تختار لي أمي مهنة أمارسها أو تسمح لي باختيارها ، عدت إلى منزلي لأعيش في بطالة تامة . وظللت طول السنة الأولى بعد ذلك لا أجد حتى هذا العمل الاسمي ألا وهو الالتحاق بالجامعة ، إذ أني لم ألتحق بأكسفورد إلا حينما بلغت التاسعة عشرة . ولذلك لم أجد في العالم عملا أزاوله إلا التفكير في الحب . ولما كانت أمي لا توفر لي أسباب الراحة في منزلي وكنت لا أجد صديقا أو رفيقا في أخي ، وأكره التعرف إلى أي صديق جديد ، كان من الطبيعي أن

اختلف إلى لونجستيبل حيث أشعر بأنى بين أهـلى وعشيرتى وأنزل بينهم على الرحب والسعة ، ولذلك قضيت معظم وقتى هناك من سن الثامنة عشرة إلى التاسعة عشرة . وكانت لوسى تغمرنى بلطفها وكرمها ، وكانت وسيمة المحيا أيضا ، أو هذا ما اعتقدته على الأقل حينذاك . ولم تـكن لى خبرة بالنساء ، فلم أستطع أن أقارن بينها وبين غيرها ، ولم أر عيباً من عيوبها . و إذا روعيت جميع الاعتبارات فأرجو — على الرغم من أن هذه الخطبة كانت ضربا من الحماقة منذ عقدها — ألا يظن أن هذه الحماقة كانت فى ذلك الوقت أمراً يتنافى مع طبيعة البشر أو ذنبا لا يغتفر .

وكان التغيير الذى أحدثته بضع ساعات فى نفوس آل داشوود وسعادتهن كبيراً — كبيراً جداً — إلى حد ينبيء بأنهن جميعا سيتمتعن بليلة ساهرة . واستبد الفرح بمسز داشوود حتى شملتها الحـــيرة ، فلم تدر كيف توفى إدوارد حقه من الحب ، ولا كيف توفى إلينور حقها من الثناء ، ولا كيف تعرب عن شـكرها لتخلصه من تلك الخطبة مع الاحتفاظ بـكرامته ، ولا كيف تتيح لهما الفرصة ليتجاذبا أطراف الحـديث فى حرية تامة ، وتنعم فى الوقت نفسه — كما كانت تتمنى — برؤيتهما والاجتماع معهما .

أما مريان فلم تستطع أن تعبر عن سعادتها إلا بالدموع ، وكانت تعقد المقارنات تارة وتشعر بالأسى تارة أخرى . ومع أن فرحها كان صادقا كحبها لأختها ، فإنه كان قويا إلى حد لا يمـكن التعبير عنه بالبشر أو الـكلام .

ولـكن إلينور — كيف يمـكن وصف شعورها ؟ — لقد انتابتها منذ اللحظة

الأولى التي علمت فيها بزواج لوسي من شخص آخر ، وأن إدوارد قد فارقها ، إلى اللحظة التي تلت ذلك مباشرة والتي حقق فيها إدوارد أمله — جميع ألوان الشعور إلا الشعور بالطمأنينة . ولكن حينما انقضت اللحظة الثانية ، وحينما وجدت أن كل شك وكل قلق قد زال ، وقارنت حالها بما كان عليه أخيراً ، ورأت أنه تخلص بطريقة شريفة من خطبته السابقة ، ورأت أنه بادر بالانتفاع من هذا الخلاص فتحدث إليها وأفضى لها بما يكنه من حب رقيق دائم على نحو ما كانت تظن من قبل — غمرتها نشوة الشعور بالسعادة والهناءة ، وقضت عدة ساعات حتى استرد عقلها رزانته ، وقلبها طمأنينته على الرغم من أن النفس الانسانية تألف بسهولة التغير إلى الأحسن .

ثم تقرر أن يبقى إدوارد فى المنزل الريفى أسبوعا على الأقل لأنه من المستحيل — برغم مشاغله الأخرى — أن يكفى أقل من أسبوع حتى يتمتع برؤية إلينور ، ويقول نصف ما يجب أن يقال عن الماضى والحاضر والمستقبل ، فإنه على الرغم من أن أى شخصين عاقلين يستطيعان — إذا انهمكا فى حديث متواصل بضع ساعات — أن يبحثا من الموضوعات المشتركة أكثر مما يمكن بحثه فى العادة ، فإن أمر العاشقين يختلف عن ذلك ، إذ لا يكاد ينتهى الحديث بينهما حتى يعاد عشرين مرة على الأقل . وكان زواج لوسى أول ما تحدث فيه العاشقان بالطبع ، كما كان مثاراً للدهشة التى لا تنقطع والتى لها ما يبررها . وكانت معرفة إلينور الخاصة بكل من الزوجين من الأمور التى جعلت هذا الزواج يبدو فى نظرها من كل الوجوه من أغرب ما سمعت من الحوادث التى يحار العقل فى تعليلها . فلم تستطع أن تفهم كيف التقى الزوجان ولا الإغراء الذى جذب روبرت إلى الزواج من لوسى التى سمعته يتحدث

عن جمالها بدون أن يبدى أى أعجاب ، وهى فتاة كانت مخطوبة لأخيه من قبل وبسببها نبذ هذا الأخ من الأسرة . لقد كان هذا الزواج أمراً ينشرح له صدرها ، ويسخر منه خيالها ، ويحار فيه عقلها .

وكان التعليل الوحيد الذى استطاع به إدوارد أن يفسر هذا الأمر هو أنه عندما التقيا ، عرضا لأول مرة ، تملقت لوسى غروره ، وأفضى هذا شيئاً فشيئاً إلى كل ماحدث بعد ذلك . وهنا تذكرت إلينور أن روبرت سبق أن أخبرها فى هارلى ستريت بما كان يمكن أن تؤدى إليه وساطته فى مسألة أخيه لو أنها تمت فى الوقت المناسب ، فرددت ذلك على مسامع إدوارد .

فما هو إلا أن قال إدوارد : « ذلك أشبه بأخلاق روبرت تماما » ثم أردف « وربما كان ذلك فى رأسه عندما تعارفا أول مرة ، وربما لم تفكر لوسى بادىء الرأى إلا فى حمله على بذل مساعيه الحميدة لصالحى ، وربما نشأت مقاصد أخرى بعد ذلك » .

على أنه لم يدر كم دام الاتصال بينهما ، لأنه لم يكن لديه فى إ كسفورد — التى لبث فيها باختياره منذ أن غادر لندن — وسيلة لتلقى أخبارها إلا منها هى نفسها ، وكانت خطاباتها حتى اللحظة الأخيرة لاتقل فى عددها ولا فى لهجتها الودية عما عاجرت به العادة . ولذلك لم تداخله أدنى ريبة تعد ذهنه لما جرى . وأخيراً عندما برح الخفاء فى خطاب أرسلته هى نفسها ظل كالمشدوه موزعا بين العجب والهلع وبين الفرح للخلاص منها ، وألقى الخطاب إلى إلينور :

سيدى العزيز

لما كنت أعتقد أن حبك قد زال من قلبى منذ زمن طويل ، فقد رأيت نفسى فى حل من أن أسبغ حبى على شخص آخر ، وليس عندى شك فى أنى سأشعر بالسعادة معه ، كما ظننت فيما مضى أنى سأشعر بالسعادة معك . ولكنى أستنكف أن أقبل يد إنسان ، وقلبى ملك لآخر . إننى أتمنى بإخلاص أن توفق فى اختيار زوجتك . ولن يقع على اللوم إذا لم نظل على الدوام صديقين كريمين كما تقضى به صلة القربى التى تربط بيننا . وأستطيع أن أقول وأنا مطمئنة : إننى لاأضمر لك سوءا . وأنا واثقة أنك ستكون كريما فلا تسىء إلينا . استولى أخوك على كل حبى . وإذ كان أحدنا لايستطيع أن يعيش بدون الآخر فقد عدنا لتونا من المذبح ، ونحن الآن فى طريقنا إلى دولش ، لنقضى فيها بضعة أسابيع لأن أخاك يتوق كثيراً إلى رؤية هذا المكان . ولكننى رأيت أولاً أن أبعث إليك بهذه السطور القليلة وسأظل دائما

صديقتك وأختك المخلصة التى تحب لك الخير

لوسى فيرارز

لقد أحرقت جميع خطاباتك وسأرد الصورة عند سنوح أول فرصة . أرجو أن تحرق خطاباتى — ولكن أرحب بأن تحتفظ بخاتمى وخصلة شعرى .

فقرأت إلينور الخطاب وأعادته إليه دون تعليق .

قال إدوارد : «لن أسألك عن رأيك فى إنشائه . وما كنت لأطلعك فى الأيام

الماضية على أى خطاب منها . إنه قبيح جدا فى حالة الزوجة ! كم خجلت عندما قرأت الصفحات التى خطتها بيمينها ! — وأنا أعتقد أن فى وسعى أن أقول هذا هو أول خطاب تلقيته منها منذ أن نشأ بيننا هذا الحب الأحمق ، يكفر مضمونه عن سيئات أسلوبه .

قالت إلينور ، بعد أن أطرقت هنيهة : « كيفما كان الأمر ، فقد تزوجا بالفعل ، وجلبت أمك على نفسها أنسب عقاب لها ، فالثروة التى وهبتها روبرت — بسبب استيائها منك — مكنته من أن يختار زوجته كما يشاء ، فكأنها رشت بالفعل أحد أولادها بألف جنيه فى العام ليأتى نفس الشىء الذى حرمت ابنها الآخر من الأرث لأنه كان ينوى أن يفعله . وأظن أنه لن يسوءها زواج روبرت من لوسى كما كان يسوؤها زواجك منها . »

« سيسوؤها ذلك أكثر لأنها كانت تحب روبرت دائما — سيسوؤها ذلك أكثر ، ولأنها تحبه ستعفو عنه عاجلا » .

ولم يدر إدوارد حقيقة الحال بينهما فى ذلك الوقت الراهن ، لأنه لم يحاول الاتصال بأى فرد من أفراد أسرته حتى ذلك الوقت ، فقد غادر إكسفورد فى غضون أربع وعشرين ساعة بعد وصول خطاب لوسى ، وإذ كان هدفه الوحيد هو سلوك أقرب طريق إلى بارتون فإنه لم يجد متسعا للتفكير فى أية خطة أخرى لاتمت بصلة للمهمة التى من أجلها سلك هذا الطريق . ولم يكن فى وسعه أن يفعل أى شىء آخر حتى يتأكد من مصيره مع مس داشوود . كان يعتقد أنه إذا أسرع فى السعى إلى معرفة هذا المصير ، فإنه على العموم لن يلقى استقبالا قاسيا جدا على الرغم من الغيرة التى داخلته يوما ما من كولونيل براندون ، وعلى الرغم من تواضعه فى تقدير مواهبه ، والأدب الذى يتحدث به عن شكوكه . وكان عليه

أن يفصح عن رغبته ، وفعلا أفصح عنها بأسلوب جميل . أما ما يحتمل أن يقوله عن الموضوع بعد عام آخر فهو متروك لخيال الأزواج والزوجات .

وقد اتضح لإلينور بجلاء أن لوسى قصدت إلى الخداع والتنفيس عن حقدها عليه فى الرسالة التى بلغتها توماس . والآن وقد عرف إدوارد أخلاقها ، لم يصبح لديه شك فى أنها فتاة تتصف بالخسة وخبث الطوية . ومع أن عينيه قد تفتحتا منذ زمن طويل - حتى قبل أن يعرف إلينور - على جهلها وضيق أفقها فإنه كان يعزوهما إلى عدم تعليمها وكان يعتقد إلى أن وصله خطابها الأخير أنها فتاة رقيقة الطباع ، طيبة القلب ، وتحمل له كل الحب ، وما من شىء سوى هذا الاعتقاد ، كان يحول بينه وبين إنهاء خطبتها التى ظلت مصدراً دائما لقلقه وأسفه ، وذلك قبل أن يتكشف أمرها لأمه وتثير عليه ثائرتها بزمن طويل .

قال : « رأيت من واجبى - بصرف النظر عن شعورى - أن أخيرها بين استمرار الخطبة أو إنهائها حينما نبذتنى أمى ، وصار واضحاً أنه لاصديق لى فى العالم يشد أزرى . وفى مثل هذا الموقف الذى لايبدو فيه مايثير الطمع أو الغرور فى نفس أى إنسان ، هل يتسنى لى أن أظن حينما أصرت على مشاركتى فى مصيرى مهما كان بإلحاح وحماس شديدين أن هناك مايحملها على ذلك سوى الحب الذى لاتشوبه أية شائبة من المصلحة أو الغرض ؟ وحتى الآن لايسعنى أن أفهم الدافع لها إلى هذا الأمر ، وماالفائدة التى تصورت أنها ستعود عليها من أن تتزوج رجلا لاتكن له أدنى ذرة من الحب ولا يملك سوى ألفى جنيه فى العالم . ولم يكن فى وسعها أن تتوقع أن كولونيل براندون سيعطينى أبرشية » .

« كلا ، ربما ظننت أن شيئاً سيحدث لصالحك ، وأن أسرتك قد تعطف عليك مع مرور الزمن . وعلى أى حال لم تخسر هى شيئاً باستمرار الخطبة لأنه ثبت أنها لم تمنعها من أن تحب غيرك ، وتفعل ما تريد . وزواجها بك كان بلاشك يكسبها حسن السمعة ، وربما أكسبها الاحترام بين صديقاتها ، وإذا لم تكن هناك فائدة أخرى ، فمن الخير لها أن تتزوجك بدلا من أن تكون عزبة » .

وسرعان ما اقتنع إدوارد بالطبع بأن سلوك لوسى أمر لاغرابة فيه على الإطلاق وأنه لأقرب إلى بدائه الأمور من الدافع الذى دفعها إليه .

وعابت عليه إلينور — بنفس القسوة التى يعيب بها النساء الحاقة التى تعد من فضائلهن — لأنه قضى وقتاً طويلا معهن فى نورلاند ، كان يجب أن يشعر فيه بعدم الوفاء .

قالت : « كان مسلكك — بلاريب — خاطئا جدا لأنه — بصرف النظر عن اعتقادى الخاص — جعل أقاربنا يتصورون ويتوقعون مالم يكن فى استطاعتك أن تفعله ، نظراً للوضع الذى كنت فيه حينئذ » .

ولم يستطع أن يدافع عن نفسه بشىء إلا أنه كان لا يعرف قلبه ، وأنه أخطأ فى ثقته بخطبته .

« كنت من السذاجة بحيث ظننت أنه لاخطر فى مجالستك وصحبتك ، مادمت قد وضعت ثقتى فى امرأة أخرى . وأدركت أن معنى الخطبة هو أن أصون قلبى كما أصون شرفى . ثم شعرت بالإعجاب بك ، ولكن قلت لنفسى ليس ذلك إلا صداقة ، ولم أدر أين وصلت إلى أن بدأت أقارن بينك وبين لوسى . وأظن

أننى كنت مخطئاً بعد ذلك فى إطالة الإقامة فى سسكس وكانت الحجة التى اقنعت بها نفسى لاتخرج عن هذه الـكلمات : إن الضرر واقع على أنا . وأنا لا أضر إلا نفسى . »

فابتسمت إلينور وهزت رأسها .

وسر إدوارد عندما سمع بقرب زيارة كولونيل براندون للمنزل الريفى إذ كان يرغب فى توثيق عرى الصداقة معه وأن تتاح له الفرصة لإقناعه بأنه لم يعد مستاء لمنحه إياه أبرشية ديلافورد وقال: « من المؤكد أنه يعتقد بعد الشكر الذى قدمته بطريقة غير كريمة أننى لم أغفر له هذه الهبة قط . »

ثم أبدى هو نفسه دهشة لأنه لم يزر الأبرشية حتى الآن . ولـكنه كان قليل الاهتمام بالأمر لدرجة أنه كان يدين لإلينور بكل مايعرفه عن المنزل والحديقة والأرض وساحة الأبرشية وحالة البلاد ومقدار الشعور . وكانت إلينور قد سمعت الـكثير عنها من كولونيل براندون وسمعته باهتمام كبير حتى أصبحت حجة فى الموضوع .

بقيت بعد ذلك مسألة معلقة لم يبت فيها ، وعقبته لابد من تذليلها . لقد جمعتهما المحبة المتبادلة التى يتوجها ما أعرب عنه أصدقاؤهما المخلصون من الرضا والاستحسان ، وكانت معرفة كل منهما الوثيقة بالآخر تبشر بأنهما سيعيشان فى ظل السعادة . وكل ما كانا يحتاجان إليه هو أن يـكون لهما دخل ينفقان منه . وكان دخل إدوارد ألفين من الجنيهات ودخلها ألفا بالإضافة إلى دخل الأبرشية . وهذا كل ما يمـكن أن يقال إنهما يملـكانه ، لأنه كان من المستحيل أن تقدم لهما مسز داشوود شيئاً . ولم تـكن أواصر المحبة قد توثقت بينهما بحيث يستطيعان أن يعيشا فى رغد بثلثمائة وخمسين جنيها فى العام .

ولم يقطع إدوارد الأمل في عطف أمه عليه ، وكان يعتمد على هذا الأمل في زيادة دخله ولكن إلينور لم تعول على ذلك لأنها رأت أن زواجها بإدوارد معناه أنه لن يستطيع أن يتزوج من مس مورتون ، وأن أمه أثنت على اختياره لها بأنه أخف ضرراً من اختيار لوسي ، ولذلك خشيت أن جريمة روبرت لن تخدم أي غرض آخر سوى إثراء فاني .

وصل كولونيل براندون بعد أربعة أيام من وصول إدوارد ، ليتم فرحة مسز داشوود ، و يوليها شرف استقبال المزيد من الأصدقاء الذين زاد عددهم — لأول مرة منذ إقامتها في بارتون — عما يتسع له المنزل ، فتقرر أن يحتفظ إدوارد بميزة الزائر الأول ، ولذلك كان كولونيل براندون يمشي كل ليلة إلى مسكنه في البارك ثم يعود في الصباح المبكر ليقطع على العاشقين أول حديث لهما قبل طعام الفطور .

وكان كولونيل براندون قد قضى ثلاثة أسابيع في ديلافورد حيث كان عمله الوحيد في ساعات المساء على الأقل — وتقدير عدم التناسب بين سن الست والثلاثين ، وسن السابعة عشرة ، ثم قدم إلى بارتون وهو في حالة نفسية سيئة لا يزيلها إلا نظرات ميريان الحانية ، واحتفاؤها بمقدمه ، وكلمات أمها المشجعة . وقد سري عنه عندما اجتمع بهؤلاء الأصدقاء ، وسمع منهم كلمات الثناء . ولم يكن قد بلغه نبأ زواج لوسي ، ولا يدري شيئاً عما حدث . وقضى الساعات الأولى من زيارته وهو يستمع ويتعجب ، وشرحت له مسز داشوود كل شيء ، ووجد أسبابا جديدة تحمله على السرور بما أسداه لمستر فيرارز ، لأنه سيعود في النهاية بالفائدة على إلينور .

ولا حاجة بنا إلى القول إن الرجلين ازداد تقدير كل منهما للآخر بازدياد تعارفهما ، وما كان الأمر ليكون بخلاف ذلك لأن تشابههما فى المبادىء الطيبة ، وفى حسن الإدراك ، وفى الطباع وطريقة التفكير ، كان كافيا لتوثيق عرى الصداقة بينهما دون أى داع آخر . ولكن حبهما لأختين ، وحب كل أخت للأخرى ، جعل الحب المتبادل بينهما أمراً محتما وعاجلا ولولا ذلك لكان من المحتمل أن يكون هذا الحب رهنا بالزمن والرأى الشخصى .

ووصلت من لندن خطابات لو كانت وصلت قبل ذلك بأيام قلائل لاهتزلها كل عرق ينبض فى جسم إلينور فرحاً وسروراً ، ولكنها قرأتها الآن بفتور . كتبت مسز جننجز لتحكى القصة العجيبة ، وتصب جام سخطها على الفتاة الخادعة ناكثة الود ، وترثى لحال إدوارد المسكين الذى أحب هذه الفتاة السليطة التافهة ، وأصبح بشهادة الجميع كسير القلب فى اكسفورد واستطردت « أعتقد أنه لم يحدث قط مثل هذا الخداع والمكر لأنه منذ يومين فقطزارتنى لوسى وجلست معى ساعتين، ولم تخامرنى أدنى ريبة ولا نانسى نفسها ، وهى التى جاءتنى ــ وارحمتاه لها ! تصرخ وتبكى فى الغد وهى فى فزع شديد خوفا من مسز فيرارز ــ ولاتدرى كيف تصل إلى بليموث ، لأنه يبدو أن لوسى اقترضت كل نقودها قبل أن تتوجه لعقد قرانها لكى تنفقها على زينتها فيما أظن ،وليس مع نانسى المسكينة من الدنيا سبعة شلنات ــ لذلك سرنى أن أعطيها خمسة جنيهات لتسافر بها إلى اكسفورد حيث تقيم مع مسز بيرجس ثلاثة أو أربعة أسابيع رجاء أن تلتقى بالدكتور مرة أخرى . ويجب أن أقول إن امتناع لوسى عن أخذها معهما فى العربة هو أسوأ ما فى الأمر ــ مسكين مستر إدوارد ! إن ذكراه لاتبرح فؤادى ، ولكن يجب أن نستدعيه إلى بارتون ، كما يجب على مس مريان أن ترفه عنه . »

أما خطابات مستر داشوود فكانت أقرب إلى الجد . قال : إن مسز فيرارز هي أتعس النساء ، وإن فاني المسكينة عانت آلاما مبرحة بسبب إحساسها المرهف وأبدى دهشته لحياتهما بعد تلقى هذه الضربة ، وحمد الله على ذلك . وكانت جريمة روبرت لاتغتفر أما جريمة لوسى فهى أدهى وأمر . وليس من الممكن أن يجرى ذكر أحدهما أمام مسز فيرارز مرة أخرى وحتى إذا أغراها أحد بالعفو عن ابنها في المستقبل ، فلن تعترف بأن زوجته هى أبنتها ، ولن تسمح لها بالظهور في حضرتها . وقد زادت السرية التى أتما بها زواجهما من فظاعة الجريمة لأنه لو أحس الآخرون بأدنى شبهة أوريبة لاتخذوا الإجراءات المناسبة لمنع الزواج . وأهاب بإلينور أن تشاركه الأسف لأنه كان من الخير ألا تتم خطبة إدوارد ولوسى حتى لاتكون الأخيرة سببا لزيادة شقاء الأسرة ، واستطرد يقول:

« لم تذكر مسز فيرارز اسم إدوارد حتى الآن ، وهو أمر لايدهشنا ولكن مما يدعو إلى مزيد الدهشة أننا لم نتلق من إدوارد خطابا في هذا الشأن ، ولعل الذى دعاه إلى الصمت هو خوفه من إغضاب الأسرة ، ولذلك فإنى سأكتب إليه في اكسفورد كلمة موجزة أشير فيها إلى أننى وأخته نعتقد أن خطابا يبدى فيه فروض الطاعة اللائقة ، ويوجهه إلى فانى التى تتولى إطلاع أمه عليه سيكون له وقع جميل في النفوس ، لأننا جميعا نعرف حنان مسز فيرارز ورقة قلبها ، وأنها لاتتمنى شيئاً أكثر من أن تكون على وفاق مع أولادها .

وكانت هذه الفقرة ذات أهمية بالنسبة لمستقبل إدوارد وسلوكه ، إذ حملته على محاولة إصلاح ذات البين وإن لم يكن على نحـــــو ما أشار إليه أخوهما وأختهما .

فردد : « خطاب يتضمن فروض الطاعة اللائقة ! » هل يريدان منى أن ألتمس

من أمى العفو عن جحود روبرت لها ، والإخلال بالشرف فى حقى — لايمكن أن أقـدم فروض الطاعة — إننى لم أشعر بالخضوع أو الندم بسبب ماجرى . بل أصبحت أشعر بالسعادة الـكبرى ، ولـكن هذا لايهم . أنا لاأعرف شيئاً من فروض الطاعة التى يليق بى أن أقدمها » .

فقالت إلينور : « جدير بك أن تسأل العفو لأنك أسأت — وأظن أنه يحسن بك الآن أن تعرب عن قلقك لعقد هذه الخطبة التى جلبت عليك غضب أمك » .

فوافق على ذلك .

« وعندما تعفو عنك قد يكون من المناسب أن تبدى قليلا من الخضوع أثناء اعترافك بالخطبة الثانية التى تكاد تبدو فى نظرها هى حمقاء كالخطبة الأولى .

ولم يعارض فى ذلك ، ولـكنه ظل يعارض فـكرة الخطاب الذى يقدم فيه فروض الطاعة اللائقة . وتيسيراً للأمر رئى بعد أن أبدى استعداده لتقديم فروض الطاعة باللسان لا بالـكتابة أن يتوجه إلى فانى ، ويطلب إليها أن تشفع له لدى والدته » وقالت مريان بصراحتها الجديدة : إذا اهتم جون وفانى بإصلاح ذات البين فسأعتقد أنهما لا يخلوان من الفضل تماما . »

وبعد أن قضى كولونيل براندون فى زيارتهن مالا يزيد على ثلاثة أيام أو أربعة غادر بارتون مع إدوارد على أن يسافرا إلى ديلافورد مباشرة حتى يتسنى لإدوارد أن يعرف مسكنه الجديد بنفسه ، ويساعد ولى نعمته وصديقه فى تعزيز الاصطلاحات المطلوبة ، وبعد أن يقضى بها إدوارد يومين يتوجه إلى لندن .

الفصل الخمسون

بعد أن أبدت مسز فيرارز من المعارضة الشديدة الثابتة ماينفى عنها الوصمة التى كانت تخشى دائماً أن تتهم بها وهى فرط الحنان ،سمحت لإدوارد بالدخول عليها ، واعترفت ببنوته مرة أخرى .

وكانت الأحوال قد تقلبت بأسرتها كثيراً فى الأيام الأخيرة ، فقد عاشت هى عدة سنوات ولها ولدان ، ولكن جريمة إدوارد ونبذه من الأسرة منذ بضعة أسابيع حرمتها من أحد الولدين ، ثم عادت فنبذت روبرت كذلك لمدة أسبوعين ، فأصبحت محرومة من الولدين ، والآن وقد ردت الحياة إلى إدوارد فقد أصبح لها ولد واحد .

وعلى الرغم من أنها سمحت له بالحياة مرة أخرى ، لم يشعر هو بالطمأنينة إلى استمرار هذه الحياة ، حتى يكاشف أمه بخطبته الحالية لأنه كان يخشى إذا ذاع نبؤها أن تثور عليه وتنبذه ، كما فعلت من قبل . ولذلك كاشفها بالأمر فى حـــذر مقرون بالخوف ، واستمعت له بهدوء لم يكن متوقعا . وحاولت مسز فيرارز فى البداية أن تثنيه بالمنطق عن الزواج من مس داشوود بكل حجة أمكنتها ، فقالت له : إن مس مورتون فتاة ذات حسب ومال ، وعززت قولها بأنها ابنة أحد النبلاء ، وأن ثروتها تقدر بثلاثين ألفا من الجنيهات ، فى حين أن إلينور بنت رجل عادى لاتزيد ثروتها على ثلاثة آلاف جنيه . وعندما رأت أنه مع تسليمه بصحة حججها لايميل بأى حال إلى الأخذ بها ، وجدت من الحكمة أن تنتفع بتجربة الماضى ، وتذعن للأمر . وعلى ذلك أصدرت

قرارها بالموافقة على الزواج إدوارد و إلينور بعد أن أبدت كثيراً من الأرجاء غير الكريم الذى يرجع إلى شعورها بالإباء والكرامة ، وحرصها على نفى كل شبهة فى أنها تضمر الحب لها .

ثم جرى البحث بعد ذلك بما تلتزم هى به تجاه زيادة دخلهما ، وهنا اتضح بجلاء أنه وإن كان إدولرد هو ابنها الوحيد الآن ، فإنه لايعد بأى حال أكبر أولادها . وإذا كانت قد وهبت روبرت ألف جنيه فى العام هبة لارجوع فيها لم تبد أدنى معارضة فى رسامة إدوارد حتى يتسنى له أن يحصل على مئتين وخمسين جنيها على الأكثر . ولم تتعهد بشىء فى الحاضر أو المستقبل أكثر من عشرة آلاف جنيه وهبتها له بالاشتراك مع فانى .

على أن ذلك كان كل مايريده ، بل أكثر مما توقعه ، إدوارد وإلينور ، و بدا من الأعذار التى تمحلتها مسز فيرارز أنها هى الشخص الوحيد الذى دهش لأنها لم تعطهما أكثر من ذلك .

والآن وقد حصلا على الدخل الذى يكفى حاجاتهما ، لم يكن ثمة داع للانتظار بعد أن يستولى إدوارد على الأبرشية إلا إعداد المنزل الذى كان كولونيل براندون يجرى فيه إصلاحات كبيرة رغبة فى تهيئة وسائل الراحة لإلينور . و بعد أن انتظرت إلينور بعض الوقت حتى تتم هذه الإصلاحات ، و بعد أن ذاقت كما هى العادة مرارة الخيبة والإرجاء ألف مرة بسبب ما أبداه العمال من بطء يحار العقل فى تعليله . عدلت — كما هى العادة — عما اعتزمته أولا بصفة قاطعة من عدم الزواج إلا بعد إعداد كل شىء ، فتم عقد القران فى كنيسة بارتون فى أوائل الخريف .

وقضيا الشهر الأول بعد زواجهما مع صديقهما فى دار المزرعة ، ومن هناك أتيح لهما أن يشرفا على سير العمل فى منزل الأبرشية ، و يشيرا بما يريان عمله فى الحال ، كأن يختارا الورق ، و يختطا الأشجار ، ويخترعا « شادوفا » لرفع الماء . وتحققت نبوءة مسز جننجز على ما فيها من تخليط ، لأنها استطاعت أن تزور إدوارد وزوجته فى أبرشيتهما قبل عيد الملاك ميخائيل ، ورأت فى إلينور و إدوارد — كما كانت تعتقد بالفعل — زوجين من أسعد الأزواج فى العالم . ولم يكن ثمة مايتمنيانه سوى زواج كولونيل براندون ومريان، ومرعى طيب لأبقارهما.

وزارهما عقب استقرارهما فى منزلهما الجديد لأول مرة سائر أقاربهما وأصدقائهما . وقدمت مسز فيرارز لتفقد السعادة التى كادت تشعر بالخجل لأنها وافقت عليها ، بل تجشم آل داشوود عناء السفر من سسكس تكريما لهما .

قال جون لأخته — بينما كانا يسيران صباح ذات يوم أمام أبواب ديلافورد هاوس : « لن أقول يا أختى إننى أشعر بخيبة الأمل ، فالقول بذلك يكون ضربا من المبالغة ، فأنت على التحقيق من أسعد الفتيات حظا فى الواقع ونفس الأمر ، ولكنى أعترف أنه يسعدنى كثيراً أن أسمى كولونيل براندون صهراً . فأملاكه هنا ومركزه ومنزله ، بل كل شىء يبعث على الاحترام ، و يدل على جلالة قدره — وأشجاره ! — لم أشاهد فى أى مكان فى دورستشاير من الأشجار ما أراه الآن فى ديلا فوردها نجر ! وربما لم تكن مريان هى المرأة التى تستهويه تماما ، ولكنى أعتقد أنه يحسن بك أن تغريهما بإطالة المكث عندك ؛ لأنه متى شعر كولونيل براندون أنه بين أهله وعشيرته دون أية كلفة ، فلا يدرى أحد ماذا عسى أن يحدث — فالناس متى خلا بعضهم إلى بعض وغفلت

عنهم أعين الرقباء — وفى وسعك دائما أن تزينيها أكل زينة ، وماشابه ذلك — بالاختصار يحسن بك أن تهيئى لها الفرصة — أنت تفهميننى . »

ولكن على الرغم من أن مسز فيرارز جاءت إليهما بالفعل لتزورهما وتصنعت إظهار المودة لهما ، فإنهما لم يشعرا بأدنى إهانة عندما كشفت النقاب عن حبها الحقيقى ، وكان هذا الحب يرجع إلى حماقة روبرت ، ومكر زوجته ولم تنقض عدة شهور حتى ظفرا بهذا الحب . وكانت فطنة امرأته الأنانية التى استدرجته فى البداية للوقوع فى الشرك هى الأداة الكبرى التى خلصته من هذا الحرج ، لأنها بما أبدته من التذلل المقرون بالاحترام والتودد المقرون بالاهتمام ، والتملق الذى لانهاية له استطاعت بمجرد أن سنحت لها أدنى فرصة أن تسميل قلب مسز فيرارز ، وتحملها على الرضا عنه والعطف عليه .

و يمكن أن يُعد مسلك لوسى فى هذا الأمر ، والثراء الذى ترتب عليه ، مثلا مشجعاً للغاية لما يمكن أن يؤدى إليه الحرص الشديد على المصلحة الشخصية — مهما ظهر من العقبات فى سبيله — من الحصول على أسباب الثراء دون أن يضحى الإنسان بشىء اللهم إلا بوقته وضميره . وعندما سعى روبرت إلى التعرف إليها أول مرة وزارها سراً فى بارلتز بلدنج لم يكن يريد بذلك إلا ما نسبه إليه أخوه . لم يكن يريد إلاأن يحملها على فسخ الخطبة ، ولما كانت العقبة الوحيدة هى حبهما المتبادل ، فمن الطبيعى أن يتوقع أن مقابلة أو مقابلتين كفيلتان بتذليل هذه العقبة على أنه أخطأ فى هذه «النقطة » ، وفيها فقط ، لأنه على الرغم من أن لوسى منته أن بلاغته كفيلة بإقناعها على مر الزمن ، فإن الأمر تطلب دائما زيادة أخرى وحديثا آخر . حتى يتم هذا الإقناع وكلما افترقا ساورتها بعض الشكوك التى لا يمكن

إزالتها إلا بحديث آخر يستغرق نصف ساعة . وبهذه الوسيلة كانت تضطره إلى زيارتها ثم جر ذلك إلى بقية الحوادث الأخرى ، فبدلاً من أن يتحدثا عن إدوارد طفقا يتحدثان بالتدريج عن روبرت وحده ـ وهو موضوع يجب الإكثار من الحديث فيه أكثر من غيره ، وأظهرت هي من الاهتمام به ما يعادل اهتمامه ـ وبالاختصار تجلى لها بسرعة أنه حل في قلبها محل إدوارد . وكان فخوراً بهذه النزوة الغرامية ، وباحتياله على إدوارد ، وبزواجه سراً دون موافقة أمه . وما حدث بعد ذلك مباشرة معروف للجميع ، فقد قضيا بضعة شهور وهما يتفيآن ظلال السعادة في دولش ، لأنهما اضطرت أن تقاطع كثيراً من الأقارب والأصدقاء ، واضطر هو أن يضع مشروعات عديدة لإقامة منازل ريفية فخمة . ومن هناك عادا إلى لندن واستسمحا مسز فيرارز بتلك الوسيلة البسيطة التي أوعزت بها لوسى ألا وهي طلب العفو ، فوافق هو على ذلك . وكان العفو في البداية لا يشمل إلا روبرت كما هو المعقول في الواقع ، إذ أن لوسى لم تكن ملتزمة بأي واجب تجاه أمه ، ومن ثم لم يكن محل لاتهامها بأية مخالفة ، وظلت بعد ذلك بضعة أسابيع دون أن تظفر بالعفو ، ولكن مثابرتها على التذلل الذي تجلى في سلوكها ورسائلها ، وفي اعترافها بأن الذنب في جسرم إدوارد يقع عليها ، وفي تقديمها الشكر على المعاملة القاسية التي عوملت بها — أكسبتها ذلك العطف السامي الذي أسرها برقته ، والذي أدى بعد ذلك بخطاً حثيثة إلى أعلى درجة من الحب والنفوذ ، فأصبحت مسز فيرارز لا تطيق فراق لوسى كما لا تطيق فراق فاني وروبرت ، وصرحت دائماً أن لوسى هي بنتها المحبوبة في حين أنها لم تعف قط عن إدوارد عفواً صادراً من قلبها لأنه اعتزم أن يتزوج إلينور يوماً ما في حين أنها وصفت إلينور بأنها دخيلة عليهم مع أنها تفوق لوسى مالاً وحسباً ـ

ثم أقاما فى لندن ، وتلقيا كل مساعدة سخية من مسز فيرارز ، وكانا على أتم وئام يمكن تصوره مع آل داشوود ، و إذا صرفنا النظر عن الأحقاد والأضغان التى ظلت قائمة بين فانى ولوسى ، والتى اشترك فيها زوجاهما بالطبع ، والخلافات العائلية العديدة بين روبرت ولوسى ، لم يكن ثمة ما هو أعظم من الوفاق الذى عاشوا فى ظله جميعاً .

وربمـا يحار كثير من الناس فى معرفة ما صنعه إدوارد حتى فقد حق الابن الأكبر ، ولـكن ربما أثار حيرتهم أكثر ، ما صنعه روبرت حتى خلفه فى هذا الحق . والواقع أنه كان إجراء تبرره النتائج إن لم تبرره الأسباب . ذلك أنه لم يظهر قط فى أسلوب معيشة روبرت ولا فى أسلوب حديثه مايجعله يأسف على أن دخله كان كبيراً بحيث ترك لأخيه أقل من القليل ، أو أخذهو أكثر من الـكثير . و إذا جاز لنا أن نحكم على إدوارد بإقباله على أداء واجباته فى كافة الشئون ، و ازدياد محبته لزوجته وبيته ، وابتهاجه و بشره الدائم ، أمكن القول أنه لايقل عن روبرت رضاً بما قسم له ، ولا عزوفاً عن الرغبة فى استبدال حاله بحال أخيه .

ولم يفرق زواج إلينور بينها و بين أهلها إلا بأقل قدر مستطاع ، دون أن يؤدى ذلك إلى عدم الانتفاع بالمنزل الريفى ، وذلك لأن أمها وأختيها كن يقمن معها أكثر من نصف وقتهن . وكان الدافع الذى حدامسز داشوود إلى الإكثار من زيارة ديلافورد مزيجاً من السياسة والسرور ، ذلك أن رغبتها فى الجمع بين مريان وكولونيل براندون لم تـكن أقل مما أعرب عنه جون ، و إن كانت هى أكثر منه تساهلا . لقد أصبح ذلك الآن هو هدفها المنشود . فهىعلى الرغم من

حبها لصحبة بنتها ، لم تكن ترغب فى شىء رغبتها فى تقديم هذه المتعة الدائمة لصديقها للبجل وكذلك كان إدوارد و إلينور يتمنيان أن يشاهدا إلينور فى قصر المزرعة . لقد كان كل منهما يشعر بآلامه وبالمنن التى طوق بها جيدهما وكانا يجمعان على أن مريان هى جزاؤه على هذه المنن .

و إزاء هذا التحالف ضدها ــ والمعرفة الوثيقة بفضائله ــ والإيمان بحبه المستهام لها ــ ذلك الحب الذى تجلى لها أخيراً و إن تجلى لكل إنسان آخر قبل ذلك من طويل ــ ماذا كان يمكنها أن تفعل ؟

لقد ولدت مريان داشوود لتواجه مصيراً غريباً . ولدت لتتبين زيف آرائها ، لتناقض بأفعالها أحب مبادئها . ولدت لتنسى حبــــا خامرها فى وقت متأخر إلى وهو سن السابعة عشرة ، ولتقدم يدها بإرادتها إلى شخص آخر لا تكن له أية عاطفة سوى الاحترام الشديد والصداقة الحيمة ! وهذا الشخص الآخر رجل عانى مالا يقل عما قاسته هى من حب سابق ، رجل كانت ترى منذ سنتين أنه أكبر سنا من أن يصلح زوجا لها — رجل لا يزال يستعمل الصدرة الصوفية محافظة على صحته من البرد !

ولكن هكذا كان . بدلا من أن تذهب ضحية لعاطفة عارمة جارفة كما كانت تأمل نفسها بذلك يوما ما — بدلا من أن تظل ملازمة لأمها إلى الأبد ، وتجد متعتها الوحيدة فى العزلة والدراسة كما اعتزمت أن تفعل فيما بعد حينما ثابت إلى التفكير الهادىء الرزين . بدلا من ذلك كله وجدت نفسها فى سن التاسعة عشرة تستسلم لحب جديد ، وتقبل على أداء واجبات جديدة ، وتحل فى منزل جديد ، لتكون زوجة ، وربة أسرة ، وراعية قرية .

وشعر الآن كولونيل براندون بالسعادة التي يعتقد أشد الناس حبا له أنه جدير بها ، ووجد في مريان عزاء له عن كل محنة قاساها فيما مضى ، وعاد إليه المرح ، وتألق وجهه بالبشر بفضل حبها وصحبتها . وكان كل صديق يرى مسروراً أن مريان تجـــد السعادة في العمل على إسعاده . ولم تـكن مريان تجتزىء من الحب بنصفه بل كانت إذا أحبت أحبت الحب كله ، لذلك أصفت زوجها بمرور الزمن كل الحب ، كما فعلت مع ولبى من قبل .

ولم يستطع ولبى أن يسمع عن زواجها دون أن يشعر بوخز الألم . وسرعان ما لقي عقابه الـكامل في العفو الذي تطوعت به مسز سميث إذ اشترطت عليه أن يتزوج امرأة ذات خلق ، فحمله ذلك على الاعتقاد أنه لو كان سلك سبيل الشرف مع مريان لفاز بالسعادة والغنى معاً . ولا حاجة بنا إلى الشك في أن توبته من سوء السلوك الذي عوقب عليه كذلك كانت توبة صادقة ، كما أنه لا شك في أنه ظل ينظر بعين الحســـد إلى كولونيل براندون ، ويشعر بالأسف على مريان . ولـكن يجب ألا نعتقد أنه لم يجد عزاء طول حياته ، أو أنه اعتزل المجتمع ، أو أخلد إلى الـكآبة أو مات كسير القلب ، لأن شيئا من ذلك لم يحدث ، فقد عاش ليعمل ، ويتمتع بالحياة كثيراً . ولم تـكن زوجته دائمة الاكتئاب ولا حياته المنزلية تشوبها المتاعب والأكدار ، وقد وجد قدراً كبيراً من السعادة في تربية جياده وكلابه ، وفي سائر ضروب الرياضة .

أما مريان فقد ظل يحفظ لها — على الرغم مما أظهره من عدم الأدب بعد زواجها — تلك المحبة الصادقة التي جعلته يهتم بكل ما يصيبها ، وظل يعتقد في نفسه أنها مثال المرأة الـكاملة ، وكم من فتاة جميلة من الجيل الصاعد كان يهزأ بجمالها فيما تلا ذلك من الأيام بحجة أنه لا وجه للمقارنة بينها وبين مسز براندون .

وأبدت مسز داشوود من الحكمة ما جعلها تبقى على المنزل الريفي دون أن تحاول الانتقال إلى ديلافورد . ومن حسن حظ سيرجون ومسز جننجز أن مرجريت — حين اختطفت مريان منهما — بلغت سنا مناسبا للرقص ، كما كان مناسبا للحب .

وظل الاتصال الدائم — الذي أملته بالطبع المحبة العائلية القوية — قائماً بين بارتون وديلافورد . ومن مزايا إلينور ومريان ودلائل سعادتهما أنهما استطاعتا أن تعيشا — ولا تحسبن ذلك أقل هذه المزايا شأنا —دون أن ينشب خلاف بينهما ، أو يحدث نفور بين زوجيهما ، على الرغم من أنهما أختان ، وأن كل أخت تكاد تعيش بمرأى من الأخرى .

مَطبعة المعرفة
عمارة التأمين ميدان لاظوغلي
ت ٣٢٩٩٠

مطبعة المعرفة
عمارة التأمين ميدان الأزهر على
ت ٢٢٩٩٠

الثمن ٢٩ م